

العقليمة الطباطبائية

2)65

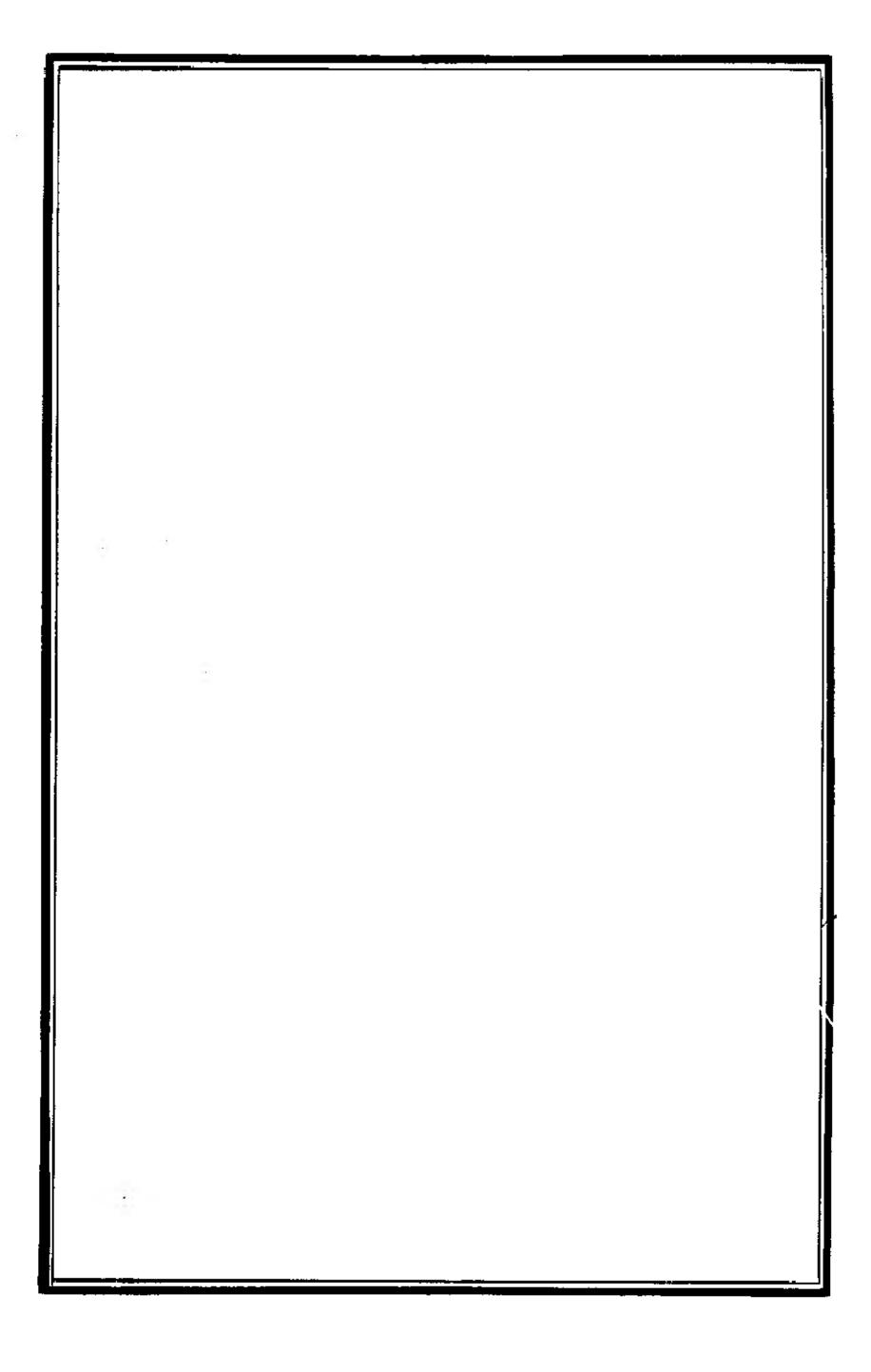
14

فاط تر فصلت

مرسسة الأعلمي



المنافية المنافئ وفي المنافئ المنافئ المنافعة ال



الزنازن في المنازي الم

كتاب علمي فني ، فلسفي ، أدبي ، تاريخي ، رواني ، اجتماعي ، حديث يفسر القرآن بالقرآن

تأليف:

العلامة اليت يدمح ترسين لطباطبا

المنافع الشافع في المنافع المن

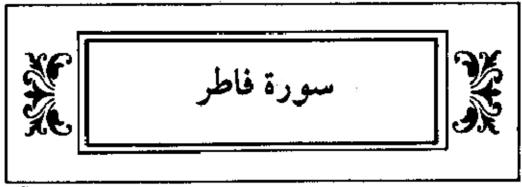
منشودات مؤمت سرالأعلى للمطبوعات بتبروت - بستنان من ب: ۲۱۲۰

الطبعة الأولى المحققة حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناشر ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧مم

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف والناشر

مؤسَّسة الاعتاجي للمطبؤعات.

بَيروت ، مَثَارِع المطسَار ، قربُ كليّة الهسَندسّة ، ملك الاعبامي .ص.ب ، ٢١٢ الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ . تلفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .



مكية ، وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

آلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمْوَاتِ وَآلْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلْئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَتُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

(بیان)

غرض السورة بيان الأصول الثلاثة : وحدانيته تعالى في ربوبيته ورسالة الرسول والمعاد إليه وتقرير الحجة لذلك وقد توسل لذلك بعد جمل من نعمه العظيمة السماوية والأرضية والإشارة إلى تدبيره المتقن لأمر العالم عامة والإنسان خاصة .

وقد قدم على هذا التفصيل الإشارة الإجمالية إلى انحصار فتح الرحمة وإمساكها وهو إقاضة النعمة والكف عنها فيه تعالى بقوله : ﴿مَا يَفْتُحُ الله للناس مَن رحمة فلا ممسك لها﴾ الآية .

وقدم على ذلك الإشارة إلى وسائط هذه الرحمة المفتوحة والنعم الموهوبة وهم المسلائكة المتوسطون بينه تعالى وبين خلقه في حمل أنواع النعم من عنده تعالى وإيصالها إلى خلقه فافتتح السورة بذكرهم .

والسورة مكية كما يدل عليه سياق آياتها ، وقد استثنى بعضهم أيتين وهما قوله

تعالى : ﴿إِنَّ الذِينَ يَتَلُونَ آيَاتَ اللهُ ﴾ الآية وقوله : ﴿ثُمَ أُورِثُنَا الْكَتَابِ الَّذِينَ اصطفينا ﴾ الآية وهو غير ظاهر من سياق الآيتين .

قوله تعنالى: ﴿الحمد لله فياطر السماوات والأرض﴾ الفيطر على ما ذكره الراغب عبي الشق طولاً فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعناية استعارية كأنه شق العدم فأخرج من بطنها السماوات والأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات والأرض إيجادا ابتدائياً من غير مثال سابق ، فيقرب معناه من معنى البديع والمبدع والفرق بين الإبداع والفطر أن العناية في الإبداع متعلقة بنفي المثال السابق وفي الفطر بطرد العدم وإيجاد الشيء من رأس لا كالصانع الذي يؤلف مواد مختلفة فيظهر به صورة جديدة لم تكن .

والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود فيشملهما وما فيهما من مخلوق فيكمون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء وإرادة الكل مجازاً، أو المراد نفس السماوات والأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما وعجيب أمرهما كما قال: ﴿لَحُلُقُ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾(١).

وكيف كان فقوله: ﴿ فَاطْرِ السَمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من أسمائه تعالى أُجريَ صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط لأن الإيجاد مستمر وفيض الوجود غير منقطع ولو انقطع لانعدمت الأشياء.

والإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل : الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض وعلى ما جعل الملائكة رسلا أولي اجنحة فهو تعالى محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل .

قوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ الملائكة جمع ملك بفتح اللام وهم موجودات خلقهم الله وجعلهم وسائط بينه وبين العالم المشهود وكلهم بأمور العالم التكوينية والتشريعية عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فقوله تعالى : ﴿جاعل الملائكة رسلاً ﴾ يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة _ والملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم _ رسلاً وسائط بينه وبين خلقه في

⁽١) ألمؤمن : ٥٧ .

إجراء أوامره التكوينية والتشريعية .

ولا موجب لتخصيص الرسل في الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء مُلِنَّكُ وقد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾(١) ، وقوله : ﴿إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾(٢) ، وقوله : ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية﴾(٣) .

والأجنحة جمع جناح وهو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان يتوسل به إلى الصعود إلى الجو والنزول منه والانتقال من مكان إلى مكان بالطيران .

فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء إلى الأرض بأمر الله ويعرج به منها إليها ومن أي موضع إلى أي موضع ، وقد سماه القرآن جناحاً ولا يستوجب ذلك إلا ترتب الغاية المطلوبة من الجناح عليه وأما كونه من سنخ غالب الطير ذا ريش وزغب فلا يستوجبه مجرد إطلاق اللفظ كما لم يستوجبه في نظائره كألفاظ العرش والكرسي واللوح والقلم وغيرها .

وقوله: ﴿ أُولِي أَجنحة مثنى وثَلاث ورباع ﴾ صفة للملائكة ، ومثنى وثلاث ورباع ﴾ الفاظ دالة على تكرر العدد أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة كأنه قيل : جعل الملائكة بعضهم ذا جناحين وبعضهم ذا ثلاثة أجنحة وبعضهم ذا أربعة أجنحة .

وقوله : ﴿ يَـزَيدُ فَيُ الْحُلَقُ مَـايشَاءَ ﴾ لا يخلو من إشعار بحسب السياق بأن منهم من يزيد اجنحته على أربعة .

وقوله : ﴿إِنْ الله على كل شيء قدير ﴾ تعليل لجميع ما تقدمه أو الجملة الأخيرة والأول أظهر .

(بحث روائي)

في البحار عن الاختصاص بإسناده عن المعلى بن محمد رفعه إلى أبي عبد الله عن البخار : إن الله عز وجل خلق الملائكة من نور ، الخبر .

وفي تفسير القمي قال الصادق عائلة : خلق الله الملائكة مختلفة وقد أتى

رسول الله مسلماء والأرض وقال إذا أمر الله عز وجل ميكائيل القطر على البقل قد ملأ ما بين السماء والأرض وقال إذا أمر الله عز وجل ميكائيل بالهبوط إلى الدنيا صارت رجله في السماء السابعة والأخرى في الأرض السابعة ، وإن الله ملائكة أنصافهم من برد وأنصافهم من نار يقولون : يا مؤلفاً بين البرد والنار ثبت قلوبنا على طاعتك .

وقال : إن لله ملكاً بعد ما بين شحمة أذنه إلى عينه مسيرة خمس مائة عمام بخفقان الطير .

وقال: إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وإنما يعيشون بنسيم العرش، وإن لله عز وجمل ملائكة العرش، وإن لله عز وجمل ملائكة سجداً إلى يوم القيامة.

ثم قال أبو عبد الله مراضع : قال رسول الله مراضي : ما من شيء مما خلق الله عز وجل أكثر من الملائكة وإنه ليهبط في كل يوم أو في كل ليلة سبعون ألف ملك ، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به ثم يأتون رسول الله مراضي ثم يأتون أمير المؤمنين مراضي فيسلمون ثم يأتون الحسين مراضي فيقيمون عنده فإذا كان عند السحر وضع لهم معراج إلى السماء ثم لا يعودون أبداً .

وقال أبو جعفر منافقة : إن الله عز وجل خلق إسرافيـل وجبرائيـل وميكائيـل من تسبيحة واحدة ، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل وسرعة الفهم .

وقال أمير المؤمنين المنتج في خلقة الملائكة : وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك فليس فيهم فترة ، ولا عندهم غفلة ، ولا فيهم معصية ، هم أعلم خلقك بك وأخوف خلقك منك ، وأقرب خلقك منك ، وأعملهم بطاعتك ، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان لم يسكنوا الأصلاب ، ولم تضمهم الأرحام ، ولم تخلقهم من ماء أنشأتهم إنشاء فأسكنتهم سماواتك وأكرمتهم بجوارك ، وائتمنتهم على وحيك ، وجنبتهم الأفات ، ووقيتهم البليات ، وطهرتهم من الذنوب ، ولو لا قوتك لم يقووا ، ولو لا تثبيتك لم يثبتوا ، ولو لا رحمتك لم يطيعوا ، ولو لا أنت لم يكونوا .

أما إنهم على مكانتهم منك وطاعتهم إياك ومنزلتهم عندك وقلة غفلتهم عن

أمرك لوعاينوا ما خفي عنهم منك لاحتقروا أعمالهم ، ولأزروا على أنفسهم ، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك سبحانك خالقاً ومعبوداً ما أحسن بالاءك عند خلقك .

وفي البحار عن الدر المنثور عن أبي العلاء بن سعد أن رسول الله على قال يوماً لجلسائه : أطت السماء وحق لها أن تئط ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد . ثم قرأ ﴿ وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

وعن الخصال بإسناده عن محمد بن طلحة يرفعه إلى النبي المناه قال : الملائكة على ثلاثة أجزاء فجزء لهم جناحان وجزء لهم ثلاثة أجنحة وجزء لهم أربعة أجنحة .

أقول: ورواه في الكافي بإسناده عن عبد الله بن طلحة مثله، ولعل المراد بـــه وصف أغلب الملائكة حتى لا يعارض سياق الآية والروايات الأخر.

وعن التوحيد بإسناده عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أمير المؤمنين على الله وعن الله ومنه على الله ومنه ملائكة حفظة يحفظونه من أن يتردى في بشر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه وبين ما يصيبه ـ الخبر .

وعن البصائر عن السياري عن عبد الله بن أبي عبد الله الفارسي وغيمره رفعوه إلى أبي عبد الله على الأول جعلهم الله خلف العرش لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم . ثم قال : إن موسى على أهل الأرض لكفاهم . ثم قال : إن موسى على أها أن سأل ربه ما سأل أصر واحداً من الكروبيين فتجلى للجبل فجعله دكا .

وعن الصحيفة السجادية وكان من دعائه على حملة العسرش وكل ملك مقرب: اللهم وحملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك، ولا يسأمون من تقديسك، ولا يستحسرون عن عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليك، وإسرافيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور، وميكائيل ذو الجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك وجبريل الأمين على وحيك المطاع في سماواتك المكين لديك المقرب عندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب والروح الذي هو من أمرك.

اللَّهم فصل عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم من سكان سماواتك وأهل الأمانة على رسالاتك ، والـذين لا يدخلهم سأمة من دؤب ولا إعياء من لغوب ولا فتور ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات ، الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك، النواكس الأذقان الـذين قد طالت رغبتهم فيما لديك المستهترون بذكر آلائك والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبريائك ، والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك وأهل الزلفة عندك وحمال الغيب إلى رسلك والمؤتمنين على وحيك وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك وأسكنتهم بطون أطباق سماواتك ، والذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك .

وخزان المطر وزواجر السحاب والذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود ، وإذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ، ومشيعي الثلج والبرد والهابطين مع قطر المطر إذا نزل ، والقوام على خزائن الرياح ، والموكلين بالجبال فلا تزول ، والذين عرفتهم مثاقيل المياه وكيل ما يحويه لواعج الأمطار وعوالجها ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء ومحبوب الرخاء .

والسفراء الكرام البررة والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه، ومنكر ونكير، ومبشر وبشير، ورؤمان فتان القبور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك والخزنة، ورضوان وسدنة الجنان، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يقولون: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى المدار، والزبانية الذين إذا قبل لهم: ﴿خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه﴾ ابتدروه سراعاً ولم ينظروه، ومن ألهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منه وبأي أمر وكلته، وسكان الهواء والأرض والماء، ومن منهم على الخلق.

فصل عليهم يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد وصل عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم وطهارة على طهارتهم . الدعاء .

وفي البحار عن الدر المنثور عن ابن شهاب أن رسول الله مُنْزَلِثُ سأل جبرئيل

أن يتراءى له في صورته فقال جبرئيل : إنك لن تبطيق ذلك . قال : إني أحب ذلك فخرج رسول الله منات إلى المصلى في ليلة مقمرة فأتاه جبرئيل في صورته فغشي على رسول الله منات منات منات منات الله م

وفي الصافي عن التوحيد بإسناده عن أمير المؤمنين والنفخ في حديث قال : وقوله في آخر الآيات : وما زاغ البصر وما طغى لقد رآى من آيات ربه الكبرى وأى جبرئيل في صورته مرتين هذه المرة ومرة أخرى وذلك أن خلق جبرئيل عظيم فهو من الروحانيين الذي لا يدرك خلقهم وصفتهم إلا الله .

وعن الخصال بإسناده عن محمد بن صروان عن أبي عبد الله سلطة قال : قال رسول الله مشترة : إن جبرئيل أتاني فقال : إنا معشر الملائكة لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا تمثال جسد ولا إناء يبال فيه .

أقول: وهناك روايات أخرى في صفة الملائكة فوق حمد الإحصاء واردة في باب المعاد ومعراج النبي مشرق وأبواب متفرقة أخرى، وفيما أوردنياه أنموذج كاف في ذلك.

وفي العيون في باب ما جاء عن الرضا مشخة من الأخبار المجموعة بإسناده عنه مسند قال : قال رسول الله مشخة : حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن جسناً ، وقرأ فويزيد في الخلق ما يشاء .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة عن عبـد الله بن سليمان عن أبي عبـد الله سلنك قـال : سمعته يقـول : إن القضاء والقـدر خلقـان من خلق الله يـزيـد في الخلق مـا يشاء .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ روى أبو هريرة عن

⁽١) بفتح الصاد وسكوبها طائر أصغر من العصفور .

النبي مِسْمَاتُهُ قال : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن .

أقول: والروايات الثلاث الأخيرة من قبيل الجري والانطباق .

(كلام في الملائكة)

تكرر ذكر الملائكة في القرآن الكريم ولم يذكر منهم بالتسمية إلا جبريل وميكال وما عداهما مذكور بالوصف كملك الموت والكرام الكاتبين والسفرة الكرام البررة والرقيب والعتبد وغير ذلك .

والذي ذكره الله سبحانه في كلامه وتشايعه الأحاديث السابقة من صفاتهم وأعمالهم هو أولاً: أنهم موجودات مكرمون هم وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلا وللملائكة فيها شأن وعليها ملك موكل أو ملائكة موكلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات ، وليس لهم في ذلك شأن إلا إجراء الأمر الإلهي في مجراه أو تقريره في مستقره كما قال تعالى : ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (١).

وثانياً: أنهم لا يعصون الله فيما أمرهم به فليست لهم نفسية مستقلة ذات إرادة مستقلة تريد شيئاً غير ما أراد الله سبحانه فلا يستقلون بعمل ولا يغيرون أمراً حملهم الله إياه بتحريف أو زيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿ (٢) .

وثالثاً: أن الملائكة على كثرتهم على مراتب محتلفة علواً ودنواً فبعضهم فوق بعض وبعضهم دون بعض فمنهم آمر مطاع ومنهم مأمور مطيع لأمره ، والآمر منهم آمر بأمر الله حامل له إلى المأمور والمأمور مأمور بأمر الله مطيع له ، فليس لهم من أنفسهم شيء البتة قال تعالى : ﴿وما منا إلا له مقام معلوم ﴾(٣) وقال : ﴿مطاع ثم أمين ﴾(٤) ، وقال : ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾(٥) .

ورابعاً: أنهم غير مغلوبين لأنهم إنما يعملون بأمر الله وإرادته ﴿وَمِمَا كَانَ اللهَ لَهُ عَلَى اللهِ عَلَى اللهُ عَلَيْهُ عَلَيْهِ عَلَى اللهِ عَلَى ا

(١) الأنبياء: ٢٧ . (٣) الصافات: ١٦٤ . (٥) سبأ: ٢٣

(۲) الشحريم : ۲ . (٤) التكوير : ۲۱ . (٦) فاطر : ٤٤ .

أمره ١٠٠٨ ، وقال : ﴿إِنْ اللهُ بِالْغُ أَمْرُهُ ١٠٠٠ ـ

ومن هنا يظهر أن الملائكة موجودات منزهة في وجودهم عن المادة الجسمانية التي هي في معرض الزوال والفساد والتغير ومن شأنها الاستكمال التدريجي الندي تتوجه به إلى غايتها ، وربما صادفت الموانع والأفات فحرمت الغاية وبطلت دون البلوغ إليها .

ومن هنا يظهر أن ما ورد في الروايات من صور الملائكة وأشكالهم وهيئاتهم الجسمانية كما تقدم نبذة منها في البحث الروائي السابق إنما هو بيان تمشلاتهم وظهوراتهم للواصفين من الأنبياء والأثمة عليهم السلام ، وليس من التصور والتشكل في شيء فقرق بين التمثل والتشكل فتمثل الملك إنساناً هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الإنسان فهو في ظرف المشاهدة والإدراك ذو صورة الإنسان وشكله وفي نفسه والخارج من ظرف الإدراك ملك ذو صورة ملكية وهذا بخلاف التشكل والتصور فإنه لو تشكل بشكل الإنسان وتصور بصورته صار إنساناً في نفسه من غير فرق بين ظرف الإدراك والخارج عنه فهو إنسان في العين والذهن معاً ؟ وقد تقدم كلام في معنى التمثل في تفسير سورة مريم .

ولقد صدق الله سبحانه ما تقدم من معنى التمثل في قبولمه في قصة المسيح ومريم : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحنا فَتَمثُلُ لَهَا بَشْراً سُويا﴾ (٣) وقد تقدم تفسيره .

وأما ما شاع في الألسن أن الملك جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة إلا الكلب والخنزير ، والجن جسم لطيف يتشكل بأشكال مختلفة حتى الكلب والخنزير فمما لا دليل عليه من عقل ولا نقل من كتاب أو سنة معتبرة ، وأما ما ادعاه بعضهم من إجماع المسلمين على ذلك فمضافاً إلى منعه لا دليل على حجيته في أمثال هذه المسائل الاعتقادية .

* * *

(۳) مريم : ۱۷ ،

(٢) الطلاق : ٣ .

(١) يوسف : ٢١ .

مَا يَفْتَحِ آللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا آلنَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ آللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْسُرُ آللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ آلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُو فَأَنَّى تُوْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو فَأَنَّى تُوْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى آللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُهَا آلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ آللَّهِ حَقِّ فَلا تَغُرَّنَكُم الْحَيوةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَكُمْ بِآللَّهِ الْعَرُورُ (٥) إِنَّ آللَّهِ حَقِّ فَلا تَغُرُّوا لَهُمْ عَدُوا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَلْسُعِيرِ (٢) آلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَآلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمُ وَعَمُوا اللَّهُ عَلَيْهُ وَعَدُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَآلَذِينَ آمَنُوا وَعَمُلُوا آلْصَالِحَاتِ لَهُمْ مَعْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوهُ وَعَمُلُوا آلْصَالِحَاتِ لَهُمْ مَعْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوهُ وَعَمُلُوا آلْصَالِحَاتِ لِهُمْ مَعْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ آللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبُ عَلَيْهُ مِكَا يَسُونُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبُ فَلَا تَذْهَبُ فَلَا عَلَيْهُ مَا يَصْفَعُونَ (٨) .

(بیان)

لما أشار إلى الملائكة وهم وسائط في وصول النعم إلى الخليقة أشار إلى نفس النعم إشارة كلية فذكر أن عامة النعم من الله سبحانه لا غير فهو الرازق لا يشاركه فيه أحد ، ثم احتج بالرازقية على الربوبية ثم على المعاد وأن وعده تعالى بالبعث وعذاب الكافرين ومغفرة المؤمنين الصالحين حق ، وفي الآيات تسلية للنبي مسئماني .

قوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحَ الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ النج المعنى أن ما يؤتيه الله الناس من النعمة وهو الرزق فلا مانع عنه وما يمتع فلا مؤتي له فكان مقتضى الظاهر أن يُقال: ما يرسل الله للناس النج . كما عبر في الجملة الثانية بالإرسال لكنه عدل عن الإرسال إلى الفتح لما وقع مكرراً في كلامه أن لرحمته خزائن كقوله: ﴿ قُلْ عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ (١) وقوله: ﴿ قُلْ

⁽۱) ص : ۹ ،

لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق (١) والتعبير بالفتح أنسب مون الإرسال في الخزائن ففيه إشارة إلى أن الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونة في خزائن محيطة بالناس لا يتوقف نيلهم منها إلا إلى فتحها من غير مؤنة زائدة .

وقد عبر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أن إفساضته تعمالي لهذه النعم ناشئة من مجرد الرحمة من غير توقع لنفع يعود إليه أو كمال يستكمل به .

وقوله: ﴿ وَمَا يَمَسَكُ فَلَا مُرْسُلُ لَهُ مَنْ بَعَدُهُ ۚ أَي وَمَا يَمْنَعُ مَنَ الرَّحْمَةُ فَلَا مُرْسُلُ لَهُ مَنْ دُونَهُ ، وَفِي التَّعْبِيرِ بِقُولِهُ : ﴿ مَنْ بَعْدُهُ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أول في المنع كما أنه أول في الإعطاء .

وقوله : ﴿وهو العزيز الحكيم ﴾ تقرير للحكم المذكور في الآية الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزاً لا يغلب إذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه وإذا منع فليس لمعط أن يعطيه ، وهو تعالى حكيم إذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة وإذا منع منع عن حكمة ومصلحة وبالجملة لا معطي إلا الله ولا مانع إلا هو ، ومنعه وإعطائه عن حكمة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَيُهِمَا النَّاسُ اذْكُرُوا نَعْمَةُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ هَـلُ مَنْ خَـالَقَ غَيْرُ اللّه يرزقكم من السماء والأرض﴾ الـخ . لما قرر في الآية السابقة أن الإعـطاء والمنع الله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتج في هذه الآية بذلك على توحده في الربوبية .

وتقرير الحجة أن الإله إنما يكون إلها معبوداً لربوبيته وهي ملكه تدبير أمر الناس وغيرهم ، والذي يملك تدبير الأمر بهذه النعم التي يتقلب فيها الناس وغيرهم ويرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهة التي اتخذوها لأنه سبحانه هو الذي خلقها دونهم والخلق لا ينفك عن التدبير ولا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلا هو لأنه ربكم الذي يدبر أمركم بهذه النعم التي تتقلبون فيها وإنما كان رباً مدبراً بهذه النعم لأنه خالقها وخالق النظام الذي يجري عليها .

وبـذلك يـظهر أن المـراد بالنـاس المخـاطبين الـوثنيـون وغيـرهم ممن اتخـذ لله شريكاً .

⁽٢) الإسراء: ١٠٠ -

وقوله : ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ المراد باللذكر ما يقابل النسيان دون الذكر اللفظى .

وقوله: ﴿ هِل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾ الرزق هو ما يمد به البقاء ومبدؤه السماء بواسطة الأشعة والأمطار وغيرهما والأرض بواسطة النبات والحيوان وغيرهما .

وبذلك يظهر أيضاً أن في الآية إيجازاً لطيفاً فقد بدلت الرحمة في الآية السابقة نعمة في هذه الآية أولاً ثم النعمة رزقاً ثانياً وكان مقتضى سباق الآيتين أن يُقال : هل من رازق أو هل من منعم أو هل من راحم لكن بدّل ذلك من قوله : ﴿هل من خالق﴾ من رازق أو هل من منعم أو هل من راحم لكن بدّل ذلك من قوله : ﴿هل من خالق﴾ ليكون إشارة إلى برهان ثان ينقطع به الخصام ، فإنهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل : هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله إليهم لكن لما قيل : ﴿هل من خالق﴾ أشير بالوصف إلى أن الرازق والمدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام ولم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض .

وقوله : ﴿ لا إله إلا هو﴾ اعتراض بالتموحيد يفيد التعظيم نظير قموله : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ .

أي لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعبادة هـو الذي ينعم عليكم ويـرزقكم وليس إلا الله .

وقوله : ﴿ فَأَنِّى تَوْفَكُونَ ﴾ توبيخ متفرع على ما سبق من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقرون بـذلك فـإلى متى تصرفـون عن الحق إلى الباطـل ومن التوحيـد إلى الإشراك .

وفي إعراب الآية أعني قوله: ﴿هل من خالق غير الله النح. بين القوم مشاجرات طويلة والذي يناسب ما تقدم من تقرير البرهان أن ﴿من وَرَائدة للتعميم، وقوله: ﴿غير الله صفة لخالق تابع لمحله، وكذا قوله: ﴿يرزقكم النح. و ﴿من خالق مبتدأ محذوف الخبر وهو موجود، وقوله: ﴿لا إله إلا هو اعتراض، وقوله: ﴿فَانَى تَوْفَكُونَ ﴾ تفريع على ما تقدمه.

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَذَّبُوكُ فَقَدْ كَذَبْتُ رَسَلُ مِنْ قَبِلُكُ وَإِلَى اللَّهُ تَرْجِعِ الْأَمُورُ ﴾

تسلية للنبي على الساطعة فلا تحزن فلي وإن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعة فلا تحزن فليس ذلك ببدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أممهم وأقوامهم وإلى الله ترجع عامة الأمور فيجازيهم بما يستحقونه بتكذيبهم الحق بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم .

ومن هنا يظهر أن قوله : ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ من قبيل وضع السبب موضع المسبب وأن قوله : ﴿وقد كذبت﴾ الله ترجع الأمور﴾ معطوف على قوله : ﴿قد كذبت﴾ الخ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا النَّاسِ إِنْ وَعَدَ اللَّهِ حَقَّ فَلَا تَغْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الْدُنَيَا وَلَا يَغْرَنُكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورِ ﴾ خطاب عام للناس يـذكرهم بـالمعاد كمـا كان الخطاب العام السابق يذكرهم بتوحده تعالى في الربوبية والالوهية .

فقوله : ﴿إِنْ وَعَدَ الله حَقَى ﴾ أي وعده أنه يبعثكم فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً وإن شراً حق أي ثابت واقع ، وقد صرح بهذا الوعد في قوله الأتي : ﴿الذينَ كَفُرُوا لَهُمْ عَذَابُ شَدِيدُ وَالذَينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصالحات لَهُمْ مَغْفَرَةً وَأَجْرَ كَبِيرٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ النهي وإن كان متوجهاً إلى الحياة الدنيا صورة لكنه في الحقيقة متوجه إليهم ، والمعنى إذا كان وعد الله حقاً فلا تغتروا بالحياة الدنيا بالاشتغال بزينتها والتلهي بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذها وملاهيها والاستغراق في طلبها والإعراض عن الحق .

وقوله : ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الغرور بفتح الغين صيغة مبالغة من الغرور بالضموهو الذي يبالغ في الغرور ومن عادته ذلك ، والظاهر ـ كما قيل ـ أن المراد به الشيطان ويؤيده التعليل الواقع في الآية التالية ﴿إن الشيطان لكم عدو﴾الخ .

ومعنى غروره بالله توجيهه أنظارهم إلى مظاهر حلمه وعفوه تعالى تارة ومظاهر ابتلائه واستدراجه وكيده أخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة والإعراض عن الحق والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة ، وأن أبناء الدنيا كلما أمعنوا في طلبهم وتوغلوا في غفلتهم واستغرقوا في المعاصي والذنوب زادوا في عيشهم طيباً وفي حياتهم راحة وبين الناس جاهاً وعزة فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلا في التقدم في الحياة الدنيا ، ولا خبر عما وراءها وليس ما

تتضمنه الدعوة الحقة من الوعد والوعيد وتخبر به النبوة من البعث والحساب والجنة والنار إلا خرافة .

فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته وظلمه .

وربما قيل : إن المراد بالغرور الدنيا الغارة للإنسان وإن قوله : ﴿وَلَا يَعْـُـرِنَكُمُ الْعُرُورِ﴾ تأكيد لقوله : ﴿وَلَا يَعْرِنَكُمُ الْحَيَاةُ الْدُنْيَا﴾ بتكراره معنى .

قوله تعالى : ﴿إِن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ الخ ، تعليل للنهي المتقدم في قوله : ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ والمراد بعداوةالشيطان أنه لا شأن له إلا إغواء الإنسان وتحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة ، والمراد باتخاذ الشيطان عدواً التجنب من اتباع دعوته إلى الباطل وعدم طاعته فيما يشير إليه في وساوسه وتسويلانه ولذلك علل عداوته بقوله : ﴿إنما يدعو حزبه ﴾ .

فقوله: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حَزِبُهُ لَيْكُونُوا مِنْ أَصِحَابِ السَّعِيرِ ﴾ في مقام تعليل ما تقدمه والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد، واللام في ﴿ليكونُوا﴾ للتعليل فكونهم من أصحاب السعير علة غائية لدعوته، والسعير النار المسعرة وهو من اسماء جهنم في القرآن.

قوله تعالى : ﴿ النّبِن كَفُرُوا لَهُمْ عَذَا بِ شَدِيدُ وَالّبَيْنِ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالُحَاتُ لَهُمْ مَغْفُرةُ وَأَجَر كَبِيرٍ ﴾ هذا هو الوعد الحق الذي ذكره الله سبحانه ، وتنكير العنذاب للدلالة على التفخيم على أن لهم دركات ومراتب مختلفة من العذاب باختلاف كفرهم وفسوقهم فالإبهام أنسب ويجري نظير الوجهين في قوله : ﴿ مَغْفُرةُ وَأَجِرٍ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلُهُ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهِ يَضِلُ مِن يَشَاءُ وَيَهُ لَكِي مَن يَشَاءُ ﴾ تقرير وبيان للتقسيم الذي تتضمنه الآية السابقة أعني تقسيم الناس إلى كافر له عذاب شديد ومؤمن عامل بالصالحات له مغفرة وأجر كبير والمراد أنهما لا يستويان فلا تستوي عاقبة أمرهما .

فقوله : ﴿ أَفَمَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمِلُهُ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ مبتـدأ خبره محـذوف أي كمن ليس كذلك ، والفاء لتفريع الجملة على معنى الآية السابقة ، والاستفهام للإنكـار ، والمراد بمن زين له سوء عمله فرآه حسناً الكافر ويشير به إلى أنه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله على غير ما هو عليه ، والمعنى أنه لا يستوي من زين له عمله السيء فرآه حسناً والذي ليس كذلك بل يرى السيء سيئاً .

وقوله: ﴿ فَإِن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ تعليل للإنكار السابق في قوله: ﴿ أَفْمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمِلُهُ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ أي الكافر الذي شأنه ذلك والمؤمن الذي بخلافه لا يستويان لأن الله يضل أحدهما بمشيئته وهو الكافر الذي يرى السيئة حسنة ويهدي الآخر بمشيئته وهو المؤمن الذي يعمل الصالحات ويرى السيئة .

وهذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاة وليس إضلالاً ابتدائياً فـلا ضير في انتسابه إلى الله سبحانه .

وبالجملة اختلاف الكافر والمؤمن في عاقبتهما بحسب الوعد الإلهي بالعذاب والمرحمة لاختلافهما بالإضلال والهداية الإلهيين واختلافهما بالإضلال والهداية باختلافهما في رؤية السيئة حسنة وعدمها .

وقوله : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ الحسرات جمع حسرة وهي الغم لما فات والندم عليه ، وهي منصوبة لأنه مفعول لأجله والمراد بذهاب النفس عليهم هلاكها لأجل الحسرات الناشئة من عدم إيمانهم .

والجملة متفرعة على الفرق السابق أي إذا كانت الطائفتان مختلفتين بالإضلال والهداية من جانب الله فلا تهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذبوك وكفروا بك فإن الله هو الذي يضلهم جزاء لكفرهم ورؤيتهم السيئة حسنة وهو عليم بما يصنعون فلا يختلط عليه الأمر ولا يفعل بهم إلا الحق ولا يجازيهم إلا بالحق.

ومن هنا يظهر أن قوله : ﴿إِن الله عليم بما يصنعون ﴾ في موضع التعليل لقوله : ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ فلا ينبغي للرسول سنوا أن يهلك نفسه عليهم حسرات حيث ضلوا وحقت عليهم كلمة العذاب فإن الله هو الذي يضلهم لصنعهم وهو عليم بما يصنعون .

وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيَّتِ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذْلِكَ ٱلنَّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُريدُ الْعِـزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ ٱلطِّيبُ وَالْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَٱلَّـٰذِينَ يَمْكُـرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَـٰذَابٌ شَـدِيـدٌ وَمَكْرُ أُولِئِكَ هُـوَ يَبُورُ (١٠) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابِ ثُمَّ مِنْ نُـطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجـاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أَنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرِ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابِ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ ٱللَّهِ يَسِيـرٌ (١١) وَمَـا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هٰذَا عَذْبُ فُوَاتَ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهٰذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلُّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِّياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَـوَاخِرَ لِتَبْتَغُـوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُـولِجُ ٱللَّيْـلَ فِي آلنُّهَارِ وَيُولِجُ النُّهَارَ فِي آللَّيْلِ وَسَخَّرَ آلشُّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلِّ يَجْرِي لْإِجَلِ مُسَمًّى ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرِ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَـوْمَ الْقِيْمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِـرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير (١٤) .

(بیان)

احتجاجات على وحدانيته تعالى في ألوهيته بعد جملة من النعم السماوية والأرضية التي يتنعم بها الإنسان ولا خالق لها ولا مدبر لأمرها إلا الله سبحانه ، وفيها بعض الإشارة إلى البعث .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الذِّي أُرسَلُ الرِّياحِ فَتَثَّيرُ سَحَايًا فَسَقَّنَاهُ إِلَى بِلَّدُ مَيت ﴾ النح .

العناية في المقام بتحقق وقوع الأمطار وإنبات النبات بها ، ولـذلك قــال : ﴿ الله الذي أرسل الرياح ﴾ وهذا بخلاف ما في ســورة الروم من قــوله : ﴿ الله الــذي يرســل الريــاح فتثير سحابا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَتَثْيَرُ سَحَابًا ﴾ عطف على ﴿ أُرْسُلَ ﴾ والضمير للرياح والإتيان بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية والإثارة إفعال من ثار الغبار يشور ثوراناً إذا انتشر ساطعاً .

وقوله: ﴿ فَاحِينا به الأرض لا نبات فيها ﴿ فَاحِينا به الأرض بعد موتها ﴾ وأنبتنا فيها نباتاً بعد ما لم تكن ، ونسبة الإحياء إلى الأرض وإن كانت مجازية لكن نسبته إلى النبات حقيقية وأعمال النبات من التغذية والنمو وتوليد المثل وما يتعلق بذلك أعمال حيوية تنبعث من أصل الحياة .

ولذلك شبه البعث وإحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أي إنبات النبات بعد توقفه عن العمل وركوده في الشتاء فقال : ﴿كذلك النشور﴾ أي البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحياثهم وإخراجهم من القبور .

وفي قوله: ﴿ وَسَقَنَاهُ إِلَى بِلِدُ مِيتِ ﴾ النج ، التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير فهو تعالى في قوله: ﴿ وَسَقَنَاهُ ﴾ الخ . بنعت الغيبة وفي قبوله: ﴿ وَسَقَنَاهُ ﴾ الخ . بنعت التكلم مع الغير ولعل النكتة في ذلك هي أنه لما قال: ﴿ وَالله أرسل الرياح ﴾ أخذ لنفسه نعت الغيبة ويتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب ، ثم لما قال: ﴿ وَتَثَير سَحَاباً ﴾ على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل ويشاهد الرياح وهي تثير السحاب وتنشره في الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدة الفعل كادت أن لا تنفك عن مشاهدة الفاعل فلما ظهر تعالى بنعت الحضور غير سياق كلامه من الغيبة إلى التكلم واختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

وقوله : ﴿ فَأَحيينا بِهِ الأرضِ ﴾ ولم يقل : فأحييناه مع كفايته وكذا قـوله : ﴿ بعـد موتها ﴾ مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصريح القول الذي لا ارتياب دونه .

قوله تعالى : ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ قال السراغب في

⁽١) الروم : ٤٨ .

المفردات : العزة حالة مانعة لـ لإنسان من أن يغلب من قـ ولهم : أرض عزاز أي صلبة قال تعالى : ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ انتهى .

فالصلابة هو الأصل في معنى العزة ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر ولا يُقهر كقوله تعالى: ﴿ويا أيها العزيز مسنا﴾(١). وكذا العزة بمعنى الغلبة قال تعالى: ﴿ويانِهِ فِي الخطاب﴾(٣) والعزة بمعنى القلة وصعوبة المنال، قال تعالى: ﴿ويانه لكتاب عزيز﴾(٣) والعزة بمعنى عطلق الصعوبة قال تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾(٤) والعزة بمعنى الأنفة والحمية قال تعالى: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾(٩) إلى غير ذلك.

ثم إن العزة بمعنى كون الشيء قاهراً غير مقهور أو غالباً غير مغلوب تختص بحقيقة معناها بالله عز وجل إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئاً إلا أن يرحمه الله ويؤتيه شيئاً من العزة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى : ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾(١).

وبذلك يظهر أن قوله: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ ليس بمسوق لبيان اختصاص العزة بالله بحيث لا ينالها غيره وأن من أرادها فقد طلب محالاً وأراد ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزة فليطلبها منه تعالى لأن العزة له جميعاً لا توجد عند غيره بالذات.

فوضع قوله: ﴿فللَّه العزة جميعاً﴾ في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع المسبب وهـو طلبها من عنـده أي اكتسابهـا منه بـالعبوديـة التي لا تحصل إلا بـالإيمان والعمل الصالح .

قوله تعالى: ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ الكلم ـ كما قيل ـ اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث ، وقال في المجمع : والكلم جمع كلمة يُقال : هذا كلم وهذه كلم فيذكر ويؤنث ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث انتهى .

(٤) التوبة : ١٣٨ .

⁽۱) يوسف : ۸۸ .

⁽۲) ص : ۲۳ .

⁽٣) حم السجدة : ٤١ . (٥) ص : ٢ .

⁽٦) المنافقون : ٨ .

والمراد بالكلم على أي حال ما يفيد معنى تاماً كلامياً ويشهد به توصيف بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه ومتكلمه بحيث تنبسط منه وتستلذه وتستكمل به وذلك إنما يكون بإفادته معنى حقاً فيه سعادة النفس وفلاحها .

وبذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيباً فالمراد به الاعتقادات الحقة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها والمتيقن منها كلمة التوحيد التي يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقة وهي المشمولة لقوله تعالى : ﴿ أَلَم تَرَكُفُ ضُرِبِ اللهُ مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السساء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾ (١) وتسمية الاعتقاد قولاً وكلمة أمر شائع بينهم .

وصعود الكلم الطيب إليه تعالى هو تقربه منه تعالى اعتلاء وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات ، وإذ كان اعتقاداً قائماً بمعتقده فتقربه منه تعالى تقرب المعتقد به منه ، وقد فسروا صعود الكلم الطيب بقبوله تعالى له وهو من لوازم المعنى .

ثم إن الاعتقاد والإيمان إذا كان حق الاعتقاد صادقاً إلى نفسه صدقه العمل ولم يكذبه أي يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فروع العلم وآثاره التي لا تنفك عنه ، وكلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخاً وجلاء وقوي في تأثيره فالعمل الصالح وهو العمل الحري بالقبول الذي طبع عليه بذل العبودية والإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق في ترتب أثره عليه وهو الصعود إليه تعالى وهو المعزي إليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب .

فقد تبين بما مر معنى قوله : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وأن ضمير ﴿ إليه ﴾ لله سبحانه والمراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد ، وبصعوده تقربه منه تعالى ، وبالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق ويالائمه وأن الفاعل في ﴿ يرفعه ﴾ ضمير مستكن راجع إلى العمل الصالح وضمير المفعول راجع إلى الكلم الطيب .

ولهم في الآية أقوال أخر :

فقد قيل : إن المراد بصعود الكلم الطيب قبوله والإثابة عليه كما تقدمت الإشارة

^{· (}۱) إبراهيم : ۲۰ .

وقيل: إن فاعل ﴿يرفعه﴾ ضمير عائد إلى الكلم الطيب وضمير المفعول للعمل الصالح والمعنى أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح أي أن العمل الصالح لا ينفع إلا إذا صدر عن التوحيد، وقيل: فاعل ﴿يرفعه﴾ ضمير مستكن راجع إليه تعالى والمعنى العمل الصالح يرفعه الله .

وجملة هذه الوجوه لا تخلو من بعد والأسبق إلى الذهن ما قدمناه من المعنى .

قوله تعالى: ﴿والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ ذكروا أن﴿ السيئات ﴾ وصف قائم مقام موصوف محذوف وهو المكرات ، ووضع اسم الإشارة موضع الضمير في ﴿مكر أولئك ﴾ للدلالة على أنهم متعينون لا مختلطون بغيرهم والمعنى والذين يمكرون المكرات السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك الماكرين هو يبور ويهلك فلا يستعقب أثراً حياً فيه سعادتهم وعزتهم .

وقد بان أن المراد بالسيئات أنواع المكرات والحيل التي يتخذها المشركون وسائل الكسب العزة ، والآية مطلقة ، وقيل : المراد المكرات التي اتخذتها قريش على رسول الله مسلمات في دار الندوة وغيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فرد الله كيدهم إليهم وأخرجهم إلى بدر وقتلهم وأثبتهم في القليب فجمع عليهم الإثبات والإخراج والقتل وهذا وجه حسن لكن الآية مطلقة .

ووجه اتصال ذيل الآية بصدرها أعني اتصال قوله: ﴿إليه يصعد﴾ إلى آخر الآية بقوله: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ أن المشركين كانوا يعتزون بآلهتهم كما قال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ﴾(١) فدعاهم الله سبحانه وهم يطلبون العز إلى نفسه بتذكيرهم أن العزة لله جميعاً وبين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد إليه والعمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزة من منبع العزة وأما الذين يمكرون كل مكر سيء لاكتساب العزة فلهم عذاب شديد وما مكروه من المكر باثر هالك لا يصعد إلى محل ولا يكسب لهم عزاً.

⁽۱) مريم : ۸۱ .

قوله تعالى : ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَكُم مِن تَوَابِ ثُمْ مِن نَطْفَة ثَمْ جَعَلَكُمْ أَزُواجًا ﴾ النح . يشير تعالى إلى خلق الإنسان فابتدأ خلقه من تبراب وهو المبدأ البعيد الـذي تنتهي إليه الخلقة ثم من نطفة وهي مبدأ قريب تتعلق به الخلقة .

وقيل المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن الشيء يضاف إلى أصله وقيل: بل المراد خلق آدم نفسه وقيل: بل المراد خلقاً إجمالياً من تراب في ضمن خلق آدم من تراب والخلق التفصيلي هو من النطفة كما قال: ثم من نطفة.

والفرق بين الوجوه الشلاشة أن في الأول نسبة الخلق من تراب إليهم على طريق المجاز العقلي ، وفي الشاني المراد بخلقهم خلق آدم ولا مجاز في النسبة ، وفي الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقة من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالي لا تفصيلي وبهذا يفارق ما قدمناه من الوجه . .

ويمكن تأييد القول الأول بقول تعالى: ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ (١) ، والثاني بنحو قوله : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (٢) ، والثالث بقوله : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لأدم ﴾ (٣) ولكل وجه .

وقبوله: ﴿ ثُمْ جَعَلَكُمْ أَزُواجًا ﴾ أي ذكبوراً وإنباثناً ، وقبيل: أي قبدر بينكم الزوجية وزوج بعضكم من بعض ، وهبو كما تبرى ، وقيل: أي أصنافاً وشعبوباً . وهو كسابقه .

وقوله : ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ من زائدة لتأكيد النفي ، والباء في ﴿ بعلمه ﴾ للمصاحبة وهو حال من الحمل والوضع ، والمعنى ما تحمل ولا تضع أنثي إلا وعلمه يصاحب حمله ووضعه ، وذكر بعضهم أنه حال من الفاعل وأن كونه حالاً من الحمل والوضع وكذا من مفعوليهما أي المحمول والموضوع خلاف الظاهر وهو ممنوع .

وقوله ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مَعْمُرُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرُهُ إِلَّا فِي كَتَـابِ ﴾ أي وما يمد

ويزاد في عمر أحد فيكون معمراً ولا ينقص من عمره أي عمر أحد إلا في كتاب .

فقوله: ﴿وَمَا يَعْمُو مِنْ مَعْمُرَ﴾ مِنْ قبيل قوله: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصُو خَمِراً﴾(١) فوضع معمر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمراً وإلا فتعمير المعمر لا معنى له .

وقوله: ﴿ولا ينقص من عمره﴾ الضمير في ﴿عمره﴾ راجع إلى ﴿معمر﴾ باعتبار موصوفه المحذوف وهو أحد والمعنى ولا ينقص من عمر أحد وإلا فنقص عمر المفروض معمراً تناقض خارق للفرض .

وقوله: ﴿ إِلا في كتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغيير إليه فقد كتب فيه أن فلاناً يزاد في عمره كذا لسبب كذا وفلاناً ينقص من عمره كذا لسبب كذا وأما كتاب المحو والإثبات فهو مورد التغير وسياق الآية يفيد وصف العلم الثابت ولهم في قوله: ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره ﴾ وجوه أخر ضعيفة لا جدوى في التعرض لها.

وقوله : ﴿إِن ذلك على الله يسير ﴾ تعليل وتقرير لما في الآية من وصف خلق الإنسان وكيفية إحداثه وإبقائه والمعنى أن هذا التدبير الدقيق المتين المهيمن على كليات الحوادث وجزئياتها المقرر كل شيء في مقره على الله يسير لأنه الله العليم القدير المحيط بكل شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شيء.

قوله تعالى : ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائع شرابه وهذا ملح أُجاج﴾ إلى آخر الآية قبل : العذب من الماء طيبه ، والفرات الماء الذي يكسر العطش أو البارد كما في المجمع ، والسائغ هو الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته والاجاج الذي يحرق لملوحته أو المر .

وقوله: ﴿ وَمِن كُلُ تَأْكُلُونَ لَحَماً طَرِياً وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ اللحم الطري الغض الجديد، والمراد لحم السمك أو السمك والطير البحري، والحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف قال تعالى: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (٢) .

وفي الآية تمثيل للمؤمن والكافر بالبحر العذب والمالح يتبين به عدم تساوي المومن والكافر في الكمال الفطري وإن تشاركا في غالب الخواص الإنسانية وآثارها فالمؤمن باق على فطرته الأصلية ينال بها سعادة الحياة الدائمة والكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيبه الفطرة الإنسانية وسيعذب بأعماله فمثلهما مشل البحرين المختلفين عذوية وملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصلية وهي العذوبة والخروج عنها بالملوحة وإن اشتركا في بعض الآثار التي ينتفع بها ، فمن كل منهما تأكلون لحماً طرياً وهو لحم السمك والطير المصطاد من البحر وتستخرجون حلية تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان والأصداف .

فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب والبحر المالح لكن جمعاً من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المالح دون العذب ، وقد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة .

منها أن الآية مسوقة لبيان اشتراك البحرين في مطلق الفائدة وإن اختص ببعضها كأنه قيل: ومن كمل تنتفعون وتستفيدون كما تأكلون منهما لحماً طرياً وتستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر.

ومنها أنه شبه المؤمن والكافر بالعدب والاجاج ثم فضل الاجاج على الكافر بأن في الاجاج بعض النفع والكافر لا نفع في وجوده فالآية على طريقة قوله تعالى: وثم قست قلويكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ثم قبال: ﴿وإن من الحجارة لما يتقجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾(١).

ومنها أن قوله: ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ من تتمة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض المنافع تفاوتاً فيما هو المقصود بالذات لأن احدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته والمؤمن والكافر وإن اتفقا أحياناً في بعض المكارم كالشجاعة والسخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر.

⁽١) البقرة : ٧٤ .

ومنها أنه لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العـذبة وإن لم نـره فالإشكـال باختصاص الحلية بالماء المالح ممنوع .

ومنها منع أصل الدعوى وهو كون الآية ﴿وما يستوي البحران﴾ الخ . تمثيلاً للمؤمن والكافر بل هي واقعة في سياق تعداد النعم لإثبات الربوبية كقوله قبلاً : ﴿والله الذي أرسل الرياح﴾ وقوله بعداً : ﴿ يولج الليل في النهار﴾ الخ . فالآية مسوقة لبيان نعمة البحر واختلافه بالعذوبة والملوحة وما فيهما من المنافع المشتركة والمختصة .

ويؤيد هذا الوجه أن نظير الآية في سورة النحل واقعة في سياق الآيات العادة لنعم الله سبحانه وهو قوله: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتوى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾(١).

والحق أن أصل الاستشكال في غيـر محله وأن البحرين يشتـركــان في وجــود الحلية فيهما كما هو مذكور في الكتب الباحثة عن هذه الشؤون مشروح فيها(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفَلَكُ فِيهِ مُواخِرُ لَتَبَتَغُوا مِنْ فَضِلَهُ وَلَعَلَكُمُ تَشْكُرُونَ ﴾ ضمير ﴿ فَيه ﴾ للبحر ، ومواخر جمع ماخرة من المخر بمعنى الشق عدت السفينة ماخرة لشقها الماء بجؤجئتها .

قيل : إنما أفرد ضمير الخطاب في قبوله : ﴿ترى﴾ بخلاف الخطابات المتقدمة والمتأخرة لأن الخطاب لكل أحد يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط .

وقوله : ﴿لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ أي مخر الفلك البحر بتسخيـره لتطلبوا من عطائه وهو الرزق ورجاء أن تشكروا الله سبحانه ، وقـد تقدم أن التـرجي

⁽١) النحل: ١٤.

⁽٢) وقد ذكر وجود الحلية في الماء العذب في مادة صدف من دائرة المعارف للبستاني وذكر أيضاً في آمريكانا Encyclo Paedia وبريطانيا Encyclo Paedia وجودها فيه وسميت علمة من الأنهار العلمية في أمريكا واوروبا وآسيا يستخرج منها اللؤلؤ .

الذي تفيده ﴿ لعل ﴾ في كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم .

وقد قيل في هذه الآية : ﴿وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ﴾ وفي سورة النحل : ﴿وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ فاختلفت الآيتان في تقديم ﴿فيه ﴾ على ﴿مواخر ﴾ وتأخيره منه وعطف ﴿لتبتغوا ﴾ وعدمه .

ولعل النكتة في ذلك أن آية النحل مصدرة بكلمة التسخير فهي مسوقة لبيان كيفية التسخير والأنسب لذلك تأخير فيه ليتعلق بمواخر ويشير إلى مخر البحر فيصرح بالتسخير بخلاف ما ههنا ثم التسخير له غايات كثيرة منها ابتغاء الفضل والأنسب لذلك عطف فلتبتغوا على محذوف ليدل على عدم انحصار الغاية في ابتغاء الفضل بخلاف ما ههنا فإن الغرض بيان أنه الرازق المدبر ليرتدع المكذبون وقد تقدم ذكر تكذبيهم عن تكذيبهم ويكفي في ذلك بيان ابتغائهم الفضل غاية من غير حاجة إلى العطف . والله أعلم .

وقال في روح المعاني في المقام: والذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سيقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها ولواحقها وتعقيب الآيات بقوله سبحانه: ﴿ وَإِن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ فكان الأهم هناك تقديم ما هو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ما هنا فإنه إنما سيق استطراداً أو تتمة للتمثيل كما علمت آنفاً فقدم فيه ﴿ فيه ﴾ إيذاناً بأنه ليس المقصود بالذات ذلك ، وكان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال في تلك الآية: ﴿ ولتبتغوا ﴾ بالواو ومخالفة ما هنا لذلك اقتضى ترك الواو في قوله: ﴿ لتبتغوا ﴾ انتهى .

قوله تعالى: ﴿ ويولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى النخ . إيلاج الليل في النهار قصر النهار بطول الليل وإيلاج النهار في الليل قصر الليل بطول النهار ، والمراد بالجملتين الإشارة إلى اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر المستمر في أيام السنة بتغير الأيام ولذا عبر بقوله : ﴿ ويولج ﴾ الدال على استمرار التغيير بخلاف جريان الشمس والقمر فإنه ثابت على حاله ولذا عبر فيه بقوله : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ والعناية صورية مسامحية .

وقوله : ﴿ ذَلَكُمُ اللهُ رَبُّكُم ﴾ بمنزلة النتيجة لما تقدم أي إذا كان أمر خلقكم

وتدبيركم براً وبحراً وأرضاً وسماء منتسباً إليه مدبراً بتـدبيره فـذلكم الله ربكم الذي يملككم ويدبر أمركم .

وقوله : ﴿ له الملك ﴾ مستنتج مما قبله وتوطئة وتمهيد لما بعده من قبوله : ﴿ وَالذِّينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونَهُ مَا يَمْلُكُونَ مِنْ قَطْمِيرٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ﴾ القطمير على ما قالم الراغب الأثر على رأس النواة وذلك مثل للشيء الطفيف ، وفي المجمع : القطمير لفافة النواة .

وقيل: الحبة في بطن النواة انتهى والكلام على أي حال مبالغة في نفي أصل الملك والمراد باللذين تدعون من دون الله آلهتهم اللين كانوا يندعونها من الأصنام وأربابها.

قوله تعالى: ﴿إِن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ الخ. بيان وتقرير لما تقدم من قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ أي تصديق كونهم لا يملكون شيئاً أنكم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأن الأصنام جمادات لا شعور لها ولا حس وأرباب الأصنام كالملائكة والقديسين من البشر في شغل شاغل من ذلك على أنهم لا يملكون سمعاً من عند أنفسهم فلا يسمعون إلا بإسماعه.

وقوله: ﴿ وَلُو سَمَعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ إذ لا قدرة لهم على الاستجابة قبولاً ولا فعلاً أما الاصنام فظاهر وأما أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه ولن يأذن الله لأحد أن يستجيب أحداً يدعوه بالربوبية قال تعالى: ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ (١).

وقوله : ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي يردون عبادتكم إليكم ويتبرؤون منكم بدلًا من أن يكونوا شفعاء لكم ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾ (٢) .

فالآية في نفي الاستجابة وكفر الشركاء يوم القيامة في معنى قـوله : ﴿من أَضـل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعـائهم غافلون وإذا

حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين♦ (١).

وقوله : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي لا يخبرك عن حقيقة الأمر مخبر مثل مخبر خبير وهو خطاب خاص بالنبي مسنت بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام في صورة الخطاب الخاص خوطب به السامع أي من كان كقوله : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ الآية السابقة ، وقوله : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت ﴾ الآية (٢) ، وقوله : ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ (٣) .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿كذلك النشور﴾ حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله ما المنظمة قال : إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم .

أقول : وفي هذا المعنى عدة روايات أخر .

وفي الدر المنثور أخر الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال: أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء ؟ قال: بلى . قال: كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور.

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر مالئين قال: قال رسول الله سلال : إن لكل قول مصداقاً من عمل يصدقه أو يكذبه فإذا قال ابن آدم وصدق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله ، وإذا قال وخالف عمله قوله رد قوله على عمله الخبيث وهوى به في النار .

وفي التوحيد بإسناده عن زيد بن علي عن أبيه الله في حديث قال : وإن الله تبارك وتعالى بقاعاً في سماواته فمن عسرج به إلى بقعة منها فقىد عرج به إليه . ألا تسمع الله عز وجل يقول : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه ﴿ ويقول في قصة عيسى ابن

مريم عليهما السلام ﴿بل رفعه الله﴾ ويقول عـز وجل : ﴿إليه يصعد الكلم الـطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ .

أقول : وعن الفقيه مثله .

وفي نهج البلاغة: ولولا إقرارهن(١) له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية(٢) لما جعلهن موضعاً لعرشه ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر مشخ في قوله تعالى : ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج﴾ الأجاج المر .

وفيه في قوله : ﴿والذين تبدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ قال : الجلدة الرقيقة التي على ظهر النوى .

* * *

يَا أَيُّهَا آلنَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى آللَّهِ وَآللَّهُ هُو الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقِ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذٰلِكَ عَلَى آللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أَخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يَعْزِيزٍ (١٧) وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أَخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبِى إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ يَعْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبِى إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلُوةَ وَمَنْ تَزَكّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللّهِ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلُوةَ وَمَنْ تَزَكّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللّهِ الْغَيْبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلُوةَ وَمَنْ تَزَكّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللّهِ الْمُصِيرُ (١٨) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا النَّعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلاَ ٱلظَّلُمَاتُ وَلَا النَّعْمِي وَالْبَصِيرُ (٢٠) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا النَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْقُبُورِ (٢٠) وَمَا يَسْتَعِي الْأَخْيَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلّا نَذِيرُ (٢٣) إِنْ أَنْتَ إِلاَ نَذِيرُ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا لَا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

⁽١) الضمير للسماوات .

⁽٢) الطاعة .

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِٱلْـزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

(بیان)

لما بين لهم أن الخلق والتدبير إليه تعالى فهو ربهم له الملك دون الذين يـدعون من دونه فهم لا يملكون شيئاً حتى يقومـوا بتدبيـره ، أخذ يبين ذلـك ببيان آخـر مشوب بالوعيد والتهديد وهو أنـه تعالى غني عنهم وهم فقـراء إليه فله أن يـذهبهم ويأت بخلق جديد إن شاء جزاء بما كسبوا .

ثم وجه الخطاب إلى النبي متشب بما حاصله أن هذه المؤاخذة والإهلاك لا يشمل إلا هؤلاء المكذبين دون المؤمنين الذين يؤثر فيهم إنذار النبي مسم في فبينهما فرق ظاهر وهو مسل في نذير كالنذر الماضين وحاله كحال من قبله من المنذرين وإن يكذبوه فقد كذبت الأنبياء الماضين مكذبوا أممهم فأخذهم الله أخذاً شديداً وسيأخذ المكذبين من هذه الأمة .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفَقَـرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهِ هُو الْغَنِي الْحَمَيَـدُ ﴾ لا ريب أن في الآية تمهيد بـالنسبة إلى الآيتين التـاليتين يتبين بها مضمـونهما وهي مـع ذلك مستقلة في مفادها .

بيان ذلك : أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أن لهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعبادة آلهتهم وأن لله إليهم حاجة ولذلك يدعوهم إلى نفسه بالدعوة الإلهية التي يقوم بها رسله فهناك غنى وفقر ولهم نصيب من الغنى ولله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك .

فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله : ﴿ يَا أَيُهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفَقْرَاءُ إِلَى اللهُ واللهُ هُو الْغَني فيه سبحانه فكل الفقر فيهم وكل الغنى فيه سبحانه ، وإذ كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى .

فالله سبحانه غني بالـذات له أن يـذهبهم ويستغني عنهم وهم فقراء بـالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره .

والملاك في غناه تعالى عنهم وفقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم وإليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه ، والإشارة إلى الخلق والتدبير في قوله : ﴿ إِنْ يَشَا يَذَهِبُكُم وَيَاتَ بَخْلُقَ جَدِيدٍ ﴾ وكذا توصيفه تعالى بالحميد وهو المحمود في فعله الذي هو خلقه وتدبيره .

فيعود معنى الكلام إلى نحو من قولنا : يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله الفقراء إلى الله فيكم كل الفقـر والحاجـة والله بما أنـه الخالق الـمـدبر، الغني لا غني سواه .

وعلى هذا لا ضير في قصر الفقر في الناس سواء أريد به المكذبون خاصة أو عامة الناس مع كون غيرهم من المخلوقات فقراء إلى الله كمثلهم وذلك أن عموم علمة الحكم يعمم الحكم فكأنه قيل: أنتم معاشر الخليقة الفقراء إلى خالقكم المدبر لأمركم وهو الغني الحميد.

وقد أجيب عن إشكال قصر الفقر في الناس مع عمومه لغيرهم بوجوه من الجواب :

منها أن في قصر الفقر في الناس مبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى : وخلق الإنسان ضعيفاً ولا يرد الجن لأنهم لا يحتاجون في المطعم والملبس وغيرهما كما يحتاج الإنسان .

ومنها أن المراد الناس وغيرهم وهـو على طريقـة تغليب الحاضـر على الغائب وأولي العلم على غيرهم .

ومنها أن الوجه حمل اللام في الناس على العهد وفي الفقراء على الجنس لأن المخاطبين في الآية هم الذين خوطبوا في قوله: ﴿ ذَلَكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ لَهُ الملكِ ﴾ الآية أي ذلكم المعبود هو الذي وصف بصفات الجلال لا اللذين تدعون من دونه وأنتم أشد الخلائق احتياجاً إليه.

ومنها أن القصر إضافي بالنسبة إليه تعالى لا حقيقي .

وغير خفي عليك أن مفاد الآية وسياقها لا يبلاثم شيئاً من هـذه الأجوبة نعم يمكن توجيه الجواب الأخير بما يرجع إلى ما قدمناه من الوجه .

وتذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنه غني محمود الأفعال إن أعطى وإن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء والشكر وكل بدل مفروض وإن منع لم يتوجه إليه لائمة إذ لاحق لأحد عليه ولا يملك منه شيء .

قوله تعالى : ﴿إِن يَشَا يَدْهَبُكُم وَيَأْتُ بِخَلَقَ جَدِيدُ وَمَا ذَلَكُ عَلَى اللهُ بِعَرْيرُ ﴾ أي إن يرد إذهابكم يلذهبكم أيها الناس لأنه غني عنكم لا يستضر بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه ويثنون عليه لا لحاجة منه إليهم بل لأنه حميد ومقتضاه أن يجود فيحمد وليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقة لأنه الله عز اسمه .

فقد بان أن مضمون الآية متفرعة على مضمون الآية السابقة فقوله: ﴿إِن يَشَأَ يَذْهَبُكُم ﴾ متفرع على كونه تعالى غنياً ، وقوله : ﴿وَيَأْتُ بَخَلَقَ جَدَيْد ﴾ متفرع على كونه تعالى حميداً ، وقد فرع مضمون الجملتين في موضع آخر على غناه ورحمته قال تعالى : ﴿وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾(١) .

قوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ الخ. قال الراغب: الوزر بفتحتين ـ الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل، قال تعالى: ﴿كلا لا وزر ﴾ والوزر ـ بالكسر فالسكون ـ الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر به عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: ﴿ليحملوا أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ . انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حاملة للإثم إثم نفس أخرى ولازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها واكتسبته من الوزر.

والآية كأنها دفع دخل يشعر به آخرها كأنه لما قبال : إن يِشأ يـذهبكم ويأت بآخرين ، فهددهم بالإهـلاك والإفناء ، قيـل : هؤلاء المكذبـون أخذوا بـوزرهم فما حال المؤمنين؟ أيؤخذون بوزر غيرهم ؟ .

فاجيب أن لا تــزر وازرة وزر أخرى ولا تحمل نفس حمل غيرها الذي أثقلهــا

⁽١) الأنعام : ١٣٣ .

وإن كانت ذات قربى .

فهؤلاء المكذبون هم المعنيون بالتهديد ولا تنفع فيهم دعوتك وإنذارك لأنهم مطبوع على قلوبهم، وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة والفريقان لا يستويان لأن مثلهم مشل الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات.

فقوله : ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر والإثم إثم نفس أخرى حاملة .

وقوله: ﴿وَإِنْ تَدَعُ مِثْقَلَةَ إِلَى حَمَلُهَا لا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيِّ وَلُو كَانَ ذَا قَرِبِي ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها ولا يحمل من حملها شيء ولو كان المدعو ذا قربى للداعي كالأب والأم والأخ والاخت.

وقوله: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإنذار ولا تتحقق معهم حقيقة الإنذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر وينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة التي هي أفضل العبادات وأهمها وبالجملة يؤمنون بالله ويعبدونه أي الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة إثر إنذارك لا أنهم يخشون ربهم ويصلون ثم ينذرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآية كقوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً ﴾(١).

وقوله: ﴿ وَمَن تَزَكَى فَإِنْمَا يَتَزَكَى لَنْفُسُهُ ﴾ بدل الخشية وإقامة الصلاة من التزكي للإشارة إلى أن المطلوب بالدعوة والإنذار هـ و التزكي وتـزكية النفس تلبسها بالخشية من الله على الغيب وإقامة الصلاة .

وفيه تقرير وتأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنياً حميداً فهـو تعالى لا ينتفـع بما يدعو إليه من التزكي بل الذي تزكى فإنما يتزكى لنفع نفسه .

وقد ختم الآية بقوله : ﴿وَإِلَى الله المصير﴾ للدلالة على أن تزكية من تزكى لا يـذهب سدى ، فـإن كلا من الفـريقين صائـرون إلى ربهم لا محالـة وهو يحـاسبهم

⁽۱) يوسف : ٣٦ .

ويجازيهم فيجازي هؤلاء المتزكين أحسن الجزاء .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتُويَ الْأَعْمَى وَالْبُصِيرِ ﴾ النظاهر أنه عطف على قبوله : ﴿وَإِلَى الله المصيرِ ﴾ تعليل في صورة التمثيل لعدم مساواة هؤلاء المتـزكين لأولئك المكذبين ، وقيل : عطف على قوله السابق : ﴿وَمَا يَسْتُويَ الْبُحْرَانَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ تكرار حروف النفي مرة بعد مرة في الآية وما يليها لتأكيد النفي .

قوله تعالى : ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ الحرور شدة حر الشمس على ما قيل وقيل : هو السموم وقيل : السموم يهب نهاراً والحرور يهب ليلاً ونهاراً .

قوله تعالى : ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات ﴾ إلى آخر الآية عطف على قوله : ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ﴾ وإنمأ كسرر قوله : ﴿ما يستوي ﴾ ولم يعطف ﴿الأحياء ولا الأموات ﴾ على قوله : ﴿الأعمى والبصير ﴾ كرابعته لطول الفصل فاعيد ﴿ما يستوي ﴾ لئلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله : ﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله ﴾ إلى أن قال ﴿كيف وإن يظهروا عليكم ﴾(١) النح .

والجمل المتوالية المترتبة أعني قوله : ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ إلى قوله : ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ تمثيلات للمؤمن والكافر وتبعات أعمالهما .

وقوله : ﴿إِنَّ الله يسمع من يشاء ﴾ وهو المؤمن كان ميتاً فأحياه الله فأسمعه لما في نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى : ﴿أَو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نسوراً ﴾ (٢) ، وأما النبي مسلمات فإنما هو وسيلة والهدى هدى الله .

وقوله: ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي الأموات والمراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَا نَذْيرَ ﴾ قصر إضافي أي ليس لك إلا إنـ ذارهم وأما هداية من اهتدى منهم وإضلال من ضل ولم يهتد جزاء له بسيء عمـله فإنما ذلك لله سبحانه . ولم يذكر البشيـر مع النـذير مع كونـه ﴿النَّهُ مَتَلَّبُ مَتَلَّبُ اللَّهُ سَالِهُ مَا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ

المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الإنذار مع أنه مذكور في الآية التالية .

قوله تعالى: ﴿إِمَّا أَرْسَلْنَاكُ بِالْحَقِّ بِشَيْراً وَلَذَيْراً وَإِنْ مِن أَمَةَ إِلَا مَلَا فَيَهَا لَلْم تَلْمَيرُ ﴾ المقاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالتبشير والإنذار وليس ببدع مستغرب فما من أمة من الأمم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه .

وظاهر السياق أن المواد بالنذير الرسول المبعوث من عند الله وفسر بعضهم النذير بمطلق من يقوم بالعظة والإنذار من نبي أو عالم غير نبي وهو خلاف ظاهر الآية .

نعم ليس من الواجب أن يكون نـذير كـل أمة من أفـرادها فقـد قال تعـالى : ﴿خلا فيها﴾ ولم يقل : «خلا منها» .

قوله تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذب النين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقية الرسل ، والزبر جمع زبور ولعل المراد بها بقرينة مقابلتها للكتاب الصحائف والكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام والشرائع ، والكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح وإبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى عليهم السلام ، ومعنى الأية ظاهر .

قوله تعمالى : ﴿ثم أَخَذَتِ السَّذِينِ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَمَانَ نَكَيْرٍ ﴾ الأَخَـذُ كَتَايِـةَ عَنَ التعذيب ، والنكير الإنكار ، والباقي ظاهر .

(كلام في معنى عموم الإنذار)

قد تقدم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني ووفي قصص نـوح عشم في الجزء العاشر من الكتاب ما يدل من طريق العقل على عموم النبوة ويؤيده الكتاب .

فلا تخلو أمة من الأمم الإنسانية عن ظهور ما للدعوة الحقة النبوية فيها وأما كون نبي كل أمة من نفس تلك الأمة فلا دليل عليه ، وقد عرفت أن قول تعالى : ﴿ وَإِنْ مَنْ أُمَّةً إِلاّ خَلاّ فِيهَا نَذْيَرُ ﴾ الآية مفاده ذلك .

وأما فعلية الإنذار - بحيث يبلغ كل فرد فرد من الأمة مضافاً إلى أصل الاقتضاء - واطراد الدعوة في كل واحد واحد فحكومة العلل والأسباب المتزاحمة في هذه النشأة المادية لا توافقه كما لا توافق سائر المقتضيات العامة التي قدرها الصنع كما أن في بنية كل مولود إنساني أن يعمر عمراً طبيعياً والحوادث تحول بين أكثر الأفراد وبين ذلك ، وكل مولود إنساني مجهز بجهاز التناسل للاستيلاد والإيلاد وكثير من الأفراد يموت قبل بلوغه فلا يبلغ ذلك إلى غير ذلك من النظائر .

فالنبوة والإنذار عام لكل أمة ولا يستلزم استلزاماً ضرورياً أن تبلغ الدعوة كل شخص من أشخاصها بل من الجائز أن تبلغ بلا واسطة أو معها بعض الأمة وتتخلف عن بعض لحيلولة علل وأسباب مزاحمة بينه وبين البلوغ فمن توجهت منهم إليه الدعوة وبلغته تمت عليه الحجة ومن توجهت إليه ولم تبلغه لم تتم عليه الحجة وكان من المستضعفين وكان أمره إلى الله قال تعالى: ﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴿ (١) .

(بحث روائي)

في المدر المنثور في قلوله تعالى : ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله الله الله الله الله على فال في حجة الوداع : ألا لا يجني جان إلا على نفسه لا يجني والد على ولده ولا مولود على والده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ قال : هؤلاء الكفار لا يسمعون منك كما لا يسمع أهل القبور .

وفي الدر المنثور أخرج أبو سهل السري بن سهل الجند يسابوري الخامس من حديثه من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ قال: كان النبي سملية يقف على القتلى يوم بدر ويقول: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً يا فلان بن فلان ألم تكفر بربك ؟ ألم تكفر بربك ؟ ألم تكفر ما تقول ؟ فقالوا: يا رسول الله أيسمعون ما تقول ؟

⁽١) النساء: ٩٨.

قال : ما أنتم بأسمع منهم لما أقول فأنزل الله : ﴿إنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من في القبور﴾ ومثل ضربه الله للكفار أنهم لا يسمعون لقوله .

أقول: وفي الرواية ما لا يخفى من لوائح الوضع فساحة النبي مُشَيِّكُ، أجل من أن يقول ما ليس له به علم من ربه حتى ينزل الله عليه آية تكذبه فيمـا يدعيـه ويخبر به .

على أن ما نقله من الآية لا يـطابق المصحف فصدره مـأخوذ من سـورة النمل الآية ٨٠ وذيله مأخوذ من سورة فاطر الآية ٢٢ .

على أن سياق الآية مكي في سياق آيات سابقة ولاحقة مكية .

وفي الاحتجاج في احتجاج الصادق سلنه : قال السائل : فأخبرني عن المجوس أفبعث إليهم نبياً ؟ فإني أجد لهم كتباً محكمة ومواعظ بليغة وأمشالاً شافية ، ويقرون بالثواب والعقاب ، ولهم شرائع يعملون بها . قال : ما من أمة إلا خلا فيها نذير ، وقد بعث إليهم نبي بكتاب من عند الله فأنكروه وجحدوا كتابه .

* * *

أَلْمُ تَرُ أَنَّ ٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدُ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ شُودٌ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابُ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ شُودٌ (٢٧) إِنَّ مَخْشَى ٱللَّه مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمُوا إِنَّ ٱللَّه عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ آلَٰذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلُوةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِيهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِيهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَٱلَّذِي أُوحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُو فَضْلِهِ إِنَّهُ مَضَدِقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّه بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ الْحَقُ مُصَدِقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّه بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أُورَثَنَا الْكِتَابَ ٱلَّذِينَ آصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِهَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ أَوْرَثَنَا الْكِتَابَ ٱلَّذِينَ آصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ

مُقْتَصِدُ وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَٰلِكَ هُو الْفَصْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُواً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ اللّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ اللّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) اللّذِي أَحَلَّنا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسَّنَا فِيهَا لَغُوبُ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْدِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلُ أَولَمْ نُعَمِّرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ نَعْمَلُ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ نَعِيدٍ (٣٧) إِنَّ اللّهَ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ آلنَّذِيرُ فَلُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللّهَ تَلِمُ غَيْبِ السَّمُواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٣٨) إِنَّ اللّهَ عَلِيمُ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٣٨) إِنَّ اللّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٣٨) إِنَّ اللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٣٨) إِنَّ اللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٣٨) إِنَّ اللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٣٨) .

(بیان)

رجوع إلى ذكر آيات أخر من آيات التوحيد وفيها انتقال إلى حديث الكتاب وأنه حق نازل من عند الله تعالى وقد انجر الكلام في الفصل السابق من الأيات إلى ذكر النبوة والكتاب حيث قال: ﴿إِنَا أَرْسَلْنَاكُ بِالْحَقّ بَشِيراً وَنَذَيراً ﴾ وقال: ﴿جاؤا بِالْبِينَاتُ وَبِالزَبِرُ وَبِالْكِتَابِ الْمَنْيرِ ﴾ فكان من الحري أن يتعرض لصفة الكتاب وما تستتبعه من الأثار.

قوله تعالى : ﴿ أَلَم تَرَ أَنَّ اللهُ أَلْـزَل مِن السماء ماء فأخرجنا بِه ثمرات مختلفا الوانها ﴾ النح . حجة أخرى على التوحيد وهو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء بالإمطار وهو أقوى العوامل المعينة لخروج الثمرات ، ولو كان خروجها عن مقتضى طباع هذا العامل وهو واحدلكان جميعهاذا لون واحد فاختلاف الألوان يدل على وقوع التدبير الإلهي .

والقول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثرة فيها ومنها اختلاف العناصر الموجودة فيها نوعاً وقدراً وخصوصية التأليف . مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ إلى اختلاف نفس العناصر وهي منتهية إلى المادة المشتركة التي لا اختلاف فيها فاختلاف العناصر المكونة منها يدل على عامل آخر وراء المادة يَدبر أمرها ويسوقها ألى غايات مختلفة .

والظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها ويلزمه اختلافات أخر من حيث الطعم والرائحة والخواص، وقيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيراً ما يطلق اللون في الفواكه والأطعمة على النوع كما يقال: قدم فلان ألواناً من الطعام والفاكهة فهو من الكثابة، وقوله بعد: ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ لا يخلو من تأييد للوجه الأول.

وفي قوله : ﴿فَأَخْرَجُنَا بِهِ ﴾ النّج . التفات من الغيبة إلى التكلم . قيل : إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة .

ونظير الوجه يجري في قوله السابق : ﴿إِنَّاارَسَلْنَاكُ بِالْحَقّ بَشَيْراً وَنَـذَيْراً ﴾ وأما ما في الآية السابقة من قوله : ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ﴾ فلعل الوجه فيه أن أمرهم إلى الله لا يتخلل بينه وبينهم أحد حتى يشفع لهم أو ينصرهم فينجوا من العذاب .

وقوله: ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ الجدد بالضم فالفتح جمع جدة بضم الجيم وهي الطريقة والجادة ، والبيض والحمر جمع أبيض وأحمر ، والظاهر أن قوله: ﴿ مختلف ألوانها ﴾ صفة لجدد و ﴿ الوانها ﴾ فاعل ﴿ مختلف ولو كانت الجملة مبتدأ وخبراً لقيل: مختلفة ألوانها كما قيل ، والغرابيب جمع غربيب وهو الأسود الشديد السواد ومنه الغراب و ﴿ سود ﴾ بدل أو عطف بيان لغرابيب .

والمعنى: ألم تر أن من الجبال طرائق بيض وحمر وسود مختلف ألوانها، والمراد إما الطرق المسلوكة في الجبال ولها ألوان مختلفة، وإما نفس الجبال التي هي خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض وحمر وسود مختلف ألوانها.

قوله تعالى: ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي ومن الناس والدواب التي تلب في الأرض والأنعام كالإبل والغنم والبقر بعض مختلف ألوانه بالبياض والحمرة والسواد كاختلاف الثمرات والجبال في ألوانها.

وقيل: قوله: ﴿كذلك﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير الأمر كذلك فهو تقرير الجماليّ للتفصيل المتقدم من اختلاف الثمرات والجبال والناس والدواب والأنعام.

وقيل: ﴿كذلك﴾ متعلق بقوله: ﴿يخشى﴾ في قوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ والإشارة إلى ما تقدم من الاعتبار بالثمرات والجبال وغيرهما والمعنى إنما يخشى الله كذلك الاعتبار بالآيات من عباده العلماء، وهو بعيد لفظاً ومعنى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله من عباده العلماء ﴾ استئناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره ويورث الإيمان بالله حقيقة والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهال ، وقد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال : ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبين أن الخشية حق الخشية إنما توجد في العلماء .

والمراد بالعلماء العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامة تـطمئن بها قلوبهم وتـزيل وصمـة الشك والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم ، والمراد بالخشية حينئـذ حق الخشية ويتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم . هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآية .

وقوله : ﴿إِن الله عزيز غفور ﴾ يفيد معنى التعليل فلعزته تعالى وكونه قداهراً غير مقهور وغالباً غير مغلوب من كـل جهة يخشاه العارفون ، ولكونـه غفوراً كثيـر المغفرة للآثام والخطيئات يؤمنون به ويتقربون إليه ويشتاقون إلى لقائه .

قوله تعالى : ﴿إِن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور كه تلاوة الكتاب قراءة القرآن وقد أثنى عليها الله سبحانه ، وإقامة الصلاة إدامة إتيانها وحفظها من أن تترك ، والإنفاق من الرزق سراً وعلانية بذل المال سراً تحذراً من الرياء وزوال الإخلاص في الإنفاق المسنون ، وبذل المال علانية ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب .

وقوله: ﴿ وَيرجونَ تَجَارَةُ لَنَ تَبُورَ ﴾ أي لن تَهلك بالخسران ، وذكر بعضهم أن قوله: ﴿ ويرجون ﴾ النخ _ خبر إن في صدر الآية وعند بعضهم الخبر مقدر يتعلق به قوله: ﴿ ليوفيهم ﴾ النح وأي فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ، النح .

قوله تعالى : ﴿ليوفيهم أُجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾ متعلق

بقوله : ﴿ يَتْلُونَ ﴾ وما عطف عليه في الآية السابقة أي إنهم عملوا ما عملوا لأن يوفيهم ويؤتيهم إيتاء تاماً كاملاً أُجورهم وثوابات أعمالهم .

وقوله: ﴿ويرزيدهم من فضله ﴾ يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الشواب أضعافاً كما في قوله: ﴿مثل الدين اضعافاً كما في قوله: ﴿مثل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ (٢) ، ويمكن أن يراد بها زيادة ليست من سنخ ثواب الأعمال كما في قوله: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿إِنه غَفُور شَكُور﴾ تعليل لمضمون الآية وزيادة فهو تعـالى لكونـه غفوراً يغفر زلاتهم ولكونه شكوراً يثيبهم ويزيد من فضله .

قوله تعالى : ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ ضمير الفصل والـــلام في قوله : ﴿هو الحق﴾ للتأكيد لا للقصر أي هو حق لا يشوبه باطل .

قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادتا﴾ إلى آخر الآية . يقال : أورثه مالاً كذا أي تركه فيهم يقومون بأمره بعده وقد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه ، وكذا إيراث العلم والجاه ونحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ماكان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفاً عن سلف وينتفعون مه .

وتصح هذه النسبة وإن كان القائم به بعض القوم دون كلهم ، قال تعالى : ﴿ولقد آتينا مسوسى الهدى وأورثنا بني إسرائيسل الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب ﴾ (٤) ، وقال ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونوريحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ (٥) ، وقال : ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ (١) . فبنو إسرائيل أورثوا الكتاب وإن كان المؤدون حقه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم .

والمراد بالكتاب في الأية على ما يعطيه السياق هـو القرآن الكـريم كيف؟ وقولـه

(١) الأنمام : ١٦٠ .

(٢) البقرة : ٢٦١ .

(٣) ق : ٣٥ .

(٥) المائدة : ٤٤ .

(٤) المؤمن : ٥٤ .

(۱) الشورى : ۱٤ .

في الآية السابقة : ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب﴾ نص فيه ، فاللام في الكتاب للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول : إن اللام للجنس والمراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوي المنزل على الأنبياء .

والاصطفاء أخذ صفوة الشيء ويقرب من معنى الاختيار والفرق أن الاختيار أخـذ الشيء من بين الأشياء بما أنه خيرها والاصطفاء أخذه من بينهابماأنه صفوتها وخالصها .

وقوله: ﴿من عبادنا﴾ يحتمل أن يكون ﴿من﴾ للتبيين أو لـ الابتداء أو للتبعيض الأقرب إلى الـذهن أن يكون بيانية وقد قال تعالى: ﴿وسلام على عباده الـذين اصطفى﴾(١).

واختلفوا في هؤلاء المصطفين من عباده من هم ؟ فقيل : هم الأنبياء ، وقيل : هم بنو إسرائيل الداخلون في قوله : ﴿إِن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ (٢) ، وقيل : هم أمة محمد مسلات فقد أورثوا القرآن من نبيهم إليه يرجعون وبه ينتفعون علماؤهم بالا واسطة وغيرهم بواسطتهم ، وقيل : هم العلماء من الأمة المحمدية .

وقيل: _ وهو المأثور عن الصادقين عليهما السلام في روايات كثيرة مستقيضة _ إن المراد بهم ذرية النبي المراد في أولاد فاطمة عليها السلام وهم الداخلون في آل إبراهيم في قوله: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم في قوله وقد نص النبي المسلام على علمهم بالقرآن وإصابة نظرهم فيه وملازمتهم إياه بقوله في الحديث المتواتر المتفق عليه: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

وعلى هذا فالمعنى بعد ما أوحينا إليك القرآن ـ ثم للتراخي الـرتبي ـ أورثنا ذريتك إياه وهم الذين اصطفينا من عبادنا إذ اصطفينا آل إبراهيم وإضافة العباد إلى نون العظمة للتشريف .

وقوله: ﴿ قمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ يحتمل أن يكون ضمير ﴿ منهم ﴾ راجعاً إلى ﴿ الذين اصطفينا ﴾ فيكون الطوائف الشلاث

المظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات شركاء في الوراثة وإن كان الوارث الحقيقي العالم بالكتاب والحافظ له هو السابق بالخيرات .

ويحتمل أن يكون راجعاً إلى عبادنا ـ من غير إفادة الإضافة للتشريف ـ فيكون قوله: ﴿فمنهم﴾ مفيداً للتعليل والمعنى إنما أورثنا الكتاب بعض عبادنا وهم المصطفون لا جميع العباد لأن من عبادنا من هو ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق ولا يصلح الكل للوراثة .

ويمكن تأييد أول الاحتمالين بأن لا مانع من نسبة الوراثة إلى الكل مع قيام البعض بها حقيقة كما نجد نظيره في قوله تعالى : ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾(١).

وما في الآية من المقابلة بين الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات يعطي أن المراد بالظالم لنفسه من عليه شيء من السيئات وهو مسلم من أهل القرآن لكونه مصطفى ووارثاً ، والمراد بالمقتصد المتوسط الذي هو في قصد السبيل وسواء الطريق والمراد بالسابق بالخيرات بإذن الله من سبق الظالم والمقتصد إلى درجات القرب فهو أمام غيره بإذن الله بسبب فعل الخيرات قال تعالى : ﴿والسابقون السابقون السابقون المقربون ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أي ما تقدم من الإيراث هـ و الفضل الكبير من الله لا دخل للكسب فيه .

هذا ما يعطيه السياق وتفيده الأخبار من معنى الآية وفيها للقوم اختلاف عجيب فقد اختلف في ﴿ثم﴾ فقيل: هي للتراخي بحسب الإخبار، وقيل: للتراخي الرتبي، وقيل: للتراخي الزماني. ثم العطف على ﴿أوحينا﴾ أو على ﴿الذي أوحينا﴾.

واختلف في ﴿أورثنا﴾ فقيل: هو على ظاهره ، وقيل: معناه حكمنا بإيراثه وقدرناه ، واختلف في الكتاب فقيل: المراد به القرآن ، وقيل: جنس الكتب السماوية ، واختلف في ﴿الذين اصطفينا﴾ قيل: المراد بهم الأنبياء ، وقيل: بنو

إسرائيل ، وقيل : أمة محمد ، وقيل : العلماء منهم ، وقيل : ذريـة النبي من ولد فاطمة عليها السلام .

واختلف في فومن عبادنا فقيل: من للتبعيض أو للابتداء أو للتبيين ويختلف المراد من العباد بحسب اختلاف معنى فرمن وكذا إضافة فوعبادنا للتشريف على بعض الوجوه ولغيره على بعضها.

واختلف في الظالم لنفسه والمقتصد والسابق فقيل : الظالم من كان ظاهره خيراً من الطنه والمقتصد من استوى ظاهره وباطنه والسابق من كان باطنه خيراً من ظاهره ، وقيل : السابق هم السابق هم السابق و الماضون في عهد النبي سنوا من أصحابه والمقتصد من تبع أثرهم ولحق بهم من الصحابة والظالم لنفسه غيرهم ، وقيل : الظالم من غلبت عليه السيئة والمقتصد المتوسط حالاً والسابق هو المقرب إلى الله السابق في الدرجات .

وهناك أقوال متفرقة أخر توكنا إيرادها ولو ضربت الاحتمالات بعضها في بعض جاوز الألف .

قوله تعالى : ﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير﴾ التحلية هي التزيين والأساور جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين قال الراغب : سوار المرأة معرب وأصله دستواره . انتهى .

وقوله: ﴿ جنات عدن ﴾ النج . ظاهره أنه بيان للفضل الكبير قال في المجمع: هذا تفسير للفضل كأنه قيل: ما ذلك الفضل ؟ فقال: هي جنات أي جزاء جنات أو دخول جنات ويجوز أن يكون بدلاً من الفضل كأنه قال: ذلك دخول جنات . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ قيل : المراد بالحزن الذي يحمدون الله على إذهابه بإدخالهم الجنة الحزن الذي كان يتوجه إليهم في الحياة الدنيا وما يحف بها من الشدائد والنوائب .

وقيل : المراد به الحزن الذي كان قـد أحاط بهم بعـد الارتحال من الـدنيا ، وقيل الدخول في جنة الأخرة إشفاقاً مما اكتسبوه من السيئات .

وعلى هذا فالقول قول الظالم لنقسه منهم أو قوله وقبول المقتصد وأما السابق

بالخيرات منهم فلا سيئة في صحيفة أعماله حتى يعذب بها . وهذا الـوجه أنسب لقولهم في آخر حمدهم : ﴿إِنْ رَبّنا لَغَفُورَ شَكُورَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴿ المقامة الإقامة ، ودار المقامة المنزل الذي لا خروج منه ولا تحول .

والنصب بفتحتين التعب والمشقة ، واللغوب بضم الـلام : العي والتعب في طلب المعاش وغيره .

والمعنى: الذي جعلنا حالين في دار الخلود من فضله من غير استحقاق منا عليه لا يمسنا في هذه الدار وهي الجنة مشقة وتعب ولا يمسنا فيها عي ولا كلال في طلب ما نريد أي إن لنا فيها ما نشاء .

وفي قوله : ﴿ مَن فَصَلُه ﴾ مناسبة خاصة مع قوله السابق : ﴿ ذَلَكُ هُو الْفَصْلُ الْكَبِيرِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ إلى آخر الآية اللام في ﴿لهم﴾ للاختصاص ويفيد كون النار جزاء لهم لا ينفك عنهم ، وقوله : ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شدة العذاب ولا يخفف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كل كفور شديد الكفران أو كثيره .

قوله تعالى : ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا﴾ إلى آخر الأية في المجمع : الاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى .

وقوله: ﴿ وَرَبِنَا أَخْرَجِنَا﴾ النّج . بيان لاصطراخهم ، وقوله : ﴿ أُولَمُ نَعْمُوكُمُ مَا يَتَذَكُرُ فَيْهُ مَنْ تَذْكُرُ ﴾ النّج . جـواب اصطراخهم وقـوله : ﴿ فَمَا لَلْظَالُمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ كل منهما متفرع على ما قبله .

والمعنى: وهؤلاء الذين في النار من الكفار يصطرخون ويصيحون بالاستغاثة فيها قائلين: ربنا اخرجنا من النار نعمل صالحاً غير سيء غير الذي كنا نعمل فيقال لهم رداً عليهم: _ كلا_ أو لم نعمركم عمراً يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فأنذركم هذا العذاب فلم تتذكروا ولم تؤمنوا ؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من

نصير ينصرهم ليتخلصوا من العذاب .

قـولـه تعـالى : ﴿إِن الله عمالم غيب السمـاوات والأرض إنه عليم بـذات الصدور ﴾ فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد وآثار الأعمال ويحاسبكم عليه سواء وافق ظـاهركم بـاطنكم أو خالف قـال تعالى : ﴿إِن تبـدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾(١) ، وقال : ﴿يوم تبلى السرائر ﴾(١) .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿إِنَمَا يَخْشَى الله مَنْ عَبَادُهُ الْعُلَمَاءِ﴾ الآية روي عن الصادق منظه أنه قال : يعني بالعلماء من صدق قوله فعله ، ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم . وفي الحديث أعلمكم بالله أخوفكم لله .

أقول : وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين سَلَمْكُ ما في معناه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم عن الحسن قال : قال رسول الله سلامية : العلم علمان : علم في القلب فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذاك حجة الله على خلقه .

وفي المجمع روى ابن مسعود عن النبي مُتِطَاتُهُ أنه قال في قوله : ﴿وَيَـزَيْدُهُمُ مِنْ فَضَلَّهُ ﴾ : هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليه معروفاً في الدنيا .

وفي الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر قال: سألت أبا الحسن الرضا ولله عن قول الله عز وجل: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية قال: فقال: ولد فاطمة عليها السلام، والسابق بالخيرات الإمام والمقتصد العارف بالإمام والظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام.

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس في حديث لأبي إسحاق السبيعي عن الباقر مشخف في الآية قال: هي لنا خاصة يا أبا إسحاق أما السابق بالنخيرات فعلى بن أبي طالب والحسن والحسين والشهيد منا، وأما المقتصد فصائم بالنهار وقائم بالليل، وأما الظالم لنفسه ففيه ما في الناس وهو مغفور له.

 ⁽١) البقرة: ٢٨٤.
 (٢) الطارق: ٩.

أقول: المراد بالشهيد بقرينة الروايات الأخر الإمام .

وفي معاني الأخبار مستداً عن الصادق منشخ في الآية قال : الظالم يحوم حـوم نفسه والمقتصد يحوم حـوم قلبه والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه .

أقول: الحوم والحومان الدوران، ودوران الظالم لنفسه حوم نفسه اتباعه أهواءها وسعيه في تحصيل ما يرضيها، ودوران المقتصد حوم قلبه اشتغاله بما يزكي قلبه ويطهره بالزهد والتعبد، ودوران السابق بالخيرات حوم ربه إخلاصه له تعالى فيذكره وينسى غيره فلا يرجو إلا إياه ولا يقصد إلا إياه.

واعلم أن الـروايات من طـرق الشيعة عن أئمـة أهل البيت عليهم الســلام في كون الآية خاصة بولد فاطمة عليها السلام كثيرة جداً .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي واحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وابن مردوية والبيهقي عن أبي الدرداء سمعت رسول الله من قول: قال الله تعالى: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله فأما الذين سبقوا فاولئك يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فاولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذي ظلموا أنفسهم فاولئك يحبسون في طول المحشر يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذي ظلموا أنفسهم فاولئك يحبسون في طول المحشر المنا برحمة فهم الذين يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب.

أقول: ورواه في المجمع عن أبي الدرداء عنه مليات وفي معناه أحاديث أخر، وهناك ما يخالفها ولا يعبأ به كما فيه عن ابن مردوية عن عمر عن النبي معلم في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ ظَالُمُ لِنَفْسُهُ ۚ قَالَ: الكافر.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ قال : النصب العناء واللغوب الكسل والضجر .

وفي نهج البلاغة ، وقال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة . أقول : ورواه عنه مشتلف في المجمع ورواه في الدر المنثور عن ابن جريـر عنه وفي الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيهقي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أن النبي مسلمة قال: إذا كان يسوم القيامة قيل: أين أبناء الستين وهو المعمر الذي قال الله: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾.

أقول : وروى ذلك بطرق أخرى عن سهل بن سعد وأبي هريرة عنه مي^{ملوا} .

وفي المجمع : وقيل : هو توبيخ لابن ثماني عشرة سنة وروي ذلك عن الباقـر النه .

أقول : ورواه في الفقيه عنه سُنْكُ مضمراً .

* * *

هُو آلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَاثِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُركَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُركَآءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِيرُكُ فِي السَّمُواتِ أَمْ اللّهِ الْوَفِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلّا غُرُوراً (٤٠) إِنَّ اللّهَ يُمْسِكُ السَّمُواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاً وَلَئِنْ زَالَتَ آ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١) إِنَّ اللّهَ يُمْسِكُ السَّمُواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاً وَلَئِنْ زَالَتَ إِلّا يُعْمُوناً إِللّا مُنْ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ وَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللللّهُ ال

اللّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي اللّأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) وَلَوْ يُوَاخِذُ أَللّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ اللّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلُهُمْ فَ إِنَّ اللّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ إِلَىٰ أَجَلُهُمْ فَ إِنَّ اللّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (٤٤).

(بیان)

احتجاج على توحيد الربوبية كقوله: ﴿هُو الذِّي جَعَلَكُم خَلَائُف فِي الأَرْضِ﴾ الآية ، وعلى نفي ربوبية الآية ، وقوله: ﴿وَإِنَ الله يَمسَكُ السَمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولًا﴾ الآية ، وعلى نفي ربوبية شركائهم ﴿قُلُ أُرأَيْتُم شُركاءُكُم الذِّينَ تَدْعُونَ مِن دُونَ الله ﴾ الآية وتوبيخ وتهديد لهم على نقضهم ما أبرموه باليمين ومكرهم السيء .

ثم تسجيل أن الله لا يعجزه شيء وإنما يمهل من أمهله من هؤلاء الـظالمين إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم جازاهم ما يستحقونه وبذلك تختتم السورة .

قبوله تعالى : ﴿هُو اللّهِ جعلكم خلائف في الأرض ﴾ النخ . البخلائف جمع خليفة ، وكون الناس خلائف في الأرض هو قيام كل لاحق منهم مقام سبابقه وسلطته على التصرف والانتفاع منها كما كان السابق مسلطاً عليه ، وهم إنما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة وهو الخلقة من طريق النسل والولادة فإن هذا النوع من الخلقة يقسم المخلوق إلى سلف وخلف .

فجعل الخلافة الأرضية نـوع من التدبيـر مشوب بـالخلق غير منفـك عنه ولـذلك استدل به على توحده تعالى في ربوبيته لأنه مختص به تعالى لا مجال لدعواه لغيره .

فقوله: ﴿هُو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ حجة على توحده تعالى في ربوبيته وانتفائها عن شركائهم: تقريره أن الـذي جعل الخلافة الأرضية في العالم الإنساني هو ربهم المدبر لأمرهم، وجعل الخلافة لا ينفك عن نوع الخلقة فخالق الإنسان هو رب الإنسان لكن الخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله هو رب الإنسان.

وقوله : ﴿فَمَنَ كَفَرَ فَعَلَيْهُ كَفَرَهُ ﴾ أي فالله سبحانه هو رب الإنسان فمن كفر وستر هذه الحقيقة ونسب الربوبية إلى غيره تعالى فعلى ضرره كفره .

وقوله: ﴿ولايزيدالكافرينكفرهم عندربهم إلا مقتاً ولايزيدالكافرينكفرهم إلا خساراً بيان لكون كفرهم عليهم وهو أن كفرهم يورث لهم مقتا عند ربهم والمقت شدة البغض لأن فيه إعراضاً عن عبوديته واستهانة بساحته ، ويورث لهم خساراً في أنفسهم لأنهم بدلوا السعادة الإنسانية شقاء ووبالاً سيصيبهم في مسيرهم ومنقلبهم إلى دار الجزاء .

وإنما عبر عن أثـر الكفر بـالزيـادة لأن الفطرة الإنسـانية بسيـطة ساذجـة واقعة في معرض الاستكمال والازدياد فإن أسلم الإنسـان زاده ذلك كمـالًا وقربـاً من الله وإن كفر زاده ذلك مقتاً عند الله وخساراً .

وإنما قيد المقت بقوله: ﴿عند ربهم ﴾ دون الخسار لأن الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفراً والسعادة شقاء وهو أمر عند أنفسهم وأما المقت وشدة البغض فمن عند الله سبحانه.

والحب والبغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها ، ومعنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه وانجذابها إليه وبغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه وابتعادها عنه .

قوله تعالى : ﴿قُلُ أُرأَيتُم شُركاءكُم الْمَذَينُ تَدْعُونُ مِنْ دُونُ اللهِ ﴾ إلى آخر الآية إضافة الشركاء إليهم بعناية أنهم يدعون أنهم شركاء لله فهي إضافة لامية مجازية .

وفي الآية تلقين النبي المنطقة المحجة على نفي ربوبية آلهتهم المذين كانسوا يعبدونهم وتقرير الحجة أنهم لو كانسوا أرباباً آلهة من دون الله لكمان لهم شيء من تدبير العالم فكانسوا خالفين لما يدبسرونه لأن المخلق والتسدبير لا ينفك أحدهما عن الأخر ولو كانوا خالفين لدل عليه دليل والدليل إما من العالم أو من قبل الله سبحانه أما العالم فلا شيء منه يدل على كونه مخلوقاً لهم ولسو بنحو الشركة وهسو قوله : فإروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات .

وأما من قبله تعالى فلو كان لكان كتاباً سماوياً نـازلًا من عنده سبحـانه يعتـرف بربوبيتهم ويجـوز للناس أن يعبـدوهم ويتخذوهم آلهـة ، ولم ينزل كتـاب على هذه الصفة وهم معترفون بذلك وهو قوله : ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كَتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيْنَةُ مَنْهُ ﴾ .

وإنما عبر عن نفي خالقيتهم في الأرض بقوله : ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ولم يقل : أنبئوني ألهم شرك في الأرض؟ وعبر في السماوات بقوله : ﴿أم لهم شرك في السماوات ولم يقل : أم ماذا خلقوا من السماوات .

لأن المراد بالأرض على ما يدل عليه سياق الاحتجاج ـ العالم الأرضي وهو الأرض بما فيها وما عليها والمراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات وما فيها وما عليها فقوله: ﴿ماذا خلقوا من الأرض في معنى ألهم شرك في الأرض ولا يكون إلا بخلق شيء منها، وقوله: ﴿أم لهم شرك في السموات في معنى أم ماذا خلقوا من السماوات ، وقد اكتفي بذكر الخلق في جانب الأرض إلى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلا بخلق .

وقوله :﴿أُم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي بل آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي بل آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه أي على حجة ظاهرة من الكتاب أن لشركائهم شركة معنا وذلك بدلالته على أنهم شركاء لله .

وقد قال : ﴿أُم آتيناهم كتاباً ﴾ ولم يقل : أم لهم كتاب ونحو ذلك ليتأكد النفي والإنكار فإن قولنا : أم لهم كتاب ونحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله : ﴿أُم آتيناهم كتاباً ﴾ إنكار لوجود الكتاب ممن ينزل الكتاب لونزل .

وقد تبين بما تقدم أن ضمير الجمع في ﴿آتيناهم﴾ وفي ﴿فهم على بينة﴾ للمشركين فلا يعبأ بما قيل: إن الضميرين للشركاء .

وقوله : ﴿ بِل إِنْ يَعِدُ الطَّالَمُونَ بِعَضِهُم بِعَضاً إِلاَغُرُوراً ﴾ إضراب عما تقدم من الاحتجاج بأن الذي حملهم على الشرك ليس هو حجة تحملهم عليه ويعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضاً بوعد الشفاعة والزلفي فأسلافهم يغرون أخلافهم ورؤساؤهم وأئمتهم يغرون مرؤسيهم وتابعيهم ويعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه ولا حقيقة لها .

وحجة الآية عامة على المشركين عبدة الأصنام وهم الذين يعبدون الملائكة والمجن وقديسي البشر ويتخذون لهم أصناماً يتوجهون إليها ، وعلى الذين يعبدون روحانيي الكواكب ويتوجهون إلى الكواكب ثم يتخذون للكواكب أضناماً ، وعلى

الذين يعبدون الملائكة والعناصر من غير أن يتخذوا لها أصناماً كما ينقل عن الفرس القدماء ، وعلى الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح طنين.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الله يمسك السماوات والأرض أن تنزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده الخ . قيل : إن الآية استثناف مقرر لغاية قبح الشرك وهو له أي إن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كواهة أن تنزولا أو لشلا تنزولا وتضمحلا لأن الممكن كما يحتاج إلى الواجب حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائمه .

والظاهر أنه تعالى لما استدل على توحده في الربوبية بجعل الخلافة في النوع الإنساني بقوله: ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ الآية ثم نفى الشركة مطلقاً بالحجة عمم الحجة بحيث تشمل الخلق كله أعني السماوات والأرض فاحتج على توحده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذي لا يرتاب فيه أن حدوث الشيء وأصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقائه وتلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشيء بعد حدوثه يحتاج إلى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال والاستمرار.

وإبقاء الشيء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد الإيجاد كذلك هو تـدبير لأمره فإنك إن دققت النظر وجدت أن النظام الجاري في الكون إنما يجري بالإحـداث والإبقاء فقط. والموجد والخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسماوات والأرض وحده لا شريك له.

فقوله: ﴿إِن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ﴾ الإمساك بمعناه المعروف وقوله: ﴿أن تزولا ﴾ وتقديره كراهة أن تزولا أو لئلا تزولا - متعلق به ، وقيل: الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ وعلى أي حال فالإمساك كناية عن الإبقاء وهو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال والاستمرار ، والزوال هو الاضمحلال والبطلان .

ونقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكاني ، والمعنى أن الله يمنع السماوات والأرض من أن ينتقل شيء منهما عن مكانه الذي استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى والشأن في تصور مراده تصوراً صحيحاً .

وقوله: ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ السياق يعطي أن المراد بالزوال ههنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك والمعنى وأقسم لئن أشرفتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد الله سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره ويمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقي والمراد بالإمساك القدرة على الإمساك وقد تبين أن ﴿من ﴾ الأولى زائدة للتأكيد والثانية للابتداء ، وضمير ﴿من بعده ﴾ راجع إليه تعالى ، وقيل : راجع إلى الزوال .

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلَيْماً غَفُوراً ﴾ فهو لحلمه لا يعجل إلى أمر ولمغفرة يستر جهات العدم في الأشياء ، ومقتضى الاسمين أن يمسك السموات والأرض أن تزولا إلى أجل مسمى .

وقال في إرشاد العقل السليم : إنه كان حليماً غفوراً غير معاجل بالعقوبة التي نستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هداً حسبما قال تعالى : ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض﴾ انتهى .

قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من رحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً وقال الراغب: الجهد بفتح لجيم والجهد بضمها والطاقة والمشقة وإلى أن قال وقال تعالى: ﴿وأقسموا الله جهد أيمانهم أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في سعهم وقال: النفر الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء يقال: نفر عن الشيء نفوراً قال تعالى: ﴿ما زادهم إلا نفوراً في نهى ،

قيل^(۱): بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله سنرائه أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الـرسل فكـذبوهم فـوالله لئن أتانا رسـول نكونن أهدى من إحدى الأمم انتهى ، وسياق الآية يصدق هذا النقل ويؤيده .

فقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ الضمير لقريش وقد حلفوا هـ ذا الحلف بل بعثة النبي سُرَيْتُ بدليل قوله بعـ د: ﴿فلما جاءهم نذير﴾، والمقسم به قوله: ﴿لئن جاءهم نذير﴾ الخ .

١) رواه في الدر المنثور عن أبي هلال وعن ابن جريح .

وقوله: ولئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم أي إحدى الأمم التي جاءهم نذير كاليهود والنصارى وإنما قال: وليكونن أهدى من إحدى الأمم ولم يقل: أهدى منهم لأن المعنى أنهم كانوا أمة ما جاءهم نذير ثم لو جاءهم نذير كانوا أمة ذات تذير كإحدى تلك الأمم المنذرة ثم بتصديق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها وهو قوله: وأهدى من إحدى الأمم فافهمه.

وقيل : إن مقتضى المقام العموم ، وقوله : ﴿ إحدى الأمم ﴾ عام وإن كان نكرة في سياق الإثبات واللام في ﴿ الأمم ﴾ للعهد ، والمعنى ليكونن أهدى من كل واحدة من تلك الأمم التي كذبوا رسلهم من اليهود والنصارى وغيرهم .

وقيل : المعنى ليكونن أهدى من أمة يقال فيها : إحدى الأمم تفضيلًا لها على غيرها من الأمم كما يقال : هو واحد القوم وواحد عصره . انتهى .

ولا يخلو الوجه الأخير عن تكلف وبعد .

وقوله : ﴿ فلما جاءهم نـذير مـا زادهم إلا نفوراً ﴾ المراد بالنـذير النبي سلامه والنفور التباعد والهرب .

قوله تعالى: ﴿استكباراً في الأرض ومكر السيىء ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان: مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال تعالى: ﴿والله خير الماكرين ﴾ ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح قال تعالى: ﴿لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ افتهى .

وقال أيضاً: قال عز وجل: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أي لا ينزل ولا يصيب . قيل : وأصله حق فقلب نحو زل وزال وقد قرىء فأزلهما الشيطان وأزالهما وعلى هذا ذمه وذامه . انتهى .

وقوله: ﴿ وَاستكباراً في الأرض ﴾ مفعول لأجله لقوله: ﴿ نفوراً ﴾ أي نفروا عنه وتباعدوا للاستكبار في الأرض وقوله: ﴿ ومكر السيىء ﴾ معطوف على ﴿ استكباراً ﴾ ومفعول لأجله مثله ، وقيل : معطوف على ﴿ نفوراً ﴾ والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل قوله ثانياً: ﴿ ولا يحيق المكر السيىء ﴾ الخ .

وقوله : ﴿ وَلا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ أي لا يصيب ولا ينزل المكر

السيىء إلا بأهله ولا يستقر إلا فيه ، فإن المكر السيىء وإن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به ، لكنه سيزول ولا يدوم إلا أن أثره السيىء بما أنه المكر سيىء يبقى في نفس الماكر وسيظهر فيه ويجزى به إما في المدنيا وإما في الأخرة البتة ، ولهذا فسر الآية في مجمع البيان بقوله : والمعنى لا ينزل جزاء المكر السيىء إلا بمن فعله .

والكلام مرسل إرسال المثل كقول تعالى : ﴿إنما بغيكم على أنفسكم ﴾(١) ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ فَهُلَ يَنظُرُونَ إِلَا سَنَةَ الأُولِينَ ﴾ النظر والانتظار بمعنى التوقع والفاء للتفريع والجملة استنتاج مما تقدمها والاستفهام للإنكار والمعنى وإذ مكروا المكر السيىء والمكر السيىء يحيق بأهله فهم لا ينتظرون إلا السنة الجارية في الأمم الماضين وهي العذاب الإلهي النازل بهم إثر مكرهم وتكذيبهم بآيات الله .

وقوله : ﴿ فَلَنْ تَجِدُ لَسَنَةَ اللهُ تَبِدِيلًا وَلَنْ تَجِدُ لَسَنَةُ اللهُ تَحَوِيلًا ﴾ تبديل السنة أن توضع العافية والنعمة موضع العذاب ، وتحويلها أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه إلى غيرهم ، وسنة الله لا تقبل تبديلًا ولا تحويلًا لأنه تعالى على صواط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضاً ولا استثناء .

وقد أخذ الله بـالعذاب هؤلا المشـركين الماكـرين يــوم بــدر فقتـل عــامتهم . والخطاب للنبي شِنْسِهُ أو لكل سامع .

قوله تعالى : ﴿أُولَم يَسْيَرُوا فِي الأَرْضُ فَيُسْظُرُوا كَيْفُ كَانَ عَاقِبَةَ اللَّذِينَ مَنَ قَبِلُهُم وَكَانُوا أَشْدُ مَنْهُم قُوةً ﴾ استشهاد على سنته الجارية في الأمم الماضية وقد كانوا أشد قوة من مشركي مكة فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا وكذبوا .

قوله تعالى :﴿وماكان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنهكان عليماً قديراً ولا تتميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم وتخويفهم ، والمحصل ليتقوا الله وليؤمنوا به ولا يمكروا به ولا يكذبوا فإن سنة الله في ذلك هي العذاب كما يشهد به ما جرى في الأمم السابقة من الإهلاك والتعذيب وقد كانوا أشد قوة منهم والله

سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض بقوة أو مكر فيانه عليم على الإطلاق لا يعجزه شيء في السماوات والأرض بقوة أو مكر فيانه عليم على الإطلاق لا يقاومه شيء .

قوله تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ النخ . المراد بالمؤاخذة المؤاخذة الدنيوية كما يدل عليه قوله الآي : ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ الغ . والمراد بالناس جميعهم فإن الآية مسبوقة بذكر مؤاخذة بعضهم وهم الماكرون المكذبون بآيات الله ، والمراد بما كسبوا المعاصي التي اكتسبوها بقرينة المؤاخذة التي هو العذاب وقد قال في نظيرة الآية من سورة النحل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ (١) .

والمراد بظهرها ظهر الأرض لأن الناس يعيشون عليه على أن الأرض تقدم ذكرها في الآية السابقة .

والمراد بالدابة كل ما يدب في الأرض من إنسان ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير واحتمل أن يكون المراد كل ما يدب في الأرض من حيوان وإهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنما هو لكونها مخلوقة للإنسان كما قال تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾(٢).

وقول بعضهم: ذلك لشؤم المعاصي وقد قال تعالى: ﴿ وَاتقُوا فَتَنَةُ لا تَصِيبُ اللَّذِينَ ظَلَّمُوا مِنْكُم خَاصَةً ﴾ مدفوع بأن شؤم المعصية لا يتعدى العاصي إلى غيره وقد قال تعالى: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أُخرى ﴾ (٣) ، وأما الآية أعني قوله: ﴿ واتقوا فَتَنَةُ لا تَصِيبُنُ الذِّينَ ظَلَّمُوا مِنْكُم خَاصِةً ﴾ (٤) فمدلولها على ما تقدم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصة لا عمومها لهم ولغيرهم فراجع .

وقوله : ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ وهو الموت أو القيامة وقوله : ﴿فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعياده بصيراً ﴾ أي فيجازي كلاً بما عمل فإنه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنهم عباده وكيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه والرب عمل عبده ؟

(٣) فاطر : ١٨ ،

(٤) الأنفال : ٢٥ -

(١) النحل : ٦١ .

(٢) البقرة: ٢٩.

وقد بان بما تقدم أن قوله : ﴿ فَإِنَّ الله كَانَ بَعْبَادُهُ بَصِيراً ﴾ من وضع السبب موضع المسبب الذي هو الجزاء .

والآية أعني قوله تعالى: ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس ﴾ الخ. واقعة موقع الجواب عن سؤال مقدر ناشىء عن الآية السابقة فإنه تعالى لما أنذر أهل المكر والتكذيب من المشركين بالمؤاخذة واستشهد بما جرى في الأمم السابقة وذكر أنه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض كأنه قيل: فإذا لم يعجزه شيء في السماوات والأرض فكيف يترك سائر الناس على ما هم عليه من المعاصي ؟ وماذا يمنعه أن يؤاخذهم بما كسبوا ؟ فأجاب أنه لو يؤاخذ جميع الناس بما كسبوا من المعاصي كما يؤاخذ هؤلاء الماكرين المكذبين ما ترك على ظهر الأرض أحداً منهم يدب ويتحرك ، وقد قضى سبحانه أن يعيشوا في الأرض ويعمروها إذ قال: ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (أ) فلا يؤاخذهم ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى وهو الموت أو البعث فإذا جاء أجلهم عاملهم بما عملوا إنه كان بعباده بصيراً .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه أن النبي مشفية قال : إياكم والمكر السيىء فإنه لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ولهم من الله طالب .

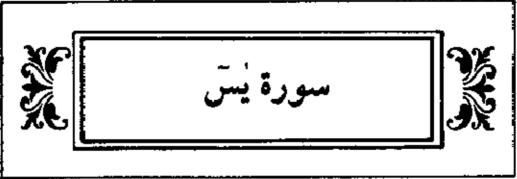
وفي تفسير القمي حدثني أبي عن النوفلي عن السكوني عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قبال: قبال رسول الله وسنريس العلم، وجف القلم، ومضى القضاء وتم القدر بتحقيق الكتاب، وتصديق الرسل، وبالسعادة من الله لمن آمن واتقى وبالشقاء لمن كذب وكفر، وبالولاية من الله عز وجل للمؤمنين، وبالبراءة منه للمشركين.

ثم قىال رسول الله منسلة : إن الله عـز وجل يقـول : يا ابن آدم بـمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء ، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك مـا تريـد ، وبفضـل نعمتي عليك قـويت على معصيتي ، وبقـوتي وعصمتي وعـافيتي أديت إلي

⁽١) البقرة : ٣٦ -

فرائضي وأنا أولى بحسناتك منك وأنت أولى بذنبك مني ، الخير مني إليك واصل بما أوليتك به ، والشر منك إليك بما جنيت جزاء ، وبكثير من تسلطي لك الطويت عن طاعتي ، وبسوء ظنك بي قنطت من رحمتي .

فلي الحمد والحجة عليك بالبيان ، ولي السبيل عليك بالعصيان ، ولك المجزاء الحسن عندي بالإحسان ، لم أدع تحذيرك ، ولم آخذك عند غرتك وهو قوله عز وجل : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ ، لم أكلفك فوق طاقتك ، ولم أحملك من الأمانة إلا ما أقررت بها على نفسك ، ورضيت لنفسي منك بما رضيت به لنفسك مني ثم قال عز وجل : ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .



مكية وهي ثلاث وثمانون آية

بِسُمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يْسَ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ مِسْتَقِيمِ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِينِ آلرَّحِيمِ (٥) لِتَنْذِرَ قَوْماً مَآ أَنْذِرَ آبِسَآوُهُمْ فَهُمْ لَا الْمُشْونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَعْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ لَا يُؤمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَهُمْ لَا يُعْمِنُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تَنْذِرُهُمْ لَا يُؤمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ آتَبَعَ آلذِّكُرَ وَخَشِيَ آلرَّحْمَنَ وَنَافَهُمْ فَهُمْ لَا يُعْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ آتَبَعَ آلذِّكُرَ وَخَشِيَ آلرَّحْمَنَ وَنَالَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينِ (١٢) وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينِ (١٢) .

(بیان)

غرض السورة بيان الأصول الثلاثة للدين فهي تبتدىء بالنبوة وتصف حال الناس في قبول الدعوة وردها وأن غاية الدعوة الحقة إحياء قوم بركوبهم صراط السعادة وتحقيق القول على آخرين وبعبارة أخرى تكميل الناس في طريقي السعادة والشقاء .

ثم تنتقل السورة إلى التوحيد فتعد جملة من آيات الوحدانية ثم تنتقل إلى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء وامتياز المجرمين يومشذ من المتقين وتصف ما تؤول إليه حال كل من الفريقين .

ثم ترجع إلى ما بدأت فتلخص القول في الأصول الشلاثة وتستدل عليها وعنـد ذلك تختتم السورة .

ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : ﴿إِنَمَا أَمُره إِذَا أَرَادَ شَيَّا أَنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ فَسَبَحَانَ الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون فالسورة عظيمة الشأن تجمع أصول الحقائق وأعراقها وقد ورد من طرق العامة والخاصة أن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس(١).

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : ﴿ يُس والقرآن الحكيم ﴾ إلى قوله ﴿ فهم غافلون ﴾ إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي مسلمة من المرسلين ، وقد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقراً فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ .

وقوله : ﴿إِنْكُ لَمِنَ الْمُرْسِلِينَ ﴾ مقسم عليه كما تقدم .

وقوله: ﴿ وَعلى صراط مستقيم ﴾ خبر بعد خبر لقوله: ﴿ إنك ﴾ ، وتنكير الصراط _ كما قيل ـ للدلالة على التفخيم وتوصيفه بالمستقيم للتوضيح فإن الصراط هو الطريق الواضح المستقيم ، والمراد به الطريق الذي يوصل عابريه إلى الله تعالى أي إلى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبودية لله والقرب ، وقد تقدم في تفسير الفاتحة بعض ما ينفع في هذا المقام من الكلام .

وقوله: ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ وصف للقرآن مقطوع عن الوصفية منصوب على المدح ، والمصدر بمعنى المفعول ومحصل المعنى أعني بالقرآن ذاك المنزل الذي أنزله الله العزيز الرحيم الذي استقر فيه العزة والرحمة .

 ⁽١) رواه الصدوق في ثواب الأعمال عن أبي عبد الله عليه السلام والسيوطي في الدر المنشور عن أنس
 وأبي هريرة ومعقل بن يسار عن النبي ﷺ .

والتذييل بالوصفين للإشارة إلى أنه قاهر غير مقهور وغالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته ولا يستذله جحود الجاحدين وتكذيب المكذبين ، وأنه ذو رحمة واسعة لمن يتبع الذكر ويخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم إلى ما فيه سعادتهم وكمالهم فهو بعزته ورحمته أرسل الرسول وأنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحق كلمة العذاب على بعضهم ويشمل الرحمة منهم آخرين .

وقوله :﴿لتندر قوماً ما أندر آباؤهم فهم غافلون ﴾ تعليل لـالإرسال والتنزيل و ﴿ما ﴾ نافية والجملة صفة لقوله : ﴿قوما ﴾ والمعنى إنما أرسلك وأنزل عليك القرآن لتنذر وتخوف قوماً لم ينذر آباءهم فهم غافلون .

والمراد بالقوم إن كان هو قريش ومن يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون فإن الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبي إسماعيل ذبيح الله ، وقد أرسل إلى العرب رسل آخرون كهود وصالح وشعيب عليهم السلام ، وإن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظراً إلى عموم الرسالة فكذلك أيضاً فآخر رسول معروف بالرسالة قبله وسلما هو عيسى مالته وبينهما زمان الفترة .

واعلم أن ما ذكرناه في تركيب الأيات هو الذي يسبق منها إلى الفهم وقد أوردوا في ذلك وجوها أخر بعيدة عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطولات .

قوله تعالى : ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ اللام للقسم أي أقسم لقد ثبت ووجب القول على أكثرهم ، والمراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول .

والمراد بالقول الذي حق عليهم كلمة العذاب التي تكلم بها الله سبحانه في بدء الخلقة مخاطباً بها إبليس: ﴿ الحق والحق أقول الأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (١) والمراد بتبعية إبليس طاعته فيما يأمر به بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية وترسخ في النفس كما يشير إليه قوله تعالى خطاباً لإبليس: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ (٢).

ولازمه الطغيان والاستكبار على الحق كما يشير إليه ما يحكيه الله من تساؤل المتبوعين والتابعين في النار: ﴿ بل كنتم قوماً طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ (١) ، وقوله: ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (٢) .

ولازمه الانكباب على الدنيا والإعراض عن الآخرة بالمرة ورسوخ ذلك في نفوسهم قال تعالى: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون (٢) فيطبع الله على قلوبهم ومن آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون (٤).

وبما تقدم ظهر أن الفاء في قوله : ﴿فهم لا يؤمنون﴾ للتفريع لا للتعليل كما احتمله بعضهم .

قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ الأعناق جمع عنق بضمتين وهو الجيد ، والأغلال جمع غل بالكسر وهي على ما قيل ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ومقمحون اسم مفعول من الإقماح وهو رفع الرأس كأنهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم إلى أذقانهم فبقيت رؤوسهم مرفوعة إلى السماء لا يتأتى لهم أن ينكسوها فينظروا إلى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها ويميزوها من غيرها .

وتنكير قوله: ﴿أغلالا للتفخيم والتهويل.

والآية في مقام التعليل لقوله السابق : ﴿ فَهُمَ لَا يَوْمُنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون السد الحاجز بين الشيئين ، وقوله : ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم كناية عن جميع الجهات ، والغشي والغشيان التغطية يقال : غشيه كذا أي غطاه

⁽١) الصافات : ٣٢ .

⁽٣) النحل : ١٠٨ .(٤) يونس : ٩٦ .

⁽٢) الزمر : ٧٢ .

وأغشى الأمر فلاناً أي جعل الأمر يغطيه ، والآية متممة للتعليل السابق وقوله : ﴿جعلنا﴾ معطوف على ﴿جعلنا﴾ المتقدم .

وعن الرازي في تفسيره في معنى التشبيه في الآيتين أن المانع عن النظر في الآيات قسمان: قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه ولا يقع بصره على بدنه، وقسم يمنع عن النظر في الأفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الأفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما حرم عن النظر بالكلية.

ومعنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً نشد بها أيديهم على أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مرفوعة رؤوسهم باقون على تلك الحال وجعلنا من جميع جهاتهم سداً فجعلناه يغطيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون .

ففي الآيتين تمثيل لحالهم في حرمانهم من الاهتداء إلى الإيمان وتحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم وغوايتهم وطغيانهم في ذلك .

وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله لا يستحيى أَنْ يَضَرَبُ مِثْلاً﴾(١) في الجزء الأول من الكتاب أَنْ مَا وقع في القرآن الكريم من هذه الأوصاف ونظائرها التي وصف بها المؤمنون والكفار يكشف عن حياة أخرى للإنسان في باطن هذه الحياة الدنيوية مستورة عن الحس المادي ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالموت أو البعث ، وعليه فالكلام في أمثال هذه الآيات جار في مجرى الحقيقة دون المجاز كما عليه القوم .

قوله تعالى: ﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون عطف تفسير وتقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمة وتلخيص للمراد وتمهيد لما يتلوه من قوله: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ الآية .

واحتمل أن يكون عطفاً على قوله : ﴿لا يبصرون﴾ والمعنى فهم لا يبصرون ويستوي عليهم إنذارك وعدم إنذارك لا يؤمنون والوجه الأول أقرب إلى الفهم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَنْذُرُ مِنْ اتَّبِعُ الذِّكُرُ وَحُشِّي الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ فَبَشَّرُهُ بَمَغَفَّرَةً

⁽١) البقرة : ٢٦ ،

وأجر كريم القصر للإفراد ، والمراد بالإنذار الإنذار النافع الذي له أثر ، وبالذكر القرآن الكريم ، وباتباعه تصديقه والميل إليه إذا تلبت آياته ، والتعبير بالماضي للإشارة إلى تحقق الوقوع ، والمراد بخشية الرحمن بالغيب خشيته تعالى من وراء الحجاب وقبل انكشاف الحقيقة بالموت أو البعث ، وقيل : أي حال غيبته من الناس بخلاف المنافق وهو بعيد .

وقد علقت الخشية على اسم الرحمن الدال على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإشعار بأن خشيتهم خوف مشوب برجاء وهو الذي يقر العبد في مقام العبودية فملا يأمن ولا يقنط.

وتنكير ﴿مغفرة﴾ و ﴿أجر كريم﴾ للتفخيم أي فبشره بمغفرة عظيمة من الله وأجر كريم لا يقادر قدره وهو الجنة ، والدليل على جميع ما تقدم هو السياق .

والمعنى : إنما تنذر الإنذار النافع الذي له أثر ، من اتبع القرآن إذا تليت عليه آياته وما إليه وخشي الرحمن خشية مشوبة بالرجاء فبشره بمغفرة عظيمة وأجر كريم لا يقادر قدره .

قوله تعالى : ﴿إِنَا نَحِن نَحِي الموتى وَنَكْتُب مَا قَدَمُوا وَآثَارَهُم وَكُلُّ شَيءَ أَحْصِينَاهُ فِي إِمَامُ مَبِينَ﴾ المراد بإحياء الموتى إحياؤهم للجزاء .

والمراد بما قدموا الأعمال التي عملوها قبل الوفاة فقدموها على موتهم، والمراد بآثارهم ما تركوها لما بعد موتهم من خير يعمل به كتعليم علم ينتفع به أو بناء مسجد يصلى فيه أو ميضاة يشوضاً فيها، أو شر يعمل به كوضع سنة مبتدعة يستن بها أو بناء مفسقة يعصى الله فيها.

وربما قيل: إن المراد بما قدموا النيات وبآشارهم الأعمال المترتبة المتفرعة عليها وهو بعيد من السياق .

والمراد بكتابة ما قدموا وآثارهم ثبتها في صحائف أعمالهم وضبطها فيها بواسطة كتبة الأعمال من الملائكة وهذه الكتابة غير كتابة الأعمال وإحصائها في الإمام المبين الذي هو اللوح المحفوظ وإن توهم بعضهم أن المراد بكتابة ما قدموا وآثارهم هو إحصاؤها في الكتاب المبين وذلك أنه تعالى يثبت في كلامه كتاباً يحصي كل شيء ثم لكل أمة كتاباً يحصي أعمالهم ثم لكل إنسان كتاباً يحصي

أعماله كما قال : ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾(١) ، وقال : ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾(٢) ، وقال : ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾(٣) ، وظاهر الآية أيضاً يقضي بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال والإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص والعموم واختلاف التعبير بالكتابة والإحصاء .

وقوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ هو اللوح المحفوظ من التغيير الذي يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه في خلقه فيحصي كل شيء وقد ذكر في كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللوح المحفوظ وأم الكتاب والكتاب المبين والإمام المبين كل منها بعناية خاصة.

ولعل العناية في تسميته إماماً مبيناً أنه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم وكتب الأعمال كما سيأتي في تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾(١) .

وقيـل : المراد بـالإمام المبين صحف الأعمـال وليس بشيء ، وقيل : علمـه تعالى وهو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلي كان له وجه .

ومن عجيب القول في هذا المقام ما ذكره بعضهم أن الذي كتب في اللوح المحفوظ هو ما كان وما يكون إلى يوم القيامة لا حوادث العالم إلى أبد الأبدين وذلك أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناهي الأبعاد كما يشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف عندنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفاً لغير المتناهي وهو محال بالبديهة قالوجه تخصيص عموم كل شيء والقول بأن المراد به الحوادث إلى يوم القيامة هذا . وهو تحكم وسنتعرض له تفصيلاً .

والآية في معنى التعليل بالنسبة إلى ما تقدمها كأنه تعالى يقول: ما أخبرنا بمه ووصفناه من حال أولئك الـذين حق عليهم القـول وهؤلاء الـذين يتبعـون الـذكـر ويخشون ربهم بالغيب هو كذلك لأن أمر حياة الكل إلينا وأعمالهم وآثارهم محفوظة عندنا فنحن على علم وخبرة بما تؤول إليه حال كل من الفريقين.

 ⁽١) الأنعام : ٥٩ .
 (٣) الإسراء : ١٣ .

۲۹ : الجاثية : ۲۸ .
۲۸ الجاثية : ۲۹ .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿فهم مقمحون﴾ قال : قد رفعوا رؤوسهم .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر مشخف في قوله تعالى: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ الهدى ، أخذ الله سمعهم وأيصارهم وقلوبهم وأعمالهم عن الهدى .

نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته وذلك أن النبي منارش قام يصلي وقد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي ليدمغه (۱) فجاءه ومعه حجر والنبي منارش قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه أثبت الله عز وجل يده إلى عنقه ولا يدور الحجر بيده فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده.

ثم قام رجل آخر وهو رهطه أيضاً فقال أنا أقتله فلما دنا منه فجعل يسمع قراءة رسول الله مسئمات فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال : حال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه فخفت أن أتقدم .

وقوله تعالى : ﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فلم يؤمن من أولئك الرهط من بني مخزوم أحد .

أقول: وروى نحواً منه في الدر المنثور عن البيهةي في الدلائل عن ابن عباس وفيه أن ناساً من بني مخزوم تواطؤا بالنبي سنوات ليقتلوه منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة فبينا النبي نيوات قائم يصلي يسمعون قراءته فأرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانطلق إليهم فأعلمهم ذلك فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إليه فيسمعون أيضاً من خلفهم فانصرفوا فلم يجدوا إليه سبيلاً. فذلك فوجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الـدلائل عن ابن عبـاس قال : كان النبي سنداه في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به نـاس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاؤا إلى النبي

⁽١) دمغه أي شجه حتى بلغت الشجة دماغه .

مسنية فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي مسنية فيهم قبرابة فدعا النبي سنية حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت: ويس والقرآن الحكيم إلى قوله وأم لم تنذرهم لا يؤمنون . قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

أقول: وقد رووا القصة بأشكال مختلفة في بعضها أن رسول الله علم الآيات فاحتجب منهم فلم يروه ودفع الله عنه شرهم وكيدهم، وفي بعضها أن الآيات ـ من أول السورة إلى قوله: ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ ـ نزلت في القصة فقوله: ﴿ إنّا جعلنا ﴾ إلى آخر الآيتين يقص صنع الله بهم في ستر النبي مسلم عن أبصارهم وقوله: ﴿ وسواء عليهم ﴾ النج يخبر عن عدم إيمان ذاك النفر.

وأنت خبير بأن سياق الآيات يـأبى الانطباق على هذه الـروايات بمـا فيها من القصـة فهو سيـاق متناسق منسجم يصف حـال طـائفتين من النـاس وهم الـذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون والذين يتبعون الذكر ويخشون ربهم بالغيب .

وأين ذلك من حمل قبوله: ﴿لقد حق القبول على أكثرهم على الناس المنذرين وحمل قوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم ﴾ و ﴿جعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ الأيتين على قصة أبي جهل ورهطه ، وحمل قوله : ﴿وسسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ على رهطه وأضف إلى ذلك حمل قبوله : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ على وهمة قوم من الأنصار بالمدينة وسيوافيك خبره فيختل بذلك السياق وتنثلم وحدة النظم .

فالحق أن الآيات نازلة دفعة ذات سياق واحد تصف حال الناس وتفرقهم عنـ د ملوغ الدعوة ووقوع الإنذار على فرقتين ، ولا مانع من وقوع القصـة واحتجاب النبي من أعداثه بالآيات .

وفيه أخرج عبد الرزاق والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال: كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله: ﴿ إِنَا نَحْنُ نَحْنِي المُوتِي وَنَكْتُبُ مَا قَدْمُوا وَآثَارُهُم ﴾ فدعاهم رسول الله المستنا فقال: إنه يكتب آثاركم ثم قرأ عليهم الآية فتركوا.

وفيه أخرج الفاريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ فقالوا : بل نمكث مكاننا .

أقول : والكلام في الروايتين كالكلام فيما تقدمهما .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله المبينة : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء . ثم تلا هذه الأية ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي في كتاب مبين وهو محكم ، وذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين طلنت : أنا والله الإمام المبين أبين الحق من الباطل ورثته من رسول الله مملية .

وفي معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عليهم السلام عن النبي مسلسة في حديث أنه قال في علي مسلسة أنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء .

أقول: الحديثان لو صحالم يكونا من التفسير في شيء بـل مضمونهما من بطن القرآن وإشـاراته، ولا مـانع من أن يـرزق الله عبداً وحـده وأخلص العبوديـة له العلم بما في الكتاب المبين وهو مانخ سيد الموحدين بعد النبي ماندين وهو مانخ سيد الموحدين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبي ماندين والمبين وهو مانخ سيد الموحدين بعد النبي ماندين والمبين وهو مانخ سيد الموحدين بعد النبي ماندين والمبين وهو مانخ سيد الموحدين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبين والموحدين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبين والموحدين بعد النبين والموحدين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبي الموحدين بعد النبي الموحدين بعد النبي ماندين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبي الموحدين بعد النبي ماندين والموحدين بعد النبي الموحدين بعد الموحدين الموحدين بعد المو

* * *

وَآضُرِبْ لَهُمْ مَثلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ آثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّرْنَا بِشَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَآ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَآ أَنْزَلَ آلرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَوْنَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوآ إِنَّا تَطَيَّرْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوآ إِنَّا تَطَيَّرْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوآ إِنَّا تَطَيَّرْنَا

بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَوْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَـالُوا طَآئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمُ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلَ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلَكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ آلـرَّحْمَٰنُ بِضُرَّ لَا تُغْن عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْسًا وَلاَ يُنْقِلُونِ (٢٣) إِنِّي إِذا لَفِي ضَللال ِ مُبين (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَـالَ يَسا لَيْتَ قَـوْمِي يَعْلَمُـونَ (٢٦) بِمَـا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنْسِزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَسإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَىٰ الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزُءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلُّ لَمًّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) .

(بیان)

مثل مشتمل على الإنذار والتبشير ضربه الله سبحانه لعامة القوم يشير فيه إلى الرسالة الإلهية وما تستتبعه الدعوة الحقة من المغفرة والأجر الكريم لمن آمن بها واتبع الـذكر وخشي الـرحمان بالغيب، ومن العذاب الأليم لمن كفر وكذب بها فحق عليه القول، وفيه إشارة إلى وحدانيته تعالى ومعاد الناس إليه جميعاً.

ولا منافاة بين إخباره بأنهم لا يؤمنون سواء أنذروا أم لم ينذروا وبين إنذارهم لأن في البلاغ إتماماً للحجة وتكميلًا للسعادة أو الشقاوة قال تعالى : ﴿ليهلك من هلك عن

بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾(١) ، وقال ؛ ﴿وننزل من القرآن ما هـو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبُ لَهُمْ مَثْلًا أَصِحَابُ الْقَرِيةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُسْلُونَ ﴾ المثل كلام أو قصة يمثل به مقصد من المقاصد فيتضح للمخاطب ، ولما كانت قصتهم توضح ما تقدم من الوعد والوعيد أمر نبيه مُسِلِينَهُ أَنْ يَضْرِبُهَا مِثْلًا لَهُمْ .

والنظاهر أن ﴿مثلاً﴾ مفعول ثنان لقوله: ﴿اضربِ﴾ ومفعوله الأول قنوله: ﴿اصحاب القرية ﴾ ومفعوله الأول قنوله: ﴿أصحاب القرية وحالهم هذه الحال مشلاً وقد قدم المفعول الثاني تحرزاً عن الفصل المخل.

قوله تعالى : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهُمُ اثْنِينَ فَكَذَبُوهُمَا فَعَزَرْنَا بِثَالَتْ فَقَـالُوا إِنَّا إِلَيْكُمُ مُرْسَلُونَ﴾ التعزيز من العزة بمعنى القوة والمنعة ، وقـوله : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهُمَ ﴾ بيان تفصيلي بقوله : ﴿إِذْ جَاءُهَا المرسلونَ ﴾ .

والمعنى: واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية وهم في زمان أرسلنا إليهم رسولين اثنين من رسلنا فكذبوهما أي الرسولين فقويناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنا إليكم مرسلون من جانب الله .

قوله تعالى: وقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمان من شيء إن أنتم إلا تكذبون في كانوا يرون أن البشر لا ينال النبوة والوحي، ويستدلون على ذلك بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئاً من ذاك القبيل فيسرون الحكم إلى نفوس الأنبياء مستندين إلى أن حكم الأمثال واحد.

وعلى هذا التقرير يكون معنى قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحَمَنُ مِن شَيَّ ﴾ لم ينزَلُ الله وحياً ولو نزل شيئاً على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك ، وتعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمن إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه واتصافه بكرائم الصفات (٣) كالخلق والرحمة والملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر

⁽١) الأنفال : ٤٢ .

⁽٢) الإسراء: ٨٢ -

 ⁽٣) لكنهم مختلفون في تفسيرها والصابئون يفسرونها بالنفي فمعنى المالم والقادرعندهم من ليس بجاهل وعاجز .

التدبير إلى مقربي خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون والألهة المعبودون ، وأما الله عز اسمه فهو رب الأرباب وإله الألهة .

ومن الممكن أن يكون ذكر اسم السرحمان في الحكماية دون المحكي فيكون التعبير به لحلمه ورحمته تعالى قبال إنكارهم وتكذيبهم للحق الصريح .

وقوله: ﴿إِن أَنتم إِلا تَكذبون﴾ بمنزلة النتيجة لصدر الآية ، ومحصل قولهم أنكم بشر مثلنا ولا نجد نحن على بشريتنا في نفوسنا شيئاً من الوحي النازل الذي تدعونه وأنتم مثلنا فما أنزل الرحمان شيئاً من الوحي فدعواكم كاذبة وإذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون .

ويظهر بما تقدم نكتة الحصر في قوله: ﴿إِنْ أَنتُم إِلاَ تَكَلَّبُونَ ﴾ وكلذا الوجه في نفي الفعل في الحال دون في الفعل في الحال دون الاستمرار والاستقبال.

قوله تعالى: ﴿قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين له لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جواباً عن حجة قومهم ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا له المنعوثين إلى الأمم الدارجة لما احتجت أممهم بمثل هذه الحجة ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا له فردتها رسلهم بقولهم : ﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾(١) وقد مر تقريره .

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون إليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلا ذلك وأنهم في غنى عن تصديقهم لهم وإيمانهم بهم ويكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لا حاجة لهم إلى أزيد من ذلك .

فقوله: ﴿قَالُوا رَبّنا يَعلم إِنَا إِلَيْكُم لَمُرْسِلُونَ ﴾ إخبار عن رسالتهم وقد أكد الكلام بإن المشددة المكسورة واللام ، والاستشهاد بعلم ربهم بذلك ، وقوله: ﴿وَرَبّنا يَعلم ﴾ معترض بمنزلة القسم ، والمعنى إنا مرسلون إليكم صادقون في دعوى الرسالة ويكفينا في ذلكم علم ربنا الذي أرسلنا بها ولا حاجة لنا فيه إلى تصديقكم لنا ولا نفع لنا فيه من أجر ونحوه ولا يهمنا تحصيله منكم بل الذي يهمنا هو تبليغ الرسالة وإتمام الحجة .

⁽١) إيراهيم : ١١ .

وقوله : ﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ البلاغ هـ والتبليغ والمراد به تبليغ الرسالة أي لم نؤمر ولم نكلف إلا بتبليغ الرسالة وإتمام الحجة .

قوله تعالى : ﴿قالُوا إِنَا تَـطيرنا بِكُم لَئُن لَم تَنتهوا لَنْرَجَمَنُكُم وَلِيمَسَنُكُم مَنا عَذَابِ أَلِيم القائلُونَ أَصِحَابِ القرية والمخاطبون هم الرسل ، والتطير هو التشام وقولهم : ﴿لَئُن لَم تَنتهوا ﴾ الخ ، تهديد منهم للرسل .

والمعنى: قالت أصحاب القرية لرسلهم: إنا تشأمنا بكم ونقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ ولم تكفوا عن الدعوة لنرجمنكم بالحجارة وليصلن إليكم وليقعن بكم منا عذاب أليم .

قوله تعالى : ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾ القائلون هم الرسل بخاطبون به أصحاب القرية .

وقوله: ﴿طائركم معكم﴾ الطائر في الأصل هو الطير وكنان يتشاءم به ثم توسع واستعمل في كل ما يتشاءم به ، وربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث ، وربما يستعمل في البخت الشقي الذي هو أمر موهوم يسرونه مبدأ لشقاء الإنسان وحرمانه من كل خير .

وكيف كان فقوله: ﴿طَائرُكُم مَعْكُم﴾ ظاهر معناه أن الـذي ينبغي أن تتشاءموا به هو معكم وهو حالة إعراضكم عن الحق الذي هو التوحيد واقبالكم إلى الباطل الذي هو الشرك.

وقيل: المعنى طائركم أي حظكم ونصيبكم من الخيـر والشر معكم من أفعـالكم إن خيراً فخير وإن شــراً فشر، هــذا وهو أخــذ الطائـر بالمعنى الشاني لكن قولـه بعد: ﴿ أَئن ذكرتم بِل أَنتم قوم مسرفون﴾ أنسب بالنسبة إلى المعنى الأول.

وقوله: ﴿أَنُن ذَكَرَتُم﴾ استفهام تـوبيخي والمراد بـالتذكيـر تذكيـرهم بالحق من وحدانيته تعالى ورجوع الكل إليه ونحـوهما وجـزاء الشرط محـذوف في الكلام تلويحـاً إلى أنه مما لا ينبغي أن يذكر أو يتفوه به والتقدير ءإن ذكـرتم بالحق قـابلتموه بمثـل هذا الجحود الشنيع والصنيع الفظيع من التطير والتوعد.

وقوله : ﴿ بِل أَنتُم قوم مسرفون ﴾ اي مجاوزون للحد في المعصية وهو إضراب

عما تقدم والمعنى بل السبب الأصلي في جحودكم وتكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف ومجاوزة الحد .

قوله تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبة إلى مبدأ مفروض، وقد بدلت القرية في أول الكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها والسعي هو الإسراع في المشي.

ووقع نظير هذا التعبير في قصة موسى والقبطي وفيها ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ فقدم ﴿رجل ﴾ هناك وأخر ههنا ولعل النكتة في ذلك أن الاهتمام هناك بمجيء الرجل وإخباره موسى بائتمار الملا لقتله فقدم الرجل ثم أشير إلى اهتمام الرجل نفسه بإيصال الخبر وإبلاغه فجيء بقوله : ﴿يسعى ﴾ حالاً مؤخراً بخلاف ما ههنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه وبين السرسل في أمر الدعوة فقدم ﴿من أقصى المدينة ﴾ وأخر الرجل وسعيه .

وقد اشتد الخلاف بينهم في اسم الرجل واسم أبيه وحرفته وشغله ولا يهمنا الاشتغال بذلك في فهم المراد ولو توقف عليه الفهم بعض التوقف لأشار سبحانه في كلامه إليه ولم يهمله .

وإنما المهم هو التدبر في حظه من الإيمان في هذا الموقف الذي انتهض فيه لتأييد الرسل عليهم السلام ونصرتهم فقد كان على ما يعطيه التدبر في المنقول من كلامه رجلًا نور الله سبحانه قلبه بنور الإيمان يؤمن بالله إيمان إخلاص يعبده لا طمعاً في جنة أو خوفاً من نار بل لأنه أهل للعبادة ولذلك كان من المكرمين ولم يصف الله سبحانه في كلامه بهذا الوصف إلا ملائكته المقربين وعباده المخلصين ، وقد خاصم القوم فخصمهم وأبطل ما تعلق به القوم من الحجة على عدم جواز عبادة الله سبحانه ووجوب عبادة آلهتهم وأثبت وجوب عبادته وحده وصدق الرسل في دعواهم الرسالة ثم آمن بهم .

قوله تعالى: ﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ بيان لقوله: ﴿ أتبعوا المرسلين ﴾ وفي وضع قوله: ﴿ ومن لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ﴾ في هذه الآية موضع قوله: ﴿ السابقة إشعار بالعلية وبيانها أن عدم جواز اتباع قائل في قوله إنما يكون لأحد أمرين: إما لكون قوله ضلالاً والقائل به ضالاً ولا يجوز اتباع الضال في ضلاله ، وإما لأن القول وإن كان حقاً والحق واجب الاتباع لكن لقائله

غرض فاسد يريد أن يتوسل إليه بكلمة الحق كاقتناء المال واكتساب الجاه والمقام ونحو ذلك ، وأما إذا كان القول حقاً وكان القائل بريئاً من الغرض الفاسد منزهاً من الكيد والمحر والحيانة كان من الواجب اتباعه في قوله ، وهؤلاء الرسل مهتدون في قولهم : لا تعبدوا إلا الله ، وهم لا يريدون منكم أجراً من مال أو جاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم في قولهم .

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجة على صدق ما يدعون إليه من التوحيد وكونه حقاً.، والحجة هي قوله : ﴿ومالي لا أعبد﴾ إلى تمام الآيتين .

وأما أنهم لا يريدون منكم أجراً فلما دل عليه قبولهم : ﴿رَبُّنَا يَعْلُمُ إِمَّا اللَّهُمُ لَمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ اللّ

وبهذا البيان يتأيد ما قدمناه من كون قولهم : ﴿رَبُّنَا يَعَلُّمُ الْمُوسِلُونَ﴾ مسوقاً لنفي إرادتهم من القوم أجراً أو غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَيُ لا أُعبِد الذِي فَطَرِنِي وَإِلَيْه تَرجعونُ وَأَتَخَذَ مَن دُونُه آلِهِ هَ إِلَى قوله ﴿ وَلا يَتَقَدُونَ ﴾ شرع في استفراغ الحجة على التوحيد ونفي الآلهة في آيتين واختار لذلك سياق التكلم وحده إلا في جملة اعترض بها في خلال الكلام وهي قوله : ﴿ وَإِلَيْه تَرجعونَ ﴾ وذلك بإجراء الحكم في نفسه بما أنه إنسان أوجده الله وفطره حتى يجري في كل إنسان هو مثله والأفراد أمثال فقوله : ﴿ وَمَا لَيْ لا أَعبِد ﴾ النح . في معنى وما للإنسان لا يعبد النح . أيتخذ الإنسان من دونه آلهة النح .

وقد عبر عنه تعالى بقوله: ﴿ الله فطرني ﴾ للإشعار بالعلية فإن فطره تعالى للإنسان وإيجاده له بعد العدم لازمه رجوع كل ما للإنسان من ذات وصفات وأفعال إليه تعالى وقيامه به وملكه له فليس للإنسان إلا العبودية محضة فعل الإنسان أن ينصب نفسه في مقام العبودية ويظهرها بالنسبة إليه تعالى وهذا هو العبادة فعليه أن يعبده تعالى لأنه أهل لها .

وهذا هو الذي أشرنا إليه آنفاً أن الرجل كان يعبد الله بالإخـــلاص له لا طمعــاً في جنة ولا خوفاً من نار بل لأنه أهـل للعبادة .

وإذ كان الإيمان به تعالى وعبادته هكذا أمراً لا يناله عبامة النباس فإن الأكثرين منهم إنما يعبدون خوفاً أو طمعاً أو لكليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه إلى القوم فقال : ﴿وَإِلَيْهُ تُرْجَعُونَ﴾ يريد به إنذارهم بيوم الرجوع وأنه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوي أعمالهم فقوله : ﴿وَإِلَيْهُ تَرْجَعُونَ﴾ كالمعترضة الخارجة عن السياق أو هي هي .

ثم إن الآيتين حجتان قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنية وبنوا على ذلك عبادة الأصنام وأربابها .

توضيح ذلك أنهم قالوا: إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شيء من القوى الإدراكية فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجه إلى مقربي حضرته والأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام والجن والقديسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند الله في إيصال الخيرات ودفع الشرور والمكاره.

والجواب عن أولى الحجتين بما حاصله أن الإنسان وإن كان لا يحيط علماً بالذات المتعالية لكنه يعرفه تعالى بصفاته الخاصة به مثل كونه فاطراً لـه موجداً إياه فله أن يتوجه إليه من طريق هذه الصفات وإنكار إمكانه مكابرة ، وهذا الجواب هو الـذي أشار إليه بقوله : ﴿وَمَا لَي لا أُعبِد الذي فطرني﴾ .

وعن الثانية أن هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعة كانت مما أفاضه الله عليهم والله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلا فيما لا تتعلق به منه إرادة حاتمة ولازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال: ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾(١) أما إذا أراد الله شيئاً إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئاً في المنع عن نفوذها فاتخاذهم آلهة وعدمه سواء في عدم التأثير لجلب خير أو دفع شر، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ءأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تُغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾.

وتعبيره عنه تعالى بالرحمان إشارة إلى سعة رحمته وكثرتها وأن النعم كلها من عنده وتدبير الخير والشر إليه ويتحصل من هنا برهان آخر على وحدانيته تعالى في الربوبية ، إذ لما كان جميع النعم وكذا النظام الجاري فيها ، من رحمته وقائمة به من غير استقلال في شيء منها كان المستقل بالتدبير هو تعالى حتى أن تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته تدبيره تعالى وكانت الربوبية له تعالى وحده وكذا الألوهية .

⁽١) يونس : ٣ .

قوله تعالى : ﴿إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالَ مبينَ ﴾ تسجيل للضلال على اتخاذ الألهة .

قوله تعالى: ﴿إِنِّي آمنت بربكم فاسمعون من كلام الرجل خطاباً للرسل وقوله: ﴿إِنِّي آمنت بربكم النح . وقوله: ﴿إِنِّي آمنت بربكم النح . تجديد الشهادة بالحق وتأكيد للإيمان فإن ظاهر السياق أنه إنما قال: ﴿إِنِّي آمنت بربكم بعد محاجته خطاباً للرسل ليستشهدهم على إيمانه وليؤيدهم بإيمانهم بمرئى من القوم ومسمع .

وقيل: إنه خطاب للقوم تأييداً للرسل، والمعنى: إني آمنت بالله فاسمعوا مني فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك أو المعنى إني آمنت بالله فاسمعوا مني وآمنوا به أو أنه أراد به أن يغضبهم ويشغلهم عن الرسل بنفسه حيث إنه رآى أنهم بصدد الإيقاع بهم. هذا.

وفيه أنه لا يلاثمه التعبيـر عن الله سبحانـه بقولـه : ﴿ربكم﴾ فإن القـوم ما كـانوا يتخذونه تعالى رباً لهم وإنما كانوا يعبدون الأرباب من دون الله سبحانه .

ورد بأن المعنى إني آمنت بربكم الـذي قامت الحجة على ربوبيته لكم وهو الله سبحانه . وفيه أنه تقييد من غير مقيد .

قوله تعالى: ﴿قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين الخطاب للرجل وهو - كما يفيده السياق - يلوح إلى أن القوم قتلوه فنودي من ساحة العزة أن ادخل الجنة كما يؤيده قوله بعد: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده النخ فوضع قوله: ﴿قيل ادخل الجنة موضع الإخبار عن قتلهم إياه إشارة إلى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم وبين أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاككان قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاككان قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاككان قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة .

والمراد بالجنة على هذا جنة البرزخ دون جنة الآخرة ، وقول بعضهم : إن المراد بها جنة الأخرة والمعنى سيقال له : ادخل الجنة . يوم القيامة والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع تحكم من غير دليل كما قيل : إن الله رفعه إلى السماء فقيل له ادخل الجنة فهو حي يتنعم فيها إلى قيام الساعة ، وهو تحكم كسابقه .

وقيل : إن القائل : ﴿ ادخل الجنة ﴾ هو القوم قالوا له ذاك حين قتله استهزاء وفيه أنه لا يلائم ما أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد : ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ الـخ فإن ظاهره أنه تمنى علم قومه بما هـ و فيه بعـ د استماع نـ داء ﴿ ادخل الجنــة ﴾ ولم يسبق من الكلام ما يصح أن يبتني عليه قوله ذاك .

وقوله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قُـومِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفُر لَيْ رَبِي وَجَعَلْنِي مِنْ الْمُكْرِمِينَ﴾ استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدر كأنه قيل : فماذا كبان بعد تأييده للرسل ؟ فقيل : ﴿قيل ادخل الجنة﴾ ثم قيل : فماذا كان بعد ؟ فقيل : ﴿قال يا ليت قومي يعلمون﴾ الخ وهو نصح منه لقومه ميتاً كما كان ينصحهم حياً .

و ﴿ما﴾ في قوله : ﴿بما غفر لي﴾ الخ مصدرية ، وقوله : ﴿وجعلني﴾ عطف على ﴿غفر﴾ والمعنى بمغفرة ربي لي وجعله إياي من المكرمين .

وموهبة الإكرام وإن كانت وسيعة ينالها كثيرون كالإكرام بـ النعمة كمنا في قوله : ﴿ فَأَمَا الْإِنْسَانَ إِذَا مَا ابْسَلَاهُ رَبِّهِ فَأَكْرَمُهُ وَنَعْمُهُ فَيُقَبُّولُ رَبِّي أَكْرَمْنَ ﴿ إِنَّ الْوَالَّهُ الْوَالَّا الْمِنْ اللَّهُ اللَّلَّ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّالِي اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّا ال أكرمكم عند الله اتقاكم (٢) فإن كرامة العبد عند الله إكرام منه لـ لكنه لم يعـد من المكرمين بوصف الاطلاق إلا طائفتين من خلقه : الملائكة الكرام كما في قوله : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم يأمره يعملون (٣) ، والكاملين في إيمانهم من المؤمنين سنواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما في قبوله : ﴿ اولئنك في جنات مكرمون﴾(٤)، أو من المخلصين بفتح اللام كما في قوله : ﴿إِلَّا عباد المخلصين﴾ إلى أن قال ﴿ وهم مكرمون﴾(^) .

والآية من أدلة وجود البوزخ .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمُهُ مِنْ بِعَدُهُ مِنْ جَنْدُ مِنْ السَّمَاءُ وَمَا كُنَا مِنْزَلِينَ ﴾ الضميـران للرجل ، و﴿من بعـده﴾ أي من بعد قتله ، و ﴿من﴾ الأولى والشالثة لابتـداء الغاية ، والثانية مزيدة لتأكيد النفي .

والآية توطئة للآية التالية ، وهي مسوقة لبيان هنوان أمر القنوم والانتقام منهم بـإهـلاكهم على الله سبحـانه وأنـه لا يحتاج في إهـلاكهم إلى عدة وعـدة حتى ينزل من السماء جنداً من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم قلم يفعل ذلك فيهم ولا فعل ذلك في إهلاك من أهلك من الأمم الماضين وإنما أهلكهم بصيحة واحدة تقضى عليهم .

(١) الفجر: ١٥ .

(٢) الحجرات : ١٣ . (٤) المعارج : ٣٥ .

(٣) الأنبياء : ٢٧ .

(٥) الصافات : ٤٢ .

قوله تعالى : ﴿إِن كَانْتَ إِلاَ صَيْحَةُ وَاحَدَةً فَإِذَا هُمْ خَاصَدُونَ ﴾ أي ما كان الأمر الذي كان سبب إهلاكهم بمشيئتنا إلا صيحة واحدة ،وتأنيث الفعل لتأنيث الخبر وتنكير ﴿صيحة ﴾ وتوصيفها بالوحدة للاستحقار ، والخمود السكون ، واستئناف الجملة لكونها كالجواب لسؤال مقدر كأنه قيل : فماذا كان سبب إهلاكهم ؟ فقيل : إن كانت إلا صيحة واحدة .

والمعنى : كان سبب هلاكهم أيسر أمر وهي صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا ساكنين لا يسمع لهم حس وهم عن آخرهم موتى لا يتحركون .

قوله تعالى : ﴿ يَا حَسَرَةَ عَلَى الْعَبَادُ مَا يَأْتَيْهُمْ مَنْ رَسُولُ إِلَّا كَانُوا بِهُ يَسْتُهُ رَوْنَ أي يا ندامة العباد ونداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم ، وسبب الحسرة ما يتضمنه قوله : ﴿ مَا يَأْتِيْهُمْ مَنْ رَسُولُ ﴾ النّح .

ومن هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامة الناس وتتأكد الحسرة بكونهم عباداً فإن رد العبد دعوة مولاه وتمرده عنه أشنع من رد غيره نصيحة الناصح .

وبذلك يظهر سخافة قول من قال : إن المراد بالعباد الرسل أو الملائكة أو هما جميعاً . وكذا قول من قال : إن المراد بالعباد الناس لكن المتحسر هو الرجل .

وظهر أيضاً أن قوله : ﴿ يَا حَسَرَةَ عَلَى الْعَبَادِ﴾ النَّحَ مَنْ قُولَ الله تَعَالَى لا مَنْ تَمَامُ قول الرجل .

قوله تعالى : ﴿ أَلَم يروا كُم أَهَلَكُنَا قَبِلُهُم مِنَ القَرُونَ أَنْهُمَ إِلَيْهُمَ لَا يَسْرَجُمُونَ ﴾ توبيخ لأولئك الذين نودي عليهم بالحسرة ، و ﴿ من القرونِ ﴾ بيان لكم ، والقرون جمع قرن وهو أهل عصر واحد .

وقوله : ﴿أَنهم إليهم لا يرجعون﴾ بيان لقوله : ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ ضمير الجمع الأول للقرون والثاني والثالث للعباد .

والمعنى : ألم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القــرون المــاضيـــة وأنهم مأخوذون بأخذ إليه لا يتمكنون من الرجوع إلى ما كانوا يترفون فيه ؟ .

وللقوم في مراجع الضمائر وفي معنى الآية أقـوال أخر بعيـدة عن الفهم تـركنــا إيرادها . قوله تعالى: ﴿وإن كل لما جميع لمدينا محضرون﴾ لفظة ﴿إن﴾ حرف نفي و ﴿كل﴾ مبتدأ تنويه عوض عن المضاف إليه ، و ﴿لما﴾ بمعنى إلا ، وجميع بمعنى مجموع ، ولدينا ظرف متعلق به ، ومحضرون خبر بعد خبر وهو جميع ، واحتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع .

والمعنى: وما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء يوم القيامة فالآية في معنى قوله: ﴿ذَلَكَ يُومُ مَجْمُوعُ لَهُ النّاسِ وَذَلَكَ يُومُ مَشْهُودُ﴾(١).

(بحث روائي)

في المجمع قالوا: بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غيمات له وهو حبيب صاحب يس فسلما عليه فقال الشيخ لهما: من أنتما ؟ قالا: رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال: أمعكما آية ؟ قالا نحن نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى فقال الشيخ: إن لي إبناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً فقشى الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى.

وكان لهم ملك يعبد الأصنام فأنهي الخبر إليه فدعاهما فقال لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة مالا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر . قال الملك : ولنا إله سوى آلهتنا ؟ قالا : نعم من أوجدك وآلهتك . قال : قوما حتى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق وضربوهما .

قال وهب بن منبه: بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها ولم يصلا إلى ملكها وطالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يـوم فكبرا وذكـرا الله فغضب الملك وأمر بحبسهما وجلد كل واحد منهما مائة جلدة .

فلما كذب الرسولان وضربا ، بعث عيسى شمعبون الصفا رأس الحواريين على أمرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه . ثم قبال له ذات يـوم :

⁽۱) هود : ۱۰۳ .

أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما ؟ قال الملك : حال الغضب بيني وبين ذلك . قال : فإن رأى الملك دعاهما حتى نتطلع ما عندهما .

فدعاهما الملك فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء لا شريك له. قال: وما آتاكما؟ قالا: ما تتمناه، فأمر الملك حتى جاءوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من البطين فوضعا في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك ثم قال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعاً مثل هذا؟ فيكون لك ولإلهك شرفاً. فقال الملك: ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبده لا يضر ولا ينفع.

ثم قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به وبكما. قالا: الهنا قادر على كمل شيء ، فقال الملك: إن ههنا ميتاً مات منذ أيام لم ندفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميت وقد تغير وأروح فجعلا يدعوان ربهما علائية وجعل شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال لهم إني قدمت منذ سبعة أيام وأدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك دعاه إلى الله فآمن وآمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون .

قال: وقد روى مثل ذلك العياشي بإسناده عن الثمالي وغيره عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام إلا أن في بعض الروايات: بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية ثم بعث الثالث، وفي بعضها أن عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثم بعث وصيه شمعون ليخلصهما، وأن الميت الذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك وأنه قد خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له: يا بني ما حالك؟ قال: كنت ميتاً فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني. قال: يا بني فتعرفهما إذا رأيتهما؟ وأل : نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمر عليه رجل بعد رجل فمر أحدهما بعد جمع كثير فقال: هذا أحدهما. ثم مر الآخر فعرفهما وأشار بيده إليهما فآمن الملك وأهل مملكته.

وقال ابن إسحاق : بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك

حبيباً وهو على بـاب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يـذكرهم ويـدعوهم إلى طـاعة الرسل .

أقول : سياق آيات القصة لا يلائم بعض هذه الروايات .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود وأبو نعيم وابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال : قال رسول الله مسلمة : الصديقين ثالاثة : حبيب النجار مؤمن آلياسين اللذي قال : يا قوم اتبعوا المرسلين ، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم .

أقول: ورواه أيضاً عن البخاري في تاريخه عن ابن عباس عنه منداله ولفظه: الصديقون ثلاثة: حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب آل ياسين وعلي بـن أبي طالب ،

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي بالإسناد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن النبي سند الله عن عبد الرحمن بن أبي طالب النبي سند الله قال : سباق الأمم ثـ لاثة لم يكفروا بالله طرفة عين علي بن أبي طالب وصاحب يس ومؤمن آل فرعون فهم الصديقون وعلي أفضلهم .

أقول: وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن الطبراني وابن مردويه وضعفه عن ابن عبـاس عنه منتخه ولفيظه: السبق ثلاثـة فالسـابق إلى موسى يـوشع بن نـون والسابق إلى محمد منتفق علي بن أبي طالب.

* * *

وَآيَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَامِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْكُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلًا يَشْكُرُونَ (٣٥) الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلًا يَشْكُرُونَ (٣٥) اللَّذُواجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ مُسْبَحَانَ ٱلنَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمْ النَّهُارَ فَإِذَا هُمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةً لَهُمُ آللَيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ آلنَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُطْلِمُونَ (٣٧) وَآلشَّمْسُ تَجرِي لِمُسْتَقَرِّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِينِ

الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَسَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا آلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آللَّهُلُ سَابِقُ آلَنَهَارِ وَكُلَّ فِي فَلَكِ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِيَّتَهُمْ فِي النَّهُلِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤١) وَإِنْ النَّهُمْ أَنْ فَيْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤١) وَإِنْ فَيْ أَنْ فَلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَحَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤١) وَإِنْ فَيْ أَنْ فَيْ أَنْ فَيْ وَمَا يَشَا فَيْوَا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آتَقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْقُوا مِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ آللَّهُ قَالَ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ آللَّهُ قَالَ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ آللَّهُ قَالَ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ آللَّهُ قَالَ لَا لِينَا عَنْهُ وَا لِللَّذِينَ آمَنُوا أَنْطُعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ آللَهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَا فِي ضَلَالً مُعِينِ (٤٤) .

(بیان)

بعد ما قص عليهم قصة أصحاب القرية وما آل إليه أمرهم في الشرك وتكذيب الرسلوويخهم على الشرك وتكذيب الرسلوويخهم على الاستهانة بأمرالرسالة ، وأنذرهم بننزول العذاب عليهم كمانزل على المكذبين من القرون الأولى ، وبأنهم جميعاً محضرون للحساب والجزاء .

أورد آيات من الخلق والتدبير تدل على ربوبيته والوهيته تعالى وحده لا شريك له ثم وبخهم على تـرك النظر في آيـات الوحـدانية والمعـاد والإعـراض عنهـا والاستهـذاء بالحق والإمساك عن الإنفاق للفقراء والمساكين .

قوله تعالى : ﴿وآية لهم الأرضى الميئة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يـأكلون﴾ يذكر سبحانه في الآية واللتين بعدها آية من آيات الربوبية وهي تدبير أمـر أرزاق الناس وتغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب والتمر والعنب وغيرها .

فقوله : ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ وإن كان ظاهـره أن الآية هي الأرض إلا أن الجملتين توطئتان لقوله : ﴿وَاخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ البخ ومسوقتـان للإشسارة إلى أن هذه الأغذية النباتية من آثار نفخ الحياة في الأرض الميتة وتبديلها حباً وثمراً يأكلون من ذلك فالآية بنظر هي الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواص فيها وتمام تـدبيـر رازاق الناس بها .

وقوله : ﴿وأخرجنا منها حباً﴾ أي وأخرجنا من الأرض بإنبات النبات حباً كالحنطة رالشعير والأرز وسائر البقولات .

وقوله : ﴿فَمَنَهُ يَأْكُلُونَ﴾ تَفْرِيعَ عَلَى إخراجِ الحبِّ وَبَالْأَكُلُ يَتُمُ التَّذَبِيرِ ، وضمير ﴿فَمَنَهُ﴾ للحب .

قوله تعالى : ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون﴾ بال الراغب : الجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى . والنخيل جمع خلل وهو معروف ، والأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة وهي الكرم وعلى الثمرة .

وقال الراغب: العين الجارحة _ إلى أن قال _ ويستعار العين لمعان هي موجودة ي الجارحة بنظرات مختلفة _ إلى أن قال ـ ويقال لمنبع الماء عين تشبيها بها لما فيها بن الماء انتهى ، والتفجير في الأرض شقها لإخراج المياه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمْرِهُ وَمَا عَمَلَتُهُ أَيْدِيهُمُ أَفْلًا يَشْكُرُونَ﴾ اللام لتعليل ما كر في الآية السابقة أي جعلنا فيها جنات وفجرنا فيها العيـون بشقها ليـأكل النـاس من مره .

وقوله : ﴿من ثمره﴾ قيل : الضمير للمجعول من الجنات ولذا أفرد وذكر ولم قل : من ثمرها أي من ثمر الجنات ، أو من ثمرهما أي من ثمر النخيل والأعناب .

وقيل : الضمير للمذكور وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة كما في قـول وبة :

فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجلد تسوليع البهق فقد روي أن أبا عبيدة سأله عن قوله: «كأنه» فقال كأن ذاك.

وفي مرجع ضمير ﴿من ثمره﴾ أقوال أخر رديئة كقول بعضهم: إن الضمير لنخيل فقط ، وقول آخر: إنه للماء لدلالة العيون عليه أو بحذف مضاف والتقدير ماء لعيون وقول آخر: إن الضمير للتفجير المفهوم من ﴿فجرنا﴾ والمراد بالثمر على هذين

الوجهين الفائدة ، وقول آخر : إن الضمير له تعالى وإضافته إليه لأنه خلقه وملكه .

وقوله: ﴿وَمَا عَمَلَتُهُ أَيَدِيهِم﴾ العمل هو الفعل والفرق بينهما على ما ذكره الراغب أن أكثر ما يستعمل العمل في الفعل المقارن للقصد والإرادة، ولذلك يشذ استعماله في الحيوان والجماد، ولذلك أيضاً يتصف العمل بالصلاح وخلافه فيقال : عمل صالح وعمل طالح ولا يتصف بهما مطلق الفعل .

و ﴿ما﴾ في ﴿وما عملته﴾ نافيه والمعنى ولم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا في تدبير الأرزاق بل هو مما اختصصنا بخلقه وتتميم التدبير به من دون أن تستعين بهم فما بالهم لا يشكرون .

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى في أواخر السورة وهو بمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم وحياتهم : ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ إلى أن قال ﴿ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ .

واحتمل بعضهم كون ﴿ما﴾ في ﴿وما عملته وصولة معطوفة على ﴿ثمره ﴾ والمعنى ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم من ثمره كالخل والدبس المأخوذين من التمر والعنب وغير ذلك .

وهذا الوجه وإن عده بعضهم أوجه من سابقه ليس بذاك فإن المقام مقام بيان آيات دالة على ربوبيته تعالى بذكر أمور من التدبير يخصه تعالى ولا يناسبه ذكر شيء من تدبير الغير معه وتتميم المحجة بذلك ، ولو كان المراد ذكر عملهم بما أنه منته إلى خلقه تعالى وجزء من التدبير العام كان الأنسب أن يقال : وما هديناهم إلى عمله أو ما يؤدي معناه لينتفى به توهم الشركة في التدبير .

واحتمل بعضهم كون ﴿ما﴾ نكرة موصوفة معطوفة على ﴿ثمره﴾ والمعنى ليـأكلوا من ثمره ومن شيء عملته أيديهم . هذا ويرد عليه ما يرد على سابقه .

وقوله : ﴿ أَفلا يَشْكُرُونَ ﴾ توبيخ واستقباح لعدم شكره ، وشكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولاً وفعلاً أي إظهارهم أنهم عباد لـه مدبـرون بتدبيره وهو العبادة فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته واتخاذه إلها معبوداً .

قوله تعالى : ﴿ سبحان اللذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ إنشاء لتنزيهه تعالى ، لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من

أنواع النبات ورزقهم من الحبوب والأثمار ، وإنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضاً كما قال : ﴿وَأَنبَتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾(١) أشار إلى ما هو أعظم وأوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها وتنظيم العالم المشهود باستيلاد كل شيء من فاعل ومنفعل قبله هما أبواه كالذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ، وكل فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمراً ثالثاً ، أشار تعالى إلى ذلك فنزه نفسه بقوله : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ الخ . فقوله : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها ﴾ إنشاء تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار .

وقوله: ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ هو وما بعده بيان للأزواج والذي تنبت الأرض هو النبات ولا يبعد شموله الحيوان وقد قال تعالى في الإنسان وهو من أنواع الحيوان ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ (٢) ويؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه للمبين مع عدم ذكر الحيوان في عداد الأزواج.

وقوله: ﴿ومن أنفسهم﴾ أي الناس، وقوله: ﴿ومما لا يعلمون﴾ وهو الـذي يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه.

وربما قيل في الآية : إن المراد بالأزواج الأنواع والأصناف ، ولا يساعد عليه الآيات التي تذكر خلق الأزواج كقوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَالَ شَيْءَ خَلَقْنَا زُوجِينَ لَعَلَّكُمُ الْآيَاتُ اللَّهِ وَلَوْعُ مِنْ التَّالُفُ وَالتَركُبُ مِنْ لُوازَمَ مَفْهُومُ الزّوجِيةَ .

قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج ، ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلًا له أو مضاداً: زوج ، قال : وقوله : ﴿خلقنا زوجين﴾ فبين أن كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضداً ما أو مشلًا ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه من تركيب . انتهى .

فزوجية الزوج هي كونه مفتقراً في تحققه إلى تألف وتـركب ولذلـك يقال لكـل واحد من القرينين من حيث هما قرينان : زوج لافتقاره إلى قرينه ، وكذا يقال لمجموع القـرينين : زوج لافتقاره في تحققه زوجاً إلى التـألف والتركب فكـون الأشياء أزواجـاً

مقارنة بعضها بعض لإنتاج ثالث أو كونه مولداً من تألف اثنين .

قوله تعالى : ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ آية أخرى من أيات الربوبية الدالة على وقوع التدبير العام السماوي للعالم الإنساني مذكورة في أربع آيات .

ولا شك أن الآية تشير إلى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار ، والسلخ في الآية بمعنى الإخراج ولذلك عدي بمن ولو كان بمعنى النزع كما في قولنا : سلخت الإهاب عن الشاة تعين تعديه بعن دون من .

ويؤيد ذلك أنه تعالى عبر في مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل والنهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال في مواضع من كلامه: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في النهار أكان النهار في الليل النهار في الليل اعتباراً كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجاً للنهار من الليل اعتباراً .

كأن الليل أطبق عليهم وأحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نسوره وضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانياً بانطباق الظلام وإحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية .

ولعل فيما ذكرناه من الوجه كفاية عما أطنبوا فيه من البحث في معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأة الليل .

قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ جريها حركتها وقوله: ﴿لمستقر لها﴾ اللام بمعنى إلى أو للغاية ، والمستقر مصدر ميمي أو اسم زمان أو مكان ، والمعنى أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها أي استقرارها وسكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محله ،

وأما جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسي يثبت لها حمركة دورية حول الأرض لكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس وتكشف أن لها مع سياراتهما حركة انتقالية نحو النسر الواقع .

وكيف كمان فمحصل المعنى أن الشمس لا تمزال تجري ما دام النظام المدنيموي على حاله حتى تستقر وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيما ويبطل همذا النظام ، وهمذا

⁽١) الحج : ٦١ .

المعنى يرجع بالمآل إلى معنى القراءة المنسوبة إلى أهل البيت وغيـرهم : ﴿والشمس تجري لا مستقر لها﴾ كما قيل .

وأما حمل جريها على حركتها الوضعية حول مركزها فهـو خلاف ظـاهر الجـري الدال على الانتقال من مكان إلى مكان .

وقوله : ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي الجري المذكور تقدير وتـدبير ممن لا يغلبه غالب في إرادته ولا يجهل جهات الصلاح في أفعاله .

قوله تعالى : ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول والظاهر أن المراد به المنازل الثمانية والعشرون التي تقطعها القمر في كل ثمانية وعشرين يوماً وليلة تقريباً .

والعرجون عبود عذق النخلة من بين الشمراخ إلى منبته وهبو عود أصفير مقوس يشبه الهلال ، والقديم العتيق .

وقد اختلفت الأنظار في معنى الآية للاختلاف في تركيبها ، وأقرب التقديرات من الفهم قول من قال : إن التقدير والقمر قدرناه ذا منازل أو قدرنا له منازل حتى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفر لونه .

تشير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسبة إلى أهل الأرض فإن نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرته تقريباً وما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثم يتغير موضع الاستنارة ولا يزال كذلك حتى يعود إلى الوضع الأول ويعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثم لا يزال ينبسط عليه النور حتى يتبدر ثم لا يزال ينقص حتى يعود إلى ما كان عليه أوله .

ولاختلاف صورة آثار بارزة في البر والبحر وحياة الناس على مـا بين في الأبحاث المبربوطة .

فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الـطارئة لـه بالنسبـة إلى الأرض وأهلها دون حاله في نفسه ودون حاله بالنسبة إلى الشمس فقط .

ومن هنا لا يبعد أن يقال في قوله تعالى : ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ أن المراد بقوله : ﴿تجري﴾ الإشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية والفصلية والسنوية وهي حالها بالنسبة إلينا ، وبقوله : ﴿لمستقر لها﴾ حالها في نفسها

وهي سكونها بالنسبة إلى سياراتها المتحركة حولها كأنه قيل : وآية لهم أن الشمس على استقرارها تجري عليهم وقد دبر العزيز العليم بذلك كينونة العالم الأرضي وحياة أهله والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون لفظة ينبغي تدل على الترجح ونفي ترجح الإدراك من الشمس نفي وقوعه منها ، والمراد به أن التدبير ليس مما يجري يوماً ويقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختل ولا منقوض حتى ينقضي الأجل المضروب منه تعالى لذلك .

فالمعنى: أن الشمس والقمر ملازمان لما خط لهما من المسير فلا تدرك الشمس القمر حتى يختل بذلك التدبير المعمول بهما ولا الليل سابق النهار وهما متعاقبان في التدبير فيتقدم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثم نهاران بل يتعاقبان .

ولم يتعرض لنفي إدراك القمر للشمس ولا لنفي سبق النهار الليل لأن المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهي عن الاختلال والفساد فنفي إدراك ما هـو أعظم وأقـوى وهو الشمس لما هو أصغر وأضعف وهو القمر ، ويعلم منه حال العكس ونفي سبق الليل الذي هو افتقاده للنهار الذي هو ليله والليل مضاف إليه متأخر طبعاً منه ويعلم به حال العكس .

وقوله: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ أي كل من الشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب يجرون في مجرى خاص به كما يسبح السمكة في الماء فالفلك هو المدار الفضائي الذي يتحرك فيه الجرم العلوي ، ولا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكل كل من الشمس والقمر والليل والنهار وإن كان لا يوجد في كلامه تعالى ما يشهد على ذلك .

والإتيان بضمير الجمع الخاص بالعقلاء في قوله ﴿ ويسبحون ﴾ لعله للإشارة إلى كونها مطاوعة لمشيئته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما في قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ (١) .

وللمفسرين في جمل الآية آراء أخر مضطربة أضربنا عنها من أراد الوقـوف عليها فليراجع المفصلات .

⁽١) حم السجلة : ١١ .

قوله تعالى : ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾ قال الراغب : المذرية أصلها الصغار من الأولاد ، وتقع في التعارف على الضغار والكبار معاً ، ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع . انتهى . والفلك السفينة ، والمشحون المملوء .

آية أخرى من آيات ربوبيته تعالى وهو جريان تدبيره في البحر حيث يحمل ذريتهم في الفلك المشحون بهم وبامتعتهم يجوزون به من جانب إلى جانب للتجارة وغيرها ، ولا حامل لهم فيه ولا حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى والخواص التي يستفيدون منها في ركوب البحر أمور مسخرة له تعالى منتهية إلى خلقه على أن هذه الأسباب لولم تنته إليه تعالى لم تغن طائلاً .

وإنما نسب الحمل إلى الـذرية دونهم أنفسهم فلم يقل: إنا حملناهم لإثبارة الشفقة والرحمة .

قوله تعالى : ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ المراد بـه ـ على ما فسروه ـ الأنعام قال تعالى : ﴿وعليها وعلى الفلك والأنعام ما تركبون﴾(١) وقال : ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾(١) .

وفسر بعضهم الفلك المذكور في الآية السابقة بسفينة نوح مَنْكُمُ ومَا في هذه الآية بالسفن والزوارق المعمولة بعدها وهو تفسير رديء ومثله تفسير ما في هذه الآية بالإبل خاصة .

وربما فسر ما في هذه الآية بالطيارات والسفن الجوية المعمولة في هذه الأعصار والتعميم أولى .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ نَشَأَ نَغَرَقُهُمْ فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَنْقَذُونَ﴾ الصريخ هو الذي يجيب الصراخ ويغيث الاستغاثة ، والإنقاذ هو الإنجاء من الغرق .

والآية متصلة بقوله السابق : ﴿إنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ أي إن الأمر إلى مشيئتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث ولا ينقذهم منقذ .

قبوله تعالى : ﴿ إِلا رحمة منا ومناعاً إلى حين ﴾ استثناء مفرغ والتقدير لا

⁽١) الزخرف : ١٢ ،

ينجون بسبب من الأسباب وأمر من الأمور إلا لـرحمة منا تنالهم ولتمتع إلى حين الأجل المسمى قدرناه لهم .

قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتقبوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون له لما ذكر الآيات الدالة على الربوبية ذمهم على عدم رعايتهم حقها وعدم إقبالهم عليها وعدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقة أن ربكم الله فاتقوا معصيته في حالكم الحاضرة وما قدمتم من المعاصي ، أو عذاب الشرك والمعاصي التي أنتم مبتلون بها وما خلفتم وراءكم ، أو اتقوا ما بين أيديكم من الشرك والمعاصي في الحياة الدنيا وما خلفكم من العذاب في الأخرة ، أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له على ما هو دأبهم في جميع الآيات التي ذكروا بها .

ومن هنا يظهر أولاً أن المراد بما بين أبديهم وما خلفهم الشرك والمعاصي التي هم مبتلون بها في حالهم الحاضرة وما كانوا مبتلين به قبل ، أو العذاب الذي استوجبوه بذلك ، والمآل واحد ، أو الشرك والمعاصي في الدنيا والعذاب في الأخرة وهو أوجه الوجوه .

وثانياً: أن حذف جواب إذا للدلالة على أن حالهم بلغت من الجرأة على الله والاستهانة بالحق مبلغاً لا يستطاع معها ذكر ما يجيبون به داعي الحق إذا دعاهم إلى التقوى فيجب أن يترك أسفاً ولا يذكر ، وقد دل عليه بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهُم مِن آية مِن آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهُم مَنْ آية مَنْ آيات ربهم إلا كَانُوا عنها معرضين﴾ المراد بإتيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أو بالتلاوة والذكر، وأيضا هي أعم من أن تكون آية آفاقية أو أنفسية، أو تكون آية معجزة كالقرآن، فهم معرضون عنها جميعاً.

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفَقُوا مَمَا رَزَقُكُمُ اللهُ ﴾ إلى آخر الآية كان قوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدَيْكُمْ وَمَا خَلَفْكُم ﴾ متعرضاً لجوابهم إذا دعوا إلى عبادة الله وهي أحد ركني الدين الحق ، وهذه الآية تعرضت لجوابهم إذا دعوا إلى الشفقة على خلق الله وهو الركن الآخر ومعلوم أن جوابهم الرد دون القبول .

فقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفَقُوا مَمَّا رَزَّقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يتضمن دعوتهم إلى الإنفاق

على الفقراء والمساكين من أموالهم وفي التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأن المالك لها حقيقة هو الله الذي رزقهم بها وسلطهم عليها ، وهمو الذي خلق الفقراء والمساكين وأقام حاجتهم إلى ما عند هؤلاء من فضل المؤن الذي لا يفتقرون إليه فلينفقوا عليهم وليحسنوا وليجملوا والله يحب الإحسان وجميل الفعل .

وقوله: ﴿قال الذين كفرواللذين آمنوا أنطعم من لويشاء الله أطعمه ﴿ جوابهم للدعوة إلى الإنفاق ، وإنما أظهر القائل ـ الذين كفروا ـ ومقتضى المقام الإضمار للإشارة إلى أن كفرهم بالحق وإعراضهم عنه باتباع الشهوات هو الذي دعاهم إلى الإعتذار بمثل هذا العذر المبني على الإعراض عما تدعو إليه الفطرة من الشفقة على خلق الله وإصلاح ما فسد في المجتمع كما أن الإظهار في قوله: ﴿ للذين آمنوا ﴾ للإشارة إلى أن قائل ﴿ أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ هم الذين آمنوا .

وفي قولهم: ﴿ أَنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ إشعار بأن المؤمنين إنما قالوا لهم : ﴿ أَنفقوا مما رزقكم الله ﴾ بعنوان أنه مما يشاؤه الله ويريده حكماً دينياً فردوه بأن إرادة الله لا تتخلف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أي وسع في رزقهم وجعلهم أغنياء .

وهذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعية المبنية على الابتلاء والامتحان وهداية العباد إلى ما فيه صلاح حالهم في دنياهم وآخرتهم ومن الجائز أن تتخلف عن المراد بالعصيان ، وبين الإرادة التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ومن المعلوم أن مشيئة الله وإرادته المتعلقة بإطعام الفقراء والإنفاق عليهم من المشيئة التشريعية دون التكوينية فتخلفها في مورد الفقراء إنما يدل على عصيان الذين كفروا وتمردهم عما أمروا به لا على عدم تعلق الإرادة به وكذب مدعيه .

وهذه مغالطة بنوا عليها جل ما افتعلوه من سنن الوثنية وقد حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ (١) ، وقوله : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ (١) ، وقوله : ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿إِن أَنتُم إِلا في ضَلَالَ مَبِينَ ﴾ من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أي إنكم في ضلال مبين في دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق وشاء منا ذلك .

(بحث روائي)

في المجمع روي عن علي بن الحسين زين العابدين وأبي جعفر الباقر وجعفر الصادق عليهم السلام ﴿لا مستقر لها﴾ بنصب الراء .

وفي الدر المنشور أخرج سعيد بن منصور وأحمد البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال : سألت رسول الله مسلم عن قوله تعالى : ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ قال : مستقرها تحت العرش .

أقول: وقد روي هذا المعنى عن أبي ذر عنه منطق من طرق الخاصة والعامة مختصرة ومطولة ، وفي بعضها أنها بعد الغروب تصعد سماء سماء حتى تصل إلى ما دون العرش فتسجد وتستأذن في الطلوع وتبقى على ذلك حتى تكسى نوراً ويؤذن لها في الطلوع .

والرواية إن صحت فهي مؤولة .

وفي روضة الكافي بـإسناده عن سـلام بن المستنير عن أبي جعفـر ملتنف قال : إن الله عز وجل خلق الشمس قبل القمر وخلق النور قبل الظلمة .

وفي المجمع روى العياشي في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حانم قال : كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا والفضل بن سهل والمأمون في الإيوان بمرو فوضعت المائدة فقال الرضا مائنت : إن رجلًا من بني إسرائيل سألني بالمدينة فقال : النهار خلق قبل أم الليل ؟ فما عندكم ؟ قال : وأداروا الكلام فلم يكن عندهم في ذلك شيء .

فقال الفضل للرضا: أخبرنا بها أصلحك الله . قال: نعم من القرآن أم من الحساب قال له الفضل من جهة الحساب فقال: قد علمت يا فضل أن طالع الدنيا السرطان والكواكب في مواضع شرفها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والمستري في السرطان والمستري في السرطان والمريخ في الجدي والشمس في الحمل والزهرة في الحوت وعطارد في السنبلة

والقمر في الثور فتكبون الشمس في العاشس وسط السماء فبالنهار قبل الليل ، ومن القرآن قوله تعالى : ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي الليل قد سبقه النهار .

أقول: نقل الألوسي في روح المعاني هذا الحديث ثم قال: وفي الاستدلال بالآية بحث ظاهر، وأما بالحساب فله وجه في الجملة ورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر والذي يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضا أجل من أن يستدل بالآية على ما سمعت من دعواه انتهى.

وقد اختلط عليه الأمر في تحصيل حقيقة معنى الليل والنهار .

توضيحه: أن الليل والنهار متقابلان تقابل العدم والملكة كالعمى والبصر فكما أن العمى ليس مطلق عدم البصر حتى يكون الجدار مشلاً أعمى لعدم البصر فيه بل هو عدم البصر مما من شأنه أن يتصف بالبصر كالإنسان كذلك الليل ليس هو مطلق عدم النور بل هو زمان عدم استضاءة ناحية من نواحي الأرض بنور الشمس ومن المعلوم أن عدم الملكة يتوقف في تحققه على تحقق الملكة المقابلة له قبله حتى يتعين بالإضافة إليه فلولا البصر لم يتحقق عمى ولولا النهار لم يتحقق الليل.

فمطلق الليل بمعناه الذي هو به ليل مسبوق الوجود بالنهار وقوله : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقَ النَّهَارِ﴾ وإن كَانَ ناظراً إلى الترتيب المفروض بين النهر واللَّيالي وأن هناك نهاراً وليلاً ونهاراً وليلاً وأن واحداً من هذه الليالي لا يسبق النهار الذي بُجنبه .

لكنه تعالى أخذ في قوله : ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ مطلق الليل ونفى تقدمه على مطلق الليل ونفى تقدمه على مطلق النهار ولم يقل : إن واحداً من الليالي الواقعة في هذا الترتيب لا يسبق النهار الواقع في الترتيب قبله .

فالحكم في الآية مبني على ما يقتضيه طبيعة الليل والنهار بحسب التقابل الذي أودعه الله بينهما وقد استفيد منه الحكم بانحفاظ الترتيب في تعاقب الليل والنهار فإن كل ليل هو افتقاد النهار الذي هو يتلوه فلا يتقدم عليه وإلى هذا يشير مالئين بعد ذكر الآية بقوله: وأي الليل قد سبقه النهار» يعني أن سبق النهار الليل هو خلقه قبله وليس كما يتوهم أن هناك نهر أو ليالي موجودة ثم يتعين لكل منها محله .

وقول المعترض: «وأما بالحساب فله وجه في الجملة» لا يدري وجه قوله: في الجملة وهو وجه تام مبني على تسليم أصول التنجيم صحيح بالجملة

على ذلك التقدير لا في الجملة .

وكذا قوله: رورأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر، لا محصل له لأن دائرة نصف النهار وهي الدائرة المارة على القطبين ونقطة ثالثة بينهما غير متناهية في العدد لا تتعين لها نقطة معينة في السماء دون نقطة أخرى فيكون كون الشمس في إحداهما نهاراً للأرض دون الأخرى .

وفي المجمع في قبوله تعالى : ﴿وإذا قيل لهم اتقبوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ روى الحلبي عن أبي عبد الله على الله

* * *

وَيَقُولُونَ مَتِي هُٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَـأَخَذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَـلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنَفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَـا هٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَصَدَقُ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسُ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُـل فَاكِهُـونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِـلَال عَلَى الْأَرَائِـكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةً وَلَهُمْ مَا يَـدُّعُونَ (٥٧) سَسلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا آلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينُ (٦٠) وَاَنِ اعْبُدُونِي هٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُ وا تَعْقِلُونَ (٦٢) هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تَـوعَــدُونَ (٦٣)

اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَـوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) .

(بیان)

لما فرغ من تفصيل آيات التوحيد المشار إليه إجمالًا في أول الكلام شرع في تفصيل خبر المعاد وذكر كيفية قيام الساعة وإحضارهم للحساب والجزاء وما يجزى به أصحاب الجنة وما يجازى به المجرمون كل ذلك تبييناً لما تقدم من إجمال خبر المعاد .

قوله تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبني على الإنكار، ولعله لذلك جيء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة ولأن النبي سلامة والمؤمنين كثيراً ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة وينذرونهم به، والوعد يستعمل في الخير والشر إذا ذكر وحده وإذا قابل الوعيد تعين الوعد للخير والوعيد للشر.

قوله تعالى: ﴿مَا ينظرُونَ إِلاَ صَيْحَةُ وَاحَدَةُ تَأْخَذُهُمْ وَهُمْ يَخْصَمُونَ ﴾ النظر بمعنى الانتظار ، والمراد بالصيحة نفخة الصور الأولى بإعانة السياق ، وتوصيف الصيحة بالوحدة للإشارة إلى هوان أمرهم على الله جلت عظمته فلا حاجة إلى مؤنة زائدة ، و ﴿ يخصمون ﴾ أصله يختصمون من الاختصام بمعنى المجادلة والمخاصمة .

والآية جواب لقولهم: ﴿متى هذا الوعد﴾ مسوقة سوق الاستهزاء بهم والاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلك ، والمعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون: متى هذا الوعد في سؤالهم عن وقت الوعد المنبىء عن الانتظار إلا صيحة واحدة يسيرة علينا بلا مؤنة ولا تكلف تأخذهم فلا يسعهم أن يقروا وينجوا منها والحال أنهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم.

قوله تعالى : ﴿ فلا يستطيعون تـوصية ولا إلى أهلهم يـرجعون ﴾ أي يتفـرع على هذه الصيحة بما أنها تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتـوا من فورهم فـلا يستطيعـوا

توصية _ على أن الموت يعمهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يـوصي إليه ـ ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلًا .

قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ هذه هي نفخة الصور الثانية التي بها الإحياء والبعث ، والأجداث جمع جدث وهو القبر والنسل الإسراع في المشي وفي التعبير عنه بقوله: ﴿إلى ربهم﴾ تقريع لهم لأنهم كانوا ينكرون ربوبيته والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمان وصدق المرسلون البعث الإقامة ، والمرقد محل الرقاد والمراد به القبر ، وتعبيرهم عنه تعالى بالرحمان نوع استرحام وقد كانوا يقولون في الدنيا: ﴿وما الرحمان والجملة وقوله: ﴿ومدق المرسلون عطف على قوله: ﴿هذا ما وعد الرحمان والجملة الفعلية قد تعطف على الاسمية .

وقولهم: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبني على إنكارهم البعث وهم في الدنيا ورسوخ أثر الإنكار والغفلة عن يوم الجزاء في نفوسهم وهم لا يزالون مستفرقين في الأهواء فإذا قاموا من قبورهم مسرعين إلى المحشر فاجاهم الورود في عالم لا يستقبلهم فيه إلا توقع الشر فأخذهم الفزع الأكبر والدهشة التي لا تقوم لها الجبال ولذا يتبادرون أولا إلى دعوة الويل والهلاك كما كان ذلك دأبهم في الدنيا عند الوقوع في المخاطر ثم سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذي أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كل شيء .

ثم ذكروا ما كانت الرسل عليهم السلام يذكرونهم به من الوعد الحق بالبعث والجزاء فشهدوا بحقية الوعد واستعصموا بالرحمة فقالوا: ﴿هذا ما وعد الرحمان﴾ على ما هو دأبهم في الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق وإظهار الذلة والاعتراف بالطلم والتقصير ثم صدقوا السرسل بقولهم: ﴿وصدق المرسلون﴾.

وبما تقدم ظهر أولاً وجه دعوتهم بالويل إذا بعثوا .

⁽١) الفرقان : ٦٠ .

وثانياً وجه سؤالهم عمن بعثهم من مرقدهم الظاهر في أنهم جاهلون به أولاً ثم إقرارهم بأنه الذي وعده الرحمان وتصديقهم المرسلين فيما بلغوا عنه تعالى .

ويظهر أيضاً أن قول : ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ النح وقـوله : ﴿هـذا ما وعـد الرحمان﴾ النح . من قولهم .

وقيل: قوله: ﴿وصدق المرسلون﴾ عطف على مدخول ﴿ما﴾ و ﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية و ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ الخ جواب من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين لقولهم: ﴿من بعثنا من موقدنا﴾ ؟

وغير خفي أنه خلاف الظاهر وخاصة على تقدير كون ﴿ما﴾ مصدرية ولوكان قوله : ﴿هذا ما وعد الرحمان﴾ الخ . جواباً من الله أو الملائكة لقولهم : ﴿من بعثنا من مرقدنا﴾ لأجيب بالفاعل دون الفعل لأنهم سألوا عن فاعل البعث! وما قيل : إن العدول إليه لتذكير كفرهم وتقريعهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل هذا . لا يغنى طائلًا .

وظهر أيضاً أن قوله : ﴿هذا ما وعد الرحمان﴾ مبتدأ وخبر ، وقيل ﴿هذا﴾ صفة لموقدنا بتأويل اسم الإشارة إلى المشتق و ﴿ما﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمان حق وهو بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانْتَ إِلَا صَيْحَةُ وَاحْدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَـدَيْنَا مَحْضَرُونَ﴾ اسم كان محذوف والتقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلا نفخة واحدة تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير ومهلة .

والتعبير بقوله : ﴿لدينا﴾ لأن اليوم يـوم الحضـور لفصـل القضاء عنـد الله سبحانه .

قوله تعالى : ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي في هذا اليوم يقضي بينهم قضاء عدلاً ويحكم حكماً حقاً فلا تظلم نفس شيئاً .

وقوله : ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ عطف تفسير لقوله : ﴿فَالَيُومُ لَا تَظُلُّم نَفْسَ شَيئاً﴾ وهو في الحقيقة بيان برهاني لانتفاء الظلم يومشذ لدلالته على أن جـزاء أعمال العاملين يومشذ نفس أعمالهم ، ولا يتصـور مع ذلـك ظلم لأن الظلم

وضع الشيء في غير موضعه وتحميل العامل عمله وضع الشيء في موضعه ضرورة .

وخطاب الأية من باب تمثيل يوم القيامة وإحضاره وإحضار من فيه بحسب العناية الكلامية ، وليس _ كما توهم _ حكاية عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق .

والمخاطب بقوله : ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ السعداء والأشقياء جميعاً .

وما قيل عليه أن الحصر يأبي التعميم فإنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة مدفوع بأن الحصر في الآية ناظر إلى جزاء العمل وأجره وما يدل من الآيات على المزيد كقوله: ﴿لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد﴾(١) أمر وراء الجزاء والأجر خارج عن طور العمل.

وربما أجيب عنه بأن معنى الآية أن الصالح لا ينقص ثوابه والطالح لا ينزاد عقابه فإن الحكمة تنافيه أما زيادة الثواب ونقص العقاب فبلا مانبع منه أو أن المراد بقوله : ﴿لا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وفيه أن مدلول الآية لوكان ما ذكر اندفع الإشكال لكن الشأن في دلالتها على ذلك .

قبوله تعالى : ﴿إِنْ أَصِحَابِ الْجَنَةُ الْيُومُ فِي شَغْلُ فَأَكُهُونَ﴾ الشّغل الشّأن الذي يشغل الإنسان ويصرفه عما عداه ، والفاكه من الفكاهة وهي التحدث بما يسر أو التمتع والتلذذ ولا فعل له من الثلاثي المجرد على ما قيل .

وقيل : ﴿فَاكُهُونَ﴾ معناه ذوو فَاكُهُة نحو لابن وتامر ويبعده أن الفاكهة مذكورة في السياق ولا موجب لتكرارها .

والمعنى أن أصحاب الجنة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كل شيء دونه

⁽١) ق : ٣٥ .

وهو التنعم في الجنة متمتعون فيها .

قوله تعالى : ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائبك متكؤن﴾ الظلال جمع ظل وقيل جمع ظلة بالضم وهي السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك ، والأريكة كل ما يتكى عليه من وسادة أو غيرها .

والمعنى : هم أي أصحاب الجنة وأزواجهم من حلائلهم المؤمنات في الدنيا أو من الحور العين في ظلال أو أستار من الشمس وغيرها متكثون على الأرائك اتكاء الأعزة .

قوله تعالى : ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ الفاكهة ما يتفكه به من الثمرات كالتفاح والأترج ونحوهما ، وقوله : ﴿يدعون﴾ من الادعاء بمعنى التمني أي لهم في الجنة فاكهة ولهم فيها ما يتمنونه ويطلبونه .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ سلام مبتدأ محذوف الخبر والتنكير للتفخيم والتقدير سلام عليهم أو لهم سلام ، و ﴿ قولاً ﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير أقوله قولاً من رب رحيم .

والظاهر أن السلام منه تعالى وهو غير سلام الملائكة المذكور في قوله : ﴿ وَالْمُلَاثُكُةُ يُدُونُ عَلَيْهُم مِن كُنُلُ بِأَبِ سَلَامُ عَلَيْكُم بِمُنا صِبْرَتُم فَنعم عقبى الدار﴾ (١) .

قوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمين﴾ أي ونقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة وهو تمييزهم منهم يوم القيامة وإنجاز لما في قوله في موضع آخر: ﴿أَم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾(٢)، وقوله: ﴿أَم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾(٣).

قوله تعالى : ﴿ أَلَم أَعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ العهد الوصية ، والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس ويأمر به إذ لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته ، وقد علل النهي عن طاعته بكونه عدواً مبيناً لأن العدو لا يريد بعدوه خيراً .

وقيل : المراد بعبادته عبادة الألهة من دون الله وإنما نسبت إلى الشيطان لكونها بتسويله وتزيينه ، وهو تكلف من غير موجب .

وإنما وجه الخطاب إلى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوة الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عاد ذريته بعداوته وأوعدهم كما حكاه الله تعالى إذ قال : ﴿ أَرَأَيْتُكُ هَذَا الَّذِي كُرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ (١).

وأما عهده تعالى ووصيته إلى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الذي وصاهم به بلسان رسله وأنبيائه وحذرهم عن اتباعه كقوله تعالى : ﴿ يَا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (٣) .

وقيل: المراد بالعهد عهده تعالى إليهم في عالم الذرحيث قال: ﴿ السَّهِ بربكم قالوا بلي ﴾ . وقد عرفت مما قدمناه في تفسير آية الـذر أن العهد الـذي هناك هو بوجه عين العهد الذي وجه إليهم في الدنيا .

قوله تعالى: ﴿وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ عطف تفسير لما سبقه ، وقد تقدم كلام في معنى الصراط المستقيم في تفسير قوله: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ من سورة الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾ الجبل البجماعة وقيل : الجماعة الكثيرة والكلام مبني على التوبيخ والعتاب .

قوله تعالى: ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ أي كان يستمر عليكم الإيعاد بها مرة بعد مرة بلسان الأنبياء والرسل عليه وأول ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لإبليس: ﴿إِن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعث من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ (٤) وفي لفظ الآية إشارة إلى إحضار جهنم يومثذ.

قوله تعالى : ﴿اصلوها اليوم يما كنتم تكفرون ﴾ الصلا : اللزوم والاتباع ،

الإسراء: ۱۲.
 الزخرف: ۱۳.

⁽٢) الأعراف: ٢٧ .

وقيل : مقاساة الحرارة ويظهر بقوله : ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أن الخطاب للكفار وهم المراد بالمجرمين .

قوله تعالى : ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ أي يشهد كل منها بما كانوا يكسبون بواسطته فالأيدي بالمعاصي التي كسبوها بها والأرجل بالمعاصى الخاصة بها على ما يعطيه السياق .

ومن هنا يظهر أن كل عضو ينطق بما يخصه من العمل وأن ذكر الأيدي والأرجل من باب الأنموذج ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد كما في سورة الإسراء الآية ٣٦. وفي موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجدة الآية ٢٠، وسيأتي بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة ﴾ الآية قال : ذلك في آخر الزمان يصاح فيهم صيحة وهم في أسواقهم يتخاصمون فيموتون كلهم في مكانهم لا يرجع أحد منهم إلى منزله ولا يوصي بوصية ، وذلك قوله عز وجل : ﴿فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

وفي المجمع في الحديث تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه حتى تقوم الساعة ، والرجل يليط(١) حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتى تقوم .

أقول: وروى هذا المعنى في البدر المنشور عن أبي هـريـرة عن النبي م<mark>سنية</mark> ، وكذا عن قتادة عنه منزية مرسلاً .

وفي تفسير القمي وقوله عز وجل: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ قال: من القبور. وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الشخ في قوله تعالى: ﴿يَا وَيَلْنَا مِنْ مُوقَدْنَا﴾ فإن القوم كانوا في القبور فلما قاموا حسبوا أنهم كانوا نياماً وقالوا: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا. قالت الملائكة: هذا

⁽١) لاطه أي ملأه .

ما وعد الرحمن وصدق المرسلون .

وفي الكافي بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله مَشْخُهُ قال : كان أبو ذر رحمه الله يقول في خطبته : وما بين الموت والبعث إلا كنومة نمتها ثم استيقظت منها .

وفي تفسيسر القمي في قبولمه تعمالى : ﴿إِنْ أَصِحَمَابِ الْجَنَةِ الْيَبُومِ فَي شَغَـلُ فاكهون﴾ قال يفاكهون النساء ويلاعبونهن .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر منشئة في قلول عنز وجل : ﴿ في ظلال على الأراثك متكون ﴾ الأراثك السرر عليها الحجال .

وفيه في قوله عز وجل: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال: السلام منه هو الأمان. وقوله: ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ قال: إذا جمع الله الخلق يوم القيامة بقوا قياماً على أقدامهم حتى يلجمهم العرق فينادون: يا رب حاسبنا ولو إلى النار قال: فيبعث الله رياحاً فتضرب بينهم وينادي مناد: ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ فيميز بينهم فصار المجرمون في النار، ومن كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة.

أقول: وقد ورد في بعض الروايات أن الله سبحانه يتجلى لهم فيشتغلون به عن كل من سواه ما دام التجلي والمراد به ارتفاع كل حجاب بينهم وبين ربهم دون الرؤية البصرية التي لا تتحقق إلا بمقارنة الجهات والأبعاد فإنها مستحيلة في حقه تعالى .

وفي اعتقادات الصدوق قبال عشينه: من أصغى إلى ناطق فقيد عبده فيإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر نائية في حديث قال : وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه قال الله عز وجل : ﴿ فَمَنَ أُوتِي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ﴾ (١)

⁽١) الإسراء: ٧١ .

وفي تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جده قال : قال أمير المؤمنين عليهم السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة : ختم الله على الأفواه فلا تكلم وتكلمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثاً .

أقول: وفي هذا المعنى روايات أخر يأتي بعضها في ذيل تفسير قوله تعالى: وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم (١)، وتقدم بعضها في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾(٢).

* * *

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا آلصِّرَاطَ فَأَنَىٰ يُبْصِرُونَ (١٦) وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا آسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ (١٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنكِسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَسلا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ (١٨) وَمَا عَلَمْنَاهُ آلشِعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ وَقُرْآنُ مَيْقِلُونَ (١٨) وَمَا عَلَمْنَاهُ آلشِعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ وَقُرْآنُ مَيْقِلًا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٧) مُبينً (١٩) لِيُسْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) وَلَكُمُ لَهَا أَوْلُمُ يَرَوْا أَنَّا هَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٢٧) وَلَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٢٧) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٢٧) وَلَهُمْ لَهَا مَانُوعُ وَمَشَارِبُ أَفلا يَشْكُرُونَ (٣٧) وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَيها مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفلا يَشْكُرُونَ (٣٧) وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَهُمْ مُنْكُمُ مُنَا يُعْمَرُونَ وَمَا يُسِرُونَ وَمَا لَهُمْ مُنْكُمُ مُنَا يُعْمَلُونَ (٢٧) وَلَهُمْ بُنْكُمُ مَا يُسِرُونَ وَمَا يُسِرُونَ وَمَا يُعْلَمُ مَا يُسِرُونَ وَمَا يُسِرُونَ وَمَا مُنْكُونَ (٢٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ مُبْيِنُ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ مُعْمَلِينًا مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ

⁽١) حم السجلة : ٢٠ .

رَمِيمُ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا آلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُو بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٨) آلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ آلشَّجَرِ الْأَخْضِرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ عَلِيمٌ (٧٨) آلَذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ آلسَّمُوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ آلَّذِي خَلَقَ آلسَّمُوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَحْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ آلَّذِي بِيدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

(بیان)

بيان تلخيصي للمعاني السابقة في سياق آخر ففيه تهديد لهم بالعـذاب ، والإشارة إلى أنه ميذية رسول وأن كتابه ذكر وقرآن وليس بشاعر ولا كتابه بشعر ، والإشارة إلى خلق الأنعام آية للتوحيد ، والاحتجاج على الميعاد .

قول تعالى: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستيقوا الصراط فأنى يبصرون والله قال في مجمع البيان: الطمس محو الشيء حتى يلذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب ومثله الطمس على المال وهو إذهابه حتى لا يقع عليه إدراك، وأعمى مطموس وطميس وهو أن يلذهب الشق الذي بين الجفنين، انتهى.

فقوله : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ أي لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوجة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم وبطل إبصارهم .

وقوله : ﴿ فاستبقوا الصراط ﴾ أي أرادوا السبق إلى الطريق الـواضح الـذي لا يخطىء قاصده ولا يظل سـالكه فلم يبصروه ولن يبصروه فـالاستبعاد المفهـوم من قوله : ﴿ فأنى يبصرون ﴾ كناية عن الامتناع .

وقول بعضهم : إن المراد باستباق الصراط مبادرتهم إلى سلوك طريق الحق وعدم اهتدائهم إليها ، لا يخلو من بعد .

قوله تعالى: ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا

يرجعون في المجمع: والمسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوم قردة وخنازير وقال: والمكانة والمكان واحد. انتهى. والمراد بمسخهم على مكانتهم تشويه خلقهم وهم قعود في مكانهم الذي هم فيه من غير أن يغيرهم عن حالهم بعلاج وتكلف بل بمجرد المشيئة فهو كناية عن كونه هيناً سهلاً عليه تعالى من غير أي صعوبة.

وقوله: ﴿ وَهِمَا استطاعُوا مَضِياً وَلا يُرجِعُونَ ﴾ أي مضياً في العذاب ولا يرجعُونَ ألى حالهم قبل العـذاب والمسخ فـالمضي والرجـوع كنايتـان عن الرجـوع إلى حال السلامة والبقاء على حال العذاب والمسخ .

وقيـل : المراد مضيهم نحـو مقاصـدهم ورجـوعهم إلى منـازلهم وأهليهم ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى: ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ التعمير التطويل في العمر، والتنكيس تقليب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله ويتبدل قوتهضعفاً وزيادته نقصاً والإنسان في عهد الهرم منكس الخلق يتبدل قوته ضعفاً وعلمه جهلاً وذكره نسياناً.

والآية في مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين والمراد أن الذي ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم وعلى أن يمسخهم على مكانتهم .

وفي قوله : ﴿ أَفَلَا يَعْقُلُونَ ﴾ توبيخهم على عدم التعقل وحثهم على التدبر في هذه الأمور والاعتبار بها .

قوله تعالى : ﴿وما علمناه آلشعر وما ينبغي له إن هـ و إلا ذكر وقـ رآن مبين ﴾ عطف ورجوع إلى ما تقدم في صـدر السورة من تصـديق رسالـ النبي منها النبي منها وكون كتابه تنزيلًا من عنده تعالى .

فقوله: ﴿وما علمناه الشعر﴾ نفي أن يكون علمه الشعر ولازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه ويمتنع من قوله لنهي من الله متوجه إليه ، ولا أن النازل من القرآن ليس بشعر وإن أمكنه منطاله أن يقوله .

وبه يظهر أن قوله : ﴿وما ينبغي له﴾ في مقام الامتنان عليه بـأنه نـزهه عن أن

يقول شعراً فالجملة في مقام دفع الدخل والمحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصاً فيه ولا أنه تعجيز له بل لرفع درجته وتنزيه ساحته عما يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزيين المعاني بالتخيلات الشعرية الكاذبة التي كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النفس ، وتنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع في السمع ، فلا ينبغي له مناه أن يقول الشعر وهو رسول من الله وآية رسالته ومتن دعوته القرآن المعجز في بيانه الذي هو ذكر وقرآن مبين .

وقوله: ﴿إِن هُو إِلا ذكر وقرآن مبين﴾ تفسير وتوضيح لقوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله: ﴿إِن هُو إِلا ذكر ﴾ النح من قصر القلب والمعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر وقرآن مبين .

ومعنى كونه ذكراً وقرآناً أنه ذكر مقرو من الله ظاهر ذلك .

قوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ تعليل متعلق بقوله : ﴿ وَما علمناه الشعر ﴾ والمعنى ولم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعراً من كان حياً ﴿ النَّح ﴾ أو متعلق بقوله : ﴿ إِنْ هُو إِلاَ ذَكُر ﴾ النَّح والمعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكراً وقرآناً مبيناً نزلناه إليه لينذر من كان حياً النَّح ومآل الوجهين واحد .

والآية _ كما ترى _ تعد غاية إرسال الرسول وإنزال القرآن إنذار من كان حياً _ وهـو كنايـة عن كونـه يعقل الحق ويسمعـه _ وحقية القـول ووجوبـه على الكافـرين فمحاذاة الآية لما في صدر السورة من الآيات في هذا المعنى ظاهر .

قوله تعالى : وأو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون و تدبيره للعالم الإنساني مالكون و ذكر آية من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى وتدبيره للعالم الإنساني وهي نظيرة ما تقدم في ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب والثمرات وتفجير العيون .

والمراد بكون الأنعام مما عملته أبديه تعالى عدم إشراكهم في خلقها واختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص .

وقوله : ﴿فهم لها مالكون﴾ تفريع على قوله : ﴿خلقنا لهم﴾ فإن المعنى

خلقنا لأجلهم فهي مخلوقة لأجل الإنسان ولازمه اختصاصها به وينتهي الاختصاص إلى الملك فإن الملك الاعتباري الذي في المجتمع من شعب الاختصاص .

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم : إن في تفرع قوله : ﴿فهم لها مالكون﴾ على قوله : ﴿فهم لها مالكون﴾ على قوله : ﴿خلقنا لهم﴾ خفاء، والظاهر تفرعهاعلى مقدر والتقدير خلقناها لهم فهم لها مالكون ، وأنت خبير بعدم خفاء تفرعها على ﴿خلقنا لهم﴾ وعدم الحاجة إلى تقدير .

وقيل : الملك بمعنى القدرة والقهر ، وفيه أنه مفهوم من قوله بعد : وذللناها لهم، والتأسيس خير من التأكيد .

قوله تعالى : ﴿وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ تذليل الأنعام جعلها منقادة لهم غير عاصية وهو تسخيرها لهم ، والركوب بفتح الراء الحمولة كالإبل والبقر ، وقوله : ﴿ومنها يأكلون﴾ أي من لحمها يأكلون .

قوله تعالى: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون﴾ المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك ، والمشارب جمع مشرب مصدر ميمي بمعنى المفعول والبمراد بها الألبان ، والكلام في معنى الشكر كالكلام فيما تقدم في قوله: ﴿وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ .

ومعنى الأيات الثلاث: أو لم يعلموا أنا خلقنا لأجلهم ولتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاماً من الإبل والبقر والغنم فتفرع على ذلك أنهم مالكون لها ملكاً يصحح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض، وذللناها لهم بجعلها مسخرة لهم منقادة غير عاصية فمنها ركوبهم الذي يركبونه، ومنها أي من لحومها يأكلون، ولهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها وأوبارها وجلودها ومشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الذي يكشف عن ربوبيته لهم ؟ أولا يعبدونه شكراً لأنعمه ؟ .

قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾ ضمائر الجمع للمشركين ، والمراد بالآلهة الأصنام أو الشياطين وفراعنة البشر دون الملائكة المقربين والأولياء من الإنسان لعدم ملاءمة ذيل الكلام: ﴿وهم لهم جند محضرون ﴾ لذلك .

وإنما اتخذوهم آلهة رجاء أن ينصروا من ناحيتهم لأن عامتهم تتخذ إلهـــأ زعماً منهم أن تدبير أمره مفوض إلى من التخذه إلها من خير أو شر فيعبده العابد منهم ليرضيه بعبادته فلا يسخط فيقطع النعمة أو يرسل النقمة .

قوله تعالى : ﴿لا يستنظيمُونَ نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ أي لا يستطيع هؤلاء الألهة الذين اتخذوهم آلهة نصر هؤلاء المشركين لأنهم لا يملكون شيئاً من خير أو شر .

وقوله : ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ الظاهر أن أول الضميرين للمشركين وثانيهما للألهة من دون الله والمراد أن المشركين جند للألهبة وذلك أن من لـوازم معنى الجندية التبعية والملازمة والمشركون هم المعدودون أتباعاً لألهتهم مطيعين لهم دون

والمراد بالإحضار في قوله : ﴿محضرون﴾ الإحضار للجزاء يـوم القيامـة قال تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾(١) وقال : ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴿ (١) . ومحصل المعنى لا يستطيع الألهة المتخذون نصر المشركين وهم أي المشركون لهم أي لألهتهم أتباع مطيعون محضرون معهم يوم القيامة .

وأما قول القائل: إن المعنى أن المشركين جند لألهتهم معدون للذب عنهم في الدنيا ، أو أن المعنى وهم أي الألهة لهم أي للمشركين جند محضرون لعـذاب المشركين يوم القيامة لأنهم وقود النار التي يعـذب بها المشـركون ، أو محضـرون لعنذابهم إظهاراً لعجزهم عن النصر أو لإقناط المشركين عن شفاعتهم فهي معان

قوله تعالى : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون ومايعلنون ﴾ الفاء لتفريع النهي عن الحزن على حقيقة اتخاذهم الألهة من دون الله رجاء للنصر أي إذا كان هذا حقيقة حالهم أن الذين استنصروهم لا يستطيعون نصرهم أبدأ وأنهم سيحضرون معهم للعذاب فلا يحزنك قولهم ما قالوا به من الشرك فإنا لسنا بغافلين عنهم حتى يعجزونا أو يفسدوا علينا بعض الأمر بل نعلم ما يسرون من أقـوالهم وما يعلنـون ، وفي تركيب الآية بعض أقوال رديئة أضربنا عنه .

⁽١) الصافات : ١٥٨ .

قوله تعالى : ﴿ أَو لَم يَر الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نَطْفَةَ فَإِذَا هُو خَصِيمُ مِينَ ﴾ رجوع إلى ما تقدم من حديث البعث والاحتجاج عليه إثر إنكارهم ، ولا يبعد أن يكون بيانا تفصيلياً لقولهم المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ فَلا يَحْزَنَكُ قُولُهُم ﴾ النخ والمراد بالرؤية العلم القطعي أي أو لم يعلم الإنسان علماً قاطعاً أنا خلقناه من نطفة ، وتنكير نطفة للتحقير والخصيم المصر على خصومته وجداله .

والاستفهام للتعجب والمعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أنا خلقناه من نطفة مهينة فيفاجؤه أنه خصيم مجادل مبين .

قوله تعالى : ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ الرميم البالي من العظام ، و ﴿ نسي خلقه ﴾ حال من فاعل ضرب ، وقوله : ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ بيان للمثل الذي صربه الإنسان ، ولذلك جيء به مفصولاً من غير عطف لأن الكلام في معنى أن يُقال : فماذا ضرب مثلاً ؟ فقيل : قال من يحيي العظام وهي رميم .

والمعنى: وضرب الإنسان لنا مثلًا وقد نسي خلقه من نطفة لأول مرة ، ولو كان ذاكره لم يضرب المثل الذي ضربه وهو قوله: «من يحيي العظام وهي بالية؟» لأنه كان يرد على نفسه ويجيب عن المثل الذي ضربه بخلقه الأول كما لقنه الله تعالى لنبيه منظمة جواباً عنه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَحْبِيهَا الذِي أَنْشَأَهَا أُولَ مَرَةً وَهُو يَكُلُ خَلَقَ عَلَيْمَ ﴾ تلقين الجواب للنبي سَنْلُهُ .

الإنشاء هو الإيجاد الابتدائي وتقييده بقوله: ﴿ أُولَ مَرَةَ ﴾ للتأكيد، وقوله: ﴿ وَهُولُه : ﴿ وَأُولُ مَرَةً ﴾ للتأكيد، وقوله: ﴿ وَهُو بِكُلُّ خَلْقَ عَلَيْمٍ ﴾ إشارة إلى أنه تعالى لا ينسى ولا يجهل شيئاً من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأول مرة وهو لا يجهل شيئاً مما كانت عليه قبل الموت وبعده فإحياؤه ثانياً بمكان من الإمكان لثبوت القدرة وانتفاء الجهل والنسيان.

قوله تعالى : ﴿اللَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجِرِ الْأَخْضِرِ قَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ توقدون﴾ بيان لقوله : ﴿الذِي أَنشَاهَا أُولَ مَرة﴾ والإيقاد إشعال النار .

والآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشيء الموات شيئاً ذا حياة والحياة والموت متنافيان والجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هـو الذي جعـل لكم من الشجر الأخضـر

الذي يقطر ماء ناراً فإذا أنتم منه توقدون وتشعلون النار ، والمراد به على المشهور بين المفسرين شجر المرخ (١) والعفار كانوا بأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زنداً أسفل ويجعل المرخ زنداً أعلى فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بياذن الله فحصول الحي من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجرة الخضراء وهما متضادان .

قوله تعالى: ﴿ أُولِيسِ الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ الاستفهام للإنكار والآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ النخ . ببيان أقرب إلى الذهن وذلك بتبديل إنشائهم أول مرة من خلق السماوات والأرض الذي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿ لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (٢) .

فالآية في معنى قولنا: وكيف يمكن أن يقال: إن الله الـذي خلق عوالم السماوات والأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة وعجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول المحيرة لـلالبـاب والعالم الإنساني جزءيسير منها، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس، بل وإنه خلاق عليم.

والمراد بمثلهم قيل : هم وأمثالهم وفيه أنه مغايـر لمعنى مثل على مـا يعرف من اللغة والعرف .

وقيل: المراد بمثلهم هم أنفسهم بنحو الكناية على حد قولهم: مثلث غني عن كذا أي أنت غني عنه، وفيه أنه لوكان كناية لصح التصريح به لكن لا وجه لقولنا: أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلقهم فإن الكلام في بعثهم لا في خلقهم والمشركون معترفون بأن خالقهم هو الله سبحانه.

وقيل : ضمير ﴿مثلهم ﴾ للسماوات والأرض فإنهما تشملان ما فيهما من العقلاء فاعيد إليهما ضمير العقلاء تغليباً فالمراد أن الله الخالق للعالم قادر على خلق مثله .

⁽¹⁾ المرخ بالفتح فالسكون والخاء المعجمة ، والعفار بعين مفتوحة ثم الفاء ثم الراء المهملة شجرتان تشتملان بسحق أحدهما على الآخر .

⁽٢) المؤمن : ٥٧ .

وفيه أن المقام مقام إثبات بعث الإنسان لا بعث السماوات والأرض. على أن الكلام في الإعادة وخلق مثل الشيء ليس إعادة لعينه بل بالضرورة .

فالحق أن يُقال: إن المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان.

بيانه أن الإنسان مركب من نفس وبدن ، والبدن في هذه النشأة في معرض التحلل والتبدل دائماً فهو لا يزال يتغير أجزاؤه والمركب ينتفي بائتفاء أحد أجزائه فهو في كل آن غيره في الآن السابق بشخصه وشخصية الإنسان محفوظة بنفسه _ روحه _ المجردة المنزهة عن المادة والتغيرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت والفساد .

والمتحصل من كلامه تعالى أن النفس لا تموت بموت البدن وأنها محفوظة حتى ترجع إلى الله سبحانه كما تقدم استفادته من قوله تعالى : ﴿وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض ءإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴿(١) .

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا اعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكن الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذي البدن السابق كان عينه لا مثله لأن الشخصية بالنفس وهي واحدة بعينها .

ولما كان استبعاد المشركين في قولهم: ﴿ من يحيى العظام وهي رميم ﴾ راجعاً إلى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم وأما عودهم بأعيانهم فهو إنما يتم بتعلق النفوس والأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديداً ، فتكون الأشخاص الموجودين في الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ (٢) فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال : على أن يحيي الموتى ولم يقل : على أن يحيي الموتى ولم يقل : على أن يحيي أمثال الموتى .

قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمُرُهُ إِذَا أَرَادُ شَيئًا أَنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾ الآية من غرر

⁽١) الم السجلة : ١١ .

الآيات القرآنية تصف كلمة الإيجاد وتبين أنه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء مما أراده إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه في إيجاده أو يدفع عنه مانعاً يمنعه .

وقد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة في كلامه فقال: ﴿إِنَّمَا قُولْنَا لَشِّيءَ إِذَا أَرِدْنَاهُ أَنْ نَقُولُ لَنَّهُ كُنْ فَيْكُونْ﴾(١) ، وقال: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيْكُونْ﴾(٢) .

فقوله: ﴿إِنَمَا أَمْرِهُ الطّاهِرِ أَنَّ الْمُرَادُ بِالأَمْرِ الشّانُ ، وقوله في آية النحل المنقولة آنفاً: ﴿إِنَمَا قُولِنَا لَشِيءَ إِذَا أَرِدْنَا ﴾ إِنْ كَانَ يَؤْيِدُ كُونَ الأَمْرِ بِمَعْنَى القول وهو الأَمْرِ اللّفظي بِلْفُظة كَنَ إِلا أَنَّ التَدبر في الآيات يعطي أَنَّ الغرض فيها وصف الشّأنَ الإلهي عند إرادة خلق شيء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شيء من الأشياء هذا القول دون غيره ، فالوجه حمل القول على الأَمْر بمعنى الشّأن بمعنى ما يقابل بمعنى أنه جيء به لكونه مصداقاً للشّأن لا حمل الأَمْر على القول بمعنى ما يقابل النهى .

وقوله: ﴿ وَإِذَا أَرَادُ شَيْئًا ﴾ أي إذا أراد إيجاد شيء كما يعطيه سياق الآية وقد ورد في عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله: ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (٣) ﴾ ولا ضير فالقضاء هو الحكم والقضاء والحكم والإرادة من الله شيء واحد وهو كون (١) الشيء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلا أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذ أوقفناه موقف تعلق الإرادة.

وقوله: وأن يقول له كن خبر إنما أمره أي يخاطبه بكلمة كن ومن المعلوم أن ليس هناك لفظ يتلفظ به وإلا احتاج في وجوده إلى لفظ آخر وهلم جرا فيتسلسل ولا أن هناك مخاطباً ذا سمع يسمع الخطاب فيوجد به لأدائه إلى الخلف فالكلام تمثيل لإفاضته تعالى وجود الشيء من غير حاجة إلى شيء آخر وواء ذاته المتعالية ومن غير تخلف ولا مهل.

⁽۱) النحل : ۲۰ · ۱۱۷ . (۲) القرة : ۱۱۷ .

⁽٣) البقرة: ١٧ ، آل عمران ، ٤٧ ، مريم : ٣٥ ، المؤمن : ٦٨

⁽٤) فإن هذه الإرادة صفة فعلية خارجة عن الذات منترعة عن مقام الفعل.

وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم حيث قبال : الظاهر أن هناك قبولاً لفظياً هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشؤون الله تعالى وراء ما تصل إليه الافهام فدع عنك الكلام والخصام . انتهى .

وذلك أن ما ذكره من كون شؤونه تعالى وراء طور الأفهام لو أبطل الحجة العقلية القطعية بطلت بذلك المعارف الدينية من أصلها فصحة الكتاب مشلاً بما يفيده من المعارف الحقيقية إنما تثبت بالحجة العقلية فلو بطلت الحجة العقلية بكتاب أو سنة أو شيء آخر مما يثبت هو بها لكان ذلك الدليل المبطل مبطلاً لنفسه أو لا فلا تزل قدم بعد ثبوتها .

ومن المعلوم أن ليس هناك إلا الله عز اسمه والشيء الذي يوجد لا ثالث بينهما وإسناد العلية والسببية إلى إرادته دونه تعالى _ والإرادة صفة فعلية منتزعة من مقام الفعل كما تقدم _ يستلزم انقطاع حاجة الأشياء إليه تعالى من رأس لاستيجابه استغناء الأشياء بصفة منتزعة منهاعنه تعالى وتقدس .

ومن المعلوم أن ليس هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمى إيجاد أو وجوداً ثم يتصل بالشيء فيصير به مـوجوداً وهـو ظـاهـر فليس بعـده تعـالى إلا وجـود الشيء فحسب .

ومن هنا يظهر أن كلمة الإيجاد وهي كلمة كن هي وجود الشيء الذي أوجده لكن بما أنه منتسب إليه قائم به وأما من حيث أنتسابه إلى نفسه فهو موجود لا إيجاد ومخلوق لا خلق .

ويظهر أيضاً أن الذي يفيض منه تعالى لا يقبل مهلة ولا نظرة ولا يتحمل تبدلاً ولا تغيراً ، ولا يتلبس بتدريج وما يترآى في الخلق من هذه الأمور إنما يتأتى في الأشياء في ناحية نفسها لا من الجهة التي تلي ربها سبحانه وهذا باب ينفتح منه ألف ياب .

وفي الآيات للتلويح إلى هذه الحقائق إشارات لطيفة كقول عنالى : ﴿ كَمَثُـلُ أَدُم خُلُقُهُ مِن تَرَابُ ثُم قَالَ لَه كُن فَيكُونَ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة

⁽١) آل عمران : ٥٩ .

كلمح بالبصر﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهُ قَدْرًا مَقْدُوراً ﴾(٢) إلى غير ذلك .

وقوله في آخر الآية : ﴿ فيكونَ ﴾ بيان لطاعة الشيء المراد له تعـالى وامتثالـه لأمر ﴿كنَ ﴾ ولبــه الوجود .

قوله تعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ الملكوت مبالغة في معنى الرحمة والرهبة .

وانضمام الآية إلى ما قبلها يعطي أن المراد بالملكوت الجهة التالية له تعالى من وجهي وجود الأشياء ، وبالملك الجهة التالية للخلق أو الأعم الشامل للوجهين . وعليه يحمل قبوله تعالى : ﴿وكذلك نبري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴿ (٣) . وقبوله : ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾ (٤) : وقوله : ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ (٥) .

وجعل الملكوت بيـده تعـالى للدلالـة على أنـه متسلط عليهـا لا نصيب فيهـا لغيره .

ومآل المعنى في قوله : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ تنزيهه تعالى عما استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شيء بيده وفي قبضته .

وقوله :﴿وإليه ترجعون﴾ خطاب لعامة الناس من مؤمن ومشرك ، وبيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه .

(بحث روائی)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَمَنَاهُ الشَّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ الآية قال : كانت قريش تقول : إن هذا الذي يقوله محمد شعر فرد الله عليهم فقال : ﴿وَمَا عَلَمْنَاهُ الشَّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُو إِلَا ذَكُرُ وَقَرْآنَ مَبِينَ ﴾ ولم يقل رسول الله ﴿سِنْنَ مُعْراً قط .

وفي المجمع روي عن الحسن أن رسول الله منطقة كان يتمثل بهـذا البيت : كفي الإسلام والشيب للمرء ناهياً فقـال له أبـو بكر : يـا رسول الله إنمـا قال : كفي

(٥) المؤمنون : ٨٨ .

⁽١) القمر ; ٥٠ .

⁽٣) الأنعام : ٧٥ .

^(£) الأعراف : ١٨٥ .

⁽٢) الأحرّاب : ٣٨ .

الشيب والإسلام للمرء ناهياً وأشهد أنك رسول الله وما علمك الله الشعر وما ينبغي لك .

وفيه عن عـائشـة أنهـا قـالت : كـان رسـول الله ﷺ يتمثـل ببيت أخي بني قيس :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهـالًا ويــأتيـك بــالأخبــار من لم تــزود

فجعل يقول: ويأتيك من لم تزود بالأخبار فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسـول الله فيقول: إني لست بشاعر ولا ينبغي لي .

أقول: وروى في الدر المنثور الخبرين عن الحسن وعائشة كما رواه وروى في الدر المنثور غير ذلك مما تمثل به منطقة .

وقال في المجمع : فأما قوله :

أنا السنبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فقد قال قوم : إن هذا ليس بشعر ، وقال آخرون : إنما هو اتفاق منه وليس يقصد إلى شعر انتهى . والبيت منقول عنه منطول وقد أكثروا من البحث فيه وطرح الرواية أهون من نفي كونه شعراً أو شعراً مقصوداً إليه .

وفيه في قوله تعالى : ﴿ لينذر من كان حياً ﴾ الآية ويجوز أن يكون المراد بمن كان حياً عاقلًا وروي ذلك عن على مائين .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر السلام في قـوله تعـالى ﴿وَاتَخَذُوا مَنْ دُونَ اللَّهُ ﴾ إلى قوله ﴿محضرون﴾ يقول : لا تستطيع الآلهة لهم نصراً وهم للآلهة جند محضرون .

وعن تفسير العياشي عن الحلبي عن أبي عبد الله طِنْكُ قبال : جماء أبي بن خلف فأخذ عظماً باليا من حبائط ففته ثم قبال : إذا كنا عبظاماً ورفياتا عإنها لمبعثون خلقاً ؟ فأنزل الله : قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .

أقول: وروى مثله في الدر المنشور بطرق كثيرة عن ابن عباس وعروة بن الخربير وعن قتادة والسدي وعكرمة وروى أيضاً عن ابن عباس أن القائل هو

العاص بن وائل وبطريق آخر عنه أن القائل هو عبد الله بن أبي .

وفي الاحتجاج: في احتجاج أبي عبد الله الصادق عشف قال السائل: أفيتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باق ؟ قال منظم : بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء وتفني فلا حس ولا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها وذلك أربعمائة سنة يسبت فيها الخلق وذلك بين النفختين .

قال: وأنى له بالبعث والبدن قد بلى والأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة تأكله سباعها وعضو باخرى تمزقه هوامها وعضو قد صار تراباً يبنى به مع الطين في حائط. قال ملته الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه.

قال: أوضح لي ذلك. قال مشرق : إن الروح مقيمة في مكانها روح المحسن في ضياء وفسحة ، وروح المسيء في ضيق وظلمة والبدن يصير تراباً كما منه خلق وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها فما أكلته ومزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض ويعلم عدد الأشياء ووزنها وإن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب.

فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تواب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء والزبد من اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كل قالب إلى قالبه فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح فتعود الصور بإذن المصور كهيئتها ويلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً.

وفي نهج البلاغة : يقول لما أراد كونه : كن فيكون ، لا بصوت يقرع ولا نداء يسمع وإنما كلامه سيحانه فعل منه أنشأه ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلهاً ثانياً .

وفيه : يقول ولا يلفظ ويريد ولا يضمر .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن سنته: أخبرني عن الإرادة من الله ومن المخلق قال: فقال: الإرادة من الله ومن المخلق قال: فقال: الإرادة من المخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل، وأما من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي

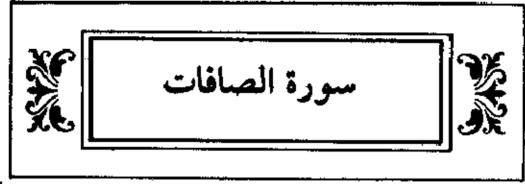
١٢٠ الجزء الثالث والعشرون

ولا يهم ولا يتفكر ، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات المخلق .

فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له : كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له .

أقول : والروايات عنهم عَلِشْتُهِ في كون إرادته من صفات الفعل مستفيضة .

* * *



مكية ، وهي مائة واثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ آلرَّحْمٰنِ آلرَّحِيمِ

وَآلصَّاقَاتِ صَفَّا (۱) فَآلزَّاجِرَاتِ زَجْراً (۲) فَالتَّالِيَاتِ ذِكُواً (۳) إِنَّ إِلْهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ آلسَّمُواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَا آلسَّمَآءَ آلدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَا آلسَّمَآءَ آلدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمُعُونَ إِلَى الْمَلاّ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمُعُونَ إِلَى الْمَلاّ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُل خَانِب (٩) إلا مَنْ خَطِفَ كُل جَانِب (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابُ وَاصِبُ (٩) إلاّ مَنْ خَطِفَ الْمَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابُ ثَاقِبُ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينِ لاَزِبٍ (١١) .

(بیان)

في السورة احتجاج على التوحيد ، وإنذار للمشركين وتبشير للمخلصين من المؤمنين ، وبيان ما يؤل إليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عدة من عباده المؤمنين ممن من الله عليهم وقضى أن ينصرهم على عدوهم ، وفي خاتمة السورة ما هو بمنزلة محصل الغرض منها وهو تنزيهه والسلام على عباده المرسلين وتحميده تعالى فيما فعل والسورة مكية بشهادة سياقها .

قوله تعالى : ﴿والصافات فالزاجرات رَجراً فالتاليات ذكراً ﴾ الصافات ـ على ما قيل ـ جمع صافة وهي جمع صاف ، والمراد بها على أي حال الجماعة التي تصطف أفرادها والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بالتخويف بذم أو عقاب والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة .

وقد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث : الصافات والزاجـرات والتاليـات وقد اختلفت كلماتهم في المراد بها :

فأما الصافات فقيل: إن المراد بها الملائكة تصف أنفسها في السماء صفوفاً كصفوف المؤمنين في الصلاة ، وقيل: إنها الملائكة تصف أجنحتها في الهواء إذا أرادت النزول إلى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى ، وقيل: إنها الجماعة من المؤمنين يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفين.

واما الزاجرات فقيل: إنها الملائكة تزجر العباد عن المعاصي فيوصله الله إلى قلوب الناس في صورة الخطرات كما بوصل وساوس الشياطين، وقيل إنها الملائكة المحوكلة بالسحاب تزجرها وتسوقها إلى حيث أراد الله سبحانه، وقيل: هي زواجر القرآن وهي آياته الناهية عن القبائح، وقيل: هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن عند قراءته فيزجرون الناس عن المنهيات.

وأما التاليات فقيل: هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى إليه ، وقيل: هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله وفيها ذكر الحوادث، وقيـل: جماعـة قراء القرآن يتلونه في الصلاة.

ويحتمل والله العالم أن يكون المراد بالطوائف الشلاث المذكورة في الآيات طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وإيصاله إلى النبي مطلقاً أو خصوص محمد مسلم كما يستفاد من قوله تعالى: وعالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم في (١).

وعليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون في طريق الوحي صفاً فبالذين

⁽١) الحن : ٢٨ .

يـزجرون الشيـاطين ويمنعونهم عن المـداخلة في الوحي فبـالـذين يتلون على النبي الذكر وهو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيده التعبير عنه بتلاوة الذكر .

ويؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمي الشياطين بالشهب بعـد هذه الآيــات ، وكذا قوله بعد : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقاً من خلقنا﴾ الآية كما سنشير إليه .

ولا ينافي ذلك إسناد النزول بالقرآن إلى جبريل وحده في قوله: ﴿من كان عدواً لجبريل فَإِنه نزله على قلبك﴾ (١) وقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (٢) لأن الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزولهم به نزوله به وقد قال تعالى: ﴿فِي صحف مكرمة مرفوعة صطهرة بأيدي سفرة كرام بسرة﴾ (٣) ، وقال حكاية عنهم: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ (٤) ، وقال: ﴿وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسجون﴾ (٥) وهذا كنسبة التوفي إلى الرسل من الملائكة في قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ (١) وإلى ملك الموت وهو رئيسهم في قوله: ﴿قَل يَتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ (٧) .

ولا ضير في التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث : الصافحات والزاجرات والتاليحات لأن موصوفها الجماعة ، والتأنيث لفظي .

وهذه أول سورة في القرآن صدرت بالقسم وقد أقسم الله سبحانه في كلامه بكثير من خلقه كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجم والليل والنهار والملائكة والناس والبلاد والأثمار ، وليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها إليه تعالى وهو قيومها المنبع لكل شرف وبهاء .

قوله تعالى : ﴿إِنْ إِلَهُكُمْ لُواحِـدَ﴾ الخطاب لعامة الناس وهو مقسم بـه ، وهو كلام مسوق بدليل كما سيأتي .

قوله تعالى : ﴿ رَبِ السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ خبر بعد خبر لأن ، أو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو رب السماوات الخ أو بدل من واحد .

(١) البقرة : ٩٧ .

(٢) الشعراء : ١٩٤ ،

(۳) عبس : ۱۹ .

(٦) الأنعام : ٦١ .

(٤) مريم ١٤٠.

(٥) الصافات : ١٦٦ .

(٧) السجدة : ١٩ .

وفي سوق الأوصاف إشعار بعلة كون الإله واحداً كما أن خصوصية القسم مشعر بعلة كونه رب السماوات والأرض وما بينهما .

كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملاك في ألوهية الإلــه وهي كونه معبوداً بـالحق أن يكون رباً يدبر الأمر على ما تعترفون وهو سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يدبر أمرها ويتصرف في جميعها .

وكيف لا ؟ وهو تعالى يوحي إلى نبيه فيتصرف في السماء وسكانها بإرسال ملائكة يصطفون بينها وبين الأرض وهناك مجال الشياطين فيزجرونهم وهو تصرف منه فيما بين السماء والأرض وفي الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه وفيه تكميل للناس وتربية لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففي الوحي تصرف منه في السماوات والأرض وما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبر لأمرها والإله الواحد .

وقوله: ﴿ورب المشارق﴾ أي مشارق الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق ، وفي تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال تعالى: ﴿ولقد رآه بالافق المبين﴾(١) ، وقال : ﴿وهو بالافق الأعلى ﴾(١) .

قوله تعالى: ﴿إِنَا زَيْنَا السَمَاءُ الْدَنِيَا بِزِيْنَةُ الْكُواكِبِ﴾ المراد بالزينة ما يبزين به ، والكواكب بيان أو بدل من الزينة وقد تكرر حديث تزيين السماء الدنيا بـزينة الكـواكب في كلامه كقوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾(٣) وقوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾(٤) ، وقوله: ﴿واو لَم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾(٥) .

ولا يخلو من ظهور في كون السماء الدنيا من السماوات السبع التي يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض وإن وجهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئة القديمة أو الجديدة .

قوله تعالى: ﴿وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ حفظاً مفعول مطلق لفعل محذوف والتقدير وحفظناها حفظاً من كل شيطان مارد، والمراد بالشيطان الشرير من الجن والمارد الخبيث العاري من الخير.

التكوير: ٢٣ .
 التكوير: ٣٣ .

 ⁽٢) النجم: ٧ . (٥) ق: ٦ .

قوله تعالى : ﴿ لا يُسْمُّعُونَ إِلَى الملاُّ الأعلى ويقذفون من كل جانب﴾ أصل ﴿ لا يسمعون﴾ لا يتسمعون والتسمع الإصغاء ، وهو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين ، وبهذه العناية صار وصفاً لكل شيطان ولو كنان بمعنى الإصغاء صريحاً أفناد لغواً من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقذفهم .

والملأ من الناس الأشراف منهم الذين يملؤن العيون ، والملأ الأعلى هم اللذين يريد الشياطين التسمّع إليهم وهم الملائكة الكرام الذين هم سكنة السماوات العلى ـ على ما يدل عليه كلامه تعالى كقوله: ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ (١).

وقصدهم من التسمع إلى الملأ الأعلى الإطلاع على أخبار الغيب المستورة عن هذا العالم الأرضى كالحوادث المستقبلة والأسرار المكنونة كما يشير إليه قـوله تعـالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزلون ﴾ (٢) ، وقوله حكاية عن الجن : ﴿وَأَنَا لَمُسَنَا السَّمَاءُ فُوجِدُنَاهَا مَلَتُتَ حَرِّسًا شَدِّيداً وشَهَباً وأنَّا كنا نقعد مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ (٣).

وقوله : ﴿ويقذفون من كل جانب﴾ القذف الرمي والجانب الجهة .

قوله تعالى : ﴿ دحوراً ولهم عذاب واصب ﴾ الدحور الطرد والدفع ، وهمو مصدر بمعنى المفعول،منصوب حالاً أي مدحورين أو مفعول لـه أو مفعول منطلق ، والواصب الواجب اللازم .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مِن خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب، الخطفة الاختالاس والاستلاب، والشهاب ما يرى في الجـو كالكـوكب المنقض، والثقوب السركوز وسمي الشهاب ثاقباً لأنه لا يخطىء هدفه وغرضه .

والمراد بالخطفة اختلاس السمع وقد عبر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى : ﴿ إِلَّا مِن استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ (٤) ، والاستثناء من ضمير الفاعل في قوله : ﴿لا يَسَمُّعُونَ﴾ وجوَّز بعضهم كون الاستثناء منقطعاً .

> (٣) الجن : ٩ . (١) الإسراء: ٩٥.

(٤) الحجر : ١٨ . (٢) الشعراء: ٢١٢.

ومعنى الآيات الخمس: إنا زينا السماء التي هي أقرب السماوات منكم - أو السماء السفلى بزينة وهي الكواكب، وحفظناها حفظاً من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء إلى الملأ الأعلى - للاطلاع إلى ما يلقون بين أنفسهم من أخبار الغيب - ويرمون من كل جهة حال كونهم مطرودين ولهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم الاختلاسة فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطىء غرضه .

(كلام في معنى الشهب)

أورد المفسرون أنواعاً من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين ورميهم بالشهب وهي مبنية على ما يسبق إلى الذهن من ظاهر الآيات والأخبار أن هناك أفلاكا محيطة بالأرض تسكنها جماعات الملائكة ولها أبواب لا يلج فيها شيء إلا منها وأن في السماء الأولى جمعاً من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب.

وقد اتضح اليوم اتضاح عيان بطلان هذه الأراء ويتفرع على ذلك بطلان الـوجوه التي أوردوها في تفسير الشهب وهي وجوه كثيرة أودعوها في المطولات كالتفسيسر الكبير للرازي وروح المعاني للآلوسي وغيرهما .

ويحتمل والله العالم أن هذه البيانات في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة تصور بها الحقائق الخارجة عن الحس في صورة المحسوس لتقريبها من الحس وهو القائل عز وجل : ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾(١) . وهو كثير في كلامه تعالى ومنه العرش والكرسي واللوح والكتاب وقد تقدمت الإشارة إليها وسيجيء بعض منها .

وعلى هذا يكون المراد من السماء التي تسكنها الملائكة عالماً ملكوتياً ذا افق أعلى نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلى الأرض ، والمراد باقتراب الشياطين من السماء واستراقهم السمع وقذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة والحوادث المستقبلة ورميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت ، أو كرتهم على الحق لتلبيسه ورمي الملائكة إياهم بالحق الذي يبطل أباطيلهم .

⁽١) العنكبوت . ٤٣ .

وإيراده تعالى قصة استراق الشياطين للسمع ورميهم بالشهب عقيب الإقسام بملائكة الوحي وحفظهم إياه عن مداخلة الشياطين لا يخلو من تأييد لما ذكرناه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَاستَفْتُهُمُ أَهُمُ أَسُدَ خَلَقًا أَمْ مِنْ خَلَقْنَا إِنَا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طَيْنَ لازب ﴾ اللازب الملتزق بعضه ببعض بحيث يلزمه ما جاوره ، وقال في مجمع البيان : اللازب واللازم بمعنى . انتهى .

والمراد بقوله: ﴿ مَن خلقنا ﴾ إما الملائكة المشار إليهم في الآيات السابقة وهم حفظة الوحي ورماة الشهب، وإما غير الناس من الخلق العظيم كالسماوات والأرض والملائكة، والتعبير بلفظ أولى العقل للتغليب.

والمعنى: فإذا كان الله هو رب السماوات والأرض وما بينهما والملائكة فاسألهم أن يفتوا أهم أشد خلقاً أم غيرهم ممن خلقنا فهم أضعف خلقاً لأنا خلقناهم من طين ملتزق فليسوا بمعجزين لنا .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿والصافات صفاً ﴾ قال : الملائكة والأنبياء .

وفيه عن أبيه ويعقوب بن يزيد عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله طفية قال : قال أمير المؤمنين طفية : إن هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض . الحديث .

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الشخة قبال ﴿عذاب واصب﴾ أي دائم موجع قد وصل إلى قلوبهم .

وفيه عن النبي مشنش في حديث المعراج: قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه إلى سماء الدنيا وعليها ملك يُقال له: إسماعيل وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل: ﴿ إِلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب وتحته سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك. الحديث.

أقبول: والروايات في هذا الباب كثيرة أوردنا بعضاً منها في تنفسير قبوله

تعالى : ﴿ إِلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ (١) وسيأتي بعضها في تفسير سورتي الملك والجن إن شاء الله تعالى .

وفي نهج البلاغة : ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة سنها بالماء حتى خلصت ، ولاطها بالبلة حتى لزبت .

بَـلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّـرُوا لَا يَذْكُـرُونَ (١٣) وَإِذَا ذُكِّـرُوا لَا يَذْكُـرُونَ (١٣) وَقَـالُوا إِنْ لَهَـذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) وَقَـالُوا إِنْ لَهَـذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)

َّإِذَا مِنْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ۚ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَو آبَا وَاَلَا الْأَوْلُونَ (١٧) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةً وَاحِدَةً الْأَوَّلُونَ (١٧) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ آلدِينِ (٢٠) هٰذَا يَوْمُ الدِينِ (٢٠) هٰذَا يَوْمُ الدِينِ (٢٠) هٰذَا يَوْمُ الدِينِ طَلَمُوا الْفَصْلِ آلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا آلَّدِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ آللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ آللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِدرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُولُونَ (٢١) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ صِدرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُولُونَ (٢٢) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ مِدرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتُولُونَ (٢٢) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ مَا الْيُومَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضُ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَعْضُ بَنُ اللَّهُ فَا الْمَانِ بَلْ كُنْتُمْ مِنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ مَنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ مِنْ سُلُطَانِ بَلْ كُنْتُمْ مِنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ مَنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ مَنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ الْسُونَ اللَّهِ الْمُلْونَ الْوَالِونَ مُؤْوَا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ وَا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانِ بَلْ كُنْتُمْ

قَوْماً طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبَّنَا إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْـوَيْنَاكُمْ

إِنَّا كُنَّا غَـاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَـوْمَئِذٍ فِي الْعَـذَابِ مُشْتَرِكُـونَ (٣٣) إِنَّا

كَذْلِكَ نَفْعَلَ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَّهَ إِلَّا ٱللَّهُ

(١) الحجر : ١٨ .

يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرِ مَجْنُونٍ (٣٦) بَـلْ جَــآءَ بِـالْحَقِّ وَصَــدُّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَــذَآيْقُــوا الْعَــذَاب الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوَلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَــوَاكِــهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُّرِ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسِ مِنْ مَعِينِ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلً وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ ٱلطُّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَآئِلُ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَــالَ تَـاللَّهِ إِنْ كِــدْتَ لَتُـرْدِين (٥٦) وَلَــوْلَا نِعْمَـةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (٥٩) إِنَّ هٰذَا لَهُ وَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّوم (٦٢) إنَّا جَعَلْنَاهَا فِتُنَـةً لِلظَّالِمِينَ (١٣) إِنَّهَا شَجَـرَةٌ تَخْـرُجُ فِي أَصْـلِ الْجَحِيم (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ آلشَّيَاطِين (٦٥) فَإِنَّهُمْ لأكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيم (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيم (٦٨) إِنَّهُمْ ٱلْفَوْا آبَآءَهُمْ ضَآلِينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) .

(بیان)

حكاية استهزائهم بآيات الله وبعض أقاويلهم المبنية على الكفر وإنكار المعاد والرد عليهم بتقرير أمر البعث وما يجري عليهم فيه من الشدة وألوان العذاب وما يكرم الله به عباده المخلصين من النعمة والكرامة .

وفيها ذكر تخاصم أهل الناريوم القيامة ، وذكر محادثة بين أهل الجنة وأخرى بين بعضهم وبعض أهل النار .

قوله تعالى : ﴿ بل عجبت ويسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ أي بـل عجبت يا محمد من تكذيبهم إياك مع دعوتك إياهم إلى كلمة الحق ، وهم يسخرون ويهزؤن من تعجبك منهم أو من دعائك إياهم إلى الحق ، وإذا ذكروا بآيات الله الدالة على التوحيد ودين الحق لا يذكرون ولا يتنبهون .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأُوا آية يستسخرون﴾ في مجمع البيـان : سخر واستسخر بمعنى واحد . انتهى .

والمعنى : وإذا رأوا هؤلاء المشركون آية معجزة من آيات الله المعجزة كالقرآن وشق القمر يستهزؤون بها .

قوله تعالى : ﴿وقالوا إنّ هذا إلا سحر ميين﴾ في إشارتهم إلى الآية بلفظة هـذا إشعار منهم أنهم لا يفقهون منها إلا أنها شيء ما من غير زيادة وهو من أقـوى الإهانـة والاستسخار .

قوله تعالى : ﴿ عَالَمُ مَتنا وَكنا تراباً وعظاماً عَإِنَا لَمْ يَعُونُونَ أَوْ آبَاؤُمَا الأُولُونَ ﴾ إنكار منهم للبعث مبني على الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن يموت الإنسان فيتلاشى بدنه ويعود تراباً وعظاماً ثم يعود إلى صورته الأولى .

ومن الدليل على أن الكلام مسوق لإفادة الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكاري بالنسبة إلى آبائهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم وقد انمحت رسومهم ولم يبق منهم إلا أحاديث أشد وأقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم .

ولوكان إنكارهم البعث مبنياً على أنهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان

الحكم فيهم وفي آبائهم على نهج واحد ولم يحتج إلى تجديد استفهام بالنسبة إلى آبائهم .

قوله تعالى : ﴿قُلُ نَعُمُ وَأَنْتُمُ دَاخُرُونَ فَإِنْمَا هِي زَجْرَةَ وَاحَدَةً فَإِذَا هُمْ يَسْظُرُونَ﴾ أمر تعالى نبيه مَشْنَا أَنْ يَجِيبُهُم بأنهم مبعوثون .

وقوله: ﴿وَأَنتُم دَاخُرُونَ ﴾ أي صاغرون مهانون أذلاء ، وهذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة ونفوذ الإرادة من غير مهلة ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ولذا عقبه بقوله : ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذاهم ينظرون ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَإِنْمَا هِي رَجِّرَةُ وَاحَدَةً ﴾ البخ الفاء لإفادة التعليل والجملة تعليل لقوله : ﴿ وَأَنتُم دَاخِرُونَ ﴾ وفي التعبير يزجرة إشعار باستذلالهم .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذيون ﴾ معطوف على قوله : ﴿ ينظرون ﴾ المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه المدين والجزاء وهم يحذرون منه بما كفروا وكذبوا ولذا قالوا : يوم الدين ، ولم يقولوا يوم البعث ، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع .

وقوله: ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون كوله هو كلام بعضهم لبعض وقيل: كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم، ويؤيده الآية التالية، والفصل هو التمييز بين الشيئين وسمي يوم الفصل لكونه يوم التمييز بين الحق والساطل بقضائه وحكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين والمتقين قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴿ () .

قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ من كلامه تعالى للملائكة والمعنى وقلنا للملائكة : احشروهم وقيل : هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض .

⁽١) النحل: ٧٧ .

والحشر ـ على ما ذكره الراغب ـ إخراج الجماعة عن مقرّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها .

والمراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون ولا كل المشركين بل المعاندون للحق الصادّون عنه منهم قال تعالى: ﴿ فَاذُن بينهم أن لعنة الله على الطالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴿ ') ، والتعبير بالماضي في المقام يفيد فائدة الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم ما ولو مرة واحدة بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا كما لو قيل : ماذا فعل فلان في حياته فيقال ظلم ، فالفعل يفيد فائدة الوصف ، وفي كلامه تعالى من ذلك شيء كثير كقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً ﴾ (٢) وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (٤) .

وقوله: ﴿وأزواجهم﴾ الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ إلى أن قال ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾(٥).

وقيل: المراد بالأزواج الأشباه والنظائر فأصحاب الزنا يحشرون مع أصحاب الزنا وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر وهكذا.

وفيه أن لازمه أن يراد بالذين ظلموا طائفة خاصة من أصحاب كل معصية واللفظ لا يساعد عليه على أن ذيل الآية لا يتاسبه .

وقيل: المراد بالأزواج نساؤهم الكافرات وهو ضعيف كسابقه.

وقوله: ﴿وَمِمَا كَانُـوا يَعْبِدُونَ مِن دُونَ اللَّهُ الطَّاهِرِ أَنَّ الْمَرَادُ بِـهُ الْأَصْنَامُ الَّتِي يعبِدُونِهَا نظراً إلى ظاهر لفظة ﴿مَا﴾ فالآية نظيرة قوله: ﴿إِنكُم وَمَا تَعْبِدُونَ مِن دُونَ اللهِ حصب جهنم﴾(٦) .

(٢) الزمر : ٧٣ .

(٥) الزخرف : ٣٨ .

⁽١) الأعراف : ٥٥ .

⁽٣) الزمر : ٧١ .

⁽٤) يونس : ٢٦ .

ويمكن أن يكون المراد بلفظة ﴿ما﴾ ما يعم أولي العقل من المعبودين كالفراعنة والنماردة ، وأما الملائكة المعبودون والمسيح سلنك فيخرجهم من العموم قوله تعالى : ﴿إِن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (١) .

وقوله : ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ الجحيم من أسماء جهنم في القرآن وهو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب .

والمراد بهدايتهم إلى صراطها إيصالهم إليه وإيقاعهم فيه بالسوق ، وقيل : تسمية ذلك بالهداية من الاستهزاء ، وقال في مجمع البيان : إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلاً من الهداية إلى الجنة كقوله : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ من حيث إن هذه البشارة وقعت لهم بدلاً من البشارة بالنعيم . انتهى .

قوله تعالى : ﴿وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون﴾ قال في المجمع يقال : وقفت أنا ووقفت غيري - أي يعدي ولا يعدى ـ وبعض بني تميم يقول : أوقفت الدابة والدار . انتهى .

فقوله: ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ أي احبسوهم لأنهم مسئولون أي حتى يسأل عنهم . والسياق يعطي أن هذا الأمر بالوقوف والسؤال إنما يقع في صواط الجحيم .

واختلفت كلماتهم فيما هـو السؤال عنه فقيـل : يسألـون عن قـول لا إلـه إلا الله ، وقيل : عن شرب الماء البارد استهزاء بهم ، وقيل : عن ولاية علي سلنظ.

وهذه الوجوه لو صحت فإنما تشير إلى بعض مصاديق ما يسأل عنه والسياق يشهد أن السؤال هو ما يشتمل عليه قوله: ﴿ ما لكم لا تناصرون﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه في الدنيا فتستعينون به على حوائجكم ومقاصدكم، وما يتلوه من قوله: ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ أي مسلمون لا يستكبرون يدل على أن المراد بقوله: ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ السؤال عن استكبارهم عن طاعة الحق كما كانوا يستكبرون في الدنيا.

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذي كانوا عليه في الدنيا فقد تبين به أن المسؤول عنه هو كل حق أعرضوا عنه في الدنيا من اعتقاد حق

⁽١) الأنبياء: ١٠١.

أو عمل صالح استكباراً على الحق تظاهراً بالتناصر .

قوله تعالى: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ إلى قوله ﴿إنا كنا غاوين﴾ تخاصم واقع بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة ، والتعبير عنه بالتساؤل لأنه في معنى سؤال بعضهم بعضاً تلاوماً وتعاتباً يقول التابعون لمتبوعيهم : لم أضللتمونا ؟ فيقول المتبوعون : لم قبلتم منا ولا سلطان لنا عليكم ؟

فقوله : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ البعض الأول هم المعترضون والبعض الثاني المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل وتساؤلهم تخاصمهم .

وقوله: ﴿قالواإنكم كنتم تأتونساعن اليمين ﴾ أي من جهة الخير والسعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير كقوله: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾(١) والمعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير والسعادة فتقطعون الطريق وتحولون بيننا وبين الخير والسعادة وتضلوننا.

وقيل: المراد باليمين الدين وهو قريب من الوجه السابق، وقيل: المراد باليمين الفي المراد باليمين الدين وهو قريب من الوجه السابق، وقيل: المراد باليمين القهر والقوة كما في قوله تعالى: ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ (٢) ولا يخلو من وجه نظراً إلى جواب المتبوعين.

وقوله: ﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ إلى قوله ﴿غاوين ﴾ جواب المتبوعين بتبرثة أنفسهم من إشقاء التابعين وأن جرمهم مستند إلى سوء اختيار أنفسهم .

فقالوا: بل لم تكونوا مؤمنين أي لم نكن نحن السبب الموجب لإجرامكم وهلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لا أنا جردناكم من الإيمان .

ثم قالوا: ﴿وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ وهو في معنى الجواب على فرض التسليم كأنه قيل: ولو فرض أنه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتى نسلبه منكم ونجردكم منه . على أن سلطان المتبوعين إنما هو بالتابعين فهم الذين يعطونهم السلطة والقوة فيتسلطون عليهم أنفسهم .

ثم قالوا: ﴿ بِل كنتم قوماً طاغين ﴾ والطغيان هـ و التجاوز عن الحد وهـ و

إضراب عن قوله: ﴿لم تكونوا مؤمنين﴾ كانه قيل: ولم يكن سبب هلاككم مجرد الخلو من الإيمان بل كنتم قوماً طاغين كما كنا مستكبرين طاغين فتعاضدنا جميعاً على ترك سبيل الرشد واتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمة العذاب التي قضى بها الله سبحانه قال تعالى: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً﴾(١) وقال: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾(٢).

ولهذا المعنى عقّب قوله : ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ بقوله : ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ﴾ أي لذائقون العذاب .

ثم قالوا: ﴿فَأَغُويِنَاكُمْ إِنَاكُنَاغَاوِينَ ﴾ وهو متفرع على ثبوت كلمة العلااب وآخر الأسباب لهلاكهم فإن الطغيان يستتبع الغواية ثم نار جهنم ، قال تعالى لإبليس ﴿إِن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ (٣) .

فكأنه قيل: فلما تلبستم بالطغيان حل بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلا اتباعكم لنا واتصالكم بنا فسرى إليكم ما فينا من الصفة وهي الغواية فالغاوي لا يتأتى منه إلا الغواية والإناء لا يترشح منه إلا ما فيه ، وبالجملة إنكم لم تجبروا ولم تسلبوا الاختيار منذ بدأتم في سلوك سبيل الهلاك إلى أن وقعتم في ورطته وهي الغواية فحق عليكم القول .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْهُم يُومَثُدُ فَي العَدَّابِ مَشْتَرَكُونَ ﴾ إلى قول ويستكبرون ﴾ ضمير ﴿ فَإِنْهُم ﴾ للتابعين والمتبوعين فهم مشتركون في العذاب الاشتراكهم في الظلم وتعاونهم على الجرم من غير مزية لبعضهم على بعض .

واستظهر بعضهم أن المغوين أشد عذاباً وذلك في مقابلة أوزارهم وأوزار أمثال أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة والحق أن الآيات مسوقة لبيان اشتراكهم في الظلم والجرم والعذاب اللاحق بهم من قبله ، ويمكن مع ذلك أن يلحق بكل من المتبوعين والتابعين ألوان من العذاب ناشئة عن خصوص شأنهم قال تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ وبنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً

⁽٣) الحجر : ٤٣ .

⁽٤) العنكبوت : ١٣ .

⁽١) النبأ: ٢٢ .

⁽٢) النازعات : ٣٩ .

ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ (١) .

وقوله: ﴿إِنَا كَذَلَكَ نَفَعَلَ بِالْمَجْرِمِينَ ﴾ تأكيد لتحقيق العداب ، والمراد بالمجرمين المشركون بدليل قوله بعد: ﴿إنهم إذا قيل لهم لا إلىه إلا الله يستكبرون ﴾ أي إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمة الإخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم ولم يقبلوا .

قوله تعالى: ﴿ويقولون وإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين في قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد وإنكارهم له.

وقوله: ﴿ وَاللَّهِ عَلَى اللَّهِ وَصَدَقَ المَّرَسِلِينَ ﴾ رد لقولهم: ﴿ لشَّاعِ مَجْنُونَ ﴾ حيث رموه ﷺ بالشَّعر والجنون وفيه رمي لكتاب الله بكونه شعراً ومن هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق وفيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشَّعر وهفوة الجنون وليس ببدع غير مسبوق في معناه .

قوله تعالى : ﴿إِنْكُم لَذَاتُقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾ تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم ورميهم الحق بالباطل .

قـوله تعـالى : ﴿وَمَا تَجَـزُونَ إِلَا مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ أي لا ظلم فيـه لأنه نفس عملكم يرد إليكم .

قوله تعالى: ﴿إِلا عباد الله المخلصين﴾ إلى قوله ﴿بيض مكنون﴾ استثناء منقطع من ضمير ﴿لذائقوا﴾ أو من ضمير ﴿ما تجزون﴾ ولكل وجه والمعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وليسوا بذائقي العذاب الأليم والمعنى على الثاني لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم وستجىء الإشارة إلى معناه.

واحتمال كون الاستثناء متصلًا ضعيف لا يخلو من تكلف .

وقد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبودية نفسه والعبد هو

⁽١) الأعراف: ٣٨.

سورة الصافات ـ آية ٣٦ ـ ٤٩ 144

الذي لا يملك لنفسه شيئًا من إرادة ولا عمل فهؤلاء لا يـريدون إلا مـا أراده الله ولا يعملون إلا له .

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أي إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا ولا من نعم العقبي وليس في قلوبهم إلا الله سبحانه .

ومن المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذاذه وتنعمه غير ما يلتذ ويتنعم غيره وارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه وإن شاركهم في ضروريات المأكل والمشرب ومن هنا يتأييد أن المراد بقبوله : ﴿أُولِنُكُ لَهُمْ رَزِّقَ مَعْلُومٌ ﴾ الإشارة إلى أن رزقهم في الجنة _وهم عباد مخلصون ـ رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم ولا يختلط بما يتمتع به من دونهم وإن اشتركا في الاسم .

فقوله : ﴿ أُولِئُكُ لِهُمْ رَزَقَ مُعَلُومٌ ﴾ أي رزق خياص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوماً كناية عن امتيازه كما في قوله : ﴿وَمَا مَنَا إِلَّا لَهُ مَقَامُ مُعَلُّومُ ﴾(١) والإشارة بلفظ البعيد للدلالة على علو مقامهم .

وأما ما فسيره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوماً كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع ولا ممنوع حسن المنظر لذيـذ الطعم طيب الـراثحة ، وكـذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله : ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾(٢) وكذا قول القائل : إن المراد به الجنة فهي وجوه غير سديدة .

ومن هنا يظهر أن أخذ قبوله : ﴿إِلَّا عَبَّادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء من ضمير ﴿ وَمَا تَجْزُونَ ﴾ لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشارة إليه .

وقوله : ﴿ فُواكِهُ وهِم مَكْرُمُونَ فِي جَنَّاتَ النَّعِيمِ ﴾ الفواكه جمع فاكهة وهي سأ يتفكه به من الأثمار بيان لوزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفّعه بقوله: ﴿وهم مكرمون كه للدلالة على امتياز هذا الرزق أعني الفاكهة مما عند غيرهم بأنها مقارنة لإكرام خاص يخصهم قبال اختصاصهم بالله سبحانه وكونه لهم لا يشاركهم فيه سيء .

> (۲) مريم : ٦٢ ، (١) الصافات: ١٦٤.

وفي إضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى ذلك فقد تقدم في قوله: ﴿فَأُولُسُكُ مِع الذِّينَ أَنْعُم الله عليهم﴾ الأيسة (١) ، وقوله: ﴿وَأَتَمَمَتَ عَلَيْكُم نَعْمَتِي ﴾ (٢) وغيرهما أن حقيقة النعمة هي الولاية وهي كونه تعالى هو القائم بأمر عبده .

وقوله: ﴿على سرر متقابلين﴾ السرر جمع سرير وهو معروف وكونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم ببعض واستمتاعهم بنظر بعضهم في وجه بعض من غير أن يرى بعضهم قفا بعض .

وقوله: ﴿ يَطَافَ عَلَيْهُم بَكُأْسُ مِن مَعِينَ ﴾ الكأس إناء الشراب ونقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأسا إلا وفيه الشراب فإن خبلا منه فهو قدح والمعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر وجرى على وجه الأرض ، والمراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها ولذا عقبه بقوله: ﴿ بِيضاء ﴾ .

وقوله: ﴿بيضاء لذة للشاربين﴾ أي صافية في بياضها لذيذة للشاربين فاللذة مصدر أريد به الوصف مبالغة أو هي مؤنث لذّ بمعنى لذيذ كما قيل.

وقوله: ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ الغول الإضرار والإفساد ، قسال الراغب : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحس به انتهى . فنفي الغول عن الخمر نفي مضارها والإنزاف فسر بالسكر المذهب للعقل وأصله إذهاب الشيء تدريجاً .

ومحصل المعنى : أنه ليس فيها مضار الخمر التي في الدنيا ولا إسكارها بإذهاب العقل .

وقوله : ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ وصف للحور التي يرزقونها وقصور طرفهن كناية عن نظرهن نظرة الغنج والدلال ويؤيده ذكر العين بعده وهو جمع عيناء مؤنث أعين وهي الواسعة العين في جمال .

وقيل: المراد بقاصرات الطرف أنهن قصرن طرفهن على أزواجهن لا يردن غيرهم لحبهن لهم، وبالعين أن أعينهن شديدة في سوادها شديدة في بياضها.

وقوله : ﴿كَأَنْهِن بِيضِ مَكُنُونَ﴾ البيض معروف وهو اسم جنس واحدته بيضة والمكنون هو المستور بالادخار قيل : المراد تشبيههن بالبيض اللذي كنه الريش في

العش أو غيره في غيره فلم تمسه الأيدي ولم يصبه الغبار ، وقيل : المراد تشبيههن ببطن البيض قبل أن يقشّر وقبل أن تمسه الأيدي .

قوله تعالى: ﴿فَأَقِبَلَ بِعضهم على بعض يتساءلون﴾ إلى قوله ﴿فليعمل العاملون﴾ حكاية محادثة تقع بين أهل الجنة فيسأل بعضهم عن أحوال بعض ويحدث بعضهم بما جرى عليه في الدنيا وتنتهي المحادثة إلى تكليمهم بعض أهل النار وهو في سواء الجحيم.

فقوله: ﴿فَأَقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله المخلصين وتساؤلهم -كما تقدم - سؤال بعضهم عن بعض وما جرى عليه .

وقوله: ﴿قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ أي قال قائل من أهل الجنة المتسائلين إني كان لي في الدنيا مصاحب يختص بي من الناس . كذا يعطي السياق .

وقيل: المراد بالقرين القرين من الشياطين وفيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين في المعرضين عن ذكر الله والمخلصون في عصمة إلهية من قرين الشياطين وكذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾(١) نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين.

وقوله: ﴿ يقول عَإِنْكُ لَمِنَ الْمُصَدَّقِينَ إِذَا مَتَنَا وَكُنَا تَرَاباً وَعَظَاماً عَإِنَا لَمَدَيَنُونَ ﴾ ضمير ﴿ يقول ﴾ للقرين ، ومفعول ﴿ المصدقين ﴾ البعث للجزاء وقد قام مقامه قوله : ﴿ عَإِذَا مَتَنا﴾ النَّح والمدينون المجزيون .

والمعنى : كان يقول لي قريني مستبعداً منكراً ءإنك لمن المصدقين للبعث للجزاء ءإذا متنا وكنا ترابأ وعظاماً فتلاشت أبداننا وتغيرت صورها ءإنا لمجزيون بالإحياء والإعادة ؟ فهذا مما لا ينبغي أن يصدق .

وقوله : ﴿قَالَ هِلُ أَنْتُم مَطَلِّعُونَ ﴾ ضمير ﴿قَالَ ﴾ للقائل المذكور قبلًا ،

⁽۱) ص : ۸۳

والإطلاع الإشراف والمعنى ثم قبال القائيل المذكبور مخاطبياً لمحادثينه من أهيل الجنة : هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قريني والحال التي هو فيها ؟

وقوله : ﴿ فَاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ السواء الوسط ومنه سواء الطريق أي وسطه والمعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أي قرينه في وسط الجحيم .

وقوله: ﴿قَالَ تَالله إِنْ كَدَتَ لَتَرَدِينَ ﴾ ﴿إِنْ مَخْفَفَةً مِنَ الثقيلة ، والإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق ويكنى به عن الهلاك والمعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه من الجحيم .

وقوله: ﴿ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين﴾ المراد بالنعمة التوفيق والهداية الإلهية ، والإحضار الإشخاص للعذاب قال في مجمع البيان: ولا يستعمل وأحضر، مطلقاً إلا في الشر.

والمعنى: ولولا توفيق ربي وهدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك .

وقوله: ﴿أقما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾ الاستفهام للتقرير والتعجيب، والمراد بالموتة الأولى هي الموتة عن الحياة الدنيا وأما الموتة عن البرزخ المدلول عليها بقوله: ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ (١) فلم يعبأ بها لأن الموت الذي يزعم الزاعم فيه القناء والبطلان هو الموت الدنيوي.

والمعنى: ـعلى ما في الكلام من الحذف والإيجاز ـ ثم يرجع القائل المذكور إلى نفسه وأصحابه فيقول متعجباً أنحن خالدون منعمون فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى وما نحن بمعذبين ؟

قال في مجمع البيان : ويريدون به التحقيق لا الشك وإنما قالوا هـذا القول لأن لهم في ذلك سروراً مجدداً وفرحاً مضاعفاً وإن كان قـد عرفوا أنهم سيخلدون في الجنة وهذا كما أن الرجل يعطى المال الكثير فيقـول مستعجباً : كـل هذا المال لي ؟ وهو يعلم أن ذلك له وهذا كقوله :

أبطحاء مكة هذا الذي أراه عيانا وهذا أنا؟ قال: ولهذا عقبه بقوله: ﴿إن هذا لهو الفوز العظيم﴾ انتهى .

⁽١) المؤمن : ١١ .

وقوله : ﴿إِنْ هذا لهو الفوز العظيم ﴾ هو من تمام قول القائل المذكور وفيه إعظام لموهبة الخلود وارتفاع العذاب وشكر للنعمة .

وقوله : ولمثلهذا فليعمل العاملون في ظاهر السياق أنه من قول القائل المذكور والإشارة بهذا إلى الفوز أو الثواب أي لمثل هذا الفوز أو الثواب فليعمل العاملون في دار التكليف ، وقيل : هو من قول الله سبحانه وقيل : من قول أهل الجنة .

واعلم أن لهم أقوالاً مختلفة في نسبة أكثر الجمل السابقة إلى قول الله تعالى أو قول الله تعالى أو قول الملائكة أو قول أهل الجنة غير القائل المذكور والذي أوردناه هو الذي يساعد عليه السياق.

قوله تعالى : ﴿أَذَلُكَ خَيْرُ نَزِلًا أَمْ شَجْرَةُ الزَّقُومِ ﴾ إلى قول ﴿يهرعون ﴾ مقايسة بين ما هيأه الله نزلًا لأهل الجنة مما وصفه من الرزق الكريم وبين ما أعده نزلًا لأهل النار من شجرة الزقوم المتى طلعها كأنه رؤوس الشياطين وشراب من حميم .

فقوله: ﴿ أَذَلَكَ خَيْرُ نَـزَلاً أَمْ شَجْرَةُ الـزَقْوَمِ ﴾ الإشارة بذلك إلى الرزق الكريم المذكورة سابقاً المعد لورود أهل الجنة والنزل بضمتين ما يهيؤ لورود الضيف فيقدم إليه إذا ورد من الفواكه ونحوها.

والزقوم ـ على ما قيل ـ اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورم تكون في تهامة والبلاد المجدبة المجاورة للصحراء سميت به الشجرة الموصوفة بما في الآية من الأوصاف ، وقيل : إن قريشاً ما كانت تعرفه وسيأتي ذلك في البحث الرواثي .

ولفظة خير في الآية بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيرية في الزقوم أصلاً فهو كقوله : ﴿ما عند الله خير من اللهو﴾(١) والآية على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى .

وقوله : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فَتَنَةَ لَلْظَالَمِينَ ﴾ الضمير لشجرة النزقوم ، والفتنة المحنة والعذاب .

وقوله : ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ وصف لشجرة الزقوم ، وأصل

⁽١) الجمعة : ١١ .

الجحيم قعرها ، ولا عجب في نبات شجرة في النار وبقائها فيها فحياة الإنسان وبقاؤها خالداً فيها أعجب والله يفعل ما يشاء .

وقوله : ﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ الطلع حمل النخلة أو مطلق الشجرة أول ما يبدو ، وتشبيه ثمرة النزقوم برؤوس الشياطين بعناية أن الأوهام العامية تصور الشيطان في أقبح صورة كما تصور الملك في أحسن صورة وأجملها قال تعالى : ﴿ مَا هَذَا بِشُراً إِنْ هَذَا إِلَا مَلْكَ كُرِيم ﴾ (١) ، وبذلك يندفع ما قيل : إن الشيء إنما يشبه بما يعرف ولا معرفة لأحد برؤوس الشياطين .

وقوله: ﴿ فَإِنْهُم لَآكُلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبِطُونَ ﴾ الفاء للتعليل يبين به كونها نزلًا للظالمين يأكلون منها ، وفي قوله: ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا البِطُونَ ﴾ إشارة إلى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان .

وقوله: ﴿ثم إن لهم عليها لشوبها من حميم ﴾ الشوب المزيج والخليط، والحميم الماء الحار البالغ في حرارته، والمعنى ثم إن لأولئك الظالمين ـ زيادة عليها ـ لخليطاً مزيجاً من ماء حار بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ما ملأوا منه البطون من المزوم.

وقوله : ﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ أي إنهم بعد شـرب الحميم يرجعـون إلى الجحيم فيستقـرون فيهـا ويعــذبـون ، وفي الآيــة تلويـح إلى أن الحميم خــارج الجحيم .

وقوله : ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ﴾ ألفيت كذا أي وجدته وصادفته ، والإهراع الإسراع والمعنى أن سبب أكلهم وشربهم ثم رجوعهم إلى المجحيم أنهم صادفوا آباءهم ضالين _وهم مقلدون وأتباع لهم وهم أصلهم ومرجعهم فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك والرجوع إلى الجحيم جزاء وفاقا .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : ﴿بل عجبت﴾ قال النبي ﷺ : عجبت بالقرآن حين أنزل ويسخر منه ضلال بني آدم .

⁽۱) يوسف : ۳۱ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا ﴾ قال : الـذين ظلموا أله عليهم السلام حقهم ﴿ وأزواجهم ﴾ قال : أشباههم .

أقول : صدر الرواية من الجري .

وفي المجمع في قولـه تعالى : ﴿وقفـوهم إنهممسؤولون﴾ قيل : عن ولايـة على ملك على ملك عن عن عن عن على على مالك عن أبي سعيد الخدري .

أقول: ورواه الشيخ في الأمالي بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي منطق ، وفي العيون عن النبي منطق ، وفي العيون عن علي وعن الرضا منطق عنه منطق ، وفي تفسير القمي عن الإمام منطق .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين منطئة قال: قال رسول الله سنواني : لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين كسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت.

أقول : وروى في العلل عنه م^{يل الي} مثله .

وفي نهج البلاغة : اتقوا الله في عباده وبلاده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري في تاريخه والترمذي والـدارمي وابن جريـر وابن المنــذر وابن أبي حاتم والحــاكم وابن مردويـه عن أنس قال: قــال رســول الله عن المنــذر وابن أبي دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامـة لازماً بــه لا يفارقـه وإن دعا رجلً ثم قرأ ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر مانشف عن النبي سند في حديث : وأما قوله : ﴿ أُولئك لهم رزق معلوم قال : يعلمه (١) الخدام فيأتون به إلى أولياء الله قبل أن يسألوهم إياه . أما قوله : ﴿ فواكه وهم مكرمون ﴾ قال : فإنهم لا يشتهون شيئا في الجنة إلا أكرموا به .

وفي تفسيس القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر النخم ﴿فَاطَلَعُ فَـرَآهُ في سواء الجحيم﴾ يقول: في وسط الجحيم .

⁽١) يعنى : خ .

وفيه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحَنَ بَمِيتِينَ﴾ النج بإسناده عن أبيه عن علي بن مهزيار والحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر طلخة قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جيء بالموت ويذبح كالكبش بين الجنة والنار ثم يقال: خلود فلا موت أبداً فيقول أهل الجنة: ﴿أَفَمَا نَحَنَ بَمَيتَينَ إِلاَ مُوتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحَنَ بَمَعَذَبِينَ إِنْ هَذَا لَهُو الْفُوزِ الْعَظَيم لَمَسُلُ هَذَا فَلِيعَمَلُ الْعَامِلُونَ﴾.

أقول : وحديث ذبح الموت في صورة كبش يوم القيامة من المشهـورات رواه الشيعة وأهل المنة ، وهو تمثل الخلود يومثذ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ شجرة الزقوم ﴾ روي أن قريشاً لما سمعت هذه الآية قالت : ما نعرف هذه الشجرة قال ابن الزبعري : الزقوم بكلام البربر التمر والزبد وفي رواية بلغة اليمن فقال أبو جهل لجاريته : يا جارية زقمينا فأتته الجارية بتمر وزبد فقال لأصحابه : تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد فيزعم أن النار تنبت الشجر والنار تحرق الشجر فأنزل الله سبحانه ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ .

أقول : وهذا المعنى مروي بطرق عديدة .

* * *

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْفَرُ الْأُولِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْدِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٣٣) إِلَّا عِبَادَ آللَّهِ الْمُحْلَصِينَ (٤٤) وَلَقَدْ نَادَنْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٣٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٣٦) وَجَعَلْنَا ذُرِيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٣٦) وَجَعَلْنَا ذُرِيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَرَحَعُلْنَا ذُرِيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٨٨) سَلامُ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٩٨) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُوْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ (٨٦) إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإَبْرِهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُ أَعْرَفْنَا الْآخَرِينَ (٨٦) إِذْ قَالَ لَأْبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَيْفُكا آلِهَةً بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٥) إِذْ قَالَ لَأْبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَيْفُكا آلِهَةً بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٥) إِذْ قَالَ لَأْبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَيْفُكا آلِهَةً

دُونَ آللَّهِ تُريدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنَّكُمْ بِرَبِّ الْعَـالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَـظُرَةً فِي ٱلنَّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَـوَلُّوا عَنْـهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَسْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ (٩٣) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَآللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ، الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقُـالَ إِنِّي ۖ ذَاهِبُ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشُّرْنَاهُ بِغُلام حَلِيم (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيُّ إِنِّي أَرْى فِي الْمَنَامُ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَـرَىٰ قَـالَ يَـا أَبَتِ افْعَـلْ مَـا تُؤْمَرُ سَتَجِـدُنِي إِنْ شَـآءَ ٱللَّهُ مِنَ آلصًابرينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَاوَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرُهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدُّقْتَ آلرُّءْيَا إِنَّا كَذْلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلُوَّا الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَـدَيْنَاهُ بِـذِبْح ِ عَسِظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرُهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْرَي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحُقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمُ لِنَفْسِهِ مَبينٌ (١١٣) .

(بیان)

تعقيب لغرض السياق السابق المتعرض لشركهم وتكذيبهم بآيات الله وتهديدهم بأليم العذاب يقول: إن أكثر الأولين ضلوا كضلالهم وكذبوا الرسل المنذرين كتكذيبهم ويستشهد بقصص نوح وإبراهيم وموسى وهـارون وإلياس ولـوط ويونس عليهم السـلام وما في الآيات المنقولة إشارة إلى قصة نوح وخلاصة قصص إبراهيم ملائد .

قوله تعالى: ﴿ولقد صل قبلهم أكثر الأولين﴾ إلى قوله ﴿المخلصين﴾ كلام مسوق لإنذار مشركي هذه الأمة بتنظيرهم للأمم الهالكين من قبلهم فقد ضل أكثرهم كما ضل هؤلاء وأرسل إليهم رسل منذرون كما أرسل منذر إلى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبة أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم.

واللام في فولقد ضل للقسم وكذا في فولقد أرسلنا والمنذرين الأول بكسر الدال المعجمة وهم الأمم الأولون ، الدال المعجمة وهم الامم الأولون ، و فوالا عباد الله إن كان المراد بهم من في الأمم من المخلصين كان استثناء متصلاً وإن عم الأنبياء كان منقطعاً إلا بتغليبه غير الأنبياء عليهم والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾ اللامان للقسم وهو يدل على كمال العناية بنداء نوح وإجابته تعالى ، وقد مدح تعالى نفسه في إجابته فإن التقدير فلنعم المجيبون نحن ، وجمع المجيب لإفادة التعظيم وقد كان نداء نوح على ما يفيده السياق _ دعاءه على قومه واستغاثته بربه المنقولين في قوله تعالى : ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾(١) ، وفي قوله تعالى : ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا﴾(١) ، وفي قوله تعالى : ﴿فندعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾(١) .

قوله تعالى: ﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ الكرب على ما ذكره الراغب الغم الشديد والمراد به الطوفان أو أذى قومه ، والمراد بأهله أهل بيته والمؤمنون به من قومه وقد قال تعالى في سورة هود: ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن﴾ (٣) والأهل كما يطلق على زوج الرجل وبنيه يطلق على كل من هو من خاصته .

قوله تعالى : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ أي الباقين من الناس بعد قرنهم وقد بحثنا في هذا المعنى في قصة نوح من سورة هود .

قوله تعالى : ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ المراد بالترك الإبقاء وبالآخرين

⁽١) نوح : ٢٦ .

الأمم الغابرة غير الأولين ، وقد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم سُنشه أيضاً في هذه السورة وقد بدلت في القصة بعينها من سورة الشعراء من قوله : ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾(١) واستفدنا منه هناك أن المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم بدعوته ويدعو إلى ملته وهي دين التوحيد .

فيتأيد بذلك أن المراد بالإبقاء في الأخرين هـو إحياؤه تعـالى دعوة نـوح مشخف إلى التـوحيد ومجـاهدتـه في سبيل الله عصـراً بعد عصـر وجيلاً بعـد جيـل إلى يـوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعاً محلى باللام مفيداً للعصوم ، والظاهر أن المراد به عالموا البشر وأممهم وجماعاتهم إلى يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدى إليه من قبل الأمم الإنسانية ما جرى فيها شيء من الخيرات اعتقاداً أو عملاً فإنه سلخي أول من انتهض لدعوة التوحيد ودحض الشرك وما يتبعه من العمل وقاسى في ذلك أشد المحنة فيما يقرب من ألف سنة لا يشاركه في ذلك أحد فله نصيب من كل خير واقع بينهم إلى يوم القيامة ، ولا يوجد في كلامه تعالى سلام على هذه السعة على أحد ممن دونه .

وقيل : المراد بالعالمين عوالم الملائكة والثقلين من الجن والإنس .

قوله تعالى: ﴿إِنَا كَذَلَكُ نَجْزِي المحسنين﴾ تعليل لما امتن عليه من الكرامة كإجابة ندائه وتنجيته وأهله من الكرب العظيم وإبقاء ذريته وتسركه عليه في الآخرين والسلام عليه في العالمين ، وتشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا في خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختص به منظم وهو ظاهر.

قوله تعالى : ﴿إِنهُ مِن عبادنا المؤمنين﴾ تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجملة السابقة وذلك لأنه سُنتُ لكونه عبداً لله بحقيقة معنى الكلمة كان لا يريد ولا يفعل إلا ما يريده الله ، ولكونه من المؤمنين حقاً كان لا يرى من الاعتقاد إلا الحق وسرى

⁽١) الشعراء: ٨٤.

ذلك إلى جميع أركان وجوده ومن كان كذلك لا يصدر منه إلا الحسن الجميل فكان من المحسنين .

قوله تعالى : ﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ ثم للتراخي الكلامي دون الزماني والمراد بالآخرين قومه المشركون .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مَنْ شَيْعَتُهُ لِإِبْرَاهِيمِ﴾ الشَّيْعَةُ هُمُ القوم المشايعُونُ لغيرهُمُ الله الله الله على أثرهم وبالجملة كل من وافق غيره في طريقته نهو من شيعته تقدم أو تأخر قال تعالى : ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾(١) .

وظاهر السياق أن ضمير ﴿شيعته ﴾ لنوح أي إن إبراهيم كان ممن يوافقه في دينه وهو دين التوحيد ، وقيل : الضمير لمحمد المسلمة ولا دليل عليه من جهة اللفظ .

قيل: ومن حسن الإرداف في نظم الآبات تعقيب قصة نوح بالنين وهو آدم الثاني أبو البشر بقصة إبراهيم مؤلف وهو أبو الأنبياء إليه تنتهي أنساب جل الأنبياء بعده وعلى دينه تعتمد أديان التوحيد الحية اليوم كدين صوسى وعيسى ومحمد ملائلة ، وأيضاً نوح مالك نجاه الله من الغرق وإبراهيم مؤلفة نجاه الله من الحرق .

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُ رَبِهُ بِقَلْبُ سَلَيمٍ ﴾ مجيئه ربه كناية عن تصديقه له وإيمانه به ، ويؤيد ذلك أن المراد بسلامة القلب عروه عن كل ما يضر التصديق والإيمان بالله سبحانه من الشرك الجلي والخفي ومساوي الأخلاق وآثار المعاصي وأي تعلق بغيره ينجذب إليه ويختل به صفاء توجهه إليه سبحانه

وبـذلك يـظهر أن المـراد بالقلب السليم مـا لا تعلق له بغيـره تعـالى كمـا في الحديث وسيجيء إن شاء الله في البحث الروائي الآتي .

وقيل : المراد به السالم من الشرك ، ويمكن أن يوجه بما يـرجع إلى الأول وقيل : المراد به القلب الحزين ، وهو كما ترى .

والظرف في الآية متعلق بقوله سابقاً ﴿من شيعته﴾ والظروف يغتضر فيها مالا يغتفر في غيرها ، وقيل متعلق باذكر المقدر .

⁽١) سبأ : ٤٥ .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقُومُهُ مَاذًا تَعْبَدُونَ ﴾ أي أيّ شيء تعبدون ؟ وإنسا سألهم عن معبودهم وهو يرى أنهم يعبدون الأصنام تعجباً واستغراباً .

قوله تعالى : ﴿ أَنِفَكُا آلِهَ دُونَ الله تريه وَنَ ﴾ أي تقصدون آلهـ دُونَ الله افكا وافتراء ، إنما قدم الإفك والآلهة لتعلق عنايته بذلك .

قوله تعالى: ﴿ فَنظر منظرة في النجوم فقال إلى سقيم ﴾ لا شك أن ظاهر الآيتين أن إخباره والنف بأنه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم ومبني عليه ونظرته في النجوم إما لتشخيص الساعة وخصوص الوقت كمن به حمى ذات نوبة يعين وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم وإما للوقوف على الحوادث المستقبلة التي كان المنجمون يرون أن الأوضاع الفلكية تدل عليها ، وقد كان الصابئون مبالغين فيها وكان في عهده منشئ منهم جم غفير .

فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافة إلى عيد لهم نظر إلى النجوم وأخبرهم أنه سقيم ستعتريه العلة فلا يقدر على الخروج معهم .

وعلى الوجه الثاني نظر مائنة حينذاك إلى النجوم فظرة المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم .

وأول الوجهين أنسب لحاله منظ وهو في إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالي تأثيراً ، ولا دليل لنا قوياً يدل على أنه منظ لم يكن به في تلك الأيام سقم أصلا ، وقد أخبر القرآن بإخباره بأنه سقيم وذكر قبيل ذالك أنه جاء ربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب ولا لغو من القول .

ولهم في الآيتين وجوه أخر أوجهها أن نظرته في النجوم وإخباره بالسقم من المعاريض في الكلام والمعاريض أن يقول الرجل شيئاً يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده فلعله نظر سلام في النجوم نظر الموحد في صنعه تعالى يستدل به عليه تعالى وعلى وحدانيته وهم يحسبون أنه ينظر إليها نظر المنجم فيها ليستدل بها على الحوادث ثم قال: إني سقيم يريد أنه سيعتريه سقم فإن الإنسان لا يخلو في حياته من سقم ما ومرض ما كما قال: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾(١) وهم يحسبون أنه

⁽١) الشعراء : ٨٠ .

يخبر عن سقمه يوم يخرجون فيه لعيد لهم ، والمرجح عنده لجميع ذلك ما كان يهتم به من الرواغ إلى أصنامهم وكسرها .

لكن هـذا الوجـه مبني على أنه كـان صحيحاً غيـر سقيم يـومئـذ، وقـد سمعت أن لا دليل يدل عليه .

على أن المعاريض غير جائزة على الأنبياء لارتفاع الوثوق بذلك عن قولهم .

قوله تعالى : ﴿فتولموا عنه مديرين﴾ ضمير الجمع للقوم وضمير الإفراد لإبراهيم سُنخ أي خرجوا من المدينة وخلفوه .

قوله تعالى : ﴿ فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون ﴾ الروغ والرواغ والروغان الحياد والميل ، وقيل أصله الميل في جانب ليخدع من يريده .

وفي قوله : ﴿ أَالَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيام أعيادهم طعاماً عند آلهتهم .

وقوله: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ؟ مَا لَكُمَ لَا تَنْطَقُونَ ﴾ ؟ تَكْلِيمَ مَنْهُ لَآلَهُتُهُم وهي جماد وهو يعلم أنها جماد لا تأكل ولا تنطق لكن السوجد وشدة الغيظ حمله على أن يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين .

فنظر اليها وهي ذوات أبدان كهيئة من يتغذى ويأكل وعندها شيء من الطعام فامتلأ غيظاً وجاش وجداً فقال: ألا تأكلون؟ فلم يسمع منها جواباً فقال: ﴿مَا لَكُمُ لَا تَنْطَقُونَ ﴾؟ وأنتم آلهة يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لامورهم فلما لم يسمع لها حساً راغ عليها ضرباً باليمين.

قوله تعالى : ﴿ فراغ عليهم ضربا باليمين ﴾ أي تفرع على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضرباً باليد اليمنى أو بقوة بناء على كون المراد باليمين القوة .

وقـول بعضهم : إن المراد بـاليمين القسم والمعنى مـال عليهم ضـربـاً بسبب القسم الذي سبق منه وهو قوله : ﴿ تَالله لأكيدن أصنامكم ﴾ (٢) بعيد .

⁽٢) الأنبياء: ٥٧ .

قوله تعالى: ﴿فَأَقبلُوا إليه يزفون﴾ الزف والنزفيف الإسراع في المشي أي فجاءوا إلى إبراهيم والحال أنهم يسرعون اهتماماً بالحادثة التي ينظنون أنه الذي أحدثها.

وفي الكلام إيجاز وحذف من خبر رجوعهم إلى المدينة ووقوفهم على ما فعل بالأصنام وتحقيقهم الأمر وظنهم به كنك مذكور في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعبدون﴾ فيه إيجاز وحذف من حديث القبض عليه والإتيان به على أعين الناس ومسألته وغيرها .

والاستفهام للتوبيخ وفيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول: لا يصلح منا نحته الإنسان بيده أن يكون رباً لملإنسان معبوداً لمه والله سبحانمه خلق الإنسان وما يعمله والمخلق لا ينفك عن التدبير فهو رب الإنسان ومن السفه أن يتنزك هذا ويعبد ذاك .

وقد بان بذلك أن الأظهر كون ما في قوله : ﴿مَا تَنْحَتُونَ﴾ مُوصُولَة والتقدير ما تنحتونَ وكذا في قوله : ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وجنوز بعضهم كون ﴿منا﴾ فيها مصدرية وهو في أولهما بعيد جداً .

ولا ضير في نسبة المخلق إلى ما عمله الإنسان أو إلى عمله لأن ما يريده الإنسان ويعمله من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادة الإنسان واختياره ولا يسوجب هذا النوع من تعلق الإرادة بالفعل بطلان تأثير إرادة الإنسان وخروج الفعل عن الاختيار وصيرورته مجبراً عليه ، وهو ظاهر .

ولو كان المراد نسبة خلق أعمالهم إلى الله سبحانه بلا واسطة ولا من طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم وأفاد الجبر لكان القول أقـرب إلى أن يكون عذراً لهم من أن يكون توبيخاً وتقبيحاً ، وكانت المحجة لهم لا عليهم .

قوله تعالى : ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في المجحيم ﴾ البنيان مصدر بنى يبني والمراد به المبنى ، والجحيم النار في شدة تأججها .

قوله تعالى : ﴿فَأَرَادُوا بِهُ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ الكيد الحيلة والمراد احتيالهم إلى إهلاكه وإحراقه بالنار .

وقوله : ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ كناية عن جعل إسراهيم فوقهم لا يؤثر فيه كيدهم شيئاً إذ قال سبحانه : ﴿ يَا نَارَ كُونِي بَرِداً وَسَلَاماً عَلَى إبراهيم ﴾ (١) .

وقد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم مَنْكُذُ وهـو انتهاضـه أولاً على عبادة الأوثان واختصامه لعبادها وانتهاء أمره إلى إلقائه النار وإبطاله تعالى كيدهم .

قوله تعالى : ﴿وقال إنّي ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ فصل آخر من قصصه عليه يذكر عزمه على المهاجرة من بين قومه واستيهابه من الله ولـدا صالحاً وإجابته إلى ذلك وقصة ذبحه ونزول الفداء .

فقوله: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي﴾ النح كالإنجاز لما وعدهم به مخاطباً لآزر: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾(٢) ومنه يعلم أن مراده بالذهاب إلى ربه الذهاب إلى مكان يتجرد فيه لعبادته تعالى ودعائه وهو الأرض المقدسة.

وقول بعضهم : إن المراد أذهب إلى حيث أمرني ربي لا شاهد عليه .

وكذا قول بعضهم: إن المراد إني ذاهب إلى لقاء ربي حيث يلقونني في النار فاموت وألقى ربي سيهديني إلى الجنة .

وفيه _ كما قيل _ أن ذيل الآية لا يناسبه وهبو قبوله : ﴿ رَبُّ هُبُّ لِي مَن الصَّالَحِينَ ﴾ وكذا قوله بعده : ﴿ فَبشرناه بغلام حليم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبِ هَبِ لَي مَنِ الصالحين ﴾ حكاية دعاء إبراهيم المنطقة ومسألته الولد أي قال : رب هب لي الخ وقد قيده بكونه من الصالحين .

قوله تعالى : ﴿ فَيَشُرِنَاهُ بِغَلَامُ حَلَيْمُ ﴾ أي فبشرناه أنا سنرزقه غلاماً حليماً وفيه إشارة إلى أنه يكون ذكراً ويبلغ حد الغلمان ، وأخذ الغلومة في وصفه مع أنه بلغ مبلغ الرجال للإشارة إلى حاله التي يظهر فيها صفة كماله وصفاء ذاته وهو حلمه الذي مكنه من الصبر في ذات الله إذ قال : ﴿ يَا أَبِتُ افْعَلُ مَا تَؤْمُرُ سَتَجَدُنِي إِنْ شَاءُ اللهِ مِن الصابرين ﴾ .

ولم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلا هذا النبي الكريم في هذه الآية وأبوه في قوله تعالى : ﴿إِنْ إِبراهِيم لحليم أواه منيب﴾ (١).

قوله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى الغاء في أول الآية فصيحة تدل على محذوف والتقدير فلما ولد له ونشأ وبلغ معه السعي ، والمراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغاً يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سن الرهاق ، والمعنى فلما راهق الغلام قال له يا بني النخ .

وقوله: ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴿ هي رؤيا إبراهيم ذبح إبنه ، وقوله: ﴿إِنَّ أَرَى ﴾ يدل على تكور هذه الرؤيا له كما في قوله: ﴿وقال الملك إني أرى ﴿ الخ (٢٠) .

وقوله: ﴿ فَانظر ماذا ترى ﴾ هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكر فيما قلت وعين ما هو رأيك فيه ، وهذه الجملة دليل على أن إسراهيم سُنْكُ فهم من منامه أنه أمر له بالذبح مثّل له في مثال نتيجة الأمر ولذا طلب من ابنه الرأي فيه وهو يختبره بما ذا يجيبه ؟ .

وقوله: وقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين به جواب ابنه ، وقوله: ويا أبت افعل ما تؤمر إظهار رضى بالذبح في صورة الأمر وقد قال: افعل ما تؤمر ولم يقل: اذبحني إشارة إلى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره وطاعته.

وقوله: وستجدني إن شاء الله من الصابرين تطييب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه ولا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بدمائه ، وقد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله : ﴿إن شاء الله فأشار إلى أن اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه ولا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله ومنه إن يشأ تلبس به وله أن لا يشاء فينزعه منه .

قوله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ الإسلام الرضا والاستسلام : والتل

الصرع والجبين أحد جانبي الجبهة واللام في ﴿للجبين﴾ لبيان ما وقع عليه الصراع كقوله: ﴿يخرون للأذقان سجداً﴾ (١) ، والمعنى فلما استسلما إبراهيم وابنه لأمر الله ورضيا به وصرعه إبراهيم على جبينه .

وجواب لما محذوف إيماء إلى شدة المصيبة ومرارة الواقعة .

قوله تعالى : ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ معطوف على جواب لما المحذوف ، وقوله : ﴿قد صدقت الرؤيا﴾ أي أوردتها مورد الصدق وجعلتها صادقة وامتثلت الأمر الذي أمرناك فيها أي إن الأمر فيها كان امتحانياً يكفي في أمتثاله تهيؤ المأمور للفعل وإشرافه عليه فحسب .

قوله تعالى : ﴿إِنَا كَذَلَكَ نَجَزَي المحسنين إِنْ هَذَا لَهُو البَلاء المبين﴾ الإشارة بكذلك إلى قصة الذبح بما أنها محنة شاقة وابتلاء شديـد والإشارة بهـذا إليها أيضـاً وهو تعليل لشدة الأمر .

والمعنى: إنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فنمتحنهم امتحانات شاقة صورة هينة معنى فإذا أتموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وذلك لأن الذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين .

قوله تعالى : ﴿ وقديناه بذبح عظيم ﴾ أي وقدينا ابنه بذبح عظيم وكان كبشاً أتى به جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما في الأخبار ، والمراد بعظمة الذبح عظمة شأنه بكونه من عند الله سبحانه وهو الذي فدى به الذبيح .

قوله تعالى : ﴿وَرَكُنَا عَلَيْهُ فَيَ الْآخَرِينَ﴾ تقدم الكلام فيه .

قوله تعالى : ﴿سلام على إبراهيم﴾ تحية منه تعالى عليه ، وفي تنكير سلام تفخيم له .

قوله تعالى : ﴿كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادتا المؤمنين﴾ تقدم تفسير الأيتين .

قوله تعالى : ﴿ وبشرتاه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ الضمير لإبراهيم النه .

⁽١) الإسراء: ١٠٧٠

واعلم أن هذه الآية المتضمنة للبشرى بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة بقوله: ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ إلى آخر القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أن الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليهما السلام وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبسراهيم سلام مشخه من سورة الأنعام.

قوله تعالى : ﴿وَبِارَكُنَا عَلَيْهُ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمَنْ ذَرِيتُهُمَا مَحْسَنُ وَظَّالُمُ لَنْفُسَهُ مَبِينَ ﴾ المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيما أعطينا إبراهيم وإسحاق الخير الثابت والنماء .

ويمكن أن يكون قول : ﴿وَمَن ذَرِيتُهُما﴾ البخ قرينة على أن المراد بقوله : ﴿باركنا﴾ إعطاء البركة والكثرة في أولاده وأولاد إسحاق ، والباقي ظاهر .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ بقلب سليم ﴾ قال : القلب السليم الذي يلقى الله عز وجل وليس فيه أحد سواه .

وفيه قال: القلب السليم من الشك.

وفي روضة الكافي بإسناده عن حجر عن أبي عبد الله سلنك قال: قال أبـو جعفر سلنك : عاب آلهتهم فنظر نـظرة في النجوم فقـال إني سقيم . قال أبـو جعفر سلنك : والله ما كان سقيماً وما كذب .

أقول: وفي معناه روايات أخر وفي بعضها: ما كان إبراهيم سقيماً وما كــذب إنما عنى سقيماً في دينه مرتاداً.

وقد تقدم الروايات في قصة حجاج إبراهيم سلنج قومه وكسره الأصنام وإلقائم في النار في تفسير سور الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين مشخه في حديث وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات قال : وقد أعلمتك أن رب شيء من كتاب الله عز وجل تأويله غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر وسأنبئك بطرف منه فتكتفي إن شاء الله .

من ذلك قول إبراهيم سنعن : ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ فذهابه إلى ربه

توجهه إليه عبادة واجتهاداً وقربه إلى الله عز وجل ألا ترى أن تأويله غير تنزيله ؟ .

وفيه بإسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن بالمنطقة قال : يا فتح إن لله إرادتين ومشيئتين : إرادة حتم ، وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ذلك ويأمر وهو لا يشاء أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك ؟ ولو لم يشأ لم يأكلا ، ولو أكلا لغلبت شهوتهما مشيئة الله تعالى ، وأمر إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشأ أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله عز وجل . قلت : فرجت عني فرج الله عنك .

وعن أمالي الشيخ بإسناده إلى سليمانبن يزيد قال : حدثنا على بن موسى قال : حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : الذبيح إسماعيل مانظه .

أقول: وروى مثله في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام، وبهذا المضمون روايات كثيرة أخرى عن أثمة أهمل البيت عليهم السلام، وقد وقع في بعض رواياتهم أنه إسحاق وهو مطروح لمخالفة الكتاب.

وعن الفقيه سئل الصادق سُناهُ عن الذبيح من كان ؟ فقال إسماعيسل لأن الله تعالى ذكر قصته في كتابه ثم قال : ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ .

أقول : هذا ما تقدم في بيان الآية أن الآية بسياقها ظاهرة بل صريحة في ذلك .

وفي المجمع عن ابن إسحاق أن إبراهيم كان إذا زار إسماعيل وهاجر حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ معه السعي رأى في المنام أن (١) يذبحه فقال له: يا بني خذ الحبل والمدية (٢) ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب.

فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال : يا أبت أشدد رباطي حتى لا اضطرب واكففعني ثيابك حتى لا ينتضح من دمى شيئاً فتراه

⁽١) أنه ظ.

⁽٢) المدية : السكين .

أمي واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهـون علي فإن المـوت شديد فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على أمر الله .

ثم ساق القصة وفيها ثم انحنى إليه بالمدية وقلب جبرائيل المدية على قفاها واجتر الكبش من قبل ثبير واجتر الغلام من تحتهووضع الكبش مكان الغلام ،ونودي من ميسرة مسجد الخيف : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

أقول : والروايات في القصة كثيرة ولا تخلو من اختلاف .

وفيه : روى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال : قلت لأبي عبد الله سننه : كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق سننه ؟ قال : كان بين البشارتين خمس سنين قال الله سبحانه فبشرناه بغلام حليم يعني إسماعيل وهي أول بشارة بشر الله به إبراهيم منته في الولد .

* * *

وَلَقَدْ مَنَنّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهُرُونَ (١١٤) وَنَجّينَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١١) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابُ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلَىٰ الْمُسْتَقِيمَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١٢١) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عَبَادِنَا الْمُوْمِنِينَ (١٢١) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُوْمِنِينَ (١٢٣) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِيَاسَ لَمِنَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٥) إِنَّا عَلَيْهُمُ لَمُحْسِنِينَ (١٢٥) وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٦) وَلَا تَتَقُدُونَ أَحْسَنَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٥) وَلَا عَبَادَ اللَّهِ الْمُحْلِقِينَ (١٢٦) وَتَرَكْنَا فَلَيْهُمُ لَمُحْضَرُونَ (١٢٨) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْلِقِينَ (١٣٢) إِنَّا كَذَٰلِكَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٥) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ عَبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣٥) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣٥) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٥) إِنَّا كَذَٰلِكَ

(بيان)

ملخص قصة موسى وهارون وإشارة إلى قصة إلياس عليه . وبيان ما أنـعم الله عليهم وعذب مكذبيهم وجانب الرحمة يربو فيها على جانب العذاب والتبشيـر يزيـد على الإنذار .

قوله تعالى : ﴿ولقد مننا على موسى وهارون﴾ المن الإنعام ومن المحتمل أن يكون المراد به ما سيعده مما أنعم عليهما وعلى قومهما من التنجية والنصر وإيتاء الكتاب والهداية وغيرها فيكون قوله : ﴿ونجيناهما﴾ الخ من عطف التفسير .

قوله تعالى : ﴿ ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ﴾ وهو الغم الشديد من استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

قوله تعالى : ﴿ونصرناهم فكانوا هم الغالبين﴾ وهو الذي أدى إلى خروجهم من مصر وجوازهم البحر وهلاك فرعون وجنوده .

وبذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجية لتوقفها عليه ، وذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوة مّا لكنها لا تكفي لدفع الشر فتتم بالنصر وكان لبني إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوة فناسب إطلاق النصر على إعانتهم على ذلك بخلاف أصل تخليصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء مستعبدين لا قوة لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجية دون النصر .

قوله تعالى : ﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾ أي يستبين المجهولات الخفية فيبينها وهي التي يحتاج إليها الناس في دنياهم وآخرتهم .

قوله تعالى : ﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ المراد بها الهداية بتمام معنى الكلمة ، ولذا خصها بهما ولم يشرك فيها معهما قومهما ، ولقد تقدم كلام في معنى الهداية إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة .

قوله تعالى : ﴿ وَرَرَكُمُ عَلَيْهِمَا فِي الآخرين ﴾ إلى قوله ،﴿ المؤمنين ﴾ تقدم تفسيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ إِلِياسَ لَمِنَ الْمُرْسِلِينَ ﴾ قيل : إنه سِنْكُ مِن آلِ هارون كان

مبعوثاً إلى بعلبك(١) ولم يذكر في كلامه ما يستشهد به عليه .

قول تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَقُومُهُ أَلَا تَتَقُونُ أَتَدَعُونَ بِعِلاً وَسَذَرُونَ أَحْسَنُ الْخَالَقِينَ ﴾ إلى قوله ﴿الأُولِينَ ﴾ شطر من دعوته مشخف يدعو قومه فيها إلى التوحيد ويوبخهم على عبادة بعل ـ صنم كان لهم ـ وترك عبادة الله سبحانه .

وكلامه من النفرة على ما فيه من التوبيخ واللوم يتضمن حجة تامة على توحيده تعالى فإن قوله: ﴿وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين وبخهم أولاً على ترك عبادة أحسن الخالقين ، والخلق والإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء يتعلق بالنظام الجاري فيها الذي يسمى تدبيراً فكما أن الخلق إليه تعالى فالتدبير أيضاً إليه فهو المدبر كما أنه الخالق ؛ وأشار إلى ذلك بقوله : ﴿الله ربكم > بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين .

ثم أشار إلى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التي يتخذ كل قوم بعضاً منها دون بعض فيكون صنم رباً لقوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولأبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه وتدبيره ، وإليه أشار بقوله : ﴿ الله ربكم ورب آباؤكم الأولين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿فَكَذِيوه فَإِنْهُم لَمُحَضَرُونَ﴾ أي مبعوثون ليحضروا العــــذاب ، وقد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر .

قـوله تعـالى : ﴿ إِلا عباد الله المخلصين ﴾ دليـل على أنه كـان في قومـه جمع منهم .

قوله تعالى : ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ إلى قوله ﴿المؤمنين﴾ تقدم الكلام في نظائرها .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ أتدعونَ بعلاً ﴾ قال : كان لهم صنم يسمونـه بعلاً .

وفي المعاني بإسناده إلى قادح عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن

⁽١) ولعلهم أخذوه من بعل فقد قيل : إن بعلك سمي به لأن بعلا كان منصوباً في معبد فيه .

علي منتخب في قول الله عز وجل : ﴿ سلام على آل يس﴾ قال : يس محمد مسلام ونحن آل يس﴾ والله عن محمد مسلوم

أقول: وعن العيون عن الرضا مثلث مثله، وهـ و مبني على قراءة آل يس كمـا قرأه نافع وابن عامر ويعقوب وزيد.

(كلام في قصة الياس النف)

١ ـ قصته في القرآن : لم يذكر اسمه بالشف في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال : ﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين﴾(١) .

ولم يذكر تعالى من قصته في هذه السورة إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله سبحانه قوماً كانوا يعبدون بعلاً فآمن به وأخلص الإيمان قوم منهم وكذبه آخرون وهم جل القوم وإنهم لمحضرون .

وقد أثنى الله سبحانه عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة وأثنى عليه في هذه السورة بأنه من عباده المؤمنين المحسنين وحياه بالسلام بناء على القراءة المشهورة ﴿سلام على آل باسين﴾ .

٢ - الأحاديث فيه: ورد فيه مشخف أخبار مختلفة متهافتة كغالب الأخبار الواردة في قصص الأنبياء الحاكية للعجائب كالذي روي عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس وما عن ابن عباس عن النبي مسنه : أن الخضر هو إلياس ، وما عن وهب وكعب الاحبار وغيرهما أن إلياس حي لا يموت إلى النفخة الأولى ، وما عن وهب أن إلياس سأل الله أن يريحه من قومه فأرسل الله إليه دابة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش والنور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فصار في الملائكة ، وما عن كعب الأحبار أن إلياس صاحب المجبال والبر وأنه الذي سماه الله بذي النون ، وما عن الحسن أن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالجبال ، وما عن الحسن أن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالجبال ، وما عن المسمأ في بعض أسفاره فقعدا يتحدثان ثم نزل عليهما مائدة من السماء فأكلا وأطعماني ثم ودعه وودعني ثم رأيته مر على السحاب عليهما مائدة من السماء فأكلا وأطعماني ثم ودعه وودعني ثم رأيته مر على السحاب

⁽١) الأنعام : ٥٥ .

نحو السماء إلى غير ذلك(١).

وفي بعض أخبـار الشيعة أنـه طَلْكُهُ حي مخلد(٢) لكنها ضعـاف وظاهـر آيـات القصة لا يساعد عليه .

وفي البحار في قصة إلياس علنه عن قصص الأنباء بالإسناد عن الصدوق بإسناده إلى وهب بن منبه ، ورواه الثعلبي في العرائس عن ابن إسحاق وعلماء الأخبار أبسط منه _ والحديث طويل جداً ، وملخصه _ أنه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل وتقسمه بينهم سار سبط منهم إلى بعلبك وكان لهم ملك منهم يعبد صنما اسمه بعل ويحمل الناس على عبادته .

وكانت له امرأة فاجرة قد تزوجت قبله بسبعة من الملوك وولـدت تسعين ولداً سوى أبناء الأبناء ، وكان الملك يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس ، وكان له كاتب مؤمن حكيم قد خلص من يدها ثلاث مائة مؤمن تريد قتله ، وكان في جواد قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم جواره ويكرمه .

ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن وغصبت بستانه فلما رجع وعلم به عاتبها فاعتذرت إليه وأرضته فآلى الله تعالى على نفسه أن ينتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إلياس سلطن يدعوهم إلى عبادة الله وأخبرهما بما آلى الله فاشتد غضبهم عليه وهموا بتعذيبه وقتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هناك فلبث فيه سبع سنين يعيش بنبات الأرض وثمار الشجر .

فامرض الله إبناً للملك يحبه حباً شديداً فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقيل له: إنه غضبان عليك إن لم تقتل إلياس فأرسل إليه فئة من قومه ليخدعوه ويقبضوا عليه فأرسل الله إليهم ناراً فأحرقتهم ثم أرسل إليه فئة اخرى من ذوي الباس مع كاتبه المؤمن فذهب معه إلياس صوناً له من غضب الملك لكن الله سبحانه أمات ابنه فشغله حزنه عن إلياس فرجع سالماً.

ثم لما طال الأمر نزل إلياس من الجبل واستخفى عند أم يونس بن متى في بيتها ويونس طفل رضيع ثم خرج بعد ستة أشهر إلى الجبل ثانياً واتفق أن مات بعده

⁽١) رواه في الدر المنثور في تفسير آيات القصة .

⁽٢) رواه في البحار عن قصص الأنبياء .

يونس ثم أحياه الله بدعاء إلياس بعد ما خرجت أمه في طلبه فوجدته فتضرعت إليه .

ثم إنه سأل الله أن ينتقم لـه من بني إسرائيــل ويمسك عنهم الأمـطار فاجيب وسلط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فندموا فجاؤه فتابوا وأسلموا فدعا الله فــارسـل عليهم المطر فسقاهم وأحيا بلادهم .

فشكوا إليه هـدم الجدران وعدم البذر من الحبوب فـأوحى إليه أن يـأموهم أن يبذروا الملح فأنبت لهم الحمص وأن يبذروا الرمل فأنبت لهم منه الدخن .

ثم لما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد وعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأملّ ذلك إلياس فدعا الله أن يريحه منهم فأرسل الله إليه فرساً من نار فوثب عليه إلياس فرفعه الله إلى السماء وكساه الريش والنور فكان مع الملائكة .

ثم سلط الله على الملك وامرأته عدواً فقصدهما وظهر عليهما فقتلهما وألقى جيفتهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الذي قتلاه وغصبوا بستانه .

وأنت بالتأمل فيما تقصه الرواية لا ترتاب في ضعفها .

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٥) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) فَإِلْلَيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِالْلَيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمَرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِالْلَيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٢٨) فَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُسْجُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ لَمِنَ الْمُسْجُونِ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُو مُلِيمٌ (١٤١) فَلَوْلاَ فَكَانَ مِنَ الْمُسْجِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَةُ الْحُوتُ وَهُو مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْجِينَ (١٤١) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَلَوْلا فَنَالْهُمْ إِلَىٰ يَوْمٍ مِنْ يَقْطِينِ (١٤٦) فَنَبْذُنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينِ (١٤٦) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينِ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِاقَةِ أَلْفٍ أَوْ يَنزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ وَالْاسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِاقَةٍ أَلْفٍ أَوْ يَنزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِين (١٤٨).

(بیسان)

خلاصة قصة لوط الشناء ثم قصة يونس الشناء الله تعالى له بالحوت مأخوذاً بما أعرض عن قومه عند ارتفاع العذاب عنهم بعد نزوله وإشرافه عليهم .

قوله تعالى : ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين﴾ وإنما نجاه وأهله من العذاب النازل على قومه وهو الخسف وإمطار حجارة من سجيل على ما ذكره الله تعالى في سائر كلامه .

قوله تعالى : ﴿ إِلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي في الباقين في العذاب المهلكين به وهي امرأة لوط .

قوله تعالى : ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ التدمير الإهـلاك ، والأخرين قـومه الـذين أرسل إليهم .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْكُمُ لَتُمْرُونَ عَلَيْهُمْ مُصَبِحِينَ وَبِاللَّيْلُ أَفِيلًا تَعْقَلُونَ﴾ فإنهم على طريق الحجاز إلى الشام ، والمراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربة وهي اليوم مستورة بالماء على ما قيل .

قوله تعمالي : ﴿وَإِنْ يُونُسُ لَمِنَ الْمُمْرَسُلِينَ إِذَ أَبِقَ إِلَى الْفُلُكُ الْمُشْحُونَ﴾ أي السفينة المملوءة من الناس والإباق هرب العبد من مولاه .

والمسراد بإباقه إلى الفلك خبروجه من قبومه معبرضاً عنهم وهبو مشخف وإن لم يعص في خروجه ذلك ربه ولا كان هناك نهي من ربه عن المخروج لكن خبروجه إذ ذاك كان ممثلًا لإباق العبد من خمدمة مبولاه فأخمذه الله بذلك ، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَذَا النّونَ إِذْ ذَهَبِ مَعَاضَهِا فَظَنَ أَنْ لَنَ نَقَدَرُ عَلَيْهِ ﴾ (١) .

قوله تعالى: وفساهم فكان من المدحضين المساهمة المقارعة والإدحاض الغلبة أي فقارع من في السفينة فكان من المغلوبين، وقد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطروا إلى أن يلقوا واحداً منهم في البحر ليبتلعه ويخلي السفينة فقارعوا فأصابت يونس النعيد .

⁽١) الأنبياء: ٨٧ .

قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُو مَلِيمٍ ﴾ الالتقام الابتلاع ، ومليم من ألام أي دخل في اللوم كأحرم إذا دخل في الحرم أو بمعنى صار ذا ملامة .

قوله تعالى: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ عده من المسبحين وهم الذين تكرر منهم التسبيح وتمكن منهم حتى صار وصفاً لهم يدل على دوام تلبسه زماناً بالتسبيح. قيل: أي من المسبحين قبل التقام الحوت إياه ، وقيل: بل في بطن الحوت ، وقيل: أي كنان من المسبحين قبل التقام الحوت وفي بطنه .

والذي حكي من تسبيحه في كلامه تعالى قوله في سورة الأنبياء: ﴿ فنادى في الطلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الطالمين ﴿ (١) ولازم ذلك أن يكون من المسبحين في بطن الحوت خاصة أو فيه وفيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار إليه .

على أن تسبيحه مع اعترافه بالظلم في قوله: ﴿ سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ على ما سيجيء تسبيح له تعالى عما كان يشعر به (٢) فعله من ترك قومه وذهابه على وجهه ، وقوله: ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾ النج يدل على أن تسبيحه كان هو السبب المستدعي لنجاته ، ولازم ذلك أن يكون إنما ابتلي بما ابتلي به لينزهه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه إليه فعله إلى ساحة العافية .

وبذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسبيحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها .

فالظاهر أن المراد بتسبيحه نداؤه في الظلمات بقوله: ﴿لا إِله إِلا أنت سبحانك إني كنت من الطالمين وقد قدم التهليل ليكون كالعلة المبينة لتسبيحه كأنه يقول: لا معبود بالحق يتوجه إليه غيرك فأنت منزه مما كان يشعر به فعلى أني آبق منك معرض عن عبوديتك متوجه إلى سواك إني كنت ظالماً لنفسي في فعلي فها أنا متوجه إليك من التوجه عنك إلى غيرك.

⁽١) الأنبياء: ٨٧.

 ⁽٢) وهو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى : ﴿ وظن أن لن نقدر عليه ﴾ .

فهذا معنى تسبيحه ولولا ذلك منه لم ينج أبداً إذ كان سبب نجاته منحصراً في التسبيح والتنزيه بالمعنى الذي ذكر .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : وللبث في بطنه إلى يوم يبعثون تأبيد مكثه في بطنه إلى يوم يبعثون تأبيد مكثه في بطنه إلى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذي يقبر فيه الإنسان ويلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى : ومنها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (١) .

ولا دلالة في الآية على كونه طنط على تقدير اللبث حياً في بطن الحوت إلى يوم يبعثون أو ميتاً وبطنه قبره مع بقاء بدنه وبقاء جسد الحوت على حالهما أو بنحو آخر فلا مساغ لاختلافهم في كونه طنك حياً على هذا التقدير أو ميتاً وبطنه قبره ، وأن المراد بيوم يبعثون النفخة الأولى التي فيها يموت الخلائق أو النفخة الثانية أو التأجيل بيوم القيامة كناية عن طول اللبث .

قوله تعالى : ﴿فَنْبِذْنَـاه بِالْعَـرَاء وهو سقيم﴾ النبـذ طرح الشيء والـرمي به ، والعراء المكان الذي لا سترة فيه يستظل بها من سقف أو خباء أو شجر .

والمعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبحين فأخرجناه من بطن الحوت وطرحناه خارج الماء في أرض لا ظل فيها يستظل به وهو سقيم .

قوله تعالى : ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ اليقطين من نوع القرع ويكون ورقه عريضاً مستديراً وقد أنبتها الله عليه ليستظل بورقها .

قوله تعالى : ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ أو في صورد الترقي وتفييد معنى بل ، والمراد بهذه الجماعة أهل نينوى .

قوله تعالى : ﴿ فَآمنوا فمتعناهم إلى حين ﴾ أي آمنوا به فلم نعذبهم ولم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتعناهم بالحياة والبقاء إلى أجلهم المقدر لهم .

والآية في إشعارها برفع العذاب عنهم وتمتيعهم تشير إلى قوله تعالى : وفلولا كانت قرية أمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما أمنوا كشفنا عنهم عذاب

⁽١) طه : ٥٥ .

الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين (١) .

ولا يخلو السياق من إشعار ـ بـل دلالة ـ على أن المراد من إرسالـه في قولـه : ﴿فَأَرسَلْنَاهُ ﴾ أمره بالذهاب ثانياً إلى القوم ، وبإيمانهم في قوله : ﴿فَآمنوا ﴾ الخ إيمانهم بتصديقه واتباعه بعدما آمنوا وتابوا حين رأوا العذاب .

ومن هنا يظهر ضعف ما استدل بعضهم بالأيتين أن إرساله إلى القوم كان بعد خروجه من بطن الحوت وأنه أمر أولاً بالذهاب إلى أهل نينوى ودعوتهم إلى الله وكانوا يعبدون الأصنام فاستعظم الأمر وخرج من بيته يسير في الأرض لعل الله يصرف عنه هذا التكليف وركب البحر فابتلاه الله بالحوت ثم لما نبذ بالعراء كلف ثانياً فأجاب وأطاع ودعاهم فاستجابوا فدفع الله عذاباً كان يهددهم إن لم يؤمنوا.

وذلك أن السياق كما سمعت يدل على كون إرساله بأمر ثان وأن إيمانهم كان إيماناً ثانياً بعد الإيمان والتوبة وأن تمتيعهم إلى حين كان مترتباً على إيمانهم به لا على كشف العذاب عنهم فلم يكن الله سبحانه ليتركهم لو لم يؤمنوا برسوله ثانياً كما آمنوا به وتابوا إليه أولاً في غيبته فافهم ذلك .

على أن قول تعالى: ﴿وفا النون إذ ذهب مغاضباً ﴾(٢) وقول : ﴿ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾(٣) لا يلائم ما ذكروه ، وكذا قول : ﴿إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴾(٤) إذ لا يطلق الكشف إلا في عذاب واقع حال أو مشرف .

(كلام في قصة يونس عليه السلام في فصول)

١ - لم يتعرض القرآن الكريم إلا لطرف من قصته وقصة قومه فقد تعوض في سورة الصافات لإرساله ثم إباقه وركوبه الفلك والتقام الحوت له ثم نجاته وإرساله إلى القوم وإيمانهم قال تعالى: ﴿ وَإِن يُونِس لَمِن المُرسِلِينِ . إِذَ أَبِقَ إِلَى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمسه الحوت وهسو مليم . فلولا أنه كان من المستحين . فابتنا عليه المستحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبتنا عليه

⁽۱) يونسُّ : ۹۸ ،

⁽۳) ن : ۸۸ . (٤) يونس : ۹۸ .

⁽٢) الأنبياء: ٨٧.

شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى ماثة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين.

وفي سورة الأنبياء: لتسبيحه في بطن الحوت وتنجيته قال تعالى: ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ (١).

177

وفي سورة ن: لندائه مكظوماً وخروجه من بطنه واجتبائه قال تعالى: ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. فلولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴿(٢).

وفي سورة يونس: لإيمان قومه وكشف العذاب عنهم قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾(٣).

وخلاصة ما يستفاد من الآيات بضم بعضها إلى بعض واعتبار القرائن الحافة بها أن يونس مانتين كان من الرسل أرسله الله تعالى إلى قومه وهم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلا بالتكذيب والرد حتى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس ثم خرج من بينهم .

فلما أشرف عليهم العذاب وشاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الإيمان والتوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا .

ثم إن يونس طلنين استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم ـ وكأنه لم يعلم بإيمانهم وتويتهم ـ فلم يعد إليهم وذهب لـوجهه على مـا به من الغضب والسخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربه مغاضباً عليه ظاناً أنه لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون .

فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بدأ من أن يلقوا إليه واحداً منهم يبتلعه وينجو الفلك بذلك فساهموا وقارعوا فيما بينهم فأصابت يونس النخ فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة.

ثم إن الله سبحانه حفظه حياً سوياً في بطنه أياماً وليالي ويونس سُنخه يعلم أنها

(۲) ن : ۵۰ . (۳) يونس : ۹۸ .

(١) الأنبياء: ٨٧ - ٨٨ .

بلية ابتلاه الله بها مؤاخذة بما فعل وهو ينادي في بطنه أن ﴿لا إله إلا أنت سبحالـك إني كنت من الظالمين﴾ .

فاستجاب الله لـه فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهـو سقيم فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظل بأوراقها ثم لما استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبوا دعوته وآمنوا به فمتعهم الله إلى حين .

والأخبار الواردة من طرق أثمة أهل البيت طنيخة على كثرتها وبعض الأخبار من طرق أهل السنة مشتركة المتون في قصة يونس طنيخة على النحو الذي يستفاد من الآيات وإن اختافت في بعض الخصوصيات الخارجة عن ذلك(١).

٢ - قصته عند أهل الكتاب : هو سننا مذكور باسم يوناه بن إمتاي في مواضع من العهد القديم وكذا في مواضع من العهد الجديد أشير في بعضها إلى قصة لبثه في بطن الحوت لكن لم تذكر قصته الكاملة في شيء منهما .

ونقـل الألوسي في روح المعـاني في قصته عنـد أهل الكتـاب ويؤيده مـا في بعض كتبهم من إجمال(٢) القصة :

أن الله أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى (٣) وكانت إذ ذاك عظيمة جداً لا يقطع إلا في نحو ثلاثة أيام وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم ، فاستعظم الأمر وهرب إلى ترسيس (٤) فجاء يافا (٥) فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق .

ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينـة وعند ذلـك نزل

 ⁽١) ولذلك لم نوردها لأنها في نفسها آحاد لا حجية لها في مثل المقام ولا يمكن تصحيح خصوصياتها
 بالآيات وهو ظاهر لمن راجعها .

⁽٢) قاموس الكتاب المقدس.

⁽٣) كانت مدينة عظيمة من مدائن آشور على ساحل دجلة .

⁽٤) اسم مديئة .

 ⁽٥) مدينة في الأرض المقدسة .

يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم إليه الرئيس فقال لـ ؛ ما بـالك نائماً ؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا .

وقال بعضهم لبعض: تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له: أخبرنا ماذا عملت: ومن أين جئت؟ وإلى أين تمضي؟ ومن أي كورة أنت؟ ومن أي شعب أنت؟ فقال لهم: أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا له: لم صنعت ما صنعت؟ يلومونه على ذلك.

ثم قالوا له: ما نصنع الآن بك؟ ليسكن البحر عنا؟ فقال: ألقوني في البحر يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوه إلى البر فلم يستطيعوا فاخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله حوتاً عظيماً فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى في بطنه إلى ربه واستغاث به فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قبال له: قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل.

فمضى متلئظ ونادى وقال: يخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمنت رجال نينوى بالله ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعاً ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحاً وجلس على الرماد ونودي أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاماً ولا شراباً وجاروا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله ولم ينزل بهم العذاب.

فحزن يونس وقال: إلهي من هذا هربت ، فإني علمت أنك الرحيم الرؤوف الصبور التواب . يا رب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال : يا يونس حزنت من هذا جداً ؟ فقال : نعم يا رب .

وخرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة ؟ فأمر الله يقطيناً فصعد على رأسه ليكون ظلاً له من كسربه ففرح باليقطين فرحاً عظيماً وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجف ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطاب الموت .

فقال الرب: يا يونس أحزنت جداً على اليقطين ؟ فقال: نعم يا رب حزنت

جداً فقال تعالى: حزنت عليه وأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنا عشر ربوة من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة انتهى . وجهات اختلاف القصة مع ما يستفاد من القرآن الكريم ظاهرة كالفرار من الرسالة وعدم رضاه برفع العذاب عنهم مع علمه بإيمانهم وتوبتهم .

فإن قلت : نظير ذلك وارد في القرآن الكريم كنسبة الإساق إليه في سورة الصافات وكذا مغاضبته وظنه أن الله لن يقدر عليه على ما في سورة الأنبياء .

قلت: بين النسبتين فرق فكتبهم المقدسة أعني العهدين لا تأبى عن نسبة المعاصي حتى الكبائر الموبقة إلى الأنبياء عليهم السلام فلا موجب لتوجيه ما نسب من المعاصي إليه بما يخرج به عن كونه معصية بخلاف القرآن الكريم فإنه ينزه ساحتهم عن لوث المعاصي حتى الصغائر فما ورد فيه مما يوهم ذلك يحمل على أحسن الوجوه بهذه القرينة الموجبة ولذا حملنا قوله: ﴿إذ أبق﴾ وقوله: ﴿مغاضباً فظن أن لن نقدر﴾ على حكاية الحال وإيهام فعله.

٣ ـ ثناؤه تعالى عليه: أثنى الله سبحانه عليه بأنه من المؤمنين^(۱) وأنه اجتباه وقد عرفت أن اجتباءه إخلاصه العبد لنفسه خاصة ، وأنه جعله من الصالحين^(٢) وعده في سورة الأنعام فيمن عده من الأنبياء وذكر أنه فضلهم على العالمين وأنه هداهم إلى صراط مستقيم^(٣).

(بحث روائي)

في الفقيه وقال الصادق سلله : ما تقارع قوم ففوضوا أسرهم إلى الله عز وجل إلا خرج سهم الحق ، وقال : أي قضية أعدل من القرعة إذا فوض الأمر إلى الله . أليس الله عز وجل يقول : ﴿فساهم فكان من المدحضين﴾ .

وفي البحار عن البصائر بإسناده عن حبة العرني قال: قال أمير المؤمنين سلطة إن الله عرض ولايتي على أهل السماوات وعلى أهل الأرض أقر بها من أقر وأنكرها من أنكر أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها. أقول: وفي معناه روايات أخر، والمراد الولاية الكلية الإلهية التي هو سَلَنْكُ أول من فتح بابها من هذه الأمة وهي قيامه تعالى مقام عبده في تدبير أمره فلا يتوجه العبد إلا إليه ولا يريد إلا ما أراده وذلك بسلوك طريق العبودية التي تنتهي بالعبد إلى أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره.

وكان ظاهر ما أتى به يونس مشخف مما لا يرتضيه الله تعالى فلم يكن قابلاً للانتساب إلى إرادته فابتلاه الله بما ابتلاه ليعترف بظلمه على نفسه وأنه تعالى منزه عن إرادة مثله فالبلايا والمحن التي يبتلى بها الأولياء من التربية الإلهية التي يحربيهم بها ويكملهم ويرفع درجاتهم بسببها وإن كان بعضها من جهة أخرى مؤاخذة ذات عتاب ، وقد قيل البلاء للولاء .

ويؤيد ذلك ما عن العلل بإسناده عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله المنافقة الأي علم من الله على علم من الله العذاب عن قوم يونس وقد أظلهم ولم يفعل ذلك بغيرهم من الأمم ؟ فقال : لأنه كان في علم الله أنه سيصرفه عنهم لتوبتهم وإنما ترك إخبار يونس بذلك لأنه أراد أن يفرغه لعبادته في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه وكرامته .

* * *

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلْئِكَةَ إِنَانًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥١) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَـدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥١) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٦) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٥) أَفلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانُ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٥) أَفلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانُ مُبِينً (١٥٦) فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٥) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٥) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٥) إلَّا عِبَادَ آللَّهِ الْمُحْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنْكُمْ وَمَا لَكُمْ وَمَا يَعْبُونَ (١٦٥) فَإَنْكُمْ وَمَا لِيَعْبُدُونَ (١٦٥) إلَّا عَبُادَ آللَّهِ الْمُحْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنْكُمْ وَمَا لَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إلَّا مَنْ هُـوَ صَالِ

الْجَحِيمِ (١٦٢) وَمَا مِنًا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٢) وَإِنَّ كَانُـوا الصَّافَّـونَ (١٦٦) وَإِنَّ كَانُـوا الْمُسَبِّحُـونَ (١٦٨) وَإِنَّ كَانُـوا لَيَقُولُونَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ لَيَقُولُونَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَـوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ (١٧١) وَإِنَّ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ (١٧١) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعُبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) فَتَولً عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرُهُمْ فَيَولً عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرُهُمْ فَيَولُ عَنْهُمْ حَتَّى فِينِ (١٧٥) وَلَا عَنْهُمْ حَتَّى فِينِ (١٧٨) وَلَا عَنْهُمْ حَتَّى فِينِ (١٧٨) وَلَا عَنْهُمْ حَتَّى فِينِ (١٨٨) وَلَا عَنْهُمْ حَتَّى فِينِ (١٨٨) وَلَا عَنْهُمْ حَتَّى فِينٍ (١٨٨) وَلَا عَنْهُمْ حَتَّى فِينٍ (١٨٨) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٨) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٨) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٨) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ (١٨٨) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ

(بیان)

قدم سبحانه ما بين به أنه رب معبود ، عبده عباد مخلصون كالأنبياء المكرمين وكفر به آخرون فنجّى عباده وأخذ الكافرين بأليم العبذاب . ثم تعرض في همذه الآيات لما يعتقدونه في آلهتهم وهم الملائكة والجن وأن الملائكة بنات الله وبينه وبين الجنة نسباً .

والوثنية البرهمية والبوذية والصابئة ما كانوا يقولون بأنوثة جميع الملائكة وإن قالوا بها في بعضهم لكن المنقول عن بعض قبائل العرب الوثنيين كجهينة وسليم وخزاعة وبني مليح القول بأنوثة الملائكة جميعاً ، وأما الجن فالقول بانتهاء نسبهم إليه في الجملة منقول عن الجميع .

وبالجملة يشير تعالى في الآيات إلى فساد قولهم ثم يبشر النبي مسلمة بالنصر ويهددهم بالعذاب ، ويختم السورة بتنزيهه تعالى والتسليم على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

قوله تعالى: ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ﴾ حلل سبحانه قولهم : إن الملائكة بنات الله إلى ما يستلزمه من اللوازم وهي أن الملائكة أولاده ، وأنهم بنات ، وأنه تعالى خص نفسه بالبنات وهم مخصوصون بالبنين ثم رد هذه اللوازم واحداً بعد واحد فرد قولهم : إن له البنات ولهم البنين بقوله : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ﴾ وهو استفهام إنكاري لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنهم يفضلون البنين على البنات ويتنزهون منهن ويئدونهن .

قوله تعالى : ﴿أَم خلقتا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ أم منقطعة أي بـل أخلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون يشهدون خلقهم ولم يكونوا شاهدين خلقهم ولا لهم أن يدّعوا ذلك ، والذكورة والأنوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس ، وهذا رد لقولهم بأنوثة الملائكة .

قوله تعالى: ﴿ إِلا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أي صرف القول عن وجهه إلى غير وجهه أي من الحق إلى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه ولادة ويعبرون عنه بها فهم آفكون كاذبون .

قول، تعالى: ﴿اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أقلا تذكرون﴾ كرر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشدة شناعته .

ثم وبخهم بقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ توبيخاً وإشارة إلى أن قولهم حكماً من غير دليل ثم عقبه بقوله: ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ توبيخاً وإشارة إلى أن قولهم ذلك _ فضلاً عن كونه مما لا دليل عليه _ الدليل على خلافه ولو تـذكّروا لانكشف لهم فقـد تنزهت ساحته تعالى عن أن يتجزى فيلد أو يحتاج فيتخذ ولـداً ، وقـد احتج عليهم بـذلك في مواضع من كلامه .

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على اشتداد السخط الموجب لتوبيخهم شفاهاً .

قول تعالى: ﴿أَم لَكُم سَلَطَانَ مَبِينَ فَأَتُوا بِكَتَابِكُم إِنْ كُنتُم صَادَقَينَ ﴾ أم منقطعة والمراد بالسلطان وهو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقي أن يثبت

بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقة وهم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب .

وإضافة الكتاب إليهم بعناية فرضه دالاً على دعواهم .

قــولـه تعــالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنــة نسبــاً ولقــد علمت الجنــة إنهم لمحضرون﴾ جعل النسب بينه وبين الجنة قـولهم : إن الجنة أولاده وقـد تقدم تفصيـل قولهم في تفسير سورة هود في الكلام على عبادة الأصنام .

وقوله: ﴿ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ أي للحساب أو للنار على ما يفيده إطلاق ﴿لمحضرون﴾ وكيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سيحاسبهم ويجازيهم بما عملوا فبينهم وبين الله سبحانه نسبة الربوبية والعبودية لا نسب الولادة ومن كان كذلك لا يستحق العبادة .

ومن الغريب قول بعضهم: إن المراد بالجنة طائفة من الملائكة يسمون بها ولازمه إرجاع ضمير ﴿إنهم﴾ إلى الكفار دون الجنة . وهو مما لا شاهد له من كلامه تعالى مضافاً إلى بعده من السياق .

قوله تعمالى: وسبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين في ضمير ويصفون و نظراً إلى اتصال الآية بما قبلها - راجع إلى الكفار المذكورين قبل ، والاستثناء منه منقطع والمعنى هو منزه عن وصفهم - أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولادة والنسب والشركة ونحوها - لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به من الأوصاف .

وقيل : إنه استثناء منقطع من ضمير ﴿لمحضرون﴾ ، وقيل : من فاعل ﴿جعلوا﴾ وما بينهما من الجمل المتخللة اعتراض ، وهما وجهان بعيدان .

وللآيتين باستقىلالهما معنى أوسع من ذلك وأدق وهـو رجوع ضميـر ﴿يصفون﴾ إلى الناس ، والوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف ، والاستثناء متصل والمعنى هو منزه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين .

وذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود لا يحيط به حد ولا يدركه نعت فكلما وصف به فهو أجل منه وكل ما توهم أنه هو فهو غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرفهم

نفسه وأنساهم غيره يعرفونه ويعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه وإذا وصفوه بالسنتهم والألفاظ قاصرة والمعاني محدودة واعترفوا بقصور البيان وأقروا بكلال اللسان كما قال النبي مسلمات وهو سيد المخلصين : لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) فافهم ذلك .

قوله تعالى: ﴿ فَإِنكُم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال المجحيم ﴾ تفريع على حكم المستثنى والمستثنى منه أو المستثنى خاصة ، والمعنى لما كان ما وصفتموه ضلالاً _ وعباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم _ فلستم بمضلين به إلا سالكي سبيل النار .

والظاهر من السياق أن ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما تعبدون ﴾ موصولة والمراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام وآلهة الضلال كشياطين الجن ، و ﴿ ما ﴾ في ﴿ ما أنتم ﴾ نافية ، وضمير ﴿ عليه ﴾ لله سبحانه والظرف متعلق بفاتنين ، وفاتنين اسم فاعل من الفتنة بمعنى الإضلال و «صالي» من الصلو بمعنى الاتباع فصالي الجحيم هو المتبع للجحيم السالك سبيل النار ، والاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحداً إلا من هو صال الجحيم .

والمعنى: فإنكم وآلهة الضلال التي تعبدونها لستم جميعاً بمضلين أحداً على الله إلا من هو متبع الجحيم.

وقيل: إن ﴿ما﴾ الأولى مصدرية أو موصولة وجملة ﴿فإنكم وما تعبدون كلام تام مستقل من قبيل قولهم: أنت وشأنك والمعنى فإنكم وما تعبدون متقارنان ثم استونف وقيل: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين ﴾ و﴿فاتنين ﴾ مضمن معنى الحمل وضمير ﴿عليه ﴾ راجع إلى ﴿ما تعبدون ﴾ إن كانت ما مصدرية وإلى ﴿ما بتقدير مضاف إن كانت موصولة والمعنى ما أنتم بحاملين على عبادتكم أو على عبادة ما تعبدونه إلا من هو صال الجحيم.

قيل: ويمكن أن يكون وعلى بمعنى الباء والضمير لما تعبدون أو لما أن كانت موصولة و فاتنين على ظاهر معناه من غير تضمين ، والمعنى ما أنتم بمضلين أحداً بعبادتكم أو بعبادة ما تعبدونه إلا «الخ» .

⁽١) فقد أثني على الله وتمم نقصه بأنه يريد ما يريده الله من الثناء على نفسه .

وهذه كلها تكلفات من غير موجب . والكلام فيما في الآية من الالتفات كالكلام فيما سبق منه .

قوله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾ الأيات الثلاث ـ على ما يعطيه السياق ـ اعتراض من كلام جبريل أو هو وأعوانه من ملائكة الوحي نظير قوله تعالى في سورة مريم: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ الخ(١).

وقيل: هي من كلام الرسول على يصف نفسه والمؤمنين به للكافرين تبكيتاً لهم وتقريعاً وهو متصل بقوله: ﴿ فَاسْتَفْتُهُم ﴾ والتقدير فاستفتهم وقبل: ما منا معشر المسلمين إلا له مقام معلوم على قيدر أعماله يوم القيامة وإنا لنحن الصافون في الصلاة وإنا لنحن المسبحون. وهو تكلف لا يلائمه السياق.

والآيات الثلاث مسوقة لرد قولهم بالوهية الملائكة بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفي به قول الكفار وهم لا ينفون العبودية عن الملائكة بل يرون أنهم مربوبون لله سبحانه أرباب وآلهة لمن دونهم يستقلون بالتصرف فيما فوض إليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شيء من هذا التدبير إلى الله سبحانه وهذا هو الذي ينفيه الملائكة عن أنفسهم لا كونهم أسباباً متوسطة بينه تعالى وبين خلقه كما قال تعالى فربل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (٢).

فقوله : ﴿ وما منا إلا لـه مقام معلوم ﴾ أي معين مشخص أُقيم فيـه ليس له أن يتعداه بأن يفوض إليه أمر فيستقل فيه بل مجبول على طاعة الله فيما يأمر به وعبادته .

وقوله: ﴿ وَإِنَا لَنْحَنَ الصَافُونَ ﴾ أي نصفٌ عند الله في انتظار أوامره في تبديبر العالم لنجريها على ما يريد. كما قال تعالى: ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ هذا ما يفيده السياق ، وربما قيل: إن المراد إنا نصفٌ للصلاة عند الله وهو بعيد من الفهم لا شاهد عليه .

وقوله: ﴿وإنا لنحن المسبحون﴾ أي المنزهون له تعالى عما لا يليق بساحة كبريائه كما قال تعالى : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾(٣) . فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكة في الخلقة وعملهم المناسب لخلقتهم وهو الاصطفاف لتلقي أمره تعالى والتنزيه لساحة كبريائه عن الشريك وكل ما لا يليق بكمال ذاته المتعالية .

قوله تعالى : ﴿وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين ﴾ رجوع إلى السياق السابق .

والضمير في قوله: ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ لقريش ومن يتلوهم ، و ﴿إن ﴾ مخففة من الثقيلة ، والمراد بذكر من الأولين كتاب سماوي من جنس الكتب النازلة على الأولين .

والمعنى: لو أن عندنا كتاباً سماوياً من جنس الكتب النازلة قبلنا على الأولين لا هتدينا وكنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذورون لو كفروا لعدم قيام الحجة عليهم من قبل الله سبحانه.

وهذا في الحقيقة هفوة منهم فإن مذهب الوثنية يحيل النبوة والرسالة ونـزول الكتاب السماوي .

قوله تعالى : ﴿فكفروا به فسوف يعلمون﴾ الفاء فصيحة ، والمعنى فأنزلنا عليهم الذكر وهو القرآن الكريم فكفروا به ولم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم وهذا تهديد منه تعالى لهم .

قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون﴾ كلمته تعالى لهم قوله الذي قاله فيهم وهو حكمه وقضاؤه في حقهم وسبق الكلمة تقدمها عهداً أو تقدمها بالنفوذ والغلبة واللام تفيد معنى النفع أي إنا قضاء محتوماً فيهم إنهم لهم المنصورون وقد أكدالكلام بوجوه من التأكيد.

وقد أطلق النصر من غير تقييده بدنياً أو آخرة أو بنحو آخر بل القريئة على خلافه قال تعالى : ﴿ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (١) .

فالرسل عليهم السلام منصورون في الحجة لأنهم على الحق والحق غيسر مغلوب .

⁽١) المؤمن : ٥١ .

وهم منصورون على أعدائهم إما بإظهارهم عليهم واما بالانتقام منهم قال تعالى : ﴿وَمَا أُرْسَلْنَا مِنْ قَبْلُكُ إِلَا رَجَالًا نُوحِي إليهم مِنْ أَهْلِ القرى ﴿ إِلَى أَنْ قَالَ ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتِيأُسُ الرسل وظنوا أَنْهُم قَدْ كَذْبُوا جَاءَهُم نَصَرُنَا فُنُجِي مِنْ نَصَارُنَا فُنُجِي مِنْ نَصَاءُ وَلَا يَرْدُ بِأُسِنَا عَنِ القَوْمِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ (١) .

وهم منصورون في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ يوم لا يخذي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ (٢) ، وقد تقدم آنفاً آية في سورة المؤمن في هذا المعنى .

قوله تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ الجند هو المجتمع الغليظ ولـذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب(٢) وقـد قال تعالى في موضع آخر من كلامه: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (٤).

والمراد بقوله: ﴿ جندنا﴾ هو المجتمع المؤتمر بأمره المجاهد في سبيله وهم المؤمنون خاصة أو الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين وفي الكلام على التقدير الثاني تعميم بعد التخصيص، وكيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيهم من الأنبياء قال تعالى: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٥) وقد مر بعض الآيات الدالة عليه آنها .

والحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعي منوط على العنوان لا غير أي إن الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند لله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ما داموا على هذا النعت منصورون غالبون ، وأما إذا لم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الانتساب إلا حديثه فلا ينبغي أن يرجي نصر ولا غلبة .

قوله تعالى : ﴿فتول عنهم حتى حين﴾ تفريع على حديث النصر والغلبة ففيه وعد للنبي سِمِنهُ بالنصر والغلبة وإيعاد للمشركين ولقريش خاصة .

⁽۱) يوسف : ۱۱۰ .

⁽٢) التحريم : ٨ .

 ⁽٣) قبال تعالى : ﴿إِذْ جِاءتكم جنود ﴾ الاحزاب : ٩ وقبال فيهم يعينهم : ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ الاحزاب : ٢٢

⁽٤) المائدة · ٥٦ .

 ^(°) آل عمران : ۱۳۹ .

والأمر بالإعراض عنهم ثم جعله مغيا بقوله: ﴿حتى حين﴾ يلوح إلى أن الأمد غير يعيد وكان كذلك فهاجر النبي مسلمات بعد قليل وأباد الله صناديد قريش في غزوة بدر وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ الأمر بالإبصار والإخبار بإبصارهم عاجلاً وعطف الكلام على الأمر بالتولي معجلاً يفيد بحسب القياس أن المعنى أنظرهم وأبصر ما هم عليه من الجحود والعناد قبال انذارك وتخويفك فسوف يبصرون وبال جحودهم واستكبارهم.

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعِدَابِنَا يَسْتَعْجُلُونَ فَإِذَا نَزُلُ بِسَاحَتُهُمْ فَسَاءُ صَبَاحِ الْمَنْدُرِينَ ﴾ توبيخ لهم لاستعجالهم وقولهم : متى هذا الوعد ؟ متى هذا الفتح ؟ وإيذان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقب يوماً بئيساً وصباحاً مشؤماً .

ونزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول والإحاطة ، وقوله : ﴿ فساء صباحاً ، والمنذرون هم المشركون من قريش .

قوله تعالى: ﴿وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون الكيد لما مر بتكرار الآيتين على ما قيل ، واحتمل بعضهم أن يكون المراد بما تقدم التهديد بعذاب الدنيا وبهذا ، التهديد بعذاب الآخرة . ولا يخلو من وجه فإن الواقع في الآية ﴿وأبصر من غير مفعول كما في الآية السابقة من قوله: ﴿وأبصرهم والحذف يشعر بالعموم وأن المراد إبصار ما عليه عامة الناس من الكفر والفسوق ويناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفار المخالفون لدعوة النبي سنيت مما تقدم ذكره في السورة .

والدليل عليه إضافة التنزيه إلى قوله: ﴿ ربك ﴾ أي الرب الذي تعبده وتدعو إليه ، وإضافة الرب ثانياً إلى العزة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزة فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذل ولا يغلبه غالب ولا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحق المهددون بالعذاب ليسوا له بمعجزين .

قوله تعالى : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ تسليم على عامة المرسلين وصون

لهم من أن يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم ويكرهونه .

قوله تعالى : ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة .

(بحث روائی)

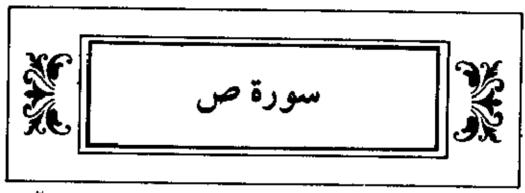
في الدر المنثور اخرج محمد بن نضر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد أن رسول الله على قال يوماً لجلسائه : أطّت السماء وحق لها أن تئط ، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد . ثم قدراً ﴿وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

أقول: وروي هذا المعنى عنه ﷺ بغير هذا الطريق.

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي على كان إذا قام إلى الصلاة قال : استووا تقدم يا فلان تأخر يا فلان أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هـدي الملائكة ثم يتلو : ﴿إِنَا لَنْحَنَ الْمُسْبِحُونَ﴾ .

وفي نهج البلاغة قبال منشئ في وصف المبلائكة : وصنافون لا يتنزايلون ومسبحون لا يسأمون .

* * *



مكية ، وهي ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ آللَّهِ آلرَّحمانِ آلرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي آلَـذِكْرِ (١) بَلِ آلَّـذِينَ كَفَرُوا فِي عِـزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كُمْ أَهْلَكْنَامِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنِ فَنَادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَاصِ (٣) وَعَجِبُوا أَنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالِ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) وَعَجَبُوا أَنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالِ الْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَها وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلاَ مَنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) مَا مَنْهُمْ أَنِ امْشُوا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرةِ إِنْ هٰذَا إِلّا اخْتِلَاقٌ (٧) ءَأَنْزِلَ عَلَيْهِ سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرةِ إِنْ هٰذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ (٧) ءَأَنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّذِكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُواعَذَابِ (٨) أَمْ لُهُمْ مُلْكُ النَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدُ مَا لَلْمُورُ وَقُومٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لُثَيْكَةِ أُولَئِكَ وَعَادُ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ الْأَحْزَابُ (١٢) وَتَمُودُ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لُثَيْكَةِ أُولَئِكَ وَقَابُ (٤) وَمَا يَنْظُرُ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لُثَيْكَةِ أُولَئِكَ وَقَابٍ (١١) كَذَّبَتُ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ الْأَحْزَابُ (٢١) وَتَمُودُ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لُثَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (٢١) وَمَا يَنْظُرُ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لُثَيْكَةِ أُولِيْكَ الْأَحْزَابُ (٢١) وَمَا يَنْظُرُ

هْؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَالَهَا مِنْ فَـوَاقٍ (١٥) وَقَالُـوا رَبَّنَا عَجِّـلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْل يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) .

(بیسان)

يدور الكلام في السورة حول كون النبي منشش منذراً بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعي إلى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى .

فتبدأ بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم وبالجملة استكبارهم عن اتباعه والإيمان به وصد الناس عنه وتفوههم بباطل القول في ذلك ورده في فصل .

ثم تأمر النبي سينية بالصبر وذكر قصص عباده الأولين في فصل ثم يذكر مآل حال المتقين والطاغين في فصل . ثم تأمر النبي سينية بإبلاغ نذارت ودعوت إلى توحيد الله وأن مآل اتباع الشيطان إلى النار على ما قضى به الله يـوم أمر الملائكة بالسجدة لأدم فأبى إبليس فرجمه وقضى عليه وعلى من تبعه النار . في فصل .

والسورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى : ﴿ صَ والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق المراد بالذكر ذكر الله تعالى بتوحيده وما يتفرع عليه من المعارف الحقة من المعاد والنبوة وغيرهما ، والعزة الامتناع ، والشقاق المخالفة ، قال في مجمع البيان : وأصله أن يصير كل من الفريقين في شق أي في جانب ومنه يقال : شق فلان العصا إذا خالف انتهى .

والمستفاد من سياق الآيات أن قوله: ﴿والقرآن ذي الذكر﴾ قسم نظير ما في قوله: ﴿يس والقرآن الحكيم﴾ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ ﴿ن والقلم﴾ لاعطف على ما تقدمه، وأما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق وقد هلك فيه قرون عزة وشقاق وقد هلك فيه قرون كثيرة ثم ذكر إنذار النبي من من وما قاله الكفار عليه وما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره من وله التعرض في المقسم عليه نحو من قولنا: إنك لمن المنذرين، ويشهد على ذلك أيضاً التعرض في السورة بإنذاره من وله بالذكر مرة بعد أخرى.

وقد قيل في قوله: ﴿ صَ والقرآن ذي الذكر ﴾ من حيث الإعراب والمعنى وجوه كثيرة لا محصل لأكثرها تركنا إيرادها لعدم الجدوى.

والمعنى ـ والله أعلم ـ اقسم بالقرآن المتضمن للذكر ـ إنك لمن المنذرين ـ بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله واتباعه ومخالفة له .

قوله تعالى : وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص القرن أهل عصر واحد ، والمناص بالنون مصدر ناص ينوص أي تأخر كما أنه بالباء الموحدة بمعنى التقدم على ما في المجمع وقيل : هو بمعنى الفرار .

والمعنى: كثيراً ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفار من قرن وأمة بتكذيبهم الرسل المنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالبويل كقولهم: يا ويلنا إنا كنا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه وليس الحين حين تأخر الأخذ والعذاب أوليس الحين حين فرار.

قوله تعالى : ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ أي تعجبوا من مجيء منذر من نوعهم بأن كان بشراً فإن الوثنية تنكر رسالـة البشر .

وقوله: ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ يشيرون بهذا إلى النبي مسنيه على يشيرون بهذا إلى النبي مسنيه يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن ، وبالكذب لزعمهم أنه يفتري على الله بنسبة القرآن وما فيه من المعارف الحقة إليه تعالى .

قوله تعالى : ﴿ أَجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ العجاب بتخفيف الجيم أبلغ .

وهو من تتمة قول الكافرين والاستفهام للتعجيب والجعل بمعنى التصيير وهو كما قيل تصيير بحسب القول والاعتقاد والدعوى لا بحسب الواقع كما في قول تعالى : فوجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً (١) فمعنى جعله سنرا الآلهة إلها واحداً هو إبطاله الوهية الآلهة من دون الله وحكمه بأن الإله هو الله لا إله إلا هو .

قوله تعالى : ﴿وَانْطُلُقُ الْمُلَا مُنْهُمُ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ٱلْهَتَّكُمُ إِنْ هَذَا لَشيء

⁽١) الزخرف : ١٩ .

يراد) نسبة الانطلاق إلى ملاهم وأشرافهم وقولهم ما قالوا يلوح إلى أن أشراف قريش اجتمعوا على النبي مين للهذه بنحلوا مشكلة دعوته إلى التوحيد ورفض الآلهة بنوع من الاستمالة وكلموه في ذلك فما وافقهم في شيء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا واصبروا الخ وهذا يؤيد ما ورد في أسباب النزول مما سيجيء في البحث الروائي الأتي إن شاء الله .

وقوله: ﴿أَن امشُوا واصبروا على آلهتكم﴾ بتقدير القول أي قائلين أن امشُوا واصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها وإن عابها وقدح فيها ، وظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض ، ويمكن أن يكون قولهم لتبعتهم .

وقوله: ﴿ إِن هذا لشيء يراد﴾ ظاهره أنه إشارة إلى ما يدعو إليه النبي ممنولة ويطلبه وأن مطلوبه شيء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسة وإنما جعل الدعوة ذريعة إليه فهو نظير قول الملإ من قوم نوح لعامتهم: ﴿ مَا هَـذَا إِلَّا بَشْرَ مَثْلُكُم يَـرِيدُ أَنْ يَتْفَضُلُ عَلَيْكُم ﴾(١).

وقيل: المعنى إن هذا الذي شاهدناه من إسراره مطرت على ما يطلبه وتصلبه في دينه لشيء عظيم يراد من قبله.

وقيل : المعنى أن هذا الأمر لشيء من نوائب الـدهر يـراد بنا فـلا حيلة إلا إن نمشوا وتصبروا .

وقيل : المعنى إن الصبر خلق محمود يراد منا في مثل هـذه الموارد ، وقيـل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة لا يلائمها السياق .

قوله تعالى: ﴿ مَا سَمَعُنَا بِهِذَا فِي الْمُلَةُ الْأَخْرَةُ إِنْ هَذَا إِلَا اَخْتَالُاقَ ﴾ أرادوا بالملة الأخرة المذهب الذي تداوله الأخرون من الأمم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبال الملل الأولى التي تداولتها الأولون كأنهم يقولون: ليس هذا من الملة الأخرة التي يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأولين.

وقيل: المراد بالملة الأخرة النصرانية لأنها آخر الملل وهم لا يقولون بالتوحيد بل بالتثليث ، وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالإسلام .

⁽١) المؤمنون : ٢٤

وقوله : ﴿إِن هَذَا إِلَّا اخْتَلَاقَ﴾ أي كذب وافتعال .

قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عليه الذكر من بيننا ﴾ استفهام إنكاري بـداعي التكذيب أي لا مرجح عند محمد مسلم يسترجح بـه علينا فينـزل عليه الـذكر دوننا فهو إنكار الاختصاص بنزول الذكر نـظير قـولهم: ما أنت إلا بشـر مثلنا في نفي الاختصاص بالوسالة .

قوله تعالى : ﴿ بِل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب ﴾ إضراب عن جميع ما قالوه أي إنهم لم يقولوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شك من ذكري وهو القرآن .

وليس شكهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوة وقصورها عن إفادة اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل ولـزومهم التقليد يصـرفهم عن النظر في دلالـة الآية الإلهية المعجزة فشكوا في الذكر والحال أنه آية معجزة .

وقوله: وبل لما يذوقوا عذاب إضراب عن الإضراب أي ليس إنكارهم وعدم إيمانهم به عن شك منهم فيه بل لأنهم لعتوهم واستكبارهم لا يعترفون بحقيته ولو لم يكن شك ، حتى يذوقوا عذابي فيضطروا إلى الإعتراف كما فعل غيرهم .

وفي قوله : ﴿ لَمَا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴾ أي لم يَذُوقُوا بعد عَذَابِي ، تهديد بعذاب واقع .

قوله تعالى: ﴿أَمْ عَندُهُمْ خَزَائِنَ رَحَمَةُ رَبِكُ الْعَزِيرُ الْوَهَابِ﴾ الْكلام في موقع الإضراب و﴿أَمْ ﴾ منقطعة والكلام ناظر إلى قولهم: ﴿مَا أَنْـزَلُ عَلَيْهُ اللَّذِكُرُ مِن بِينَا﴾ أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك التي ينفق منها على من يشاء حتى يمنعوك منها بل هي له تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته ويخص برحمته من يشاء.

وتـذييل الكـلام بقولـه: ﴿العزيـز الوهـاب﴾ لتأبيـد محصل الجملة أي ليس عندهم شيء من خزائن رحمته لأنه عزيز منيع جانبـه لا يداخـل في أمره أحـد. ولا لهم أن يصرفوا رحمته عن أحد لأنه وهاب كثير الهبات.

قول عنالى : ﴿ أَم لَهُم مَلَكُ السماواتِ وَالْأَرْضُ وَمَا بِينَهُمَا فَلَيْرِتُقُوا فِي الْأُسِيَابِ ﴾ ﴿ أَم ﴾ منقطعة ، والأمر في قوله : ﴿ ليرتقوا ﴾ للتعجيز والارتقاء الصعود ،

والأسباب المعارج والمناهج التي يتوسل بها إلى الصعود إلى السماوات ويمكن أن يراد بارتقاءالأسباب التسبب بالعلل والحيل الذي يحصل به لهم المنع والصرف.

والمعنى: بل ألهم ملك السماوات والأرض فيكون لهم أن يتصرفوا فيها فيمنعوا نزول الوحي السماوي إلى بشر أرضي فإن كان كذلك فليصعدوا معارج السماوات أو فليتسببوا الأسباب وليمنعوا من نزول الوحي عليك.

قوله تعالى : ﴿ جندما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ الهزيمة الخذلان و ﴿ من الأحزاب ﴾ الهزيمة الخذلان و ﴿ من الأحزاب ﴾ بيان لقوله : ﴿ جندما ﴾ و ﴿ ما ﴾ للتقليل والتحقير ، والكلام مسوق لتحقير أمرهم رغماً لما يشعر به ظاهر كلامهم من التعزز والإعجاب بأنفسهم .

يدل على ذلك تنكير ﴿جند﴾ وتتميمه بلفظة ﴿ما﴾ والإشارة إلى مكانتهم بهنالك الدال على البعيد وعدهم من الأحزاب المتحزبين على الرسل الذين قبطع الله دابر الماضين منهم كما سيذكر ولذلك عد هذا الجند مهزوماً قبل انهزامهم .

والمعنى : هم جندما أقبلاء أذلاء منهزمون هنالك من أولئك الأحراب المتحزبين على الرسل الذين كذبوهم فحق عليهم عقابي .

قوله تعالى : ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذوالأوتاد﴾ إلى قوله ﴿فحق عقاب﴾ ذوالأوتاد وصف فرعون والأوتاد جمع وقد وهو معروف . قيل : سمي بذي الأوتاد لأنه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها ، وقيل : لأنه كان يعذب من غضب عليه من المجرمين بالأوتاد يوتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض فيعذبه وقيل : معناه ذو الجنود أوتاد الملك ، وقيل : غير ذلك من الوجوه ، ولا دليل على شيء منها يعول عليه .

وأصحاب الأيكة قوم شعيب وقد تقدم في سورة الحجر والشعراء ، وقـوله : ﴿فحق عقاب﴾ أي ثبت في حقهم واستقر فيهم عقابي فأهلكتهم .

قوله تعالى : ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق﴾ النظر الانتظار والفواق الرجوع والمهلة اليسيرة ، والمعنى وما ينتظر هؤلاء المكذبون من أمتك إلا صيحة واحدة تقضي عليهم وتهلكهم ما لها من رجوع أو مهلة وهي عذاب الاستئصال .

قالوا: والمراد من الصيحة صيحة يوم القيامة لأن أمة محمد مُنْدَاتُ مؤخر

عنهم العذاب إلى قيام الساعة ، وقـد عرفت في تفسيـر سورة يـونس أن ظاهـر آيات الكتاب يعطي خلاف ذلك فراجع .

قوله تعالى : ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ القط النصيب والحظ ، وهذه الكلمة استعجال منهم للعذاب قبل يوم القيامة استهزاء بحديث يوم الحساب والوعيد بالعذاب فيه .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر مشئين قال: أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهتنا فادعه ومره فليكف عن آلهتنا ونكف عن إلهه.

قال: فبعث أبو طالب إلى رسول الله طلات فدعاه فلما دخل النبي طلات الله والتراشية لم يرسل في البيت إلا مشركاً فقال: السلام على من اتبع الهدى ثم جلس فخبره أبو طالب بما جاءوا به فقال: أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب ويطأون أعناقهم ؟ فقال أبو جهل: نعم وما هذه الكلمة ؟ قال: تقولون: لا إله إلا الله .

قال : فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا وهم يقولون : ما سمعنا بهـذا في الملة الأخرة إن هذا إلا اختـلاق فأنـزل الله في قولهم ص والقـرآن ذي الذكـرـ إلى قوله ـ إلا اختلاق .

وفي تفسير القمي في قبوله تعالى: ﴿وعجبوا أَن جاءهم منذر منهم﴾ قال: لما أظهر رسول الله مسنية الدعوة اجتمعت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سفه أحلامنا وسب آلهتنا وأفسد شبابنا وفرق جماعتنا فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم جمعنا له مالاً حتى يكون أغنى رجل في قريش ونملكه علينا.

فاخبر أبو طالب رسول الله سلام بذلك فقال: والله لو وضعوا في يميني والقمر في يساري ما أردته ولكن يعطونني كلمة يملكون بها العرب ويدين لهم بها العجم ويكونون ملوكاً في الجنة فقال لهم أبو طالب ذلك فقالوا: نعم وعشر كلمات

فقال لهم رسول الله مسلماً تشهدون أن لا إله الله وأني رسول الله فقالوا: ندع ثلاث مائة وستين إلها ونعبد إلها واحداً؟.

فأنزل الله سبحانه : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ إلى قولـه ﴿ إلا اختلاق ﴾ أي تخليط ﴿ أنزل عليه الـذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري ﴾ إلى قوله ﴿ من الأحزاب ﴾ يعني الذين تحزبوا عليه يوم الأحزاب .

أقول: والقصة مروية من طرق أهل السنة أيضاً وفي بعض رواياتهم أنه مناه ما أله ما عرض عليهم كلمة التوحيد قالوا له: سلنا غير هذه قال: لو جتتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا وقالوا والكلمة كناية عن تمليكهم إياه زمام نظام العالم الأرضي فإن الشمس والقمر من أعظم المؤثرات فيه، وقد أخذ على ما يظهران للحسن من القدر ليصح ما أريد من التمثيل.

وفي العلل بإسناده إلى إسحاق بن عمار قال : سألت أبا الحسن موسى بن جعفر طلنه كيف صارت الصلاة ركعة وسجدتين ؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين ؟ فقال : إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لتفهم . إن أول صلاة صلاها رسول الله منطبة إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدام عرشه .

وذلك أنه لما أسري به وصار عند عرشه قال يـا محمد أدن من صـاد فاغسـل مساجدك وطهرها وصل لربك فدنا رسول الله مشرسه إلى حيث أمره الله تبارك وتعـالى فتوضأ واسبغ وضوءه .

قلت : جعلت فداك وما صاد الذي أُمر أن يغتسل منه ؟ فقال : عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقبال له مناء الحيوان وهنو ما قبال الله عز وجبل : ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ الحديث .

أقول: وروى هذا المعنى أعني أن ص نهر يخرج من ساق العرش في المعاني عن سفيان الثوري عن الصادق ميشة ، وروي ذلك في مجمع البيان عن ابن عباس أنه اسم من أسماء الله تعالى قال: وروي ذلك عن الصادق مشنة .

وفي المعاني بالسناده إلى الأصبغ عن علي النصف في قول الله عز وجل : ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ قال : نصيبهم من العذاب .

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُورُ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أُوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخُّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبُّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَٱلطُّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ أُوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكُهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَـلُ أَتَلُـكَ نَبُوا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْـرَابُ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَـزعَ مِنْهُمْ قَــالُــوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَعْي بَعْضَنَا عَلَىٰ بَعْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعُ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نُعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَآءِ لَيُبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذٰلِكَ وَإِنَّ لَـهُ عِنْدَنَـا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـآبِ (٢٥) يَا دَاوُدَ إِنَّـا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَـوَىٰ فَيُضِلَكَ عَنْ سَبيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّـذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمَّ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكَ لِيَدَّبُّرُوآ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩) .

(بیان)

لما حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبي مسني ودعوته الحقة باختلاق وأنها ذريعة إلى التقدم والرئاسة وأنه لا مرجح له عليهم حتى يختص بالسرسالة والإنذار. ثم استهزائهم بيوم الحساب وعذابه الذي ينذرون به ؛ أمر النبي سنريش بالصبر وأن لا يزلزله هقواتهم ولا توهن عزمه وأن يذكر عدة من عباده الأوابين له الراجعين إليه فيما دهمهم من الحوادث.

وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام ذكرهم الله سبحانه : داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل عليهم السلام ، وبدأ بداود النخ وذكر بعض قصصه .

قوله تعالى: ﴿ اصبر على ما يقولمون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ الأيد القوة وكان على ذا قوة في تسبيحه تعالى يسبح ويسبح معه الجبال والطير وذا قوة في علمه وذا قوة وبطش في الحروب وقد قتل جالوت الملك كما قصه الله في سورة البقرة.

والأواب اسم مبالغة من الأوب بمعنى المرجوع والمراد به كثرة رجوعه إلى ربه .

قوله تعالى: ﴿إِنَا سَخُرِنَا الْجِبَالُ مَعَهُ يَسِبَحُنُ بِبِالْعَشِي وَالْإِشْرَاقِ﴾ النظاهر أن ﴿معه﴾ متعلق بقوله: ﴿يَسِبَحَنَ ﴾ وجملة ﴿معه يَسِبَحَن بِبِانَ لَمَعْنَى التَسْخِير وقدم النظرف لتعلق العناية بتبعيتها لـداود واقتدائها به في التسبيح لكن قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾(١) يؤيد تعلق النظرف بسخرنا ، وقد وقع في موضع آخر من كلامه تعالى : ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾(١) . والعشى والإشراق الرواح والصباح .

وقوله : ﴿إِنَّا سَخَرَنَا﴾ الخ ﴿إِنَّ فَيَهُ لَلْتَعَلَيْلُ وَالآيَةُ وَمَا عَطَفَ عَلَيْهَا مَنَ الْآيَاتُ بِيانَ لَكُونَهُ مَا اللَّهِ فَي تُسْبَيْحَهُ وَمَلَكُهُ وَعَلَمُهُ وَكُونُهُ أُوابًا إِلَى رَبِّهُ .

قوله تعالى : ﴿والطير محشورة كل له أواب﴾ المحشورة من الحشر بمعنى

الجمع بإزعاج أي وسخرنا معه الطير مجموعة له تسبح معه .

وقوله: ﴿كُلُ لَهُ أُوابِ﴾ استثناف يقرر ما تقدمه من تسبيح الجبال والطير أي كُلُ من الجبال والطير أواب أي كثير الرجوع إلينا بالتسبيح فإن التسبيح من مصاديق الرجوع إليه تعالى . ويحتمل رجوع ضمير ﴿له﴾ إلى داود على بعد .

ولم يكن تأييد داود علين في أصل جعله تعالى للجبال والطير تسبيحاً فإن كل شيء مسبح لله سبحانه قال تعالى: فوإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم فه (۱) بل في موافقة تسبيحها لتسبيحه وقرع تسبيحها أسماع الناس وقد تقدم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى: فوإن من شيء إلا يسبح بحمده في الآية وأنه بلسان القال دون لسان الحال.

قوله تعالى: ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ قال الراغب: الشد العقد القوي يقال: شددت الشيء قويت عقده. انتهى فشد الملك من الاستعارة بالكناية والمراد به تقوية الملك وتحكيم أساسه بالهيبة والجنود والخزائن وحسن التدبير وسائر ما يتقوى به الملك.

والحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم والمراد بها المعارف الحقة المتقنة التي تنفع الإنسان وتكمله ، وقيل : المراد النبوة ، وقيل الزبور وعلم الشرائع ، وقيل غير ذلك وهي وجوه ردية .

وفصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره وتمييز حقه من باطله وينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم .

وقيل: المراد به الكلام القصد ليس بإيجازه مخلاً ولا بإطنابه مملاً ، وقيل: فصل الخطاب قول أما بعد فهو مشتن أول من قال: أما بعد ، والآية التالية ﴿وهـل أتاك نبؤ الخصم ﴾ النح تؤيد ما قدمناه .

قوله تعالى: ﴿وهِل أَمَاكُ نَبُو الْخَصِم إِذْ تَسُورُوا الْمُحَرَابِ﴾ الخصم مصدر كالخصومة أريد به القوم اللذي استقر فيهم الخصومة ، والتسور الارتقاء إلى أعلى السور وهو الحائط الرفيع كالتسنم بمعنى الارتقاء إلى سنام البعير والتذري بمعنى

⁽١) الإسراء : ٤٤ .

الارتقاء إلى ذروة الجبل ، وقد فسر المحراب بالغرفة والعلية ، والاستفهام للتعجيب والتشويق إلى استماع الخبر .

والمعنى هل أتاك يا محمد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود مالئين .

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوِد قَفْرَع مِنْهُم ﴾ إلى آخر الآية لفظة ﴿إنْ هَذَه ظَرِف لقوله : ﴿نَبُو الْخَصِم ﴾ هذه ظرف لقوله : ﴿نَبُو الْخَصِم ﴾ ومحصل المعنى أنهم دخلوا على داود وهو في محرابه لا من الطريق العادي بل بتسوره بالارتقاء إلى سوره والورود عليه منه ولذا فزع منهم لما رآهم دخلوا عليه من غير الطريق العادي وبغير إذن .

وقوله: ﴿ فَفَرَع منهم ﴾ قال الراغب: الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهمو من جنس الجزع ولا يقال: فزعت من الله كما يقال: خفت منه . انتهى .

وقد تقدم أن الخشية تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق وهي رذيلة مذمومة إلا الخشية من الله سبحانه ولـذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره قال تعالى : ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾(١) .

وأن الخوف هو التأثير عن المكروه في مقام العمل بتهيئة ما يتحرز به من الشر ويدفع به المكروه لا في مقام الإدراك فليس برذيلة مذمومة لذاته بل هو حسن فيما بحسن الاتقاء قال تعالى خطاباً لرسوله : ﴿وَإِمَا تَخَافَنَ مَنْ قُومَ خَيَانَةَ﴾(٢) .

وإذا كان الفزع هو الانقباض والنفار الحاصل من الشيء المخوف كان أمراً راجعاً إلى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيلة بذات بل كان فضيلة عند تحقق مكروه ينبغي التحرز منه فلا ضير في نسبته إلى داود علاينه في قوله : ﴿فَفَرْع منهم﴾ وهو من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله .

وقوله : ﴿قَالُوا لَا تَخَفَ خَصِمَانَ بِغَي بِعَضِنَا عَلَى بِعَضَى ﴾ لما رأوا ما عليه داود ﷺ من الفزع أرادوا تطييب نفسه وإسكان روعه فقالوا : ﴿لا تَخْفَ ﴾ وهو نهي

⁽١) الأحزاب : ٣٩ .

عن الفزع بالنهي عن سببه الذي هو الخوف ﴿خصمان بغي﴾ الخ أي نحن خصمان أي فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلماً على بعض .

وقوله : ﴿ فَاحَكُم بِينَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطُطُ ﴾ النِّح الشَّطُطُ الْجَور أي فَاحَكُم بِينَنَا حَكُما مصاحباً للحق ولا تجر في حكمك ودلنا على الوسط العدل من الطريق .

قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا أَخِي﴾ إلى آخر الآية بيان لخصومتهم وقوله : ﴿إِنْ هَذَا أَخِي﴾ كلام لواحد من أحد الفريقين يشير إلى آخر من الفريق الآخر بـأن هذا أخي له ؛ الخ .

وبهذا يظهر فساد ما استدل بعضهم بالآية على أن أقبل الجمع اثنان لظهور قوله : ﴿ وَخصمان ﴾ ﴿ هذا أخي ﴾ على الاثنينية .

وذلك لجواز أن يكون في كل واحد من جانبي التثنية أكثر من فرد واحد قال تعالى : ﴿هذا خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا﴾(١) الخ وجواز أن يكون أصل الخصومة بين فردين ثم يلحق بكل منهما غيره لإعانته في دعواه .

وقوله: ﴿ له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب النعجة الأنثى من الضأن ، و ﴿ أكفلنيها ﴾ أي اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي و ﴿ عزني في الخطاب) أي غلبني فيه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿قَالَ لَقَدَ ظُلَمَكُ بِسُوّالُ نَعْجَتُكُ إِلَى نَعَاجِهِ ﴾ إلى قول ه ﴿وقليلُ ما هم ﴾ جواب داود عليه ، ولعله قضاء تقديري قبل استماع كلام المتخاصم الآخر فإن من الجائز أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقاً فيما يطلبه ويقترحه على صاحبه لكن صاحب النعجة الواحدة ألقى كلامه بوجه هيج الرحمة والعطوفة منه مشخف فبادر إلى هذا التصديق التقديري فقال : ﴿لقد ظلمك بسؤالُ نعجتك إلى نعاجه ﴾ .

فاللام للقسم ، والسؤال ـ على ما قيل ـ مضمن معنى الإضافة ولـذا عدي إلى المفعول الثاني بإلى ، والمعنى اقسم لقد ظلمك بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه .

⁽١) الحج : ١٩

وقوله: ﴿ وَإِنْ كَثِيرِ مِنَ الْخَلْطَاءُ لَيْبَغِي بَعْضُهُم عَلَى بَعْضَ إِلَا الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ من تمام كلام داود سَلِنْكُ يقرر به كلامه الأول والخلطاء الشركاء المخالطون .

قوله تعالى: ﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾ أي علم داود أنما فتناه بها والفتنة الامتحان، داود أنما فتناه بها والفتنة الامتحان، وقيل: ظن بمعناه المعروف الذي هو خلاف اليقين وذكر استغفاره وتوبته مطلقين يؤيد ما قدمناه ولو كان الظن بمعناه المعروف كان الاستغفار والتوبة على تقدير كونها فتنة واقعاً وإطلاق اللفظ يدفعه، والخر على ما ذكره الراغب سقوط يسمع منه خرير والخرير يقال لصوت الماء والربح وغير ذلك مما يسقط من علو، والركوع على ما ذكره مطلق الانحناء.

والإنابة إلى الله ـ على ما ذكره الراغب ـ الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمـل وهي من النوب بمعنى رجوع الشيء مرة بعد أخرى .

والمعنى : وعلم داود أن هـذه الواقعـة إنما كـانت امتحاناً امتحناه وأنـه أخطأ · فاستغفر ربه ـ مما وقع منه ـ وخر منحنياً وتاب إليه .

وأكثر المفسرين تبعاً للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود مانخ كانوا ملائكة أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه وستعرف حال الروايات .

لكن خصوصيات القصة كتسورهم المحراب ودخولهم عليه دخولاً غير عادي بحيث أفزعوه ، وكذا تنبهه بأنه إنها كان فتنة من الله له لا واقعة عادية ، وقوله تعالى بعد : ﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى الظاهر في أن الله ابتلاه بما ابتلى لينبهه ويسدده في خلافته وحكمه بين الناس ، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكة وقد تمثلوا له في صورة رجال من الإنس .

وعلى هذا فالواقعة تمثل فيها الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة يسألها آخر له تسع وتسعون نعجة وسألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: ولقد ظلمك، النخ وكان قوله عشين لهو كان قضاء منجزاً حكماً منه في ظرف التمثل كما لوكان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال وحكم فيهم بما حكم ومن المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثل كما لا تكليف في عالم الرؤيا

وإنما التكليف في عالمنا المشهود وهو عالم المادة ولم تقع الواقعة فيه ولا كان هناك متخاصمان ولا نعجة ولا نعاج إلا في ظرف التمثل فكانت خطيئة داود والنخ في هذا الظرف من التمثل ولا تكليف هناك كخطيئة آدم والمختف في الجنة من أكل الشجرة قبل الهبوط إلى الأرض وتشريع الشرائع وجعل التكاليف ، واستغفاره وتوبته مما صدر منه كاستغفار آدم وتوبته مما صدر منه وقد صرح الله بخلافته في كلامه كما صرح بخلافة آدم والمختف في كلامه وقد مر توضيح ذلك في قصة آدم والمختف من سورة البقرة في الجزء الأول من الكتاب .

وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشراً والقصة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله: ولقد ظلمك النح قضاء تقديرياً أي إنك مظلوم لولم يأت خصيمك بحجة بينة ، وإنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجة من طريقي العقل والنقل أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة ولا صغيرة .

على أن الله سبحانه صرح قبلًا بـأنه آتـاه الحكمة وفصـل الخطاب ولا يـلاثم ذلك خطأه في القضاء .

قوله تعمالى : ﴿وَإِنْ لَهُ عَمَدُنَا لَمُزَلَّفَى وَحَسَنَ مَآبِ﴾ النزلفة والنزلفي المنزلة والحظوة ، والمآب المرجع ، وتنكير ﴿زَلْفَى﴾ و ﴿مآبِ﴾ للتفخيم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوِد إِنَا جَعَلْنَاكُ خَلَيْفَةً فِي الْأَرْضُ ﴾ إلى آخر الآية الظاهـر أن الكلام بتقدير القول والتقدير فغفرنا له ذلك وقلنا يا داود الخ .

وظاهر الخلافة إنها خلافة الله فتنطبق على ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّ لَلْمَلائكَةُ أَنِي جَاعَلَ في الأَرْضِ خليفة ﴾ (١) من شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة من استخلفه في صفاته وأعماله فعلى خليفة الله في الأَرْضِ أن يتخلق بأخلاق الله ويريد ويفعل ما يريده الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله ـ والله يقضي بالحق ـ ويسلك سبيل الله ولا يتعداها .

ولذلك فرّع على جعل خلافته قوله : ﴿ فَاحْكُم بِينَ النَّاسُ بِالْحَقِّ ﴾ وهذا يؤيد

⁽١) البقرة . ٣٠ .

أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوة إلى الفعل في حقه لا مجرد الخلافة الشأنية لأن الله أكمله في صفاته وآتاه الملك يحكم بين الناس.

وقول بعضهم: إن المراد بخلافته المجعولة خلافته ممن قبله من الأنبياء وتفريع قوله: ﴿ فَاحَكُم بِينَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ لأن الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل أو أن المترتب هو مطلق الحكم بين الناس الذي هو من آثار الخلافة وتقييده بالحق لأن سداده به ، تصرف في اللفظ من غير شاهد .

وقوله: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ العطف والمقابلة بينه وبين ما قبله يعطيان أن المعنى ولا تتبع في قضائك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذي هو سبيل الله فتفيد الآية أن سبيل الله هو الحق .

قال بعضهم : إن في أمره طلت بالحكم بالحق ونهيمه عن اتباع الهـوى تنبيهاً لغيره ممن يلي أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق ولا يتبع الباطـل وإلا فهو طلت من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق ولا يتبع الباطل .

وفيه أن أمر تنبيه غيره بما وجه إليه من التكليف في محله لكن عصمة المعصوم وعدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر والنهي إليه فإن العصمة لا توجب سلب اختياره وما دام اختياره باقياً جاز بل وجب توجه التكليف إليه كما يتوجه إلى غيره من الناس ، ولولا توجه التكليف إلى المعصوم لم يتحقق بالنسبة إليه واجب ومحرم ولم تتميز طاعة من معصية فلغى معنى العصمة التي هي المصونية عن المعصية .

وقوله: ﴿إِن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وفي نسيانه عداب شديد والمراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره .

وفي الآية دلالة على أن كل ضلال عن سبيسل الله سبحانه بمعصية من المعاصى لا ينفك عن نسيان يوم الحساب .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا بِينَهُمَا بِاطْلًا ﴾ إلى آخر الآية ، لما انتهى الكلام إلى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآية بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَمَاءُ ﴾ النَّح وهو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء والأرض وما بينهما ـ وهي أمور مخلوقة مؤجلة توجد وتفنى ـ مؤدياً إلى غاية ثابتة باقية غير مؤجلة كان باطلاً والباطل بمعنى ما لا غاية له ممتنع التحقق في الأعيان . على أنه مستحيل من الحكيم ولا ريب في حكمته تعالى .

وربما أطلق الباطل وأريد به اللعب ولوكان المراد ذلك كانت الآية في معنى قولمه : ﴿وَمِمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق﴾(١) .

وقيل : الآية عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل : ولا تتبع الهوى لأنه يكون سبباً لضلالك ولأنه تعالى لم يخلق العالم لأجل اتباع الهوى وهو الساطل بل خلقه للتوحيد ومتابعة الشرع .

وفيه أن الآية التالية : ﴿أَم نَجَعَلَ الذِّينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالَحَـاتُ كَالْمُفْسَـدَينَ في الأرض﴾ الخ لا تلاثم هذا المعنى .

وقوله: ﴿ ذَلَكُ ظُنَ الذِّينَ كَفَرُوا فَوَيَلَ لَلَذَينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أي خلق العالم باطلاً لا غاية له وانتفاء يـوم الحساب الـذي يظهـر فيه مـا ينتجه حسـاب الأمور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿أَم نَجِعَلَ النَّذِينَ آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار فه هذه هي الحجة الثانية على المعاد وتقريرها أن للإنسان كسائر الأنواع كمالاً بالضرورة وكمال الإنسان هو خروجه في جانبي العلم والعمل من القوة إلى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقة ويعمل الأعمال الصالحة اللتين يهديه إليهما فطرته الصحيحة وهما الإيمان بالحق والعمل الصالح اللذين بهما يصلح المجتمع الإنساني الذي في الأرض.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المتقون هم الكاملون من الإنسان والمفسدون في الأرض بفساد اعتقادهم وعملهم وهم الفجار هم الناقصون الخاسرون في إنسانيتهم حقيقة ، ومقتضى هذا الكمال والنقص أن يكون بإزاء الكمال حياة سعيدة وعيش طيب وبإزاء خلافه خلاف ذلك .

⁽١) الدخان : ٣٩ .

ومن المعلوم أن هذه الحياة الدنيا التي يشتركان فيها هي تحت سيطرة الأسباب والعوامل المادية ونسبتها إلى الكامل والناقص والمؤمن والكافر على السواء فمن أجاد العمل ووافقته الأسباب المادية فاز بطيب العيش ومن كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء وضنك المعيشة.

فلو كانت الحياة مقصورة على هذه الحياة الدنيوية التي نسبتها إلى الفريقين على السواء ولم تكن هناك حياة تختص بكل منهما وتناسب حاله كان ذلك منافياً للعناية الإلهية بإيصال كل ذي حق حقه وإعطاء المقتضيات ما تقتضيه .

وإن شئت فقل: تسوية(١) بين الفريقين وإلغاء ما يقتضيه صلاح هـذا وفساد ذلك خلاف عدله تعالى .

والآية ـ كما ترى ـ لا تنفي استواء حال المؤمن والكافر وإنما قررت المقابلة بين من آمن وعمل صالحاً وبين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمناً غير صالح ولذا أتت بالمقابلة ثانياً بين المتقين والفجار .

قوله تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي هذا كتاب من وصفه كذا وكذا ، وتوصيفه بالإنزال المشعر بالدفعة دون التنزيل الدال على التدريج لأن ما ذكر من التدبر والتذكر يناسب اعتباره مجموعاً لا نجوماً مفرقة .

والمقابلة بين ﴿ليدبروا﴾ و ﴿ليتذكر أُولُوا الألباب﴾ تقيد أن المراد بضمير الجمع الناس عامة .

والمعنى: هذا كتاب أنزلناه إليك كثير الخيرات والبركات للعامة والخاصة ليتدبره الناس فيهتدوا به أو تتم لهم الحجة وليتذكر به أولو الألباب فيهتدوا إلى الحق باستحضار حجته وتلقيها من بيانه.

(بحث روائي)

روى في الدر المنثور بطريق عن أنس وعن مجاهد والسدي وبعدة طرق عن ابن عباس قصة دخول الخصم على داود م<mark>عندات</mark> على اختلاف ما في الروايات وروى مثلها

⁽١) الحجة الأولى برهانية والثانية جدلية .

القمي في تفسيره ورواها في العرائس وغيره وقند لخصها في مجمع البيان كما بأتي :

إن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علي إبراهيم فاتخذت خليلًا وفضلت عليّ موسى فكلمته تكليماً فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليتك فقال: نعم يا رب فابتلني .

فبينا هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهم بتزويجها فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل.

فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان فبينا هو ذات يوم في محرابه إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما فقالا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض _ إلى قوله _ وقليل ما هم ، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على إنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه .

ثم قال في المجمع _ ونعم ما قال _: إنه مما لا شبهة في فساده فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله اللذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه .

أقول : والقصة مأخوذة من التوراة غير أن التي فيها أشنع وأفظع فعدلت بعض التعديل على ما سيلوح لك .

ففي التوراة ما ملخصه : وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً .

فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل : إنها بتشَبّع امرأة أوريا الحثي فأرسل داود رسلًا وأخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى .

وكان أوريا في جيش لـداود بحاربون بني عمون فكتب داود إلى يـوآب أمير جيشه يأمره بإرسال أوريا إليه ولما أتاه وأقام عنده أياماً كتب مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيـد أوريا ، وكتب في المكتـوب يقول : اجعلوا أوريا في وجـه الحـرب الشـديـدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ففعل به ذلك فقتل وأخبر داود بذلك .

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له إبناً وأما الأمر الـذي فعله داود فقبح في عيني الرب .

فأرسل الرب فاثان النبي إلى داود فجاء إليه وقال له: كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني والآخر فقير ، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيىء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيا لضيفه ، فحمي غضب داود على الرجل جداً وقال لناثان : حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك وترد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأسر ولأنه لم يشفق .

فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل يعاتبك الرب ويقول: سأقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع معهن قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس جزاء لما فعلت بأوريا وامرأته.

فقال داود لناثال.: قد أخطأت إلى الرب فقال ناثان لداود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيئتك. لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك من المسرأة يموت، فأمرض الله الصبي سبعة أيام ثم قبضه ثم ولدت امرأة أوريا بعده لداود ابنه سليمان.

وفي العيون في بناب مجلس النوضا عند المأمنون مع أصحباب الملل والمقالات قال الرضا على الملك لابن جهم: وأما داود فما يقول من قبلكم فيه ؟ قال: يقولون: إن داود كان يصلي في محرابه إذ تصور له إبليس على صورة طير أحسن

⁽١) ملخص من الاصحاح الحادي عشر والثاني عشر من صموثيل الثاني .

ما يكون من الطيور فقطع داود صلاته وقام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في إثره فطار الطير إلى الدار فخرج في إثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان .

فاطلع داود في إثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل فلما نظر إليها هواها وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدم أوريا أمام التابسوت فقدم فظفر أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدمه أمام التابوت فقدم فقتل أوريا وتزوج داود بامرأته .

قال : فضرب الرضا بسلماني يده على جبهته وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في إثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل .

فقال: يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته ؟ فقال: ويحك إن داود سلط ظن أنه ما خلق الله خلقاً هو أعلم منه فبعث الله عز وجل إليه الملكين فتسورا الممحراب فقال: خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب فعجل داود على المدعى عليه فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ولم يسأل المدعى البينة على ذلك ، ولم يقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول ؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه المدعى عليه فيقول له: ما تقول ؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه الناس بالحق الله إلى آخر الأية .

فقال: يا ابن رسول الله فما قصته مع أوريا؟ قال الرضا سَلَتُك : إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبداً فأول من أباح الله عمز وجل له أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود سَلَتُ فتزوج بامرأة أوريا لما قتل وانقضت عمدتها فذلك الذي شق على الناس من قتل أوريا .

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله مشخف أنه قبال لعلقمة : إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود مشخف إلى أنه تبع البطير حتى نبظر إلى امرأة أوريا فهواها ، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها الحديث .

(كلام في قصص داود في فصول)

١ - قصته في القرآن : لم يقع من قصته في القرآن إلا إشارات فقد ذكر سبحانه أنه كان في جيش طالوت الملك حين حارب جالـوت فقتل داود فـآتاه الله الملك بعــد طالوت والحكمة وعلمه مما يشاء(١) وجعله خليفة له يحكم بين الناس وآتاه فصل الخطاب(٢) ، وقد أيد الله ملكه وسخر معه الجبال والطير يسبحن معه(٣) ، وألان له الحديد يعمل وينسج منه الدروع(١)(٥) .

٢ -جميل الثناء عليه في القرآن : عـده سبحانـه من الأنبياء وأثني عليـه بما أثني عليهم وخصه بقوله : ﴿وأتينا داود زبـوراً﴾(١)(٧) وآناه فضلًا وعلماً (١)(٩) وآتـاه الحكمة وفصل الخطاب وجعله خليفة في الأرض (١٠) ووصفه بأنه أوَّاب وأن لـه عنده لـزلفي وحسن مآب^(۱۱) .

٣ - التدبر في آيات الكتاب المتعرضة لقصة دخول المتخاصمين على داود سِنشك لا يعطى أزيد من كونه امتحاناً منه تعالى له سُلك في ظرف التمثل ليربيـه تربيـة إلهية ويعلمه رسم القضاء العدل فلا يجور في الحكم ولا يعدل عن العدل .

وأما ما تضمنته غالب الروايات من قصة أوريا وامرأته فهو مما يجل عنه الأنبياء ويتنزه عنه سـاحتهم وقد تقـدم في بيان الأيـات والبحث الروائي محصـل الكلام في ذلك .

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمُنَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تُوَارَتُ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَـا عَلَيَّ فَـطَفِقَ مَسْحـاً

> (١) البقرة : ٢٥١ . (ه) سبأ : ۱۱ . (٩) النمل: ١٥.

(۲) ص: ۲۱ و ۲۱ . (١) النساء ١٦٣ . (۱۰) ص : ۲۰ و ۲۱ .

(٣) الأنبياء : ٧٩ ، ص ١٩ . (٧) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨ . (١١) ص : ١٩ و ٢٥ .

> (٤) الأنبياء: ٨٠. (۸) سباً . ۱۰ .

بِٱلسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدِ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَحَّوْنَا لَهُ آلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً مَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَحَّوْنَا لَهُ آلرِيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٧) وَآلشَياطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصِ (٣٧) وَآلَتُه يَا فَيَ فَي الْأَصْفَادِ (٣٨) هُلَا يَنَّ إَوْ فَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْسِ مِصَابِ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبِ (٤٠) .

(بیان)

القصة الثانية من قصص العباد الأوّابين التي أمر النبي مُسُلِّةٍ أن يصبر ويذكرها .

قوله تعالى : ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ أي وهمناه له ولـداً والباقي ظاهر مما تقدم .

قوله تعالى: ﴿إِذْ عَرْضَ عَلَيْهُ بِالْعَشِي الْصَافِنَاتِ الْجِيادِ﴾ العشي مقابل الغداة وهو آخر النهار بعد النزوال ، والصافِنات على ما في المجمع جمع الصافِنة من الخيل وهي التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر . قال : والجياد جمع جواد والياء ههنا منقلبة عن واو والأصل جِواد وهي السراع من الخيل كأنها تجود بالركض . انتهى .

قوله تعالى : ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى تـوارت بالحجاب﴾ الضميـر لسليمان ، والمـراد بالخيـر : الخيل ـ على مـا قيل ـ فـإن العرب تسمي الخيل خيراً وعن النبي سِنْشِ الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة .

وقيل: المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه تعالى كقوله: ﴿إِنْ تُرِكُ خيراً ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنِي أَحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾ قالوا: إن ﴿أَحببت﴾ مضمن معنى الإيشار و ﴿عن﴾ بمعنى على ، والمراد إني آثـرت حب الخيل على ذكـر ربي

⁽١) البقرة : ١٨٠ .

وهو الصلاة محباً إياه أو أحببت الخيل حباً مؤثـراً إياه على ذكـر ربي ـ فاشتغلت بمـا عرض علي من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس .

وقوله: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ الضمير على ما قالوا للشمس والمراد بتواريها بالحجاب غروبها واستتارها تحت حجاب الأفق، ويؤيد هذا المعنى ذكر العشي في الآية السابقة إذ لولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشي .

فمحصل معنى الآية أني شغلني حب الخيل ـ حين عرض الخيل علي ـ عن الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس ، وإنما كان يحب الخيل في الله ليتهيأ به للجهاد في سبيل الله فكان الحضور للعرض عبادة منه فشغلته عبادة عن عبادة غير أنه يعد الصلاة أهم .

وقيل: ضمير ﴿توارت﴾ للخيل وذلك أنه أمر بإجراء الخيل فشغله النظر في جريها حتى غابت عن نظره وتوارت بحجاب البعد، وقد تقدم أن ذكر العشي يؤيد المعنى السابق ولا دليل على ما ذكره من حديث الأمر بالجري من لفظ الآية.

قوله تعالى: ﴿ وردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) قيل: الضمير في ﴿ ردوها ﴾ للشمس وهو أمر منه للملائكة برد الشمس ليصلي صلاته في وقتها، وقوله: ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ أي شرع يمسح ساقيه وعنقه ويأمر أصحابه أنه يمسحوا سوقهم وأعناقهم وكان ذلك وضوءهم ثم صلى وصلوا، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقيل : الضمير للخيـل والمعنى قال : ردوا الخيـل فلما ردت . شـرع يمسح مسحاً بسوقها وأعناقها ويجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة .

وقيل: الضمير للخيل والمراد بمسح أعناق الخيل وسوقها ضربها بالسيف وقطعها والمسح القطع فهو سينت غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله فأمر بردها ثم ضرب بالسيف أعناقها وسوقها فقتلها جميعاً.

وفيه أن مثل هذا الفعل مما تنزه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن مثله فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم .

وأما استدلال بعضهم عليه بسرواية أبي بن كعب عن النبي مُشَرِّكُ في قـولـه

تعالى : فطفق مسحاً بالسوق والأعناق قطع سوقها وأعناقها بالسيف ثم أضاف أليها وقد جعلها بذلك قرباناً لله وكان تقريب الخيل مشروعاً في دينه فليس من التقريب ذكر في الحديث ولا في غيره .

على أنه ملتك لم يشتغل عن العبادة بالهوى بل شغلته عبادة عن عبادة كما تقدمت الإشارة إليه .

فالمعوّل عليه هو أول الوجوه إن ساعده لفظ الآية وإلا فالوجه الثاني .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴾ الجسد هو الجسم الذي لا روح فيه .

قيل : المراد بالجسد الملقى على كرسيه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به وتقدير الكلام ألقيناه على كرسيه جسداً أي كجسد لا روح فيه من شدة المرض .

وفيه أن حذف الضمير من «ألقيناه» وإخراج الكلام على صورته التي في الآية الظاهرة في أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه .

ولسائر المفسرين أقوال مختلفة في المراد من الآية تبعاً للروايات المختلفة الواردة فيها والذي يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالاً أنه كان جسد صبي له أماته الله وألقى جسده على كرسيه ، ولقوله : ﴿ ثم أناب قال رب اغفر لي ﴾ إشعار أو دلالة على أنه كان له مؤفظ فيه رجاء أو أمنية في الله فأماته الله سبحانه وألقاه على كرسيه فنبهه أن يفوض الأمر إلى الله ويسلم له .

قوله تعالى : ﴿قال رَبِ اغْضَر لِي وَهُبِ مَلَكاً لا يَنْبَغَي لأَحَدُ مِن بِعَدِي إِنْكُ أَنْتَ الوَهَابِ ﴾ ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبطة بما في الآية السابقة من إلقاء الجسد على كرسيه ، والفصل لكون الكلام في محل دفع الدخل كأنه لما قيل : ﴿ثم أنابِ ﴾ قيل : فماذا قال ؟ فقيل : ﴿قال رَبِ اغفر لِي ﴾ النح .

وربما استشكل في قوله : ﴿وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعـدي﴾ أن فيه ضناً وبخلًا ، فإن فيه اشتراط أن لا يؤتى مثل ما أوتيه من الملك لأحـد من العالمين غيره .

ويدفعه أن فيه سؤال ملك يختص به لا سؤال أن يمنع غيره عن مثل ما أتاه

ويحرمه ففرق بين أن يسأل ملكاً اختصاصياً وأن يسأل الاختصاص بملك أُوتيه .

قوله تعالى : ﴿فُسخُرِنَا لَهُ السريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ متفرع على سؤاله الملك وإخباره عن إجابة دعوته وبيان الملك الذي لا ينبغي لأحـد غيره وهو تسخير الربح والجن .

والرخاء بالضم اللينة والنظاهر أن المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء مطاوعتها لأمره وسهولة جريانها على ما يريده ملتنف فلا يبرد أن توصيف البريح ههنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله: ﴿ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره﴾(١) بكونها عاصفة .

وربما أُجيب عنه بـأن من الجائـز أن يجعلها الله رخـوة تارة وعـاصفة أُخـرى حسب ما أراد سليمان عشنه.

وقـولـه : «حيث أصـاب» أي حيث شـاء سليمـان الشف وقصد وهو متعلق بتجري .

قوله تعالى : ﴿والشياطين كـل بناء وغواص﴾ أي وسخرنا له الشياطين من الجن كل بناء منهم يبني له في البر وكل غواص يعمل له في البحر فيستخرج اللئالي وغيرها .

قوله تعالى : ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ الأصفاد جمع صف وهو الغل من الحديد ، والمعنى وسخرنا له آخرين منهم مجموعين في الأغلال مشدودين بالسلاسل .

قوله تعالى : ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي هذا الذي ذكر من الملك عطاؤنا لك بغير حساب والظاهر أن المراد بكونه بغير حساب أنه لا ينفد بالعطاء والمن ولذا قيل : ﴿فامنن أو أمسك ﴾ أي أنهما يستويان في عدم التأثير فيه .

وقيل : المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة ، وقيـل : المراد أن إعطاءه تفضل لا مجازاة وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَهُ عَنْدُنَا لَرُلْقَى وَحَسَنَ مَآبِ ﴾ تقدم معناه .

⁽١) الأنبياء: ٨١.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي﴾ الآية قيل : إن هذه الخيل كانت شغلته عن صلاة العصر حتى فات وقتها عن علي ﷺ وفي رواية أصحابنا أنه فاته أول الوقت .

وفيه قال ابن عباس: سألت علياً عن هذه الآية فقال: ما بلغك فيها يا ابن عباس ؟ قلت: سمعت كعباً يقول: اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتى فاتته الصلاة فقال: ردوها علي يعني الأفراس وكانت أربعة عشر فأمر بضرب سوقها وأعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنه ظلم الخيل بقتلها.

فقال على: كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنه أراد جهاد العدو حتى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : ردوها علي فردت فصلى العصر في وقتها وإن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم لأنهم معصومون مطهرون .

أقول: وقول كعب الأحبار: فسلبه الله ملكه إشارة إلى حديث الخاتم الـذي سنشير إليه .

وفي الفقيه روي عن الصادق منتظ أنه قال: إن سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم بالعشي الخيل فاشتغل بالنظر إليها حتى توارت الشمس بالحجاب فقال للملائكة: ردوا الشمس عليّ حتى أصلي صلاتي في وقتها فردوها فقام ومسح ساقيه وعنقه بمثل ذلك وكان ذلك وضوءهم للصلاة ثم قام فصلى فلما فرغ غابت الشمس وطلعت النجوم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾ إلى قوله ﴿مسحاً بالسوق والأعناق﴾ .

أقول: والرواية لا بأس بها لو ساعد لفظ الآية أعني قوله: ﴿ فطفق مسحماً بالسوق والأعناق﴾ على ما فيها من المعنى ، وأما مسألة رد الشمس فيلا إشكال فيه بعد تبوت إعجاز الأنبياء ، وقيد ورد ردها لغيره مانك كيوشيع بن نون وعلي بن أبي طالب مانك في تفسيره الكبير .

وأما عقره سينخه الخيل وضربه أعناقها بالسيف فقد روي في ذلك عـدة روايات

من طرق أهل السنة وأورده القمي في تفسيره وكأنها تنتهي إلى كعب كما صر في رواية ابن عباس المتقدمة وكيف كان فلا يعبؤ بها كما تقدم .

وقد بلغ من إغراقهم في القصة أن رووا أن الخيل كانت عشرين ألف فـرس ذات أجنحة ومثله ما روي في قوله : حتى تــوارت بالحجــاب عن كعب أنه حجــاب من ياقوتة خضراء محيط بالخلائق منه اخضرت السماء .

ومثل هذه الروايات أعاجيب من القصص رووها في قوله تعالى : ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كَرْسِيهِ جَسَداً ﴾ الآية كما روي أنه ولد له ولمد فأمر بـإرضاعـه وحفظه في السحاب إشفاقاً عليه من مردة الجن وفي بعضها خوفاً عليـه من ملك الموت فوقع يوماً جسده على كرسيه ميتاً .

وما روي أنه قال يوماً: لأطوفن الليلة بمائة امرأة من نسائي تلد لي كل واحدة منهن لي فارساً يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فلم تحمل منهن إلا واحدة بشق من ولد وكان يحبه فخبأه له بعض الجن من ملك الموت فأخذه من مخبأه وقبضه على كرسى سليمان.

وما روي في روايات كثيرة تنتهي عدة منها إلى ابن عباس وهو يصرح في بعضها أنه أخذه عن كعب أن ملك سليمان كان في خاتمه فتخطّفه شيطان سنه فزال ملكه وتسلط الشيطان على ملكه أياماً ثم أعاد الله الخاتم إليه فعاد إلى ما كان عليه من الملك ، وقد أوردوا في القصة أُموراً ينبغي أن تنزه ساحة الأنبياء سينت عن ذكرها فضلاً عن نسبتها إليهم . قالوا : وجلوس الشيطان على كرسي سليمان هو المسراد بقوله تعالى : ﴿وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ الآية .

فهذه(١) كلها مما لا يعبؤ بها على ما تقدمت الإشارة إليه وإنما هي مما لعبت بها أيدي الوضع .

* * *

⁽١) ليراجع في الحصول على عامة هذه الروايات الدر المنثور .

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي آلشَّيْطَانُ بِنَصْبِ وَعَذَابِ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذَا مُغْتَسَلُ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَعَذَابُ (٤٣) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْنَا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِعْنَا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابُ (٤٤) وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْراهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٤) وَاذْكُر عِبَادَنَا إِبْراهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٤) وَإِنَّهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى آلسَدارِ (٤٤) وَإِنَّهُمْ وَالْمَسْعَ وَذَا لَكُنْ الْمُضَطَفَيْنَ الْأَحْيَادِ (٤٧) وَاذْكُرْ السَمْعِيلُ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلُّ مِنَ الْأَحْيَادِ (٤٨) .

(بیان)

القصة الثالثة مما أمر النبي سلمات أن يصبر ويـذكرهـا وهي قصة أيـوب النبي سلمات وما ابتلي به من المحنة ثم أكرمه الله بالعافية والعطية . ثم الأمر بذكـر إبراهيم وخمسة من ذريته من الأنبياء مالك.

قوله تعالى : ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب وعذاب الله منه على منه على منه على الله وسؤال للعافية وأن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء من سوء الحال ، ولم يصرح بما يريده ويسأله تواضعاً وتذللاً غير أن نداءه تعالى بلفظ ربى يشعر بأنه يناديه لحاجة .

والنصب التعب ، وقوله : ﴿إِذْ نَادَى﴾ النح بَدَلُ اشتمالُ مِن ﴿عَبَدُنَا﴾ أو ﴿أيوبِ﴾ وقوله : ﴿أني مسني﴾ الخ حكاية ندائه .

والظاهر من الآيات التالية أن مراده من النصب والعذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله وهو الذي .ذكره عنه طلني سورة الأنبياء من ندائه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبته في نفسه وأهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء إلى ذهاب ماله وإن وقع ذكر المال في الروايات .

والظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب والعذاب استناد نصبه وعذابه إلى الشيطان بنحو من السببية والتأثير وهو الذي يظهر من الروايات ، ولا ينافي استناد المرض ونحوه إلى الشيطان استناده أيضاً إلى بعض الأسباب العادية الطبيعية لأن السببين ليسا عرضيين متدافعين بل أحدهما في طول الآخر وقد أوضحنا ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ﴾ (١) في الجزء الثامن من الكتاب .

ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الإنسان وقد قال تعالى: ﴿إِنَمَا الْخَمَرِ وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصِابِ وَالْأَزْلَامِ رَجْسُ مِنْ عَمَلُ الشيطانَ ﴾ (٢) فنسبها أنفسها إليه ، وقال حاكياً عن موسى مشخف: ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ (٣) يشير إلى الاقتتال.

ولو أغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك إلى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه وابتعادهم وطعنهم فيه أن لو كان نبياً لم تحط به البلية من كل جانب ولم يصر إلى ما صار إليه من العاقبة السوآى وشماتتهم واستهزاؤهم به .

وقد أنكر في الكشاف ما تقدم من الوجه قائلاً: لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه طِنْك ليقضي من تعذيبهم وإتعابهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب . انتهى .

وفيه أن الذي يخص الأنبياء وأهل العصمة أنهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة ، وأما تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب إليهم بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه ، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهو يوشع النبي سنت : ﴿فَإِنِّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ (٤) .

ولا يلزم من تسلطه على نبي بالإيذاء والإتعاب لمصلحة تقتضيه كظه ور صبره

⁽١) الأعراف : ٩٦ .

⁽٣) القصص : ١٥ .

⁽٢) المائدة : ٩٠ . (٤) الكهف : ٦٣

في الله سبحانه وأوبته إليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عبـاد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك وهو ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ اركض برجلك هـذا مغتسل بـاردوشـراب ﴾ وقـوع الآية عقيب ندائه ومسألته يعطي أنه إيذان باستجابة دعائه وأن قـوله تعالى : ﴿ اركض برجلك ﴾ الخ حكاية لما اوحي إليه عند الكشف عن الاستجابة أو هو بإضمار القول والتقـدير فاستجبنا له وقلنا : اركض الخ ، وسياق الأمر مشعر بل كاشف عن أنه كان لا يقـدر على القيام والمشي بقدميه وكان مصاباً في سائر بدنه فأبرأ الله ما في رجليه من ضر وأظهر له عيناً هناك وأمره أن يغتسل منها ويشرب حتى يبرأ ظاهر بدنه وباطنه ويتأيـد بذلك ما سيأتي من الرواية .

وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فـركض برجله واغتسـل وشرب فبـرأه الله من مرضه .

قوله تعالى : ﴿ووهبنا لــه أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ورد في الرواية أنه ابتلي فيما ابتلي بموت جميع أهله إلا امرأته وأن الله أحياهم له ووهبهم له ومثلهم معهم ، وقيل : إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أيام ابتلائه فجمعهم الله إليه بعد برئه وتناسلوا فكانوا مثلي ما كانوا عدداً .

وقوله : ﴿ رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ﴾ مفعول له أي فعلنا به ما فعلنا ليكون رحمة منا وذكرى لاولي الألباب يتذكرون به .

قوله تعالى : ﴿وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ في المجمع : الضغث مل الكف من الشجرة والحشيش والشماريخ ونحو ذلك انتهى ، وكان سُئك قد حلف لئن عوفي أن يحلد امرأته مائة جلدة لأمر أنكره عليها على ما سيأتي من الرواية فلما عافاه الله تعالى أمره أن يأخذ بيده ضغثاً بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به ولا يحنث .

وفي سياق الآية تلويح إلى ذلك وإنما طوي ذكـر المرأة وسبب الحلف تـأدباً رعاية لجانبه .

وقوله : ﴿إِنَا وَجِدْنَاهُ صَابِراً ﴾ أي فيما ابتليناه به من المرض وذهاب الأهل

والمال ، والجملة تعليل لقوله : ﴿واذكر﴾ أو لقوله : ﴿عبدنــا﴾ أي لتسميته عبــدأً وإضافته إليه تعالى ، والأول أولى .

وقوله : ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ مدح له سننه .

قوله تعالى: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقبوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ مدحهم بتوصيفهم بأن لهم الأيدي والأبصار ويد الإنسان وبصره إنما يمدحان إذا كانا يد إنسان وبصر إنسان واستعملا فيما خلقا له وخدما الإنسان في إنسانيته فتكتسب اليد صالح العمل ويجري منها الخير على الخلق ويميز البصر طرق العافية والسلامة من موارد الهلكة ويصيب الحق ولا يلتبس عليه الباطل.

فيكون كونهم أولي الأيدي والأبصار كناية عن قوتهم في الطاعة وإيصال الخير وتبصرهم في إصابة الحق في الاعتقاد والعمل وقد جمع المعنيين في قوله تعالى: فووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين (١) فجعلهم أئمة والأمر والوحي لأبصارهم وفعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة لأيديهم (١) وإليه يؤل ما في الرواية من تفسير ذلك باولي القوة في العبادة والبصر فيها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالَصَةً ذَكْرَى الْدَارِ ﴾ الخالصة وصف قائم مقام موصوفه ، والباء للسببية والتقدير بسبب خصلة خالصة ، وذكرى الدار بيان للخصلة والدار هي الدار الآخرة .

والآية أعني قوله: ﴿إنا أخلصناهم﴾ النح لتعليل ما في الآية السابقة من قوله: ﴿أُولِي الأَيدِي والأَبصار﴾ أو لقوله: ﴿عبادنا﴾ أو لقوله: ﴿واذكر﴾ وأوجه الوجوه أولها، وذلك لأن استغراق الإنسان في ذكرى الدار الآخرة وجوار رب العالمين وركوز همه فيها يلازم كمال معرفته في جنب الله تعالى وإصابة نظره في حق الاعتقاد والتبصر في سلوك سبيل العبودية والتخلص عن الجمود على ظاهر الحياة الدنيا وزينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى: ﴿فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم

⁽١) الأنبياء: ٧٣.

⁽٢) رواها القمي في تفسيره عن أبي الحارود عن أبي حعفر عليه السلام

يرد إلا الحياة الدنياذلك مبلغهم من العلم ١٠٠٠).

ومعنى الآية وإنما كانوا أولي الأيدي والأبصار لأنـا أخلصناهم بخصلة خـالصة غير مشوبة عظيمة الشأن هي ذكري الدار الآخرة .

وقيل: المراد بالدار هي الدنيا والمراد بالأية بقاء ذكرهم الجميل في الألسن ما دامت الدنيا كما قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ إلى أن قال ﴿وجعلنا لهم لسان ذكر عليًا ﴾ (٢) والوجه السابق أوجه .

قوله تعمالى : ﴿وَإِنْهُمَ عَنْدُنَا لَمِنَ الْمُصَطَّفِينَ الْأَخْيَارِ﴾ تقدم أن الاصطفاء يلازم الإسلام التام لله سبحانه ، وفي الآية إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾(٣) .

والأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل ، وقيـل : جمع خيّـر بالتشــديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف .

قوله تعالى : ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخمار ﴾ معناه ظاهر .

(كلام في قصة أيوب شخه في فصول)

١ - قصته في القرآن : لم يذكر من قصته في القرآن إلا ابتلاؤه بالضر في نفسه وأولاده ثم تفريجه تعالى بمعافاته وإيتائه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى للعابدين (٤)(٥) .

(٣) آل عمران : ٣٣ .

(٦) الأنعام : ٨٤ ـ ٩٠ .

⁽١) النجم: ٣٠.

⁽۲) مريم : ۵۰ .

⁽٤) الأنبياء : ٨٣ - ٨٤ .

⁽٥) ص : ٤١ - ٤٤ -

⁽٧) ص : ٤٤ ،

٣-قصته في الروايات: في تفسير القمي حدثني أبي عن ابر فضّال عن عبد الله بن بحر عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله سُلِنْ قال: سألته عن بلية أيوب التي ابتلي بها في الدنيا لأي علة كانت؟ قال: لنعمة أنعم الله عز وجل عليه بها في الدنيا وأدى شكرها وكان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش فلما صعد ورأى شكر نعمة أيوب حسده إبليس.

فقال : يا رب إن أيوب لم يؤد إليك شكر هذه النعمة إلا بما أعطيته من الدنيا ولو حرمته دنياه ما أدى إليك شكر نعمة أبداً فسلطني على دنياه حتى تعلم أنه لم يؤد إليه شكر نعمة أبداً فقيل له : قد سلطتك على ما له وولده .

قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالاً ولا ولداً إلا أعطبه فازداد أيوب لله شكراً وحمداً ، وقال: فسلطني على زرعه يا رب. قال: قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق فازداد أيوب لله شكراً وحمداً فقال: يا رب سلطني على غنمه فأهلكها فازداد أيوب لله شكراً وحمداً .

فقال: يا رب سلّطني على بدنه فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه فبقي في ذلك دهراً طويلاً يحمد الله ويشكره حتى وقع في بدنه الدود فكانت تخرج من بدنه فيردها فيقول لها: ارجعي إلى موضعك الذي خلقك الله منه، ونتن حتى أخرجه أهل القرية من القرية وألقوه في المزبلة خارج القرية.

وكانت امرأته رحمة بنت أفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وعليها تتصدق من الناس وتأتيه بما تجده .

قال : فلما طال عليه البلاء ورأى إبليس صبره أتى أصحاباً لأيوب كانوا رهباناً في الحبال وقال لهم : مرّوا بنا إلى هذا العبد المبتلى فنسأله عن بليته فركبوا بغالاً شهباً وجاءوا فلما دنوا منه نفرت بغالهم من نتن ريحه فنظر بعضهم إلى بعض ثم مشوا إليه وكان فيهم شاب حدث السن فقعدوا إليه فقالوا : يا أيوب لو أخبرتنا بذنبك لعل الله يهلكنا إذا سألناه ، وما نرى ابتلاءك بهذا البلاء المذي لم يبتل به أحد إلا من أمر كنت تستره .

فقال أيوب : وعـزة ربي إنه ليعلم أني مـا أكلت طعامـاً إلا ويتيم أوضعيف يأكــل

معي ، وما عرض لي أمران كلاهما طاعـة لله إلا أخذت بـأشدهمـا على بدني . فقـال الشاب : سوءة لكم عيرتم نبي الله حتى أظهر من عبادة ربه ما كان يسترها .

فقال أيوب: يا رب لـو جلست مجلس الحكم منـك لأدليت بحجتي فبعث الله إليه غمامة فقال: يا أيوب أدل بحجتث فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنـا ذا قريب ولم أزل.

فقال: يا رب إنك لتعلم أنه لم يعرض لي أمران قط كلاهما لك طاعة إلا أخذت بأشدهما على نفسي . ألم أحمدك ؟ ألم أشكرك ؟ ألم أسبحك ؟

قال: فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان: يا أيوب من صيرك تعبد الله والناس عنه غافلون؟ أتـمنّ على الله بما لله فيه عنه غافلون؟ أتـمنّ على الله بما لله فيه المنة عليك؟ قال: فأخمذ التراب ووضعه في فيه ثم قال: لك العتبى يا رب أنت فعلت ذلك بي .

فأنزل الله عليه ملكاً فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان وأطرأ ، وأنبت الله عليه روضة خضراء ، ورد عليـه أهله ومالـه وولده وزرعـه وقعد معه الملك يحدثه ويؤنسه .

فأقبلت امرأته معها الكسرة(١) فلما انتهت إلى الموضع إذا الموضع متغير وإذا رجلان جالسان فبكت وصاحت وقالت: يا أيوب ما دهاك؟ فناداها أيوب فأقبلت فلما رأته وقد رد الله عليه بدنه ونعمه سجدت الله شكراً. فرأى ذؤابتها مقطوعة وذلك أنه سألت قوماً أن يعطوها ما تحمله إلى أيوب من الطعام وكانت حسنة الذوائب فقالوا لها: تبيعينا ذؤابتك هذه حتى نعطيك؟ فقطعتها ودفعتها إليهم وأخذت منهم طعاماً لأيوب، فلما رآها مقطوعة الشعر غضب وحلف عليها أن يضربها مائة فأخبرته أنه كان سببه كيت وكيت. فاغتم أيوب من ذلك فأوحى الله عز وجل إليه وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث فأخذ عذقاً مشتملاً على مائة شمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه.

أقول: وروي عن ابن عباس ما يقرب منه، وعن وهب أن أمرأته كانت بنت ميشا بن يوسف، والرواية ـ كما ترى ـ تـذكر ابتـالاء، بما تتنفر عنه الـطباع وهنـاك من

⁽١) الكسرة القطعة من الخبز .

الروايات ما يؤيد ذلك لكن بعض الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ينفي ذلك وينكره أشد الإنكار كما يأتي .

وعن الخصال: القطان عن السكري عن الجوهري عن ابن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهم السلام قال: إن أيوب مؤلفظ ابتلي سبع سنين من غير ذنب وإن الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً.

وقال إن أيوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة ، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة من دم ولا قبح ، ولا استقذره أحد رآه ، ولا استوحش منه أحد شاهده ، ولا تدوّد شيء من جسده وهكذا يصنع الله عز وجل يجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه .

وإنما أجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بما له عند ربه تعالى ذكره من التأييد والفرج ، وقد قال النبي مسلمة : أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمشل فالأمثل .

وإنما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لئلا يدّعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظائم نعمه متى شاهدوه ، ولئلا وليستدلوا بذلك على أن الثواب من الله على ضربين : استحقاق واختصاص ، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيراً لفقره ولا مربضاً لمرضه ، وليعلموا أنه يسقم من يشاء ، ويشفي من يشاء متى شاء كيف شاء بأي سبب شاء ، ويجعل ذلك عبرة لمن شاء ، وشقاوة لمن شاء ، وسعادة لمن شاء ، وهو عز وجل في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلا به .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معهم﴾ الآية قال : فرد الله عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء ، ورد عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء كلهم أحياهم الله له فعاشوا معه .

وسئل أيوب بعـد ما عـافاه الله : أي شيء كــان أشد عليـك مما مـر ؟ فقال : شماتة الأعداء .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿أني مسنى الشيطان﴾ الآية قيل : إنه اشتـد

مرضه حتى تجنبه الناس فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقلروه ويخرجوه من بينهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم فكان أيوب يتأذى بذلك ويتألم به ولم يشك الألم الذي كان من أمر الله سبحانه. قال قتادة: دام ذلك سبع سنين وروي ذلك عن أبي عبد الله ملكنين.

(خبر اليسع وذي الكفل النفظ)

ذكر سبحانه اسمهما في كلامه وعدهما من الأنبياء وأثنى عليهما وعدهما من الأخيار(١) وعد ذا الكفل من الصابرين(٢) ولهما ذكر في الأخبار .

فقي البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا سُلَنَةُ فيما احتج به على جائليق النصاري أن قال سُلَنَةُ أن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى سَلَلَةُ مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص فلم يتخذه أمته رباً ، الخبر .

وعن قصص الأنبياء: الصدوق عن الدقاق عن الأسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني أسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟ .

فكتب من الله جل ذكره مائة الله نبي وأربعة وعشرين ألف نبي . مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وإن ذا الكفل منهم ،وكان بعد سليمان بن داود ، وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود ، ولم يغضب إلا لله عز وجل وكان اسمه عويديا وهو الذي ذكره الله جلت عظمته في كتابه حيث قال : ﴿واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .

أقول: وهناك روايات متفرقة أخر في قصصهما عليهما السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم الاعتماد عليها .

* * *

⁽۱) ص : ۸۸ .

⁽٢) الأنبياء . ٨٥ .

هٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبِ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنِ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابِ (٥٥) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ آلطَّرْفِ أَتْرَابُ (٢٥) هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٣٥) إِنَّ هٰذَا لَرِزْقُلَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٤٥) هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ الْحِسَابِ (٥٥) إِنَّ هٰذَا لَرِزْقُلَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٢٥) هٰذَا فَلْيَدُوقُوهُ حَمِيمُ لَشَرَّ مَآبِ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٥) هٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا آلنَّارِ (٥٥) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ فَرَحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا آلنَّارِ (٥٥) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا آلنَّارِ (٢٥) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هٰذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضَعْفًا فِي آلنَارِ (٢٦) وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُهُمْ مِنَ ضَعْفًا فِي آلنَّارِ (٢٦) وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُهُمْ مِنَ فَتَحَمُّ لَا شَرَادِ (٢٣) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٣٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقًّ تَخَاصُمُ أَهْلِ آلنَّارِ (٢٣) إِنَّ ذَلِكَ

(بیسان)

فصل آخر من الكلام يبين فيه مآل أمر المتقين والطاغين تبشيراً وإنذاراً .

قوله تعالى: ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾ الإشارة بهذا إلى ما ذكر من قصص الأوّابين من الأنبياء الكرام عليهما السلام، والمراد بالذكر الشرف والثناء الجميل أي هذا الذي ذكر شرف وذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبداً ولهم حسن مآب من ثواب الآخرة. كذا قالوا.

وعلى هذا فالمراد بالمتقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهـل التقوى وهم داخلون فيهم ويكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد .

والظاهر أن الإشارة بهذا إلى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الـذكر وفي الكلام عود إلى ما بدىء بـه في السورة من قـوله ﴿والقـرآن ذي الذكـر﴾ فهو فصـل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتقين وعقاب الطاغين .

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَلْمَتَقَيْنَ لَحَسَنَ مَآبِ﴾ المَآبِ المَرْجَعِ وَالتَّنَكِيْرِ لَلْتَفْخَيْمِ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ﴾ أي جنات استقرار وخلود وكون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شيء من النعم الموجودة فيها فهي مهيأة لهم مخلوقة لأجلهم ، وقيل : المراد أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج إلى الوقوف وراءها ودقها ، وقيل : المراد أنها تفتح بغير مفتاح وتغلق بغير مغلاق .

والآية وما بعدها بيان لحسن مآبهم .

قوله تعالى : ﴿متكنين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ أيحال كونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء والاستناد جلسة الأعزة والأشراف .

وقوله: ﴿ وَيَدَعُونَ فَيَهَا بِفَاكَهَ ﴾ النح أي يتحكمون فيها بدعوة الفَاكهة وهي كثيرة والشراب فإذا دعيت فاكهة أو دعي شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجة إلى من يحمله ويناوله .

قوله تعالى: ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب الضمير للمتقين وقاصرات الطرف صفة قائمة مقام الموصوف والتقدير وعندهم أزواج قاصرات الطرف والمراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهم ولا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج ودلال.

والأتراب الأقران أي إنهن أمثال لا يختلفن سناً أو جمالًا أو إنهن أمثال لأزواجهن فكلما زادوا نوراً وبهاء زدن حسناً وجمالًا .

قوله تعالى : ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾ الإشارة إلى ما ذكر من الجنة ونعيمها ، والخطاب للمتقين ففي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب والنكتة فيه إظهار القرب منهم والإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصورية بهذه النعمة المعنوية .

قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا لَرِزَقْنَا مَا لَهُ مَنْ تَفَادَ﴾ النفاد الفناء والانقطاع ، والآيـة من تمام الخطاب الذي في الآية السابقة على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ الإشارة بهذا إلى ما ذكر من مقام المتقين أي هذا ما للمتقين من المآب ، ويمكن أن يكون هذا اسم فعل أي خذ هذا . والباقى ظاهر .

الجزء الثالث والعشرون

قوله تعالى : ﴿جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ الصلي دخول النار ومقاساة حرارتها أو اتباعها والمهاد ـ على ما في المجمع ـ الفراش الموطأ يقال : مهدت لـه تمهيداً مشل وطأت له توطئة ، والآية وما بعدها تفسير لمآب الطاغين .

قوله تعالى : ﴿هذا فليـذوقوه حميم وغساق﴾ الحميم الحار الشديد الحرارة والغسّاق على ما في المجمع ـ قيح شديد النتن ، وفسر بتفاسير أخر ، وقوله : ﴿حميم وغساق﴾ بيان هذا ، وقوله : ﴿فليذوقوه وال على إكراههم وحملهم على ذوقه وتقديم المخبر عنه وجعله اسم إشارة يؤكد ذلك ، والمعنى هذا حميم وغساق عليهم أن يذوقوه ليس إلا .

قوله تعالى : ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ شكل الشيء ما يشابهه وجنسه والأزواج الأنواع والأقسام أي وهذا آخر من جنس الحميم والغساق أنواع مختلفة ليذوقوها .

قوله تعالى : ﴿هذا فوج مقتحم معكم ﴾ إلى قوله ﴿في النار ﴾ الأيات الثلاث ـ على ما يعطيه السياق ـ حكاية ما يجري بين التابعين والمتبوعين من الطاغين في النار من التخاصم والمجاراة .

فقوله : ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ خطاب يخاطب بـه المتبوعـون يشار بـه إلى التابعين المذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجاً ، والاقتحـام الدخـول هي الشيء بشدة وصعوبة .

وقوله: ﴿لامرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله: ﴿هذا فوج﴾ ومرحباً تحية للوارد معناه عرض رحب الدار وسعتها له فقولهم: ﴿لا مرحباً بهم﴾ معناه نفي الرحب والسعة عنهم. وقولهم: ﴿إنهم صالوا النار﴾ أي داخلوها ومقاسوا حرارتها أو متبعوها تعليل لتحيتهم بنفي التحية .

وقوله : ﴿قالوا بـل أنتم لامرحبـاً بكم أنتم قدمتمـوه لنافبئس القـر ار ﴾ نقل كـلام التابعين وهم القائلون يردون إلى متبوعيهم نفي التحية ويذمون القرار في النار .

قوله تعالى : ﴿قالوا ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار له لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم : ﴿أنتم قدمتموه لنا للخ وقد ذكره في سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله : ﴿قالوا بـل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين الخالخ الآية ٣٠ فقولهم : ﴿ربنامن قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمة .

وجملة ﴿من قدم﴾ النح شرط وجزاء ، والضعف المثل و﴿عذاباً ضعفاً﴾ أي ذا ضعفومثل أي ضعفين من العذاب .

قوله تعالى : ﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا تعدهم من الأشرار﴾ القائلون ـ على ما يعطيه السياق ـ مطلق أهل النار ، ومرادهم بمالرجال الذين كانوا يعدونهم من الأشرار المؤمنون وهم في الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها .

قوله تعالى : ﴿ أَتَخَذَنَاهُم سَخَرِياً أَمْ رَاغَتَ عَنَهُمَ الأَبْصَارِ ﴾ أي أتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا وقد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم وهم معنا في النار .

قوله تعالى : ﴿إِن ذَلَكَ لَحَق تَخَاصُمُ أَهُلَ النَّارَ﴾ إشَّارة إلَى ما حكي من تخاصمهم وبيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه وهـو ظهور ما استقر في نفوسهم في الدنيا من ملكة التنازع والتشاجر .

* * *

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرُ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا آللَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦٥) رَبُّ السَّمْوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٢٦) قُلْ هُو نَبُوًا عَظِيمٌ (٢٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (١٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْم بِالْمَلاَّ عَظِيمٌ (٢٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (١٨) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينُ (٧٧) الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (١٩٥) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينُ (٧٧) إِذْ قَالَ رَبُكَ لِلْمُلْئِكَةِ إِنِي خَالِقٌ بَشُواً مِنْ طِينٍ (١٧) فَاإِنَّ مَنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٧) فَسَجَدَ الْمُلْئِكَةُ كُلُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٧) فَسَجَدَ الْمُلْئِكَةُ كُلُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٧) فَسَجَدَ الْمُلْئِكَةُ كُلُهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٧) إِلَّا إِبْلِيسَ آسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩٤) قَالَ يَا أَبْعَمُونَ (٢٧) قَالَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيسَدِيًّ أَسْتَكْبَرُتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٢٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرُ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٢٧) الْعَالِينَ (٢٥٥) قَالَ أَنَا خَيْرُ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٢٧) قَالَ فَاخْرُجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْتِنِي إِلَىٰ يَوْمِ أَنْعَلَى اللَّهُ الْوَلِي يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٢٩٥) قَالَ فَإِنَّ كَالًى مَنَ الْكَافِرِينِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (٢٩٥) قَالَ فَإِنَّ كَالَى مَنَ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ يَوْمٍ أَنْ يَعْرَونَ (٢٩٥) قَالَ فَإِنْ الْكَافِرِينَ إِلَىٰ يَوْمٍ أَيْعَلُونَ (٢٩٥) قَالَ فَإِنْ عَلَى كَالًى مَنْ مِنَ لَا إِلَى يَوْمٍ مِنْ الْكَالَةُ مِنْ الْكَارِثُونَ (٢٩٥) قَالَ فَإِنْ عَلَى مَنْ مِنَ الْكَافِرِينَ إِلَى يَوْمٍ مِنْ مُؤْلُونَ (٢٩٥) قَالَ فَإِنْ مَالِمُ مَنْ مَلْفُونَ وَالْمَالُونَ مِنْ مِنْ لَالْمُونَ وَالْمَالُونَ وَلَا مَا مُنْ مُؤْلُونَ وَالْمَالُونَ وَالْمَالِكُونَ وَالَا مَالِونَ مَا مُؤْلُونَ وَالْمُؤْلُونُ وَلِمُ الْمُؤْلُونَ وَلِي مَا مُؤْلُونَ وَالْمُولُونَ وَلَا مَا مُؤْلُونَ وَلَا مَا مُؤْلُونَ وَلَا مَا مُؤْلُونُ وَلَا مَالُهُ مُلْقُولُ لَا مُولِلُونَ

الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَلُوكُ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٤) قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَانَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَآ أَشُولُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُو إِلَّا ذِكْرُ لِلْمَتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُو إِلَّا ذِكْرُ لِللهَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٥) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِ (٨٨).

(بیان)

الفصل الأخير من قصول السورة المشتمل على أمر النبي مسلمة بإبلاغ نـذارته ودعوته إلى التوحيد . وأن الإعـراض عن الحق واتباع الشيطان ينتهي بالإنسـان إلى عذاب النار المقضي في حقه وحق أتباعه وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : ﴿قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله المواحدالمقهّار ﴾ إلى قوله ﴿الْعَزِيرُ الْعُفَار ﴾ في الآيتين أمر النبي سِنْنَ بِالله الله منذر وأن الله تعالى واحد في الألوهية فقوله : ﴿إنما أنا منذر ﴾ يفيد قصره في كونه منذراً ونفي سائر الأغراض التي ربما تتلبس به الدعوة بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير إليه ما في آخر الآيات من قوله : ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ .

وقوله : ﴿وما من إله إلا الله﴾ إلى آخر الأيتين إبلاغ لتـوحيده تعـالى بحجة يدل عليها ما اورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه .

فقوله: ﴿وَمَا مِنَ إِلَّهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ نفي لكل إله ـ والإله هو المعبود بالحق ـ غيره تعالى وأما ثبوت ألوهيته تعالى فهو مسلم بانتفاء ألوهية غيره إذ لا نزاع بين الإسلام والشرك في أصل ثبوت الإله وإنما النزاع في أن الإله وهو المعبود بالحق هو الله تعالى أو غيره . على أن ما ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات ألوهيته كما أنها حجة على انتفاء ألوهية غيره تعالى .

وقوله: ﴿ السواحد القهار﴾ يدل على تسوحده تعمالى في وجوده وقهره كل شيء وذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تنماهي كمالـه الذي همو عين وجوده الواجب فهو الغني بذاته وعلى الإطملاق وغيره من شيء فقيـر يحتاج إليـه من كل جهـة ليس له من الوجود وآثار الوجود إلا ما أنعم وأفاض فهو سبحانه القاهـر لكل شيء على ما يريد وكل شيء على ما يريد وكل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فما شاء .

وهذا الخضوع الذاتي هو حقيقة العبادة فلو جاز أن يُعبد شيء في الـوجود عمـلاً بأن يؤتى بعمل يمثل به العبودية والخضـوع فهي عبادتـه سبحانـه إذ كل شيء مفـروض دونه فهو مقهور خاضـع له لا يملك لنفسـه ولا لغيره شيء ولا يستقـل من الوجـود وآثار الوجود بشيء فهو سبحانه الإله المعبود بالحق لا غير.

وقوله: ﴿ رَبِ السماوات والأرض ومابينهما ﴾ يفيد حجة اخرى على توحده تعالى في الألوهية وذلك أن نظام التدبير الجاري في العالم برمته نظام واحد متصل غير متبعض ولا متجز وهو آية وحدة المدبر، وقد تقدم كراراً أن الخلق والتدبير لا ينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه، والخالق الموجد للسماوات والأرض وما بينهما هو الله سبحانه - حتى عند الخصم - فهو تعالى ربها المدبر لها جميعاً فهو وحده الإله الذي يجب أن يقصد بالعبادة لأن العبادة تمثيل عبودية العابد ومملوكيته تجاه مولوية المعبود ومالكيته وتصرفه في المعبود بإفاضة النعمة ودفع النقمة فهو سبحانه الإله فيره . فافهم ذلك .

ويمكن أن يكون قوله : ﴿ رَبِ السماوات والأرض وما بينهما ﴾ بياناً لقوله ﴿ القهار ﴾ أو ﴿ الواحد القهار ﴾ .

وقوله: ﴿ العزيز الغفار﴾ يفيد حجة أخرى على توحده تعالى في الألوهية وذلك أنه تعالى عزيز لا يغلبه شيء بإكراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق وغيره من شيء ذليل عنده قانت له والعبادة إظهار للمذلة ولا يستقيم إلا قبال العزة ولا عزة لغيره تعالى إلا به .

وأيضاً غاية العبادة وهي تمثيل العبودية التقرب إلى المعبود ورفع وصمة البعد عن العبد العابد وهو مغفرة الذنب والله سبحانه هو المستقل بالرحمة التي لا تنفد خزائنها وهو الذي يورد عباده العابدين له في الأخرة دار كرامته فهو الغفار الذي يجب أن يعبد طمعاً في مغفرته.

ويمكن أن يكون قوله : ﴿العزيز الغفار﴾ تلويحاً إلى وجه الدعوة إلى التـوحيد أو وجـوب الإيمان بـه المفهوم بحسب المقـام من قـولـه : ﴿وَمَا مِنْ إِلَـه إِلَّا الله الـواحـد

القهار﴾ والمعنى أدعوكم إلى توحيده فآمنوا بـه لأنه العـزيز الـذي لا يشوبـه ذلة الغفـار للذنوب وهكذا يجب أن يكون الإله .

قوله تعالى : ﴿قُلَ هُو نَباً عَظَيمَ أَنْتُمَ عَنْهُ مَعْرَضُونَ﴾ مرجع الضميس ما ذكره من حديث الوحدانية في قوله : ﴿وَمَا مِنَ إِلَّهَ إِلَّا الله ﴾ الخ .

وقيل: الضمير للقرآن فهو النبأ العظيم اللذي أعرضوا عنه ، وهو أوفق لسياق الأيات السابقة المرتبطة بأمر القرآن ، وأوفق لقوله الأتي : ﴿ مَا كَانَ لَي مَنْ عَلَم بِالْمَلاَ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصُمُونَ ﴾ أي حتى أخبرني به القرآن ، وقيل : المراد به يوم القيامة وهو أبعد الوجوه .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لَي مَنْ عَلَمَ بِالْمَلَا الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ المَلَا الأَعْلَى جماعة المَلائكة وكأن المراد باختصامهم ما أشار تعالى إليه بقوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكُ لَلْمَلائكة إِنَّي جَاعَلَ فِي الأَرْضَ خَلَيْفَة ﴾ إلى آخر الآيات .

وكـأن المعنى إني ما كنت أعلم اختصام الملأ الأعلى حتى أوحى الله إليّ ذلك في كتابه فإنما أنا منذر أتبع الوحي .

قوله تعالى : ﴿إِن يُوحَى إلَي إلا أَنَمَا أَنَا نَذَيْرَ مَبِينَ ﴾ تأكيد لقوله : ﴿إِنْمَا أَنَا مُنْذَرَ ﴾ وبمنزلة التعليل لقوله : ﴿مَا كَانَ لِي مَنْ عَلَمَ بِالْمَلاُ الْأَعْلَى ﴾ والمعنى لم أكن أعلم ذلك لأن علمي ليس من قبل نفسي وإنما هو بالسوحي وليس يـوحى إلي إلا ما يتعلق بالإنذار .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبِكُ لَلْمَلَائِكَةَ إِنِي خَالَقَ بِشُوراً مِن طَيِنَ الذي يَعَظِيهُ السِياقَ أَن الآية وما بعدها ليست تتمة لقول النبي مسلوبي : ﴿إِنْمَا أَنَا مَنْدُر ﴾ النخ والشاهد عليه قوله : ﴿وربك ﴾ فهو من كلامه تعالى يشير إلى زمان اختصام الملأ الأعلى والنظرف متعلق بما تعلق به قوله : ﴿إِذْ يَخْتُصُمُونَ ﴾ أو متعلق بمحذوف والتقدير «اذكر إذ قال ربك للملائكة» النخ فإن قوله تعالى للملائكة : ﴿إِنّي جَاعِلُ فَي الأَرض خليفة ﴾ وقوله لهم : ﴿إِنّي خالق بشراً من طين ﴾ متقارنان وقعا في ظرف واحد .

وعلى هذا يؤل معنى قوله : ﴿إِذْ قَالَ رَبِكُ ﴾ النَّحَ اللَّم نحـو من قولنا : اذكر وقتتُذْ قَالَ رَبِكُ كَذَا وَكَذَا فَهُو وقت اختصامهم .

وجعل بعضهم قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبِكُ ﴾ النّج مفسراً لقوله: ﴿إِذْ يَخْتَصُمُونَ ﴾ ثم أَخَذُ الاختصام بعد تفسيره بالتقاول مجمّع قول تعالى للملائكة ﴿إِنّي جَاعَلُ فِي الأَرْضُ خَلَيْفَة ﴾ وقولهم : ﴿أَتَجْعَلُ ﴾ النّج ، وقوله لأدم وقول آدم لهم ، وقوله تعالى لهم : ﴿إِنّي خَالَقُ بِشُراً ﴾ وقول إبليس وقوله تعالى له .

وقال على تقدير كون الاختصام بمعنى المخاصمة ودلالة قومه: ﴿إِذْ يَخْتُصُمُونَ ﴾ على كون المخاصمة بين الملائكة أنفسهم لا بينهم وبين الله سبحانه إن إخباره تعالى لهم بقوله: ﴿إِنّي جَاعَلُ فِي الأَرْضُ خَلَيْفَة ﴾ ﴿إِنّي خَالَقُ بِشُراً ﴾ كان بتوسط ملك من الملائكة وكذا قوله لآدم ولإبليس فيكون قولهم لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسِدُ فِيهَا ﴾ النخ وغيره قولاً منهم للملك المتوسط و يقمع الاختصام فيما بينهم أنفسهم.

وأنت خبير بأن شيئاً مما ذكره لا يستفاد من سياق الآيات .

وقوله: ﴿ إِنِّي خَالَقَ بِشُواً مِن طَيْنَ ﴾ البشر الإنسان ، قَالَ الراغب: البشر ظاهر الجلد والأدمة باطنه . كذا قال عامة الأدباء ، قَالَ : وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر ، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثني فقال تعالى : ﴿ أَنوْمَن لَبشرين ﴾ وخص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر . انتهى .

وقد عد في الآية مبدأ خلق الإنسان الطين ، وفي سورة الروم التراب وفي سورة الحجر صلصال كالفخار ولا سورة الحجر صلصال كالفخار ولا ضير فإنها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي منها خلق وقد أشير في كل موضع إلى واحدة منها .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سُويتُهُ وَنَفْحُتُ فَيْهُ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ تسوية الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض وتتميمها صورة إنسان تام ، ونفخ الروح فيه جعله ذا نفس حية إنسانية وإضافة الروح إليه تعالى تشريفية وقوله : ﴿فَقَعُوا ﴾ أمر مِن الوقوع وهو متفوع على التسوية والنفخ .

قوله تعالى : ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء .

قوله تعالى : ﴿ إِلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ أي استكبر إبليس فلم يسجد له وكان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله : ﴿ لَمْ أَكُنْ لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حماً مسنون ﴾ (١) .

قوله تعالى: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين في نسبة خلقه إلى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال: ﴿ونفخت فيه من روحي ﴾ وتثنية اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه وصنعه فإن الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله: ﴿خلقت بيدي ﴾ كقوله: ﴿مما علمت أيدينا ﴾ (٢).

وقيل : المراد باليد القدرة والتثنية لمجرد التأكيد كقوله : ﴿فَارَجُعُ البَصْرِ كُرتين﴾(٣) وقد وردت به الرواية .

وقيل: المراد باليدين نعم الدنيا والأخرة ، ويمكن أن يحتمل إرادة مبدئي الجسم والروح أو الصورة والمعنى أو صفتي الجلال والجمال من اليدين لكنها معان لا دليل على شيء منها من اللفظ.

وقوله: ﴿استكبرت أم كنت من العالين﴾ استفهام توبيخ أي أكان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلون أي يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود، ولذا قال بعضهم بالاستفادة من الآية إن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون في التوجه إلى ربهم لا يشعرون بغيره تعالى .

وقيل: المراد بالعلو الاستكبار كما في قوله تعالى: ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ (٤) والمعنى استكبرت حين أمرت بالسجدة أم كنت من قبل من المستكبرين ؟ .

ويـدفعه أنـه لا يلاثم مقتضى المقـام فإن مقتضـاه تعلق الغرض بـاستعلام أصــل استكباره لا تعيين كون استكباره قديماً أو حديثاً .

وقيل : المراد بالعالين ملائكة السماء فإن المأمورين بالسجود هم ملائكة الأرض . ويدفعه ما في الآية من العموم .

(۱) الحجر · ۳۳ (۳) الملك : ۳

(٢) يس : ٧١ . (٤) يونس : ٨٣ .

قوله تعالى: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافة ذاته وأنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين، وفيه تلويح أن الأمر الإلهي إنمايطاع إذا كانحقاً لا لذاته، وليس أمره بالسجودله حقاً، ويؤل إلى إنكار إطلاق ملكه تعالى وحكمته وهو الأصل الذي ينتهي إليه كل معصية فإن المعصية إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى وهملوكيته وبالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها واقترافها.

قوله تعالى : ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يـوم الدين﴾ الرجم الطرد ، ويوم الدين يوم الجزاء .

وقوله : ﴿وَإِنْ عَلَيْكُ لَعَنْتِي﴾ وفي سورة الحجر : ﴿وَإِنْ عَلَيْكُ اللَّعَنَةِ﴾ الآية ٣٥ قيـل في وجهه : لـو كانت الـلام للعهد فـلا فـرق بين التعبيرين ، ولـو كانت للجنس فكذلك أيضاً لأن لعن غيره تعالى من الملائكة والناس عليه إنما يكون طرداً لـه حقيقة وإبعاداً من الرحمة إذا كان بأمر الله وبإبعاده من رحمته .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِ فَانَظُرْنِي إِلَى يَوْمُ يَبِعِثُونَ ﴾ إِلَى قُولُه ﴿إِلَى يَوْمُ الْوقَتُ الْمُعْلُومُ ﴾ فاجيب المعلوم ﴾ فاهر تغير الغاية في السؤال والجواب حيث قال : ﴿إِلَى يَوْمُ يَبِعِثُونَ ﴾ فاجيب بقوله : ﴿إِلَى يَوْمُ الْوقَتُ المعلوم ﴾ أن ما أجيب إليه غير ما سأله فهو لا محالية آخريوم يعصي فيه الناس ربهم وهو قبل يوم البعث ، والظاهر أن المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته إلى الوقت التأكيد .

قوله تعالى : ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ الباء في ﴿فبعـزتـك﴾ للقسم أقسم بعـزتـه ليغـوينهم أجمعين واستثنى منهم المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لإبليس ولا لغيره .

قوله تعالى : ﴿قَالَ فَالْحَقَ وَالْحَقَ أَقُولَ لَامْلَأَنْ جَهُمْ مَنْكُ وَمَمَنَ تَبَعْثُ مُنْهُمُ أَجْمَعِينَ ﴾ جوابه تعالى لإبليس وهو يتضمن القضاء عليه وعلى من تبعه بالنار .

فقوله: ﴿ فَالْحَقِ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ، والفاء لترتيب ما بعده على ما قبله ، والمراد بالحق ما يقابل الساطل على ما يؤيده إعادة الحق ثانياً باللام والمراد به ما يقابل الباطل قطعاً والتقدير فالحق أقسم به لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم ، أو فقولي الحق لأملأن الخ .

وقوله: ﴿والحق أقول﴾ جملة معترضة تشير إلى حتمية القضاء وتـرد على إبليس ما يلوح إليه قوله: ﴿أنـا خير منـه﴾ الخ من كـون قولـه تعالى وهـو أمره بـالسجود غيـر حق ، وتقديم الحق في ﴿والحق أقول﴾ وتحليته باللام لإفادة الحصر .

وقوله: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعث منهم أجمعين متن القضاء الذي قضى به وكأن المراد بقوله: ﴿منك منك جنس الشياطين حتى يشمل إبليس وذريته وقبيله ، وقوله: ﴿وممن تبعك منهم أي من الناس ذرية آدم .

وقد أشبعنا الكلام في نظائر الآيات من سورة الحجر وفي القصة من سور البقرة والأعراف والإسراء فعليك بالرجوع إليها .

قوله تعالى : ﴿قُلَ مَا أَسَالُكُمَ عَلَيْهُ مِنْ أَجِرَ وَمَا أَنَا مِنْ الْمَتَكُلَفَيْنَ﴾ رجوع إلى ما تقدم في أول السورة وخلال آياتها أن القرآن ذكر وأن ليس النبي سَلَمَكُم إلا منذراً لا غير ورد لما رموه بقولهم ﴿امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد﴾ .

فقوله: ﴿ مَا أَسَالُكُم عَلَيْهُ مِنَ أَجِرَ ﴾ أي أجراً دنيوياً من مال أو جاه ، وقوله: ﴿ وَمِا أَنَا مِنَ الْمَتَكُلُفُينَ ﴾ أي من أهل التكلف وهو التصنع والتحلي بما ليس له .

قوله تعالى : ﴿إِنْ هُو إِلاَ ذَكُمْ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي القرآن ذكر عام للعالمين من جماعات النباس ومختلف الشعوب والأمم وغيرهم لا يختص بقوم دون قوم حتى يؤخذ على تلاوته مال وعلى تعليمه أجر بل هو للجميع .

قوله تعالى : ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ أي لتعلمن ما أخبر به القرآن من الوعد والوعيد وظهوره على الأديان وغير ذلك بعد حين أي بعد مرور زمان .

قيل: المرادبعد حين يوم القيامة، وقيل: يوم الموت، وقيل: يوم بدر، ولا يبعد أن يُقال: إن نبأه مختلف لا يختص بيـوم من هذه الأيـام حتى يكون هـو المراد بـل المراد به المطلق فلكل من أقسام نبائه حينه.

(بحث روائي)

في تفسير القمي بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر سينت في حديث يذكر فيه المعراج ، عن النبي مسنت : قال تعالى : يا محمد . قلت : لبيك يا رب . قال : فيما اختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : سبحانك لا علم لي إلا ما

علمتني . قـال : فوضع يده أي يـد القدرة بين ثـديي فوجـدت بردهـا بين كتفي . قال : فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي إلا علمته . فقال : يـا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : في الكفارات والدرجات والحسنات الحديث .

في المجمع روى ابن عباس عن النبي مسلم قال: قال لي ربي: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت: لا . قال: اختصموا في الكفارات والدرجات فأما الكفارات فإسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام إلى الجماعات وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وأما الدرجات فإفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام .

أقول: ورواه في الخصال عن النبي مسنية فجعل ما فسر به الكفارات تفسيراً للدرجات وبالعكس، وروى في الدر المنثور حديث المجمع بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبي مسنية على اختلاف ما في الروايات.

وكيفما كان فسياق الآية يأبى الانطباق على مضمون هـذه الروايـات ولا دليل يدل على كون الـروايات في مقـام تفسير الآيـة فلعل الاختصام المذكـور فيهـا غيـر المذكور في الآية .

وفي نهج البلاغة الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما حمى وحرماً على غيره ، واصطفاهمالجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده ، ثم أختبر بذلك ملائكته المقربين ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه وهو العالم بمضمرات القلوب ومحجوبات الغيوب : إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه وتعصب عليه لأصله .

فعدو الله إمام المتعصبين وسلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبية ، ونازع الله رداء الجبرية ، وادرع لباس التعزز ، وخلع قناع التذلل ألا ترون كيف صغره الله بتكبره ، ووضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحوراً ، وأعد له في الأخرة سعيراً . الخطبة .

وفي العيون يإسناده إلى محمد بن عبيدة قال : سألت الرضا سُنْعَثِهُ عن قول الله

تعالى لإبليس : ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ قبال : يعني بقدرتي وقوتي .

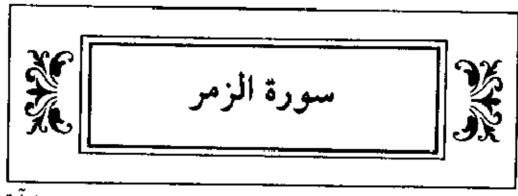
أقول: وروى مثله في التوحيد بإسناده عن محمد بن مسلم عن الصادق مشخف.

وفي القصة روايات أخر أوردناها في ذيلها من سورة البقرة والأعـراف والحجر والإسراء فراجع .

وعن جوامع الجامع عن النبي مشكلة : للمتكلف ثـلاث علامـات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى مالا ينال ، ويقول مالا يعلم .

أقول: وروى مثله في الخصال عن الصادق وللنظ عن لقمان في وصيت لابنه ، وروي أيضاً من طرق أهل السنة ، وفي بعض الروايات : ينازل من فوقه .

* * *



مُكية ، وهي خمس وسبعون آية

بِسْم ِ ٱللَّهِ ٱلرَّحَمٰنِ الرَّحِيم ِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ آللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ آلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ آلدِّينُ الْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَىٰ آللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ آللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ آللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَـوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَـداً لَاصْطَفَىٰ، مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ آللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ آلسَّمُوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ يُكَوّرُ الْلَّيْلَ عَلَى آلنَّهَارِ وَيُكَوّرُ آلنَّهَارَ عَلَى الْلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلِّ يَجْرِي لَإِجَلِ مُسَمَّى أَلَا هُوَ الْعَزينُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةً أَزْوَاجِ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلْثٍ ذُلِكُمُ آللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ

وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أَخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصَّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرَّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُواۤ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ كَانَ يَدْعُواۤ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتُ آنَاءَ الْلَيْلِ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتُ آنَاءَ الْلَيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي اللَّذِينَ الْمَابِورِي اللَّذِينَ الْمَابِورِي اللَّذِينَ أَصْمَانُوا فِي هٰذِهِ اللَّالِينَ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ اللَّذِينَ آمَنُوا آتَقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ اللَّالْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ اللَّذِينَ آمَنُوا آلَةُ أَولُوا الْآلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ اللَّذِينَ آمَنُوا آتَقُوا رَبَّكُمْ لِلَذِينَ أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ آلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ آللَٰهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوفَى آلطَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابِ (١٠) .

(بیان)

يظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ملت سألوه أن ينصرف عما هو عليه من التوحيد والدعوة إليه والتعرض لألهتهم وخوفوه بآلهتهم فنزلت السورة - وهي قرينة سورة ص بوجه - وهي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه نه سبحانه ولا يعبأ بآلهتهم وأن يعلمهم أنه مأمور بالتوحيد وإخلاص الدين الذي تواترت الآيات من طريق الوحي والعقل جميعاً عليه .

ولذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السورة مرة بعد مرة كقوله في مفتتح السورة: ﴿فَاعِبدُ الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص﴾ ثم يرجع إليه ويقول: ﴿قُلُ إِنِي أَمُرتُ أَنْ أَعَبدُ الله مخلصاً له الدين﴾ _ إلى قوله _ ﴿قُلُ الله أَعَبدُ الله مخلصاً له الدين﴾ _ إلى قوله _ ﴿قُلُ الله أَعَبدُ مخلصاً له ديني فاعبدُوا ما شئتم من دونه ﴾ .

ثم يقول: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ النخ ثم يقول: ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دون﴾ ثم يقول: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ ثم يقول: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ إلى غير ذلك من الإشارات. ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية والالوهية من الوحي ومن طريق البرهان وقايس بين المؤمنين والمشركين مقايسات لطيفة فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم وبشرهم بما سيثيبهم في الآخرة مرة بعد مرة وذكر المشركين وأنذرهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الأخرة مضافاً إلى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الذين كذبوا من الأمم الدارجة من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أكبر.

ومن ثم وصفت السورة يوم البعث وخاصة في مختتمها بأوضح الوصف وأتمه .

والسورة مكية لشهادة سياق آياتها بـذلك وكـأنها دفعـة واحدة لمـا بين آياتهـا من الاتصال .

والأيات العشر المنقولة تجمع الدعوة من طريق الموحي والحجة العقلية بادئة بالنبي منذه .

قوله تعالى : ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ ﴿تنزيل الكتاب﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى موصوفها و ﴿من الله﴾ متعلق بتنزيل والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم .

وقيل : ﴿تنزيل الكتاب﴾ مبتدأ و ﴿من الله ﴾ خبره ولعل الأول أقـرب إلى الذهن .

قوله تعالى : ﴿إِنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكَتَابِ بِالْحَقِّ فَاعَبِدُ اللهِ مَخْلَصاً لَهُ الْدِينَ ﴾ عبر بالإنزال دون التنزيل كما في الآية السابقة لأن القصد إلى بيان كونه بـالحق وهو يناسب مجموع ما نزل إليه من ربه .

وقوله: ﴿ بِالحق ﴾ الباء فيه للملابسة أي أنزلناه إليك متلبساً بالحق فما فيه من الأمر بعبادة الله وحده حق ، وعلى هذا المعنى فرّع عليه قوله: ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ والمعنى فإذا كان بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين لأن فيه ذلك .

والمراد بالمدين ـ على ما يعطيه السياق ـ العبادة ويمكن أن يمراد به سنة الحياة وهي الطريقة المسلوكة في الحياة في المجتمع الإنساني ، ويراد بالعبادة تمثيل العبودية

بسلوك الـطريق التي شرعهـا الله سبحانـه والمعنى فأظهـر العبوديـة لله في جميع شؤون حياتك باتباع ما شرعه لك فيها والحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الدين الخالص ﴾ إظهار وإعلان لما أضمر وأجمل في قوله : ﴿ وَالحق ﴾ وتعميم لما خصص في قوله : ﴿ وَاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي إن الذي أوحيناه إليك من إخلاص الدين لله واجب على كل من سمع هذا النداء ، ولكون الجملة نداء مستقلاً أظهر اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يضمر ويقال : له الدين الخالص .

ومعنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العبادة ممن لا يعبده وحده سواء عبــده وغيره أو عبد غيره وحده .

قوله تعالى: ﴿والدِّين اتخذوا من دونه أولياء ما تعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ إلى آخر الآية تقدم أن الوثنية يرون أن الله سبحانه أجلّ من أن يحيط به الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس فيتنزه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادي منا.

فمن الواجب أن نتقرب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه وهم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم فنتخذهم أرباباً من دون الله ثم آلهة تعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقربونا إليه زلفى وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسوا الشر وهؤلاء هم الأرباب والألهة بالحقيقة .

أما الأصنام المصنوعة المنصوبة في الهياكل والمعابد فإنما هي تماثيل للأرباب والألهة وليست في نفسها أرباباً ولا آلهة غير أن الجهلة من عامتهم ربما لم يفرقوا بين الأصنام وأرباب الأصنام فعدوا الأصنام كما يعبد الأرباب والآلهة وكذلك كانت عرب الجاهلية وكذلك الجهلة من عامة الصابئين ربما لم يفرقوا بين أصنام الكواكب والكواكب التي هي أيضاً أصنام لأرواحها الموكلة عليها وبين أرواحها التي هي الأرباب والألهة بالحقيقة عند خاصتهم .

وكيف كان فالأرباب والآلهة هم المعبودون عندهم وهم موجودات ممكنة مخلوقة لله مقربة عنده مفوضة إليهم تدبير أمر العالم لكل بحسب منزلته وأما الله سبحانه فليس له إلا الخلق والإيجاد وهو رب الأرباب وإله الآلهة .

إذا تذكرت ما مر ظهر أن المراد بقوله : ﴿واللَّذِينَ اتَحَدُوا مِن دُونِهِ أُولِياءُ ﴾

اتخاذهم أرباباً يدبرون الأمر بان يسندوا الربوبية وأمر التدبير إليهم لا إلى الله فهم المدبرون للأمر عندهم ويتفرع عليه أن يخضع لهم ويعبدوا لأن العبادة لجلب النفع أو لدفع الضرر أو شكر النعم وكل ذلك إليهم لتصديهم أمر التدبير دون الله سبحانه .

فالمراد باتخاذهم أولياء اتخاذهم أرباباً (١) ، ولذا عقب اتخاذ الأولياء بذكر العبادة فرما نعبدهم إلا ليقربونا فقوله : ﴿ وَالذّينَ اتخذوا من دونه أولياء مبتدأ خبره ﴿ إِنَ الله يحكم ﴾ الخ والمراد بهم المشركون القائلون بربوبية الشركاء والوهيتهم دون الله إلا ما ذهب إليه جهلتهم من كونه تعالى شريكاً لهم في المعبودية .

وقوله: ﴿ وَمَا نَعِيدُهُم إِلاَ لِيَقْرِبُونَا إِلَى الله زَلْقَى ﴾ تفسير لمعنى اتخاذ الأولياء من دون الله وهو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أي يقولون: ما نعبدهم هؤلاء إلا لقربونا بسبب عبادتنا لهم إلى الله تقريباً فهم عادلون منه تعالى إلى غيره، وإنما سموا مشركين لأنهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون مكونهم أرباباً وآلهة للعالم وكونه تعالى ربأ وإلها لأولئك الأرباب والآلهة ، وأما الشركة في الخلق والإيجاد فلم يقبل به لا مشرك ولا موحد .

وقوله: ﴿إِنَّالله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾ قيل: ضمير الجمع للمشركين وأوليائهم أي إن الله يحكم بين المشركين وبين أوليائهم فيما هم فيه يختلفون ، وقيل: الضميران راجعان إلى المشركين وخصمائهم من أهل الإخلاص في الدين المفهوم من السياق ، والمعنى أن الله يحكم بينهم وبين المخلصين للدين .

وقوله: ﴿إِنَّالله لا يهدي من هوكاذب كفار ﴾ الكفار كثير الكفران لنعم الله أو كثير الستر للحق، وفي الجملة إشعار بسل دلالة على أن الحكم يوم القيامة على المشركين لا لهم وأنهم مسيرون إلى العذاب، والمراد بالهداية الإيصال إلى حسن العاقية.

قوله تعالى : ﴿ لُو أَرَادُ اللهُ أَنْ يَتَخَذُ وَلَدَا لَاصطفى مَمَايِخُلُقَ مَا يَشَاءُ سَبِحَانُهُ هُو الله الواحد القهار ﴾ احتجاج على نفي قبولهم : إن الله اتخذ ولـداً ، وقبول يعضهم : الملائكة بنات الله . والقول بالولـد دائر بين عامة الوثنية على احتلاف مذاهبهم وقد

⁽۱) فالولاعة والربوبية قريبتا المعنى فبالرب هنو الماليك المدين والمولى هنو ماليك التدبين أو متصدى التدبير .

قالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت اليهود على ما حكماه القرآن عنهم : عزير ابن الله وكأنها بنوة تشريفية .

والبنوة كيفما كانت تفتضي شركة ما بين الابن والأب والولد والوالد فإن كانت بنوة حقيقية وهي اشتقاق شيء من شيء وانفصاله منه اقتضت المشركة في حقيقة الذات والخواص والأثار المنبعثة من الذات كبنوة إنسان لإنسان المقتضية لشركة الابن لأبيه في الإنسانية ولوازمها ، وإن كانت بنوة اعتبارية كالبنوة الاجتماعية وهو التبني اقتضت الاشتراك في الشؤونات الخاصة بالأب كالسؤدد والملك والشرف والتقدم والوراثة وبعض أحكام النسب ، والحجة المسوقة في الأية تدل على استحالة اتخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين .

فقوله: ﴿ لَوْ أَرَادُ اللهُ أَنْ يَتَخَذُ وَلَـداً ﴾ شرط صدر بلو الـدال على الامتناع للامتناع، وقوله: ﴿ لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ أي لاختار لذلك مما يخلق ما يتعلق به مشيئته على ما يفيده السياق وكونه مما يخلق لكون ما عداه سبحانه خلقاً له.

وقوله: ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لـه سبحانه ، وقوله: ﴿ هو الله الـواحد القهار ﴾ بيان لاستحالة الشرط وهو إرادة اتخاذ الولد ليترتب عليه استحالة الجزاء وهو اصطفاء ما يشاء مما يخلق وذلك لأنه سبحانه واحد في ذاته المتعالية لا يشاركه فيها شيء ولا يماثله فيها أحد لأدلة التوحيد ، وواحد في صفاته الـذاتية التي هي عين ذاته كالحياة والعلم والقدرة ، وواحد في شؤونه التي هي من لوازم ذاته كالخلق والملك والعزة والكبرياء لا يشاركه فيها أحد .

وهو سبحانه قهار يقهر كل شيء بذاته وصفاته فلا يستقل قبال ذاته ووجـوده شيء في ذاتـه ووجوده ولا يستغني عنـه شيء في صفاتـه وآثار وجـوده فالكـل أذلاء داخـرون بالنسبة إليه مملوكون له فقراء إليه .

فمحصل حجة الآية قياس استثنائي ساذج يستثنى فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالي وهو نحو من قولنا: لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتخاذ الولد ممتنعة لكونه واحداً قهاراً فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع.

وقد أغرب بعضهم في تقريب حجة الآية فقال : حاصل المعنى لـو أراد سبحانـه

اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض .

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ ثم حذف هذا الجواب وجيء بدله لاصطفى تنبيها على أن الممكن هذا لا الأول وأنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز اتخاذ الولد عليه سبحاته وتعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة . انتهى .

وكأنه مأخوذ من قول الزمخشري في الكشاف في تفسير الآية حيث قال : يعني لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال : لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة لكنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالين في الكفر . انتهى .

وأنت خبير أن سياق الآية لا يلائم هـذا البيان . على أنه لا يدفع قول القـائل بالتبني التشريفي كقـول اليهود عـزير ابن الله فـإنهم لا يريـدون بالتبني إلا اصـطفاء من يشاء من خلقه .

وهناك بعض تقريبات اخر منهم لا جدوى فيه تركنا إيراده .

قوله تعالى: ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ لا يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة إلى الخلق والتدبير بياناً لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين وارتباطهما مضموناً وانتهاء الثانية إلى قوله: ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ الخ كالصريح في أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية.

فالآية والتي تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية وقد جمع فيهما بين الخلق والتدبير لما مر مراراً أن إثبات وحدة الخالق لا يستلزم عند السوثني نفي تعدد الأربـاب والآلهة لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق والإيجاد فيه تعالى لكنه سبحانه فيمـا يحتج على تـوحده في الربوبية والألوهية في كلامه يجمع بين الخلق والتدبير إشارة إلى أن التدبير غير خمارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبيسر بوجه وعند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير إليه تعالى وانحصاره فيه برجوع الخلق إليه .

وقوله: ﴿خلق السماوات والأرض بالحق﴾ إشارة إلى الخلقة ، وفي قوله : ﴿بالحق﴾ _ والباء للملابسة _ إشارة إلى البعث فإن كون الخلقة حقاً غير باطل يلازم كونها لغاية تقصدها وتنساق إليها وهي البعث قال تعالى : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا﴾(١) .

وقوله: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل قال في المجمع التكوير طرح الشيء بعضه على بعض . انتهى فالمراد طرح الليل على النهار وطرح النهار على الليل فيكون من الاستعارة بالكناية قريب المعنى من قوله: ﴿يغشي الليل النهار﴾ والمراد استمرار توالي الليل والنهار بسظهور هذا على ذاك ثم ذاك على هذا وهكذا ، وهو من التدبير .

وقوله: ﴿وسخرالشمسوالقمركل يجري لأجل مسمى ﴾أي سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾أي سخر الشمس والقمر والقمر فأجل مسمى معين لا يتجاوزانه .

وقوله: ﴿ الله هو العزيـز الغفار﴾ يمكن أن يكـون في ذكر الاسمين إشـارة إلى ما يحتج به على توحده تعالى في الربوبية والالوهية فإن العزيز الذي لا يعتريه ذلـة إن كان فهو الله وهو المتعين للعبادة لا غيره الذي تغشاه الذلة وتغمره الفاقة وكذا الغفار للذنوب إذا قيس إلى من ليس من شأنه ذلك .

ويمكن أن يكون ذكرهما تحضيضاً على التـوحيد والإيمـان بالله الـواحد والمعنى انبهكم أنه هو العزيز فآمنوا به واعتزوا بعزته ، الغفار فآمنوا به يغفر لكم .

قوله تعالى: ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾ النح الخطاب لعامة البشر، والمراد بالنفس الواحدة _ على ما تؤيده نظائره من الأيات _ آدم أبو البشر، والمراد بزوجها امرأته التي هي من نوعها وتصائلها في الإنسانية، و ﴿ ثم ﴾ للتراخي بحسب رتبة الكلام .

⁽۱) ص : ۲۷ .

والمراد أنه تعالى خلق هذا النوع وكثر أفراده من نفس واحدة وزوجها .

وقوله: ﴿ وَأَنْزَلُ لَكُم مِنَ الْأَنْعَامِ ثُمَانِيةً أَزُواجٍ ﴾ الأنعام هي الإبل والبقر والضأن والمعز ، وكونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها إلى الذكر والأنثى .

وتسمية خلق للأنعام إنزالا لها باعتبار أنه تعالى يسمي ظهـور الأشياء في الكـون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي هي عنده ومن الغيب إلى الشهادة قال تعالى : ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾(١) .

وقوله: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ بيان لكيفية خلق من تقدم ذكره من البشر والأنعام ، وفي الخطاب تغليب أولي العقبل على غيرهم ، والخلق من بعد الخلق التوالي والتوارد كخلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وهكذا ، والظلمات الثلاث هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة كما قيل ورواه في المجمع عن أبي جعفر مانين.

وقيل : المراد بها ظلمة الصلب والرحم والمشيمة وهو خطأ فإن قوله : ﴿ فِي بِطُونَ امْهَاتُكُم ﴾ صريح في أن المراد بالطلمات ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال .

وقوله: ﴿ ذَلَكُم الله ربكم ﴾ أي الذي وصف لكم في الأيتين بالخلق والتدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذي يدبر أمر ملكه وإذ كان خالقاً لكم ولكل شيء دونكم وللنظام الجاري فيكم فهو الذي يملككم ويدبر أمركم فهو ربكم لا غير.

وقوله: ﴿ له الملك ﴾ أي على جميع المخلوقات في الدنيا والأخرة فهو الملك على الإطلاق، وتقديم الظرف يفيد الحصر، والجملة خبر بعد خبر لقوله: ﴿ ذَلَكُمُ الله ﴾ كما أن قوله: ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ، كذلك ، وانحصار الألوهية فيه تعالى فرع انحصار الربوبية فيه لأن الإله إنما يعبد لأنه رب مدبر فيعبد إما خوفاً منه أو رجاء فيه أو شكراً له .

وقوله : ﴿فَأَنِي تَصَرَفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيـره وهو ربكم الذي خلقكم ودبر أمركم وهو المليك عليكم .

⁽١) الحجر: ٢١

قوله تعالى : ﴿إِن تَكَفَرُوا فَإِن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾ إلى آخر الآية . مسوق لبيان أن الدعوة إلى التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه ليست لحاجة منه تعالى إلى إقبالهم إليه بالانصراف عن عبادة غيره بل لعناية منه تعالى بهم فيدعوهم إلى سعادتهم اعتناء بها كما يعتني برزقهم فيفيض النعم عليهم وكما يعتني بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم .

فقوله: ﴿إِن تَكَفَّرُوا فَإِن اللهُ عَني عَنكُم﴾ الخطاب لعامة المكلفين أي إن تكفروا بالله فلم توحدوه فإنه غني عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم وطاعتكم ولا يتضرر بكفركم ومعصيتكم فالنفع والضرر إنما يتحققان في مجال الإمكان والحاجة وأما الواجب الغني بذاته فلا يتصور في حقه انتفاع ولا تضرر.

وقوله: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله: ﴿فَإِنَّ اللهُ غَنِي عَنَكُم﴾ أنه إذا لم يتضرر بكفر ولم ينتفع بإيمان فلا موجب له أن يريد منا الإيمان والشكر فدفعه بأن تعلق العناية الإلهية بكم يقتضي أن لا يرضى بكفركم وأنتم عباده.

والمراد بالكفر كفر النعمة الذي هـو ترك الشكـر بقرينة مقابلة قـوله: ﴿وإِنَّ تَشْكُرُوا يَرْضُهُ لَكُمْ ﴾ وبذلك يظهر أن التعبير بقوله: ﴿لعباده ﴾ دون أن يقول: لكم للدلالة على علة الحكم أعني سبب عدم الرضا.

والمحصل أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون في نعمه ورابطة المولوية والعبودية وهي نسبة المالكية والمملوكية لا تلاثمه أن يكفر العبد بنعمة سيده فينسى ولاية مولاه ويتخذ لنفسه أولياء من دونه ويعصى المولى ويطيع عدوه وهو عبد عليه طابع العبودية لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضُهُ لَكُم ﴾ الضمير للشكر نظير قوله تعالى: ﴿اعدلُوا هُو أَقْدَرَبُ للتقوى ﴾ (١) والمعنى وإن تشكرُوا الله بالجري على مقتضى العبودية وإخلاص الدين له يرض الشكر لكم وأنتم عباده، والشكر والكفر المقابل له ينظبقان على الإيمان والكفر المقابل له .

⁽١) المائدة: ٨ .

ومما تقدم يظهر أن العباد في قوله: ﴿ وَلا يرضى لعباده الكفر﴾ عام يشمل المجميع فقول بعضهم: إنه خاص اريد به من عناهم في قوله: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعث من الغاوين﴾ (١) وهم المخلصون ـ أو المعصومون على ما فسره المزمخشري ـ ولازمه أن الله سبحانه رضي الإيمان لمن آمن ورضي الكفر لمن كفر إلا المعصومين فإنه أراد منهم الإيمان ، وصانهم عن الكفر سخيف جداً ، والسياق يأباه كل الإباء ، إذ الكلام مشعر حينئذ برضاه الكفر للكافر فيؤول معني الكلام إلى نحو من قولنا : إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى للأنبياء مثلا الكفر لرضاه لهم الإيمان وإن تشكروا أنتم يرضه لكم وإن تكفروا يرضه لكم وهذا ـ كما ترى ـ معنى ردي ساقط وخاصة من حيث وقوعه في سياق الدعوة .

على أن الأنبياء مثلًا داخلون فيمن شكر وقد رضي لهم الشكر والإيمان ولم يرض لهم الكفر فلا موجب لإفرادهم بالذكر وقد ذكر الرضا عمن شكر .

وقوله : ﴿ولاتــزروازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمــل نفس حاملة حمل نفس أخرى أي لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه .

وقوله: ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور﴾ أي هذا في الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقة أعمالكم ويحاسبكم على ما في قلوبكم وقد تكرر الكلام في معاني هذه الجمل فيما تقدم .

(كلام في معنى الرضا والسخط من الله)

الرضا من المعاني التي يتصف بها أولو الشعور والإرادة ويقابله السخط وكلاهمــا وصفان وجوديان .

ثم الرضا يتعلق بـالمعاني من الأوصـاف والأفعال دون الـذوات يقال: رضي لـه كـذا ورضي بكذا ورضي بكذا ورضي بكذا ورضي بكذا قـال تعالى: هوولـو أنهم رضـوا مـا آتـاهم اللهورسـوله، (٢) وقـال: ﴿ ورضا بالحياة الدنيا، (٣) وما ربما يتعلق بالذوات فإنما هو بعناية ما ويؤول بالآخرة إلى

المعنى كقوله: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصاري) (١).

وليس الرضا هو الإرادة بعينها وإن كان كلما تعلقت به الإرادة فقد تعلق به الرضا بعد وقوعه وجه. وذلك لأن الإرادة كما قيل ـ تتعلق بأمر غير واقع والرضا إنسا يتعلق بالأمر بعد وقوعه أو فرض وقوعه فإذن كون الإنسان راضياً بفعل كذا كونه بحيث يبلاثم ذلك الفعل ولا ينافره ، وهو وصف قائم بالراضي دون المرضي .

ثم الرضا لكونه متعلقاً بالأمر بعد وقوعه كان متحققاً بتحقق المرضي حادثاً بحدوثه فيمتنع أن يكون صفة من الصفات القائمة بـذاته لتنزهه تعالى عن أن يكون محلاً للحوادث فما نسب إليه تعالى من الرضا صفة فعل قائم بفعله منتزع عنه كالرحمة والغضب والإرادة والكراهة قال تعالى : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ (٢) وقال : ﴿ ورضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ (٢) وقال : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٤) .

فرضاه تعالى عن أمر من الأمور ملائمة فعله تعالى له ، وإذ كان فعله قسمين تكويني وتشريعي انقسم الرضا منه أيضاً إلى تكويني وتشريعي فكل أمر تكويني وهو الذي أراد الله وأوجده فهو مرضي له رضاً تكوينيا بمعنى كون فعله وهو إيجاده عن مشية ملائماً لما أوجده ، وكل أمر تشريعي وهو الذي تعلق به التكليف من اعتقاد أو عمل كالإيمان والعمل الصالح فهو مرضي له رضا تشريعياً بمعنى ملاءمة تشريعه للمأتي به .

وأما ما يقابل هذه الأمور المأمور بها مما تعلق به نهي فلا يتعلق بها رضى البتة لعدم ملاءمة التشريع لها كالكفر والفسوق كما قال تعالى : ﴿إِن تَكَفَرُوا فَإِنَ اللهُ غَني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر﴾ (٥) ، وقال : ﴿فَإِن تَرْضُوا عَنهم فَإِنَ اللهُ لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ ضَرَ دَعَا رَبِهُ مَنْيَاً إِلَيْهُ ﴾ إِلَى آخر الآية الإِنَابَةُ الحرجوع ، والتخويل العطيبة العظيمة على وجه الهبنة وهي المنحة . على ما في المجمع .

لما مر في الأية السابقة ذكر من كفر النعمة وأن الله سبحانه على غناه من الناس

(٢) البيئة ٠ ٨ .

(٥) الزمر: ٧.

⁽١) البقرة : ١٢٠ .

⁽٣) النعل : ١٩ .

⁽٤) المائدة: ٣.

⁽٦) التوبة . ٩٦

لا يرضى لهم ذلك نبه في هذه الآية على أن الإنسان كفور بالبطبع منع أنه يعنوف ربه بالفطرة ولا يلبث عند الاضطرار دون أن يرجع إليه فيسأله كشف ضره كما قال : ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانَ لَطُلُومَ كَفَارَ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطُلُومَ كَفَارَ ﴾ (٢) .

فقوله: ﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ ضَرَ دَعَا رَبَّهُ مَنْيَبًا إِلَيَّهُ أَي إِذَا أَصَبَابِ الْإِنْسَانَ ضَرَ من شدة أو مرض أو قحط ونحوه دعا ربه وهو الله يعترف عند ذلك بربوبيته ـ راجعاً إليه معرضاً عمن سواه يسأله كشف الضرعنه.

وقوله : ﴿ثم إذا خوله نعمة منه نسي ماكان يدعو إليه من قبل ﴾ أي وإذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمة منه اشتغل به مستغرقاً ونسي الضر الذي كان يدعو إليه أي إلى كشفه من قبل إعطاء النعمة .

فما في قوله: ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهُ مُوصُولَةُ وَالْمُرَادُ بِهُ الضّرِ وَصَمَيْرَ ﴿إِلَيْهُ لِهُ وَقِيل : مصدرية والضمير للرب سبحانه والمعنى نسي دعاءه إلى ربه من قبل الإعطاء، وقيل : موصولة والمراد به الله سبحانه وهو أبعد الوجوه .

وقوله: ﴿وجعل لله أقداداً ليضل عن سبيله ﴾ الأنداد الأمثال والمراد بها على ما قيل ـ الأصنام وأربابها ، واللام في ﴿ليضل عن سبيله ﴾ للعاقبة ، والمعنى واتخذ لله أمثالاً يشاركونه في الربوبية والالوهية على مزعمته لينتهي به ذلك إلى إضلال الناس عن سبيل الله لأن الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض ، وفي الفعل دعوة كالقول .

ولا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التي يعتمد عليها الإنسان ويطمئن إليها ومن جملتها أرباب الأصنام عند الوثني وذلك لأن الآية تصف الإنسان وهو أعم من المشرك نعم مورد الآية هو الكافر.

وقوله : ﴿ قُلْ تَمْتُعُ بِكُفُرِكُ قَلْيُلاً إِنْكُمْنُ أَصِحَابِ النَّارِ ﴾ أي تَمْتُعُ تَمْتُعاً قَلْيلاً لا يدوم لك لأنك من أصحاب النار مصيرك إليها ، وهو أمر تهديدي في معنى الإخبار أي إنك إلى النار ولا يدفعها عنك تمتعك بالكفر أياماً قلائل .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ هُو قَانَتَ آنَاءُ اللَّيْلُ سَاجِدًا وَقَائَمًا يُحَذِّرُ الآخْرَةُ ويرجُّو

⁽١) الإسواء: ٦٧.

رحمة ربه ﴾ الآية لا تخلو عن مناسبة واتصال بقول السابق : ﴿ولا تـزر وازرة وزر اخرى ﴾ فإن فحواه أن الكافر والشاكر لا يستويان ولا يختلطان فأوضح ذلك في هـذه الآية بأن القانت الذي يخاف العذاب ويرجو رحمة ربه لا يساوي غيره .

فقوله : ﴿أَمْ مَنْ هُو قَانَتَ آنَاءُ اللَّيلُ سَاجِداً وقَـائَماً يَحَـَدُرُ الآخَوَةُ وَيَـرَجُو رَحَمَـةُ وبه﴾ أحد شقي الشرديد محـذوف والتقديـر أهذا الـذي ذكرنـاه خيـر أم من هـو قـانت الخ ؟ .

والقنوت على ما ذكره الراغب لزوم الطاعة مع الخضوع ، والآناء جمع أنى وهو الوقت ، و ﴿ يحدر الآخرة ﴾ أي عذاب الله في الآخرة قال تعالى : ﴿ إِن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ يرجو رحمة ربك ﴾ هو وما قبله يجمعان خوف العذاب ورجاء الرحمة ، ولم يقيد الرحمة بالآخرة فإن رحمة الآخرة ربما وسعت الدنيا .

والمعنى : أهذا الكافر الذي هـو من أصحاب النـار خير أم من هـو لازم للطاعة والخضوع لربه في أوقات الليل إذا جن عليه ساجداً في صــلاته تــارة قائماً فيها اخـرى يحذر عذاب الأخرة ويرجو رحمة ربه ؟ أي لا يستويان .

وقوله : ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ العلم وعدمه مطلقان لكن المراد بهما بحسب ما ينطبق على مورد الآية العلم بالله وعدمه فإن ذلك هو الـذي يكمل به الإنسان وينتفع بحقيقة معنى الكلمة ويتضور بعدمه ، وغيره من العلم كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا ويفنى بفنائها .

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكُّ رَاوَلُو الأَلْبَابِ﴾ أي ذوو العقول وهـو في مقام التعليـل لعدم تساوي الفريقين بأن أحد الفريقين يتاكر حقائق الأمور دون الفريق الآخـر فلا يستـويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عَبَادُ الذِّينَ آمنُوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ إلى آخر الآية ، الجار والمحرور ﴿ في هذه الدنيا ﴾ متعلق بقوله : ﴿ احسنوا ﴾ فالمراد بالجملة وعد الذين أحسنوا أي لـزموا الأعمال الحسنة أن لهم حسنة لا يقدر وصفها بقدر .

⁽١) الإسراء : ٥٧ .

وقد أطلق الحسنة فلم يقيدها بدنيا أو آخرة وظاهرها ما يعلم الدنيا فللمؤمنين المحسنين في هذه الدنيا طيب النفس وسلامة الروح وصون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال وتقسم القلب وغل الصدر والخضوع للأسباب الظاهرية وفقد من يرجى في كل نائبة وينصر عند طروق الطارقة ويطمأن إليه في كل نازلة وفي الأخرة سعادة دائمة ونعيم مقيم .

وقيل : ﴿ فِي هَذُهُ الدُنيا ﴾ متعلق بحسنة . وليس بذاك .

وقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ حث وترغيب لهم في الهجرة من مكة إذكان التوقف فيها صعباً على المؤمنين بالنبي عملية والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم وفتنتهم، والآية بحسب لفظها عامة.

وقيل : المراد بأرض الله الجنة أي إن الجنة واسعة لا تزاحم فيها فـــاكتــــبوهــــا بالطاعة والعبادة . وهو بعيد .

وقوله: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب > توفية الأجر إعطاؤه تاماً كاملًا ، والسياق يفيد أن القصر في الكلام متوجه إلى قوله: ﴿ بغير حساب > فالجار والمجرور متعلق بقول »: ﴿ يوفى > صفة لمصدر يدل عليه والمعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلا إعطاء بغير حساب ، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم ولا ينشر لهم ديوان ولا يقدر أجرهم بزنة عملهم .

وقد أطلق الصابرون في الآية ولم يقيد بكون الصبر على الطاعة أو عن المعصية أو عند المصيبة وإن كان الـذي ينطبق على مورد الآية هـو الصبر على مصائب الدنيا وخاصة ما يصيب من جهة أهل الكفروالفسوق من آمن بالله وأخلص له دينه واتقاه.

وقيل : ﴿بغير حساب﴾ حال من ﴿أجرهم﴾ ويفيد كثرة الأجر الذي يوفونه ، والوجه السابق أقرب .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلًا قال : يا رسول الله إنا نعطي أموالنا التماس الذكر فهل لنا في ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله منتسه : إن

الله لا يقبل إلا ممن أخلص له . ثم تـلا رسول الله مسلم هـذه الآية ﴿ أَلَا لله الـدين الخالص﴾ .

وفيه أخرج ابن جرير من طريق جويبو عن ابن عباس: ﴿والـذين اتخذوا من دونه أولياء ﴿الآية قال: أنزلت في ثلاث أحياء: عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: الملائكة بناته فقالوا: ﴿إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

أقول: الآية مطلقة تشمل عامة الوثنيين، وقول: ﴿إِنَمَا نَعَبِدُهُمْ لَيُقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ وَلَكُ وَلَا يَصُولُ عَلَمُ اللَّهِ وَلَا يُصَارِيحٌ فِي الآية بالقول بكونُ المُمَا اللهُ وَلَا تُصَارِيحٌ فِي الآية بالقول بكونُ المَمَانُكَةُ بِنَاتُ فَالْحَقِ أَنَ الْخَبْرُ مِنَ التَطْبِيقَ.

وفي الكافي والعلل بإسنادهما عن زرارة عن أبي جعفر سينك قال : قلت : ﴿آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ الخ قال : يعني صلاة الليل .

وفي الكافي بإسناده عن أبي جعفر مَشِنكُ في قـوله عـز وجل : ﴿هـل يستوي الذين يعلمون ، الذين يعلمون ، وهـل يعلمون ، وشيعتنا أُولو الألباب ﴾ قال نـحن الذين يعلمون ، وشيعتنا أُولو الألباب .

أقول: وهذا المعنى مروي بطرق كثيرة عن الباقـر والصادق عليهمـا السلام وهو جرى وليس من التفسير في شيء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن سعد في طبقاته وابن مردويه عن ابن عبـاس في قوله : ﴿أَمْ مَنْ هُو قَانَتَ آنَاءَ اللَّيلُ سَاجِداً وقَائَماً ﴾ قال : نزلت في عمار بن ياسر .

أقول: وروى مثله عن جويبر عن عكرمة ، وروى عن جويبر عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في ابن مسعود وعمار وسالم مولى أبي حذيفة ، وروى عن أبي نعيم وابن عساكر عن ابن عمر أنه عثمان وقيل غير ذلك ، والجميع من التطبيق وليس من النزول بالمعنى المصطلح عليه ، والسورة نازلة دفعة .

وفي المجمع روى العياشي بالإسناد عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عن الله عن أبي عبد الله منافظة قال : قال رسول الله منافظة : إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لأهل البلاء ميزان ولم ينشر لهم ديوان . ثم تلا هذه الآية : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ .

أقول : وروى ما في معناه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالـك عن النبي سِنْيَاتُ في حديث .

* * *

قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ آللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ آللِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ الْكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِي عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ (١٢) قَلَ آللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ آلَّذِينَ خَسِرُوآ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقَيْمَةِ أَلا ذٰلِكَ هُو الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ اللَّهِ لِمَ عَبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) الْقَيْمَةِ أَلا ذٰلِكَ يُخوِّفُ آللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخوِّفُ آللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) وَآلَئُوا إِلَى آللَهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ وَآلَٰذِينَ اجْتَنَبُوا آلطَّاعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى آللَهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ وَآلَٰذِينَ اجْتَنَبُوا آلطَّاعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى آللَهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ وَمِنْ تَحْتِهِمُ اللَّهُ وَأُولُئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ هَمْ الْعَنْ وَيَهُ مَنْ فَوْقِهَا غُرَفُ مَنْ فِي آلنَّارِ (١٩) لَكِنِ ٱلَّذِينَ آتَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ اللّهِ لَا الْعَذَابِ أَفَانُتَ تُنْقِدُ مَنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَنْ فَي إِلَى اللّهُ الْأَنْهَارُ وَعْدَ آللّهِ لَا يُعْبَلِفُ آللّهُ الْمُيعَادَ (٢٠) .

(بیان)

في الأيات نوع رجوع إلى أول الكلام وأمره مسلمة أن يبلغهم أن الذي يبدعوهم إليه من التوحيد وإخلاص الدين هو مأمور به كأحدهم ويزيد أنه مأمور أن يكون أول مسلم لما يدعو إليه أي يكون بحيث يدعو إلى ما قد أسلم له وآمن به قبل ، سواء أجابوا إلى دعوته أو ردوها .

فعليهم أن لا يطمعوا فيه أن يخالف فعله قبوله وسيبرته دعبوته فإنه مجيب لربه مسلم له متصلب في دينه خائف منه أن يعصيه ثم تنذر الكافرين وتبشير المؤمنين بما أعد الله سبحانه لكل من الفريقين من عذاب أو نعمة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِي أَمْرَتُ أَنْ أَعَبِدُ اللهُ مَخْلُصاً لَهُ الدَينِ ﴾ إلى قول ﴿ أُولُ الْمُسلمينِ ﴾ نحو رجوع إلى قوله تعالى في مفتتح السورة : ﴿ إِنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكَتَابِ فَاعَبِدُ اللهُ مَخْلُصاً لَهُ اللَّذِينِ ﴾ بداعي أن يؤيسهم من نفسه ، فلا ينظمعوا فيه أن يترك دعوتهم ويوافقهم على الإشراك بالله كما يشير إليه أول سورة ص وآيات أخر .

فكأنه يقول: قل لهم إن الذي تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين _ وقد وجه به الخطاب إلى _ ليس المراد به مجرد دعوتكم إلى ذلك بإقامتي في الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصاً له الدين ، ولا ذلك فحسب ، بل مأمور بأن أكون أول المسلمين لما ينزل إلي من الوحي فأسلم له أولاً ثم أبلغه لغيري _ فأنا أخاف ربي وأعبده بالإخلاص آمنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا في .

فقوله : ﴿قُـل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً لـه الدين﴾ إشـارة إلى أنـه ﴿اللَّهُ مِثْلُونَا اللَّهُ عَيْرُهُ فِي الأمر بدون الإخلاص .

وقوله: ﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ إشارة إلى أن في الأمر المتوجه إلي زيادة على ما توجه إليكم من التكليف وهو أني امرت بما أمرت وقد توجه الحظاب إلى قبلكم والغرض منه أن أكون أول من أسلم لهذا الأمر وآمن به .

قيل: اللام في قوله: ﴿لأن أكون﴾ للتعليل والمعنى وأُمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، وقيل: اللام زائدة كما تركت اللام في قوله تعالى: ﴿قل إني أُمرت أن أكون أول من أسلم﴾(١).

ومـآل الوجهين واحـد بحسب المعنى فإن كـونـه مِنْنَا الله المسلمين يعـطي عنواناً لإسلامه وعنوان الفعل يصـح أن يجعل غـاية لـلأمر بـالفعل وأن يُجعـل متعلقاً للأمر فيؤمر به يقال : اضربه للتأديب ، ويقال : أدبه بالضرب .

⁽١) الأنعام : ١٤ .

قال في الكشاف: وفي معناه أوجه: أن أكنون أول من أسلم في زماني ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها ، وأن أكون أول اللذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما ، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا غيره لأكنون مقتلى بي في قولي وفعلي جميعاً ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يامرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بانتهى .

وأنت خبير بأن الأنسب لسياق الآيات هـو الوجـه الثالث وهـو الذي قـدمنـاه ويلزمه سائر الوجوه .

قوله تعالى: ﴿قال إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يـوم عنظيم﴾ المراد بمعصية ربه بشهادة السياق مخالفة أمره بعبادتـه مخلصاً لـه الدين ، وباليوم العنظيم يوم القيامة والآية كالتوطئة لمضمون الآية التالية .

قوله تعالى: ﴿قُلُ الله أُعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ تصريح بأنه ممتثل لأمر ربه مطيع له بعد التكنية عنه في الآية السابقة ، وإيآس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه .

وتقديم المفعول في قوله: ﴿قل الله أعبد﴾ يفيد الحصر، وقوله: ﴿مخلصاً له ديني﴾ يؤكد معنى الحصر، وقوله: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ أمر تهديدي بمعنى أنهم لا ينفعهم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله بالإخلاص كما يشير إليه ذيل الآية ﴿قل إن الخاسرين﴾ النح .

قول تعالى: ﴿ قُلُ إِنْ الخاسرين الله ين خسروا أنفسهم وأهليهم يسوم القيامة الخالخ الخسران أبلغ من القيامة الخالخ الخسران أبلغ من الخسر، وخسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعادة بحيث لا يطمع فيها وكذا خسارة الأهل.

وفي الآية تعريض للمشركين المخاطبين بقوله: ﴿فاعبدوا ما شتتم من دونه ﴾ كأنه يقول : فأياما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة وأهليكم وهم خاصتكم بحملهم على الكفر والشرك وهي الخسران بالحقيقة .

وقوله : ﴿ أَلا ذَلْكُ هُو الْحُسْرِ انْ الْمَبِينَ ﴾ وذلك لأن الخسران المتعلق بالدنيا _

وهو الخسران في مال أو جاه ـ سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنه لا زوال له ولا انقطاع .

على أن المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلف آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت .

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصة الإنسان في الدنيا ، وقيل : المراد بالأهل من أعده الله في الجنة للإنسان لو آمن واتقى من أزواج وخدم وغيرهم وهو أوجه وأنسب للمقام فإن النسب وكل رابطة من الروابط الدنيوية الاجتماعية مقطوعة يوم القيامة قال تعالى : ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ (١) وقال : ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الأيات .

ويؤيده أيضاً قوله تعالى : ﴿فأما من أُوتي كتابه بيمينه فسـوف يحاسب حسـاباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ الخ الظلل جمع ظلة وهي ـ كما قيل ـ الستر العالي .

والمراد بكونها من فوقهم ومن تحتهم إحاطتها بهم فإن المعهود من النار الجهتان والباقي ظاهر .

قوله تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾ قال السراغب: الطاغوت عبارة عن كل متعد وكل معبود من دون الله ، ويستعمل في الواحد والجمع . انتهى ، والظاهر أن المراد بها في الآية الأوثان وكل معبود طاغ من دون الله .

ولم يقتصر على مجرد اجتناب عبادة الطاغوت بل أضاف إليه قوله: ﴿وأنابـوا الله الله ﴾ إشارة إلى أن مجرد النفي لا يجدي شيئاً بـل الذي ينفـع الإنسان مجمـوع النفي والإثبات ، عبادة الله وترك عبادة غيره وهو عبادته مخلصاً له الدين .

وقوله : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرِي ﴾ إنشاء بشرى وخبر لقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنْبُوا ﴾ الخ .

قوله تعالى : ﴿ فَبَشَرَ عَبَادَ الذِّينَ يَسْتَمَعُونَ القُولُ فَيُتَبِعُونَ أَحْسَنُهُ إِلَى آخَرُ

الآية كان مقتضى الظاهر أن يقال : فبشرهم غير أنه قيل : فبشر عباد واضيف إلى ضمير التكلم لتشريفهم به ولتوصيفهم بقوله : ﴿الذين يستمعون القول﴾ الخ .

والمراد بالقول بقرينة ما ذكر من الإتباع ماله نوع ارتباط ومساس بالعمل فأحس القول أرشده في إصابة الحق وأنصحه للإنسان ، والإنسان إذا كان ممن يحب الحسن وينجذب إلى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذاباً فإذا وجد قبيحاً وحسناً مال إلى الحسن ، وإذا وجد حسناً وأحسن قصد ما هو أحسن ، وأما لو لم يمل إلى الأحسن وانجمد على الحسن كشف ذلك عن أنه لا ينجذب إليه من حسنه وإلا زاد الانجذاب بزيادة الحسن .

فتوصيفهم باتباع أحسن القول معناه أنهم مطبوعون على طلب الحق وإرادة الرشد وإصابة الواقع فكلما دار الأمر بين الحق والباطل والسرشد والغي اتبعوا الحق والرشد وتركوا الباطل والغي وكلما دار الأمر بين الحق والأحق والسرشد وما هو أكشر رشداً أخذوا بالأحق الأرشد.

فالحق والرشد هو مطلوبهم ولذلك يستمعون القول ولا يردون قـولاً بمجرد مــا قرع سمعهم اتباعاً لهوى أنفسهم من غير أن يتدبروا فيه ويفقهوه .

فقسوله : ﴿اللَّذِينَ يَسْتُمْعُونَ القَّـولَ فَيُتَبِعُونَ أَحْسَنُهُ مَفَادَهُ أَنْهُمَ طَالِبُوا الْحَقُّ والرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقاً وخوفاً أن يفوتهم شيء منه .

وقيل: المراد باستماع القول واتباع أحسنه استماع القرآن وغيره واتباع القرآن، وقيل: المراد استماع أوامر الله تعالى واتباع أحسنها كالقصاص والعفو فيتبعون العفو وإبداء الصدقات وإخفائها فيتبعون الإخفاء؛ والقولان من قبيل التخصيص من غير مخصص.

وقوله: ﴿ أُولِئِكَ اللَّذِينَ هَذَاهُمُ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى أن هَذُه الصفة هي الهداية الإلهية وهذه الهداية أعني طلب الحق والتهيؤ التام لاتباع الحق أينما وجد هي الهداية الإجمالية وإليها تنتهي كل هداية تفصيلية إلى المعارف الإلهية .

وقوله : ﴿ أُولئنك هم أُولوالألباب ﴾ أي ذوو العقول ويستفاد منه أن العقل هو الذي به الاهتداء إلى الحق وآيته صفة اتباع الحق ، وقد تقدم في تفسيس قولـه :

﴿ وَمِن يَرَغُبُ عَنَ مَلَةً إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهُ نَفُسُهُ ﴾ (١) أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله .

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهُ كَلَمْهُ الْعَذَابِ أَفَانْتَ تَنْقَذُ مِنْ فِي النَّارِ ﴾ ثبوت كلمة العذاب وجوب دِخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم إلى الأرض : ﴿والذينَ كَفُرُوا وَكَذَبُوا النَّا أُولَئُكُ أَصِحَابِ النَّارِ هُمْ فَيُهَا خَالدُونَ ﴾ (٢) وما في معناه من الآيات .

ومقتضى السياق أن في الآية إضماراً بدل عليه قوله : ﴿ أَفَأَنَتُ تَنْقَـذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ والتقدير أفمن حقت عليه كلمة العذاب ينجو منه وهو اولى من تقدير قولنا : خير أم من وجبت عليه الجنة .

وقيل: المعنى أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر ﴿من في النار﴾ عن ذكر الضمير العائد إلى المبتدأ وجيء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيهاً على المعنى .

وقيـل : التقديـر أفأنت تنقـذ من في النار منهم فحـذف الضميـر ، وهـو أردأ الموجوه .

قوله تعالى : ﴿ لَكُنَ الذَّينَ اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجـري من تحتها الأنهار﴾ الغرف جمع غرفة وهي المنزل الرفيع . وقيل : وهـذا في مقابلة قوله في الكافرين : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ .

وقوله: ﴿وعدالله أي وعدهم الله ذلك وعداً فهـو مفعول مطلق قائم مقـام فعله وقوله: ﴿لا يخلف الله الميعاد﴾ إخبار عن سنته تعالى في مواعيده وفيه تطييب لنفوسهم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر مشك في قبوله تعالى : ﴿قُــل إِنَّ الْخَـاسِـرِينَ اللَّذِينَ خَسَـرُوا أَنْفُسَهُم وَأَهْلِيهُم ﴾ يقــول : غبنــوا أَنْفُسَهُم وأَهْلِيهُم .

⁽١) البقرة ١٣٠ .

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى ربهم لهم البشرى﴾ روى أبو بصير عن أبي عبد الله منظف أنه قال : أنتم هم ومن أطاع جباراً فقد عبده .

أقول: وهو من الجرى .

وفي الكافي: بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر منشد: يا هشام إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فبتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾.

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنِوا الطَّاعُوتُ أَنْ يَعْبِدُوهُ ۚ قَالَ : : نَـزَلْتُ هَاتَـانَ الآيتانَ في ثلاثة نَفْر كَانُوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي .

أقول: ورواه في المجمع عن عبد الله بن زيد ، وروي في الدر المنثور أيضاً عن ابن مردوية عن ابن عمر أنها نزلت في سعيد بن زيد وأبي ذر وسلمان ، وروي أيضاً عن جويبر عن جابر بن عبد الله أنها نزلت في رجل من الأنصار أعتق سبعة مماليك لما نزل قوله تعالى : ﴿ لها سبعة أبواب ﴾ الآية ، والظاهر أن الجميع من تطبيق القصة على الآية .

* * *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ آللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ آلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخِرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَسُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَسُهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَنْ شَرَحَ آللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُو عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ مَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٢) آللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا أَللَهِ أُولِئِكَ أَولِيكُ لِيَعْلَى الْمُعَدِيثِ كِتَابًا

مُتَشَابِها مَثَانِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ آلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُـدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَآءُ وَمَنْ يُضْلِل آللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيْمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَـٰذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتنْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ الْحِزْيَ فِي الْحَيوْةِ آلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَدَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُـرْآناً عَـرَبِيّاً غَيْـرَ ذِي عِوَج لَعَلَّهُمْ يَتَّقُــونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَماً لِرَجُل هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيَّتُ وَإِنَّهُمْ مَّيُّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبَّكُمْ تَخْتَصِمُ وَنَ (٣١) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى آللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَآءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآؤًا الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ آللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأُ آلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ٱلَّـذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ آللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّـذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِل آللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ آللَّهُ فَمَا لَـهُ مِنْ مُضِلِّ أَلَيْسَ آللَّهُ بِعَزِيزِ ذِي انْتِقَامِ (٣٧).

(بیان)

عود إلى بدء من الاحتجاج على ربوبيته تعالى والقول في اهتداء المهتدين وضلال الضالين والمقايسة بين الفريقين وما ينتهي إليه عاقبة أمر كل منهما ، وفيها معنى هداية القرآن .

قوله تعالى: ﴿ أَلَم تَرَ أَنَ اللهُ أَنْزِلَ مِن السَمَاءُ مَاءُ فَسَلَكُهُ يَسَابِيعٍ فِي الأَرْضِ ﴾ إلى آخر الآية ، قال في المجمع: الينابيع جمع ينبوع وهو الذي ينبع منه الماء يقال نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه ، والزرع ما ينبت على غير ساق والمشجر ما له ساق وأغصان النبات يعم الجميع ، وهاج النبت يهيع هيجاً إذا جف وبلغ نهايته في اليبوسة ، والحطام فتات التبن والحشيش . انتهى .

وقوله: ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض﴾ أي فأدخله في عيـون ومجاري في الأرض هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب إلى جانب، والباقي ظـاهر والآيـة ـ كما ترى ـ تحتج على توحده تعالى في الربوبية .

قوله تعالى : ﴿ أَفْمَن شُرِح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ النج لما ذكر في الآية السابقة أن فيما ذكره من إنزال الماء وإنبات النبات ذكرى لأولي الألباب وهم عباده المتقون وقد ذكر قبل أنهم الذين هداهم الله ذكر في هذه الآية أنهم ليسوا كغيرهم من الضالين وأوضح السبب في ذلك وهو أنهم على نور من ربهم يبصرون به الحق وفي قلوبهم لين لا تعصى عن قبول ما يلقى إليهم من أحسن القول .

فقوله : ﴿ أَفَمَن شُرِح الله صدره ﴾ خبره محذوف يدل عليه قوله : ﴿ فُويلُ لَلْقَاسِيةُ قَلُوبُهُم ﴾ النخ أي كالقاسية قلوبهم والاستفهام للانكار أي لا يسقويان .

وشرح الصدر بسطه ليسع ما يلقى إليه من القول وإذ كان ذلك للإسلام وهو التسليم لله فيما أراد وليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقى إليه من القول الحق ولا يرده ، وليس قبولاً من غير دراية وكيفما كان بل عن بصيرة بالحق وعرفان بالرشد وللذا عقبه بقوله : ﴿فهو على نور من ربه ﴾ فجعله بحسب التمثيل راكب نور يسير عليه ويبصر ما يمر به في ساحة صدره الرحب الوسيع من الحق فيبصره ويميزه

من الباطل بخلاف الضال الـذي لا في صدره شـرح فيسع الحق ولا هـو راكب نور من ربه فيبصر الحق ويميزه .

وقوله: ﴿ فَوَيِلَ لَلْقَاسِيَةِ قَلُوبِهُمْ مَنْ ذَكُرُ الله ﴾ تَفْرِيعُ عَلَى الْجَمَلَةُ السَّابِقَةُ بَمَا يَدُلُ عَلَى أَنْ الْقَـاسِيَةِ الْقُلُوبِ _ وقساوة القلب وصلابت لازمة عـدم شرح الصـدر وعدم النور _ لا يتذكرون بآيات الله فـلا يهتدون إلى مـا تدل عليه من الحق ، ولذا عقبه بقوله: ﴿ أُولِئُكُ فِي ضَلالَ مَبِينَ ﴾ .

وفي الأية تعريف الهداية بـلازمها وهـو شرح الصـدر وجعله على نور من ربـه ، وتعريف الضلال بلازمه وهو قساوة القلب من ذكر الله .

وقد تقدم في تفسير قوله : ﴿وَمَنْ يَارِدُ اللهُ أَنْ يَهَادِيهُ يَشْرَحُ صَادَرُهُ للإسلام﴾ الأية(١) كلام في معنى الهداية فراجع .

قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهما مثاني﴾ إلى آخر الآية كالإجمال بعد التفصيل بالنسبة إلى الآية السابقة بالنظر إلى ما يتحصل من الآية في معنى الهداية وإن كانت بياناً لهداية القرآن .

فقوله: ﴿ الله نزل أحسن الحديث﴾ هو القرآن الكريم والحديث هو القول كما في قوله تعالى: ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ (٢) ، وقوله: ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ (٣) فهو أحسن القول لاشتماله على محض الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو كلامه المجيد .

وقوله : ﴿كتاباً متشابها﴾ أي يشبه بعض أجزائه بعضاً وهذا غير التشابه الـذي في المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة الجميع .

وقوله: ﴿مثاني﴾ جمع مثنية بمعنى المعطوف لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليه بتبين بعضها ببعض وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً ويناقضه كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبُرُونَ القَرْآنَ وَلُو كَانَ مَنْ عَنْدُ غَيْرُ اللهُ لُوجِدُوا فَيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ (٤).

الأنعام: ١٢٥ . (٣) المرسلات: ٥٩ .

(٢) الطور : ٣٤ . (٤) النساء : ٨٢ .

وقوله : ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾صفة الكتاب وليس استئنافاً ، والاقشعرار تقبض الجلد تقبضاً شديداً لخشية عارضة عن استماع أمر هائــل أو رؤيته ، وليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربهم فإذا سمعوا كلامه توجهوا إلى ساحة العظمة والكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية وأخذت جلودهم في الأقشعران.

وقوله : ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴿ تلين ﴾ مضمنة معنى السكون والطمأنينة ولمذا عدي بمالي والمعنى ثم تسكن وتطمئن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله لينة تقبله أو تلين له ساكنة إليه .

ولم يـذكر القلوب في الجملة السابقة عنـد ذكر الاقشعـرار لأن المراد بالقلوب النفوس ولا اقشعرار لها وإنما لها الخشية .

وقوله : ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ أي ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله هو هـدى الله وهـذا تعـريف آخـر للهداية بلازمها.

وقوله : ﴿ يَهْدِي بِهُ مِنْ يَشَاءُ ﴾ أي يهدي بهداه من يشاء من عباده وهو الذي لم يبطل استعداده للاهتداء ولم يشغل بالموانع عنه كالفسق والظلم وفي السياق إشعار بأن الهداية من فضله وليس بموجب فيها مضطر إليها .

وقيل : المشار إليه بقوله : ﴿ذَلَكَ هَدَى الله ﴾ القرآن وهو كما ترى ، وقد استدل بـالأيات على أن الهـداية من صنـع الله لا يشاركـه فيها غيـره ، والحق أنها خـاليـة عن الدلالة على ذلك وإن كان الحق هو ذلك بمعنى كونها لله سبحانه أصالة ولمن اختاره من عباده لذلك تبعاً كما يستفاد من مثل قوله : ﴿ قُلْ إِنْ هَـدَى الله هـو الهـدى ﴿ أَنَّ وقوله : ﴿إِنْ عَلَيْنَا لِلْهَدَى﴾(٢) ، وقوله : ﴿وجعلناهُم أَتَّمَة يَهْدُونَ بَأَمُرِنَا﴾(٣) ، وقوله : ﴿وَإِنْكَ لِتَهْدِي إِلَى صَوَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١) .

فالهداية كلها لله إما بلا واسطة أو بواسطة الهداة المهديين من خلقه وعلى هذا

(٣) الأنبياء : ٧٣ . (١) البقرة : ١٢٠ .

(٢) الليل ، ١٢ .

(٤) الشورى : ٥٢ .

فمن أضله من خلقه بأن لم يهده بالواسطة ولا بلا واسطة فـلا هادي لـه وذلك قـوله في ذيـل الآية : ﴿وَمِن يَضَلَلُ الله فمـا له من هـاد﴾ وسيأتي الجملة بعـد عـدة آيـات وهي متكررة في كلامه تعالى .

قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَتَقَيَ بُوجِهِهُ سُوءَ الْعَذَابِ يُومِ الْقَيَامَةُ وَقِيلَ لَلْظَالَمِينَ ذُوقُوا مَا كنتم تكسبون﴾ مقايسة بين أهل العذاب يوم القيامة والأمنين منه والفريقان هما أهل الضلال وأهل الهدى ولذا عقب الآية السابقة بهذه الآية .

والاستفهام للإنكار وخبر ﴿من﴾ محذوف والتقدير كمن هو في أمن منه ، ويوم القيامة متعلق بيتقي ، والمعنى أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يـوم القيامة لكون يـده التي بها كان يتقي المكاره مغلولة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه . كذا قيل .

وقيل: الاتقاء بوجهه بالمعنى المذكور لا وجه له لأن الوجه ليس مما يتقي به بل المراد الاتقاء بكليته أو بخصوص وجهه سوء عذاب يوم القيامة ويوم القيامة قيد للعذاب والمراد عكس الوجه السابق، والمعنى أفمن يتقي سوء العذاب الذي يوم القيامة في الدنيا بتقوى الله كالمصر على كفره، ولا يخلو من التكلف.

وقوله: ﴿وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ القول لملائكة النار ، والمظاهر أن الجملة بتقدير قد أو بدونه والأصل وقيل لهم ذوقوا الخ ، لكن وضع المظاهر موضع الضمير للدلالة على علة الحكم وهي الظلم .

قوله تعالى : ﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبون ففوجؤا وأخذوا على غفلة وهو أشد الأخذ ، وفي الآية وما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزي ليكون عبرة لغيرهم .

قوله تعالى : ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْحَزِي فِي الْحَيَاةُ الْدَنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخَرَةُ أَكْبُرُ لُو كَانُوا يعلمون﴾ الخزي هو الذل والصغار ، وقد أذاقهم الله ذلك في ألوان من العـذاب أنزلنا عليهم كالغرق والخسف والصيحة والرجفة والمسخ والقتل .

قوله تعالى : ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾ أي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئاً لعلهم يتنبهون ويعتبرون ويتعظون بتذكر ما تتضمنه . قوله تعالى: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون﴾ العوج الانحراف والانعطاف، ﴿قرآناً عربياً﴾ منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخص ونحوه أو حال معتمد على الوصف.

قوله تعالى : وفضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان اللخ ، قال الراغب : الشكس بالفتح فالكسر سيء الخلق ، وقوله : وشركاء متشاكسون أي متشاجرون لشكاسة خلقهم . انتهى وفسروا السلم بالخالص الذي لا يشترك فيه كثيرون .

مشل ضربه الله للمشرك الذي يعبد أرباباً وآلهة مختلفين فيشتركبون فيه وهم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر وكل يريد أن يتفرد فيه ويخصه بخدمة نفسه ، وللموحد الذي هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدي إلى الحيرة فالمشرك هو الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والموحد هو الرجل الذي هو سلم لرجل أحسن حالاً من حامحه على المرجل . لا يستويان بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالاً من صاحه .

وهذا مثل ساذج ممكن الفهم لعامة الناس لكنه عند المداقة يسرجع إلى قلو تعالى : ﴿ لُو كَانَ فَيْهِمَا آلْهِمَ إِلَّا اللهِ لَفْسَدَتَا ﴾ (١) وعاد بسرهاناً على نفي تعدد الأرباب والألهة .

وقوله : ﴿ الحمد لله ﴾ ثناء لله بما أن عبوديته خير من عبودية من سواه

وقوله : ﴿ بِل أكثرهم لا يعلمون ﴾ مزية عبادته على عبادة غيره على ما لـ من الطهور التام لمن له أدنى بصيرة .

قوله تعالى: ﴿إِنْكُ مِيتُ وَإِنْهُمُ مِيتُونَ ثُمُ إِنْكُمْ يَوْمُ القَيَّامَةُ عَسْدُ رَبِكُمْ تَخْتَصُمُونَ ﴾ الأية الأولى تمهيد لما يذكر في الثانية من اختصامهم يوم القيامة عند ربهم والخطاب في ﴿إِنْكُم ﴾ للنبي مِسْمَاتُ وامته أو المشركين منهم خاصة والاحتصام ـ كما في المجمع ـ رد كل واحد من الاثنين ما أتى به الأخر على وجه الإنكار عليه .

والمعنى : إن عاقبتك وعاقبتهم الموت ثم إنكم جميعاً يوم القيامة بعد ما

⁽١) الأبياء: ٢٢.

حضرتم عند ربكم تختصمون وقد حكى مما يلقيه النبي سنية ﴿وقال الرسول يا رب إِن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ (١) .

والآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التالية تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي سلام وبين الكافرين من أمته يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنَ أَظُلَمُ مَمَنَ كَذَبِ عَلَى الله وكَذَبِ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ أَلِيسَ فَي جَهِمْ مَسُوى للكَافَرِينَ ﴾ في الآية وما بعدها مبادرة إلى ذكر ما ينتهي إليه أمر اختصامهم يوم القيامة وتلويح إلى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل : ونتيجة ما يقضى به بينكم معلومة اليوم وأنه من هو الناجي منكم ، ومن هو الهالث ؟ فإن القضاء يومئذ يدور مدار الظلم والإحسان ولا أظلم من الكافر والمؤمن متق محسن والظلم إلى النار والإحسان إلى الجنة . هذا ما يعطيه السياق .

فقوله: ﴿ فَهُ مَن أَظُلَمُ مَمَنَ كَذَبِ عَلَى الله ﴾ أي افترى عليه بأن ادعى أن له شركاء والظلم يعظم بعظم من تعلق به وإذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم ومرتكبه أظلم من كل ظالم .

وقوله : ﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ المسراد بالصدق الصادق من الـنبـأ وهو الدين الإلهي الذي جاء به الرسول بقرينة قوله : ﴿إذ جاءه﴾ .

وقوله: ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ المثوى اسم مكان بمعنى المنزل والمقام، والاستفهام للتقرير أي إن في جهنم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافترائهم على الله وتكديبهم بصادق النبأ الذي جاء به الرسول.

والآية خاصة بمشركي عهد النبي مشرات أو بمشركي أمته بحسب السياق وعامة لكل من ابتدع بدعة وترك سنة من سنن الدين .

قوله تعالى : ﴿والذي جاء بالصدق وصدًّق به أولئك هم المتقون﴾ المراد بالمجيء بالصدق الإيمان به والذي جاء به النبي مُسْمَانِيْ به والذي جاء به النبي مُسْمَانِيْ .

وقوله : ﴿أُولئك هم المتقون﴾ لعل الإشارة إلى الذي جاء بــه بصيغة الجمــع

⁽١) الفرقان ٣٠٠.

لكونه جمعاً بحسب المعنى وهو كل نبي جاء بالدين الحق وآمن بما جاء به بل وكل مؤمن آمن بالدين الحق ودعى إليه فإن الدعوة إلى الحق قولاً وفعلاً من شؤون اتباع النبي ، قال تعالى : ﴿قال هاذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيدة أنا ومن اتبعني ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ هذا جزاؤهم عند ربهم وهو أن لهم ما تتعلق به مشيتهم فالمشية هناك هي السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أياً ما كان بخلاف ما عليه الأمر في الدنيا فإن حصول شيء من مقاصد الحياة فيها يتوقف ـ مضافاً إلى المشية ـ على عوامل وأسباب كثيرة منها السعي والعمل المستمد من الاجتماع والتعاون .

فالآية تدل أولاً على إقامتهم في دار القرب وجوار رب العالمين ، وثانياً أن لهم ما يشاؤن فهذان جزاء المتقين وهم المحسنون فإحسانهم هـو السبب في إيتائهم الأجر المذكور وهذه هي النكتة في إقامة الظاهر مقام الضمير في قوله : ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يُقال : وذلك جزاؤهم .

وتوصيفهم بالإحسان وظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق والعمل الحسن جميعاً يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولاً وفعلاً . على أن القرآن لا يسمي تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصدقاً به .

قوله تعالى: ﴿لِيكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ إلى آخر الآية ومن المعلوم أنه إذا كفر أسوأ أعمالهم كفر ما دون ذلك ، والمراد بأسوأ الذي عملوا ما هو كالشرك والكبائر.

قال في مجمع البيان في الآية: أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك والمعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم وإحسانهم ورجوعهم إلى الله تعالى انتهى وهو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئة، ومن جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان والإحسان والتوبة فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم وهو تكفير السيئات بالتصديق والجزاء الحسن في الآخرة.

⁽۱) يوسف : ۱۰۸ .

وقوله : ﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

قيل : المراد أنه ينظر إلى أعمالهم فيجازيهم في أحسنها جزاءه اللائق به وفي غير الأحسن يجازيهم جزاء الأحسن فالباء للمقابلة نحو بعت هذا بهذا .

ويمكن أن يُقال : إن المراد أنه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوأ خفاء .

وقيل : صيغة التفضيل في الآية ﴿أُسُوا﴾ و﴿أَحْسَنُ﴾ مستعملة في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوأ وطاعته كلها أحسن .

قوله تعالى : ﴿ أَلْيَسَ الله بِكَافَ عَبِدُهُ وَيَخُوفُونُكُ بِالذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ المراد بـالذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق ، والمـراد بالعبـد من مدحـه الله تعالى في الآيات السابقة ويشمل النبي مَشِينَتُهُ شمولًا أُولياً .

والاستفهام للتقرير والمعنى هو يكفيهم ، وفيه تأمين للنبي المنطقة قبال تخويفهم إياه بآلهتهم وكناية عن وعده بالكفاية كما صرح به في قوله : ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَضِلُلُ الله فَمَا لَهُ مَن هَادُ وَمَن يَهِدُ الله فَمَا لَمُهُ مَنْ مَضَلُّ ﴾ النخ جملتان كالمتعاكستين مرسلتان إرسال الضوابط الكليـة ولذا جيء فيهما باسم الجلالة وكان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير .

وفي تعقيب قوله: ﴿ أليس الله بكاف﴾ الخ بقوله: ﴿ ومن يضلل ﴾ الخ إشارة إلى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبداً ولن ينجح مسعاهم وأنهم لن ينالـوا بغيتهم ولا أمنيتهم من النبي مسلمات فإن الله لن يضله وقد هداه .

وقوله : ﴿ أَلِيسَ الله بعزيز ذي انتقام﴾ استفهام للتقرير أي هـو كذلـك ، وهو تعليل ظاهر لقولـه : ﴿ وَمِن يَضِلُلُ الله ﴾ الخ فـإن عزتـه وكونـه ذا انتقام يقتضيـان أن ينتقم ممن جحد الحق وأصر على كفره فيضله ولا هادي يهـديه لأنـه تعالى عـزيز لا

يغلبه فيما يريد غالب ، وكذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه وإحسانه لم يقدر على أضلاله مضل .

وفي التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب إلى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاة والانتقام دون الضلال الابتدائي وقد مر مراراً .

(بحث روائي)

عن روضة الواعظين روي أن النبي مسلمات قرأ فوأفمن شرح الله صدره لـلإسلام فهـو على نور من ربه فقال: إن النـور إذا وقع في القلب انفسـح لـه وانشـرح. قالوا: يا رسول الله فهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار المخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت.

أقـول : ورواه في الدر المنشور عن ابن مودويه عن عبد الله بن مسعـود وعن الحكيم الترمذي عن ابن عمر ، وعن ابن جرير وغيره عن قتادة .

وفي تفسير القمي في قول تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدَرُهُ الآية قَالَ : نزلت في أمير المؤمنين عَلِيْكُ .

أقول: ونزول السورة دفعة لا يلائمه كما مر في نظيره.

وفي الـدر المنثور أخـرج ابن جريـر عن ابن عباس قـالوا : يـا رسـول الله لـو حدثتنا فنزل : ﴿الله نزل أحسن الحديث﴾ .

أقول: وهو من التطبيق.

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿تقشعر منه جلود﴾ الآية روي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي سيزاه قال : إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ أخرج الـديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي مُسِنَّةً في قوله : ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾ قال : غير مخلوق .

⁽١) أي تناثرت .

أقول: الآية تأبى عن الانطباق على الرواية وقد تقدم كلام في معنى الكلام في ذيل قوله تعالى: ﴿ تُلُكُ الرسل فضلنا بعضهم على بعض (١) في الجزء الشاني من الكتاب.

وفي المجمع في قول تعالى : ﴿ورجلا سلما لرجل﴾ روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن على أنه قال : أنا ذلك الرجل السلم لرسول الله منزيه والارسام

أقسول: ورواه أيضاً عن العياشي بإسناده عن أبي خالد عن أبي جعفر الشك وهو من الجري والمثل عام .

وفيه في قوله تعالى : ﴿ثم إنكم يـوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ قال ابن عمر : كنا نـرى أن هذه فينا وفي أهل الكتـابين وقلنـا : كيف نختصم نحن ونبينا واحد وكتابنا واحد ، حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعلمت أنهـا فينا نزلت .

وقال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : إن ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا .

أقول: وروى في الدر المنثور الحديث الأول بطرق مختلفة عن ابن عمر وفي الفاظها اختلاف والمعنى واحد، ورواه أيضاً عن عدة من أصحاب الجوامع عن إبراهيم النخعي، وروى ما يقرب منه بطريقين عن الزبير بن العوام، وروى الحديث الثاني عن سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري.

والأحاديث تعارض ما روي أن الصحابة مجتهدون مأجورون إن أصابوا وإذ أخطأوا .

وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به ﴿ قيل : الذي جاء بالصدق محمد سِنْنَهُ وصدق به على بن أبي طالب الله وهو المروي عن أثمة الهدى من آل محمد سُنَهُ .

⁽١) البقرة . ٢٥٣ -

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردوب عن أبي هريـرة ، والظاهـر أنه من الجري نظراً إلى قوله في ذيل الآية ﴿أُولئك هم المتقون﴾ .

وروي من طرقهم أن الذي صدق به أبو بكر وهمو أيضاً من تبطبيق الراوي ، روي أن الذي جاء به جبريل والذي صدق به محمد منظمة وهو أيضاً تطبيق غير أن السياق يدفعه فإن الآيات مسوقة لوصف النبي منظمة والمؤمنين وجبريل أجنبي عنه لا تعلق للكلام به .

* * *

وَلَئِنْ سَالْلَتُهُمْ مَنْ خَلَقَ آلسَّمْ وَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ آللَّهُ قُـلْ أَفَــرَأَيْتُمْ مَا تَــدْعُــونَ مِنْ دُونِ آللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ آللَّهُ بِضُــرّ هَـلْ هُنّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي برَحْمَةٍ هَـلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُـلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَيْ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَن اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلُّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلِ (٤١) ٱللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَّنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَـلِ مُسَمَّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَم ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ آللُّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أُولَـوْ كَانُـوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ ٱلشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمْ وَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأْزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُـلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِـرَ السَّمْ وَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكُ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيْمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئُاتُ مَا كَسَبُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئُاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرُّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمِ بَلْ هِي فِتْنَةً وَلِكِنَّ إِذَا خَوَلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمِ بَلْ هِي فَيْنَةً وَلِكِنَّ إِذَا خَوَلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِي فَيْنَةً وَلَكِنَّ أَكُمُ مَا كَشَبُوا وَالَّذِينَ طَلَمُوا مِنْ أَكْرَهُمُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَلْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَنَهُ مِنْ مَنْ فَيْلُهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٥) فَأَصَابَهُمْ سَيِئُاتُ مَا كَسَبُوا وَٱلَّذِينَ طَلَمُوا مِنْ مَنْ يَعْمَعُ مِنْ لِمُعْجِوزِينَ (١٥) أَولَمْ مِنْ يَعْمَعُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَوْمِنُونَ (٢٥) .

(بيان)

في الأيات كرة أخرى على المشركين بالاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية وأنه لا يصلح لها شركاؤهم وأن الشفاعة التي يـدعونهـا لشركـائهم لا يملكهـا إلا الله سبحانه وفيها أمور أخر متعلقة بالدعوة من موعظة وإنذار وتبشير .

قوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ إلى آخر الآية ، شروع في إقامة الحجة وقدقدم لها مقدمة تبتني الحجة عليها وهي مسلمة عند الخصم وهي أن خالق العالم هو الله سبحانه فإن الخصم لا نزاع له في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له وإنما يدعي لشركائه التدبير دون الخلق .

وإذا كان الخلق إليه تعالى فما في السماوات والأرض من عين ولا أثر إلا وينتهي وجوده إليه تعالى وليس لأحد وجوده إليه تعالى فما يصيب كل شيء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى وليس لأحد أن يمسك خيراً يريده تعالى له أو يكشف شراً يريده تعالى لــه لأنه من الخلق والإيجاد

ولا شريك له تعالى في الخلق والإيجاد حتى يزاحمه في خلق شيء أو يمنعه من خلق شيء أو يسبقه إلى خلق شيء والتدبير نظم الامور وترتيب بعضها على بعض خلق وإيجاد فائله الخالق لكل شيء كاف في تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شيء وليس وراء الخلق شيء حتى يتوهم استناده إلى غيره فهو الله رب كل شيء وإلهه لا رب سواه ولا إله غيره.

فقوله: ﴿قلَ أَفر أَيتُم ما تَدْعُونُ مِن دُونَ الله ﴾ أي أقم الحجة عليهم بانياً لها على هذه المقدمة المسلمة عندهم أن الله خالق كل شيء وقل مفرعاً عليه أخبروني عما تدعون من دون الله ، والتعبير عن آلهتهم بلفظة ﴿ما ﴾ دون ﴿من ﴾ ونحوه يفيد تعميم البيان للأصنام وأربابها جميعاً فإن الخواص منهم وإن قصروا العبادة على الأرباب من الملائكة وغيرهم واتخذوا الأصنام قبلة وذريعة إلى التوجه إلى أربابها لكن عامتهم ربما أخذوا الأصنام نفسها أرباباً وآلهة يعبدونها ونتيحة الحجة عامة تشمل الجميع .

وقوله: ﴿إِن أَرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمةٍ هل هن ممسكات رحمته ﴾الضر كالمرض والشدة ونحوهما ، وظاهر مقابلته الرحمة عمومه لكل مصيبة ، وإضافة الضر والرحمة إلى ضميره تعالى في ﴿كاشفات ضره﴾ و ﴿ممسكات رحمته ﴾ لحفظ النسبة لأن المانع من كشف الضر وإمساك الرحمة هو نسبتهما إليه تعالى .

وتخصيص الضر والرحمة به سنسة من عموم الحجة له ولغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم وقد خوفوه بآلهتهم من دون الله .

وإرجاع ضمير الجمع المؤنث إلى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير أولي العقل من الأصنام وهو يؤيد ما قدمناه في قوله: ﴿أَفْرَأْيَتُم مَا تَدْعُونُ مَنْ دُونُ الله ﴾ أن التعبير بما لتعميم الحجة للأصنام وأربابها .

وقوله: ﴿قل حسبي الله﴾ أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدل عليه قوله بعده: ﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾ وهو موضوع موضع نتيجة الحجة كأنه قيل: قبل لهم: إني اتخذت الله وكيلًا لأن أمر تدبيري إليه كما أن أمر خلقي إليه فهو في معنى قولنا: فقد دلت الحجة على ربوبيته وصدقت ذلك عملًا باتخاذه وكيلًا في أموري.

وقوله : ﴿عليه يتوكل المتوكلون ﴾ تقديم الظرف على متعلقه للدلالة على

الحصر أي عليه يتوكلون لا على غيره ، وإسناد الفعل إلى الوصف من مادته للدلالة على كون المراد المتوكلين بحقيقة معنى التوكل ففي الجملة ثناء عليه تعالى بأنه الأهمل للتوكل عليه يتوكل أهمل البصيرة في التوكل فى لا لوم على إن توكلت عليه وقلت : حسبي الله .

قوله تعالى: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل إلى قوله ﴿عذاب مقيم ﴾ المكان في المحسوسات مقيم ﴾ المكان في المحسوسات فأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم معناه أمرهم أن يستمروا على الحالة التي هم عليها من الكفر والعناد والصد عن سبيل الله .

وقوله: ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ الظاهر أن ﴿ من ﴾ استفهامية لا موصولة لظهور العلم فيما يتعلق بالجملة لا بالمفرد .

وقوله: ﴿ويحل عليه عـذاب مقيم﴾ أي دائم وهو المناسب للحلول، وتفكيك أمر الـعذابين يشهد أن المراد بالأول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الأخرة، وفي الكلام أشد التهديد.

والمعنى: قل مخاطباً للمشركين من قومك: يا قوم اعملوا ـ مستمرين ـ على حالتكم التي أنتم عليها من الكفر والعناد إني عامل ـ كما اؤمر غير منصرف عنه ـ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله ؟ وهو عذاب الدنيا كما في يوم بدر ويحل عليه ولا يفارقه عذاب دائم وهو عذاب الأخرة .

قوله تعالى : وإنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق إلى آخر الآية : في مقام التعليل للأمر الذي في الآية السابقة ، واللام في قوله : وللناس للتعليل أي لأجل الناس أن تتلوه عليهم وتبلغهم ما فيه ، والباء في قوله : وبالحق للملابسة أي ملابساً للحق لا يشوبه باطل .

وقوله: ﴿ فَمَن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أي تفرع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادة الحياة وثواب الدار الأخرة إلى نفسه ، ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود شقاؤه ووباله من عقاب الدار الأخرة إلى نفسه فالله سبحانه أجل من أن ينتفع بهداهم أو يتضرر بضلالهم .

وقوله : ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي مفوضاً إليه أمرهم قائماً بتدبير شؤونهم حتى توصل ما فيه من الهدى إلى قلوبهم .

والمعنى: إنما أمرناك أن تهددهم بما قلنا لأنا نزلنا عليك الكتاب بالحق لأجل أن تقرأه على الناس لا غير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه إلى نفسه ومن ضل ولم يهتد به فإنما يعود ضرره إلى نفسه وما أنت وكيلًا من قبلنا عليهم تدبر شؤونهم فتوصل الهدى إلى قلوبهم فليس لك من الأمرشيء .

قوله تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ إلى آخر الآية ، قال في المجمع: التوفي قبض الشيء على الإيضاء والإتمام يُقال: توفيت حقي من فلان واستوفيته بمعنى . انتهى . تقديم المسند إليه في الآية يفيد الحصر أي هو تعالى المتوفي لها لا غير وإذا انضمت الآية إلى مثل قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك المسوت الذي وكل بكم ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ﴾ (٢) أفادت معنى الأصالة والتبعية أي إنه تعالى هو المتوفي بالحقيقة وملك الموت والملائكة الذين هم أعوانه أسباب متوسطة يعملون بأمره .

وقوله: والله يتوفى الأنفس حين موتها المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا محموع الأرواح لأن المجموع غير مقبوض عند الموت وإنما المقبوض هو الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلقه بالبدن تعلق التصرف والتدبير والمراد بموتها موت أبدانها إما بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقلي ، وكذا المراد بمنامها .

وقوله: ﴿والتي لم تمت في منامها﴾ معطوف على الأنفس في الجملة السابقة ، والظاهر أن المنام اسم زمان وفي منامها متعلق بيتوفى والتقدير ويتوفى الأنفس التي لم تمت في وقت نومها .

ثم فصل تعالى في القول في الأنفس المتوفاة في وقت النوم فقال: ﴿فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ أي فيحفظ النفس التي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفاها حين موتها ولا يردها إلى بدنها ، ويرسل النفس التي توفاها الموت إلى بدنها إلى أجل مسمى تنتهي إليه الحياة .

⁽١) السجدة : ١١ .

وجعل الأجل المسمى غاية للإرسال دليل على أن المراد بـالإرسال جنسـه ممعنى أنه يرسل بعض الأنفس إرسالاً واحداً وبعضها إرسالاً بعد إرسال حتى ينتهي إلى الأجل المسمى .

ويستفاد من الأية أولاً: أن النفس موجود مغاير للمدن بحيث تفارق وتستقل عنه وتبقى بحيالها .

وثانياً: أن الموت والنوم كلاهما تـوف وإن افترقـا في أن الموت تـوف لا إرسال بعده والنوم توف ربما كان بعده إرسال .

ثم تمم الآية بقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلَكَ لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فيتـذكـرون أن الله سبحانه هو المدبر لأمرهم وأنهم إليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا.

قوله تعالى: ﴿أَمُ الْتَحَدُّوا مِن دُونَ اللهُ شَفَعَاء﴾ النح ﴿أُم ﴾ منقطعة أي بـل الله المشركون من دُون الله شفعاء وهم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أول السورة: ﴿مَا نَعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقال: ﴿يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾(١).

وقوله: ﴿قُلُ أُو لُو كَانُوا لايملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ أمر بأن يبرده عليهم بالمناقشة في إطلاق كلامهم فإن من البديهي أن الشفاعة تتوقف على علم في الشفيع يعلم به ما يريد ؟ وممن يريد ؟ ولمن يريد ؟ فلا معنى لشفاعة الجماد الذي لا شعور له وكذا تتوقف على أن يملك الشفيع الشفاعة ويكون له حق أن يشفع ولاملك لغيرالله إلاأن يملكه الله شيئاً ويأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعة أوليائهم مطلقاً الشامل لما لا يملكونه ولا علم لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرص .

فالاستفهام في ﴿أو لـوكانـوا﴾ الخ لـلإنكار والمعنى قـل لهم: هل تتخـذونهم شفعـاء لكم ولوكـانوا لا يملكـون من عند أنفسهم شيئـاً كـالمـلائكـة ولا يعقلون شيئـاً كالأصنام ؟ فإنه سفه .

قوله تعالى : ﴿قُلْ للهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ النَّح تـوضيح وتأكيد لما مر من قوله : ﴿قُلْ أُو لُو كَانُوا لايملكون شيئاً﴾ والـلام في ﴿للهُ للملك ،

⁽۱) يونس : ۱۸ .

وقوله: ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ في مقام التعليل للجملة السابقة ، والمعنى كل شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه إياها ، وأما استغلال بعض عباده كالملائكة يملك الشفاعة مطلقاً كم يقولون فمما لا يكون قال تعالى : ﴿ مَا مَنْ شَفِيعِ إلا مَنْ بعد إذنه ﴾ (١) .

وللأية معنى آخر أدق إذا انضمت إلى مثل قوله تعالى : وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع (٢) وهو أن الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن الشفاعة ينتهي إلى توسط بعض صفاته تعالى بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط الرحمة والمغفرة بينه وبين عده المذنب لانجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب .

والفرق بين هذا الملك وما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه في الوجه السابق كما في ملك زيند للدار بخلاف الملك في هذا الوجه فإن المالك فيه يتصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته .

وقوله: ﴿ثم إليه ترجعون ﴾ تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعاً الدال على الحصر وذلك أن الشفاعة إنما يملكها الذي ينتهي إليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها وأصلح حال المشفوع له وأما غيره فإنما يملكها إذا رضي بها وأذن فيها والله سبحانه هو الذي يرجع إليه العباد دون الذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعاً فقولهم بكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقاً ثم عبادتهم لهم كذلك بناء به مبنى يعتمد عليه .

وقيـل : قولـه : ﴿ثم إليه تـرجعون﴾ تهـديد لهم كـأنه قيـل : ثم إليـه تـرجعـون فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم ويخيب سعيكم في عبادتهم .

وقيل : يحتمل أن يكون تنصيصاً على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة وإيماء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه تعالى ، والوجه ما قدمناه .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللهِ وَحَدُهُ الشَّمَارُتُ قَلُوبِ اللَّذِينَ لَا يَؤْمَنُونَ بِالآخَرَةَ ﴾ الخ المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفرداً بالذكر من غير ذكر آلهتهم ومن مصاديقه قول لا إله إلا الله ، والاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء .

 ⁽١) يونس : ٣ .
(٢) الأنعام : ١٥ .

وإنما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأن ذلك هو الأصل في اشمئزازهم ولو كانوا مؤمنين بالآخرة وأنهم يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم عبدوه دون أوليائهم ولم يرغبوا عن ذكره وحده .

وقوله : ﴿ وَإِذَا ذَكُرُ الذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمُ يَسْتَبِشُرُ وَ فَ ﴾ المراد باللَّذِينَ مِن دُونُهُ آلهتهم ، والاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره في الوجه .

قوله تعالى: ﴿قُلَ اللّهِم فَاطَرِ السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت شحكم النخ لما بلغ الكلام مبلغاً لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخرة وإنكارهم الرجوع إليه تعالى حتى كانوا يشمشزون من ذكره تعالى وحده أمره سنون أن يذكره تعالى وحده ويذكرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه في صورة الالتجاء إليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث وقد وصف الله تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض أي مخرجها من كتم العدم إلى ساحة الوجود، وعالم الغيب والشهادة فلا يخفى عليه شيء، ولازمه أن يحكم بالحق وينفذ حكمه.

قوله تعالى: ﴿ وَلُو أَنْ لَلَذِينَ ظُلَمُوا مَا فِي الأَرْضُ جَمِيعاً وَمَثْلُهُ مَعَهُ لَا فَتَدُوا بِهُ مِن سُوءَ الْعَذَابِ يُومِ الْقَيَامَةِ ﴾ النخ المراد باللذين ظلموا هم اللذين ظلموا في اللذيا فالفعل يفيد مفاد الوصف ، والظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال : ﴿ أَنْ لَعْنَهُ اللّهُ عَلَى اللّه اللّهُ وَيَبْعُونُهُ اللّهُ وَيَبْعُونُهُ اللّهُ وَيَبْعُونُهُ وَهُم بِالْأَخْرَةُ كَافُرُونَ ﴾ (١) .

والمعنى : ولو أن الظالمين المنكرين للمعاد ضعفي ما في الأرض من أموال وذخائر وكنوز لجعلوه فدية من سوء العذاب .

وقوله: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون البداء والبدو بمعنى الظهور والحساب والحسبان العد، والاحتساب الاعتداد بالشيء بمعنى البناء على عده شيئاً وكثيراً ما يستعمل الحسبان والاحتساب بمعنى الظن كما قيل ومنه قوله: ﴿ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان والظن حيث قال: والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الأخر بباله ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر

⁽١) الأعراف : ٥٠ .

النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الأخر . انتهى .

ومقتضى سياق الآية أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة أموراً على صفة هي فوق ما تصوروه وأعظم وأهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أموراً ما كانوا يعتقدونها ويذعنون بها وبالجملة كانوا يسمعون أن لله حساباً ووزناً للأعمال وقضاء وناراً وألواناً من العذاب فيقيسون ما سمعوه على إنكار منهم له على ما عهدوه من هذه الأمور في الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان بخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم أهل بلحنة : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (١).

وأيضاً مقتضى السيباق أن البيدو المذكور من قبيل الطهور بعد الخفاء والانكشاف بعد الاستتاركما يشير إليه قوله تعالى : ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ وَبِدَا لَهُم سَيْنَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ إلى آخر الآية أي ظهر لهم سيئات أعمالهم بعد ما كنانت خفية عليهم فهو كقوله : ﴿ يُومِ تَجَدُ كُلُ نَفْسُ مَا عَمَلْتُ مِنْ سُوءَ ﴾ (٢) .

وقوله: ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾ أي ونزل عليهم وأصابهم ما كانوا يستهزؤون به في الدنيا إذا سمعوه من أولياء الدين من شدائـد يوم القيامة وأهواله وأنواع عذابه.

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ ضَرَ دَعَانًا ثُمَ إِذَا خُولْنَاهُ نَعْمَةً قَالَ إِنْمَا أُوتَيْتُه على علم﴾ النح الآية في مقام التعليل البياني لما تقدم من وصف الظالمين ولذا صدرت بالفاء لتتفرع على ما تقدم تفرع البيان على المبين .

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية دالة على الحق ولم يصغوا إلى الحجج المقامة عليهم ولم يسمعوا موعظة ولم يعتدوا بعبرة فجحدوا ربوبيته تعالى وأنكروا البعث والحساب وبلغ بهم ذلك أن اشمأزت قلوبهم إذا ذكر الله وحده .

بيّن أن ذلك مما يستدعيه طبع الإنسان الماثل إلى اتباع هوى نفسه والاغترار بما

زين له من نعم الدنيا والأسباب الظاهرية الحافة بها فالإنسان حليف النسيان إذا مسه الضر أقبل إلى ربه وأخلص له ودعاه ثم إذا خوله ربه نعمة نسبه إلى علم نفسه وخبرته ونسي ربه وجهل أنها فتنة فتن بها .

فقوله : ﴿فَإِذَا مَسَ الْإِنسَانَ ضَرَ﴾ أي مرض أو شدة ﴿دَعَانَا﴾ أي خصنا بـالدعـاء وانقطع عن غيرنا .

وقوله: ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾ التخويل الإعطاء على نحو الهبة ، وتقييد النعمة بقوله: ﴿منا﴾ للدلالة على كون وصف النعمة محفوظاً لها والمعنى خولناه نعمة ظاهراً كونها نعمة .

وضمير ﴿أُوتِيته﴾ للنعمة بما أنه شيء أو مال والعناية في ذلك بالإشارة إلى أنه لا يعترف بكونها نعمة منا بل يقطعها عنا فيسميها شيئاً أو مالاً ونحوه ولا يسميها نعمة حتى يضطره ذلك إلى الاعتراف بمنعم والإشارة إليه كما قال : ﴿اوتيته﴾ فصفح عن الفاعل لذلك والتعبيران أعني ﴿نعمة منا﴾ ﴿إنما اوتيته﴾ من لطيف تعبير القرآن ، وقد وجهوا تذكير الضمير في ﴿اوتيته﴾ بوجوه أخر غير موجهة من أرادها فليرجع إلى المفصلات .

والملائم لسياق الآية أن يكون معنى ﴿على علم﴾ على علم مني أي أوتيت هـذا الذي أوتيت على علم مني وخبرة بطرق كسب المعاش واقتناء الثروة وجمع المال .

وقيل : المراد إنما أوتيته على علم من الله بخير عندي استحق به أن يؤتيني النعمة ؛ وقيل : المراد على علم مني برضى الله عني ، وأنت خيير بأن ما تقدم من معنى قوله : ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته ﴾ لا يلائم شيئًا من القولين .

وقوله : ﴿ بِل هِي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي بل النعمة التي خولناه منها فتنة أي ابتلاء وامتحان نمتحنه بذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون بذلك .

وقيل : معناه بل تلك النعمة عذاب لهم ، وقيل : المعنى بل هـذه المقالـة فتنة لهم يعاقبون عليها والوجهان بعيدان لاسيما الأخير .

قوله تعالى : ﴿ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا ﴾ ضمير ﴿قد قالها ﴾ راجع إلى القول السابق باعتبار أنه مقالة أو كلمة .

والآية ردلقولهم وإثبات لكونها فتنة يمتحنون بها بأنهم لو أوتوها على علم منهم

واكتسبوها بحولهم وقوتهم لأغنى عنهم كسبهم ولم يصبهم سيئات ما كسبوا وحفظوها لأنفسهم وتنعموا بها ولم يهلكوا دونها وليس كذلك فهؤلاء الذين قبلهم قالوا هذه المقالة فما أغنى عنهم كسبهم وأصابهم سيئات ما كسبوا .

والظاهر أن الآية تشير بقوله : ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ إلى قارون وأمثاله وقد حكي عنه قول ﴿إِنْمَا اوتيته على علم مني﴾ في قصته من سورة القصص .

قوله تعالى: ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وماهم بمعجزين﴾ الإشارة بهؤلاء إلى قوم ميئية والمعنى أن هؤلاء الذين ظلموا من قومك سبيلهم سبيلهم سيصيبهم سيئات كسبهم ووب الاتعملهم وما هم بمعجزين لله .

قوله تعالى: ﴿ أَو لَم يَعلَمُ وَا أَنَّ الله يَبِسُطُ الرَّزِقُ لَمِنَ يَسُاءُ وَيَقَدُرُ ﴾ النخ جواب آخر عن قول القائل منهم: ﴿ إِنْمَا اوتيته على علم ﴾ وقد كان الجواب الأول ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ النخ جواباً من طريق النقض وهذا جواب من طريق المعارضة بالإشارة إلى دلالة الدليل على أن الله سبحانه هو الذي يبسط الرزق ويقدر.

بيان ذلك : أن سعي الإنسان عن علم وإرادة لتحصيل الـرزق ليس سبباً تـاماً موجباً لحصـول الرزق وإلا لم يتخلف ومن البين خـلافه فكم من طـالب رجع آيسـاً وساع خاب سعيه .

فهناك علل وشرائط زمانية ومكانية وموانع مختلفة باختلاف الظروف محارجة عن حد الإحصاء إذا اجتمعت وتوافقت أنتج ذلك حصول الرزق .

وليس اجتماع هذه العلل والشرائط على ما فيها من الاختلاف والتشتت والتفرق من مادة وزمان ومكان ومقتضيات أخر مرتبطة بها مقارنة أو متقدمة وعلل العلل ومقدماتها الذاهبة إلى ما لا يحصى ، اجتماعاً وتوافقاً على سبيل الاتفاق فإن الاتفاق لا يكون دائمياً ولا أكثرياً وقانون ارتزاق المرتزقين الشامل للموجودات الحية بل المنبسط على أقطار العالم المشهود وأرجائه ثابت محفوط في نظام جار على ما فيه من السعة والانبساط ولو انقطع لهلكت الأشياء لأول لحطة ومن فورها .

وهذا النظام الجاري بوحدته وتناسب أجزاؤه وتلاؤمها يكشف عن وحدانية ناظمه وفردانية مدبره ومديره الخارج عن أجزاء العالم المحفوظة بنفس النظام الباقية به وهو الله عز اسمه . على أن النظام من التدبير والتدبير من الخلق كما مر مراراً فخالق العالم مدبره ومدبره رازقه وهو الله تعالى شأنه .

ويشير إلى هذا البرهان في الآية قوله: ﴿ لَمَن يَشَاءُ ﴾ فإنه إذا كان بسط الرزق وقدره بمشيئته تعالى لم يكن بمشيئة الإنسان الذي يتبجح بعلمه وسعيه ولا بمشيئة شيء من العلل والأسباب وإيجابه كما هو ظاهر وليس من قبيل الاتفاق بل هو على نظام جار فهو بمشيئة جاعل النظام ومجريه وهو الله سبحانه.

وقد تقدم كلام في معنى الرزق في ذيل قوله تعالى : ﴿وترزق من تشاء بغيـر حساب﴾(١) وسيأتي كـلام فيه في تفسيـر قولـه : ﴿فورب السمـاء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾(٢) إن شاء الله تعالى .

(بحث روائي)

في التوحيد عن علي ما النه في حديث وقد سأله رجل عما اشتبه عليه من الأيات قال: وأما قوله: ﴿ يَتُوفَاكُم مَلْكُ الْمُوتُ اللّهِي وكل بكم ﴾ وقوله: ﴿ اللّهِينَ عَلَى الأَنفُسُ حَينَ مُوتُها ﴾ وقوله: ﴿ تَوفَتُه رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ وقوله: ﴿ اللّهِينَ يقولون يتوفاهم الملائكة طيبين يقولون يتوفاهم الملائكة ظيبين يقولون سلام عليكم ﴾ فإن الله تبارك وتعالى يدبر الأمر كيف يشاء ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء أما ملك الموت فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه ويوكل رسله من الملائكة خاصة بمن يشاء من خلقه .

وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأن فيهم القوي والضعيف ، ولأن منه ما يطاق حمله ومنه ما لا يطاق حمله إلا أن يسهل الله له حمله وأعانه عليه من خاصة أوليائه .

وإنما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي المميت ، وأنه يتوفى الأنفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم .

وفي الخصال عن علي منتخه في حديث الأربعمائة : لا ينام المسلم وهو جنب لا ينام إلى طهور فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد فإن روح المؤمن ترفع إلى الله

 ⁽۱) آل عمران : ۲۷ (۲) الذاريات : ۲۳ .

تعالى فيقبلها ويبارك عليها فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته وإن لم يكن أجلها قد حضر بعث بها مع امنائه من ملائكته فيردونها في جسده .

وفي المجمع روى العياشي بالإسناد عن الحسن بن محبوب عن عمرو بن ثابت عن أبي المقدام عن أبيه عن أبي جعفر بنك قال : ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه وصار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح وهو قوله سبحانه : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ الآية .

فمهما رأت في ملكوت السماوات فهو مما له تأويل وما رأت فيما بين السماء والأرض فهو مما يخيله الشيطان ولا تأويل له .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن المخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل إنه يبيت فيىرى الشيء لم يخطر لـه على بال فيكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلا يكون رؤياه شيئاً .

فقال علي بن أبي طالب : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى : والله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى فه فالله يتوفى الأنفس كلها فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها تلقيها الشياطين في الهواء فكذبتها وأخبرتها بالأباطيل فعجب عمر من قوله .

أقول: تقدم تفصيل الكلام في الرؤيا في سورة يوسف والرجوع إليه يعين في فهم معنى الروايتين ، وقد أطلق فيهما السماء على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأعظم وما بين السماء والأرض على ما اصطلح عليه بعالم المثال الأصغر فتبصر.

* * *

قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ آللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذَّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَلِيبُوا إِلَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلدَّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) وَأَلِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُ وَاللَّهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَاتِيكُمُ الْعَلَابُ ثُمَّ لَا

تُنْصَرُونَ (٤٥) وَآتَبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتَىٰ يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِیٰ عَلَیٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ آللّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ آلسَّاخِرِینَ (٢٥) أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی تَقُولَ لَوْ أَنَّ آللّهَ هَدَنْنِی لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِینَ (٧٥) أَوْ تَقُولَ حِینَ تَرَی الْعَدَابَ لَوْ أَنَّ آللّهَ هَدَنْنِی لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْسِنِینَ (٨٥) بَلیٰ قَدْ جَآءَتُكَ الْعَدَابَ لَوْ أَنَّ لِی كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ (٨٥) بَلیٰ قَدْ جَآءَتُكَ آلَتِی فَكَذَبْتَ بِهَا وَآسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِینَ (٩٥) وَیَـوْمَ الْقِیٰمَةِ آلَیْنِی فَکَذَبْنِ وَجُوهُهُمْ مُسُودًةٌ أَلْیسَ فِی جَهَنَّمَ مَثُویً لِلْمُتَکِیرِینَ (٢٠) وَیُنَجِی آللّهُ آلَٰذِینَ آتَقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا یَمَسُّهُمُ آلسُّوءً لِلْمُتَکِیرِینَ (٢٠) وَیُنَجِی آللّهُ آلَٰذِینَ آتَقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا یَمَسُّهُمُ آلسُّوءً لِلْمُتَکیرِینَ (٢٠) وَیُنَجِی آللّهُ آلَٰذِینَ آتَقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا یَمَسُّهُمُ آلسُّوءً لَلْهُ مَنْ يُحْزَنُونَ (٢٠) .

(بیان)

في الآيات أمره مسنية أن يدعوهم إلى الإسلام واتباع ما أنزل الله ويحذرهم عما يستعقبه اسرافهم على أنفسهم من الحسرة والندامة يـوم لا ينفعهم ذلك مع استكبارهم في الدنيا على الحق والفوز والنجاة يـومئذ للمتقين والنار والخسران للكافرين ، وفي لسان الآيات من الرأفة والرحمة ما لا يخفى .

قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرقوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ النح أمره مسئرات أن يدعوهم من قبله ويناديهم بلفظة يا عبادي وفيه تذكير بحجة الله سبحانه على دعوتهم إلى عبادتهم وترغيب لهم إلى استجابة الدعوة أما التذكير بالحجة فلأنه يشير إلى أنهم عباده وهو مولاهم ومن حق المولى على عبده أن يطيعه ويعبده فله أن يدعوه إلى طاعته وعبادته ، وأما ترغيبهم إلى استجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة إليه تعالى الباعث لهم إلى التمسك بذيل رحمته ومغفرته .

وقوله: ﴿ السنين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الإسراف ـ على ما ذكره الراغب تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر ؛ وكأن الفعل مضمن معنى الجناية أو ما يقرب منها ولذا عدي بعلى . والإسراف على

النفس هو التعدي عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك وسائر الذنوب الكبيرة والصغيرة على ما يعطيه السياق.

وقال جمع : إن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه تعالى في القرآن فمعنى يا عبادي المذين أسرفوا على أنفسهم أيها المؤمنون المذنبون .

ويدفعه أن قوله: ﴿ وَمِا عَبَادِي اللَّذِينَ أَسَرَفُوا ﴾ إلى تمام سبع آيات ذو سياق واحد متصل يفصح عن دعوتهم وقوله في ذيل الآيات : ﴿ بلى قد جاءتـك آياتي فكذبت بها واستكبرت ﴾ النح كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين .

وما ورد في كلامه تعالى من لفظ ﴿عبادي﴾ والمراد بـه المؤمنون بضعـة عشر مورداً جميعها محفوفة بالقرينة وليس بحيث ينصرف عند الإطلاق إلى المؤمنين كمـا أن الموارد التي أطلق فيها واريد به الأعم من المشرك والمؤمن في كلامه كذلك .

وبالجملة شمول ﴿عبادي﴾ في الآية للمشركين لا ينبغي أن يرتاب فيه ، والقول بأن المراد به المشركون خاصة نظراً إلى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب إلى القبول من تخصيصه بالمؤمنين .

وقوله: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ القنوط اليأس ، والمراد بالرحمة بقرينة خطاب المذنبين ودعوتهم هو الرحمة المتعلقة بالآخرة دون ما هي أعم الشاملة للدنيا والأخرة ومن المعلوم أن الذي يفتقر إليه المذنبون من شؤون رحمة الأخرة بلا واسطة هو المغفرة فالمراد بالرحمة المغفرة ولذا علل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله: ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ .

وفي الآية التفات من التكلم إلى الغيبة حيث قبل: ﴿إِنَّ الله يغفرُ ولَم يقل ! إِنِي أَغفر وذلك للإشارة إلى أنه الله الذي له الأسماء الحسنى ومنها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتي فإني أنا الله أغفر الذنوب جميعاً لأن الله هو الغفور الرحيم .

وقوله: ﴿إِنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ تعليل للنهي عن القنوط وإعلام بأن جميع الذنوب قابلة للمغفرة فالمغفرة عامة لكنها تحتاج إلى سبب مخصص ولا

تكون جزافا ، والذي عده القرآن سبباً للمغفرة أمران : الشفاعة (١) والتوبة لكن ليس المراد في قوله : ﴿إِن الله يغفر الـذنوب جميعاً ﴾ المغفرة الحاصلة بالشفاعة لأن الشفاعة لا تنال الشرك بنص القرآن في آيات كثيرة وقد مر أيضاً أن قوله : ﴿إِن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٢) ناظر إلى الشفاعة والآية أعني قوله : ﴿إِن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ موردها الشرك وسائر الذنوب .

فلا يبقى إلا أن يكون المراد المغفرة الحاصلة بالتوبة وكلامه تعالى صريح في مغفرة الذنوب جميعاً حتى الشرك بالتوبة .

على أن الآيات السبع - كما عرفت - كلام واحد ذو سياق واحد متصل بنهى عن القنوط - وهو تمهيد لما يتلوه - ويأمر بالتوبة والإسلام والعمل الصالح وليست الآية الأولى كلاماً مستقلاً منقطعاً عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفرة فيها بالتوبة وأي سبب آخر مفروض للمغفرة .

والآية أعني قوله : ﴿إِن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ من معارك الأراء بينهم فقد ذهب قوم إلى تقييد عموم المغفرة فيها بالشرك وسائر الكبائر التي وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبة فالمغفرة لا تنال إلا الصغائر من الذنوب .

وذهب آخرون إلى إطلاق المغفرة وعدم تقيدها بالتوبة ولا بسبب آخر من أسباب المغفرة غير أنهم قيدوها بالشرك لصراحة قوله: ﴿إِنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء الآية فاستنتجوا عموم المغفرة وإن لم يكن هناك سبب مخصص يرجح المذنب المغفور له على غيره في مغفرته كالتوبة والشفاعة وهي المغفرة الجزافية وقد استدلوا على (٣) ذلك بوجوه غير سديدة .

وأنت خبير بأن مورد الآية هو الشرك وسائر الـذنوب ، ومن المعلوم من كــلامه

⁽١) وقد مر الكلام فيها في مباحث الشفاعة في الحزء الأول من الكتاب .

⁽٢) النساء: ٨٨.

 ⁽٣) وقد استدل الألوسي في روح المعاني على عدم تقيد إطلاق المغفرة في الأية بالتوبة بسبعة عشر
 وجهاً لا تغيي طائلًا ، وناقش في كون المغفرة لا عن سبب مرجح من التوبة وغيرها منافياً للحكمة
 ثم قيد الآية متقدير ﴿لمن يشاء﴾ لوقوعه في بعض القراءات غير المشهورة فراجعه إن شئت .

قوله تعالى : ﴿وانيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون و عطف على قوله : ﴿ لا تقنطوا ﴾ ، والإنابة إلى الله الرجوع إليه وهو التوبة ، وقوله : ﴿ إلى ربكم ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر وكان مقتضى الظاهر أن يُقال : وأنيبوا إليه والوجه فيه الإشارة إلى التعليل فإن الملاك في عبادة الله سبحانه صفة ربوبية .

والمراد بالإسلام التسليم لله والانقياد له فيما يبريد ، وإنما قال : ﴿وأسلموا له ﴾ ولم يقل : وآمنوا به لأن المذكور قبل الآية وبعدها استكبارهم على الحق والمقابل له الإسلام .

وقوله: ﴿ مَن قبل أَن يَأْتِيكُم العذاب ثم لا تنصرون﴾ متعلق بقوله: ﴿ أَنيبُوا وأسلمُوا ﴾ والمراد بالعذاب عذاب الآخرة بقرينة الأيات التالية ، ويمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذي لا تقبل معه التوبة ومنه عذاب الاستئصال قال تعالى: ﴿ فلم يَكُ يَنفُعُهُم إِيمَانُهُم لَمَا رَأُوا بَأْسَنَا سَنَةَ الله التي قد خلت في عباده ﴾ (١) .

والمراد بقوله : ﴿ثم لا تنصرون﴾ أن المغفرة لا تدرككم بـوجه لعـدم تحقق سببها فالتوبة مفروضة العدم والشفاعة لا تشمل الشرك .

قوله تعالى : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون الخطاب عام للمؤمن والكافر كالخطابات السابقة والقرآن قد أنزل إلى الفريقين جميعاً .

وفي الآية أمر بإتباع أحسن ما أنزل من الله قيل: المراد به اتباع الأحكام من الحلال والحرام دون القصص ، وقيل: اتباع ما أمر به ونهي عنه كاتيان الواجب والمستحب واجتناب الحرام والمكروه دون المباح ، وقيل: الاتباع في العزائم وهي الواجبات والمحرمات ، وقيل: اتباع الناسخ دون المنسوخ ، وقيل: ما أنزل هو جنس الكتب السماوية وأحسنها القرآن فاتباع أحسن ما أنزل وهو اتباع القرآن .

⁽١) المؤمن : ٨٥ .

والإنصاف أن قوله في الآية السابقة : ﴿وأسلموا له﴾ يشمل مضمون كل من هذه الأقوال فحمل قوله : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم﴾ على شيء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب .

ولعل المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التي تشير إلى طريق استعمال حق العبودية في امتثال الخطابات الإلهية الاعتقادية والعملية وذلك كالخطابات الداعية إلى ذكر الله تعالى بالاستغراق وإلى حبه وإلى تقواه حق تقاته وإلى إخلاص الدين له فإن اتباع هذه الخطابات يحيي الإنسان حياة طيبة وينفخ فيه روح الإيمان ويصلح أعماله ويدخله في ولاية الله تعالى وهي الكرامة ليست فوقها كرامة .

وقوله: ﴿ وَمن قبل أَن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أنسب لهذا المعنى فإن الدعوة إلى عمل بالتخويف من مفاجأة الحرمان ومباغتة المانع إنما تكون غالباً فيما يساهل المدعو في أمره ويطيب نفسه بسوف ولعل ، وهذا المعنى أمس بإصلاح الباطن منه بإصلاح الظاهر والإتيان بأجساد الأعمال ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا الذَين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿أَن تقول نَهْس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ النح قال في المجمع : التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته ، وقال : التحسر الاغتمام مما فات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه . انتهى . وقال الراغب : الجنب الجارحة . قال : ثم يستعار في الناحية التي تليها لعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال . انتهى . فجنب الله جانبه وناحيته وهي ما يرجع إليه تعالى مما يجب على العبد أن يعامله ومصداق ذلك أن يعبده وحده ولا يعصيه والتفريط في جنب الله التقصير في ذلك .

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَاخِرِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ مَخْفَفَةٌ مِنَ النَّقَيلَةِ ، والسَاخِرِينَ اسم فاعل من سخر بمعنى استهزأ .

ومعنى الآية إنما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لئلا تقول نفس

⁽١) الأنفال : ٣٤ .

منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله وإني كنت من المستهزئين ، وموطن القول يوم القيامة .

قوله تعمالى : ﴿ أَو تَقُولُ لُـو أَنَ الله هداني لكنت من المتقين ﴾ ضمير تقول للنفس ، والمراد بالهداية الإرشاد وإراءة الطريق ، والمعنى ظاهر وهو قطع للعذر .

قوله تعالى : ﴿ أَو تَقُولُ حَيْنَ تَرَى الْعَذَابِ لَـُو أَنْ لَي كُرَةً فَـُأْكُونَ مِنَ الْمُحَسِينَ ﴾ لو للتمني والكرة الرجعة ، والمعنى أو تقول نفس متمنية حين ترى العذاب يوم القيامة : ليت لي رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين .

قوله تعالى: ﴿ بِلَى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ رد لها وجواب لخصوص قولها ثانياً: ﴿ لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ وموطن الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك ولسياق الجواب شهادة عليه .

وقد فصل بين قولها وجوابه بقوله : ﴿ أَو تَقَـولُ حَينَ تَرَى ﴾ البخ ولم يجب إلا عن قولها : ﴿ لَوَ أَنَ الله هداني ﴾ الخ .

والوجه في الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقولة عنها مرتبة على ترتيب صدورها عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة ورأى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء بالأعمال وقد فرطوا فيها وفاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا ونادوا بالحسرة على تفريطهم ويا حسرتا على ما فرطنا فيها هاك تعالى : وحتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ه (۱) .

ثم حوسبوا وأمر المتقون بدخول المجنة وقيل : ﴿وامنازوا اليوم أيها المجرمون﴾ (٣) تعللوا بقولهم : ﴿لُو أَنَ الله هداني لكنت من المتقين﴾ .

ثم إذا أمروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم ادخلوا فيها تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا ﴿أَو تقول حين ترى العذاب لمو أن لي كرة ﴾ قال تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا با ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ (٣) ، وقال حاكياً عنهم : ﴿وربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ (١) .

⁽١) الأنعام : ٣١ . (٣) الأنعام : ٢٧ .

⁽٢) يس : ٥٩ . (٤) المؤمنون ١٠٧٠ .

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب ولو أخر القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم (١).

وقد خص قولهم الثاني: ﴿ لو أن الله هداني ﴾ النج بالجواب وأمسك عن جواب قولهم الأول والثالث لأن في الأول حديث استهزائهم بالحق وأهله وفي الثالث تمنيهم للرجوع إلى الدنيا والله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة ويمنعهم أن يكلموه ولا يجيب عن كلامهم كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إني جنزيتهم اليسوم بمنا صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ (٢)

قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة تـرى الذين كـذبوا على الله وجـوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ الكذب على الله هو القول بأن له شريكاً وأن له ولداً ومنه البدعة في الدين .

وسواد الوجمه آية الـذلة وهي جنزاء تكبرهم ولـذا قال : ﴿ اليس في جهنم مشوى للمتكبرين﴾

قوله تعالى : ﴿وينجي الله اللذين اتقلوا بمفازتهم لا يمسهم السلوء ولا هم يحزنون﴾ الظاهر أن مفازة مصدر ميمي بمعنى الفوز وهو الظفر بالمراد ، والباء في ﴿بمفازتهم﴾ للملابسة أو السببية فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم .

وقوله : ﴿لا يمسهم﴾ الخ بيان لتنجيتهم كأنه ُقيل : ينجيهم لا يمسهم السوء من خارج ولا هم يحزنون في أنفسهم .

وللآية نظر إلى قوله تعالى في ذيـل آيات سـورة المؤمنون المنقـولة آنفاً : ﴿إِنِّي جَزِيتُهُمُ الْيُومُ بِمَا صِبرُوا أَنْهُمُ هُمُ الْفَائْزُونَ﴾ فتدبر ولا تغفل .

⁽١) وأصل الوجه مأخود من تفسير أبي السعود باصلاح سا .

⁽٢) المؤمنون . ١١١ .

(بحث روائي)

في المجمع عن أمير المؤمنين منالئك أنه قال : ما في القرآن آية أوسع من : ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية .

أقول: ورواه في الدر المنشور عن ابن جمريس عن ابن سيسرين عنه منافظه، وستأتي إن شاء الله في تفسير سورة الليل الرواية عنه منافظة أن قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾أرجى من هذه الآية .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهةي في شعب الإيمان عن ثوبان قال: سمعت رسول الله سلطية يقول: ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَا عَبَادِي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ إلى آخر الآية . فقال رجل : «يسا رسول الله فمن أشرك فسكت النبي مسلمة ثم قال : إلا من أشرك .

أقول: في الرواية شيء فقد تقدم أن مورد الآية هو الشمرك وأن الآية مقيدة بالتوبة .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي أيوب الأنصاري قال سمعت رسـول الله ميملات يقول : لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم .

أقول: ما في الحديث من المغفرة لا يأبي التقيد بأسباب المغفرة كالتوبة والشفاعة.

وفي المجمع قيل : هذه الآية يعني قوله : ﴿يا عبادي الـذين أسرفوا﴾ الخ نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل تـوبته فلما نزلت الآية أسلم فقيل : يا رسول الله هذه له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ فقال سنوش : بل للمسلمين عامة .

وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلاً عن تفسير الكلبي: بعث وحشي وجماعة إلى النبي سلم أنه ما يمنعنا من دينك إلا أننا سمعناك تقرأ في كتابك أن من يدعو مع الله إلها آخر ويقتل النفس ويزني يلق أثاماً ويخلد في العذاب ونحن قد فعلنا ذلك كله فبعث إليهم بقوله تعالى: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ فقالوا: نخاف أن لا نعمل صالحاً .

فبعث إليهم ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فقالوا نخاف أن لا ندخل في المشيئة. فبعث إليهم ﴿يا عبادي اللهين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ فجاءوا وأسلموا.

فقال النبي بمنيات لوحشي قباتل حمازة : غيب وجهك عني فياني لا أستطيع النظر إليك . قال : فلحق بالشام فمات في الخمر .

أقول: وروي ما يقرب منه في الدر المنثور بعدة طرق وفي بعضها أن قوله: ويا عبادي الذين أسرفوا النح نزل فيه كما في خبر المجمع السابق، ويضعفه أن السورة مكية وقد أسلم وحشي بعد الهجرة. على أن ظاهر الخبر عدم تقيد إطلاق المغفرة في الأية بالتوبة وقد عرفت أن السياق يأباه.

وقوله: فمات في الخمر لعله بفتح الخاء وتشديد الميم موضع من أعراض المدينة ولعله من غلط الناسخ والصحيح الحمص، ولعل المراد به سوته عن شرب الخمر فإنه كان مدمن الخمر وقد جلد في ذلك غيره مرة ثم ترك.

واعلم أن هنـاك روايات كثيـرة عن أئمة أهـل البيت عليهم السلام في تـطبيق هـذه الأيـات على شيعتهم وتـطبيق جنب الله عليهم وهي جميعـاً من الجــري دون التفسير ولذا تركنا إيرادها ههنا .

* * *

آللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُو عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلُ (٢٢) لَهُ مَقَالِيدُ آلسَّمْوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآلَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ آللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٣) قُلْ أَفَغَيْرَ آللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٢٤) الْخَاسِرُونَ (٣٤) قُلْ أَفْعَيْرَ آللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تَأْمُرُونِي قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱللَّهِ مَلْكَ وَلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٥) بَلِ ٱللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٥) وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْشَاكِرِينَ (٢٦) وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيْمَةِ وَٱلسَّمُواتُ مَطُويًاتُ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٧)

وَنَفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي ٱلسَّمْـوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَــآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نَفِخَ فِيـهِ أُخْرَىٰ فَـإِذَا هُمْ قِيَـامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْـرَقَتِ الأرْضُ بنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِٱلنَّبِيِّينَ وَٱلشَّهَدَآءِ وَقَضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُقِيَتْ كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتَّ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبَّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلٰكِنْ حَقَّتُ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوآ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِشْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبّرينَ (٧٢) وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبُّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَّتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْـدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَـوًّأَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَـآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتُرَى الْمَلْئِكَةُ حَآفِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبُّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ (٧٥) .

(بيان)

فصل من الأيات به تختتم السورة يذكر فيه خلاصة ما تنتجمه الحجج المذكورة فيها قبل ذلك ثم يؤمر منظمة أن يخاطب المشركين أن ما اقترحوا به عليه أن يعبد آلهتهم ليس إلا جهلاً بمقامه تعالى ويذكر النبي منظمة ما أوحى إليه وإلى الذين من قبله: لئن أشرك ليحبطن عمله.

ثم يذكر سبحانه أن المشركين ما عرفوه واجب معرفته وإلا لم يرتابـوا في ربوبيتـه لهم ولا عبدوا غيره ثم يذكر تعالى نظام الرجوع إليه وهو تدبير جانب المعاد من الخلقة ببيان جامع كاف لا مزيد عليه ويختم السورة بالحمد .

قوله تعالى : ﴿الله خالق كل شيء﴾ هذا هو الذي ذكر اعتراف المشركين به من قبل في قوله : ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ الآيــة ٣٨ من السورة وبنى عليه استناد الأشياء في تدبيرها إليه .

والجملة في المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستنداً إليه لما تقدم مراراً أن الخلق لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق إليه إلى اختصاص الملك به وهو قوله: ﴿ له مقاليد السماوات والأرض ﴾ ومن اختصاص الملك به إلى كونه هو الوكيل على كل شيء القائم مقامه في تدبير أمره.

وقد تقدم في ذيل قوله : ﴿ذَلَكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ لا إِلَّهَ إِلاَّ هُــو خَالَقَ كَــل شيء﴾(١) في الجزء السابع من الكتاب كلام في معنى عموم الخلقة لكل شيء .

قوله تعالى : ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ وذلك لأن انتهاء خلق كل شيء وجوده إليه يقتضي أن يكون تعالى هو المالك لكل شيء فلا يملك شيء من الأشياء لا نفسه ولا شيئاً مما يترشح من نفسه إلا بتمليك الله تعالى ، فهو لفقره مطلقاً لا يملك تدبيراً والله المالك لتدبيره .

وأما تمليكه تعالى له نفسه وعمله فهو أيضاً نوع من تدبيره تعالى مؤكد لملكه غير نساف ولا مناف حتى أن تسوكيله الملائكة على شيء من الأمر من شؤون وكالته تعالى عليهم لا تفويض للأمر وإبطال للوكالة فافهم ذلك .

وبالجملة إذ كان كلل شيء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئاً كان سبحانه هـو الوكيل عليه القائم مقامه المدبر لأمره والأسباب والمسببات في ذلك سـواء فالله سبحـانه هـوربها وحده .

فقد تبين أن الجملة مسوقة للإشارة إلى توحده في الربوبية وهو المقصود بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ للدلالة على أنه هو الغني

⁽١) الأنعام : ١٠٢ .

المطلق وأن المنافع والمضار راجعة إلى العباد ، أو أن المراد أنه تعالى حفيظ على كل شيء فيكون إشارة إلى أن الأشياء محتاجة إليه في بقائها كما أنها محتاجة إليه في حدوثها ، أجنبي عن معنى الآية بالمرة .

قوله تعالى : ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ النح المقاليد - كما قيل - بمعنى المفاتيح ولا مفرد له من لفظه .

ومفاتيح السماوات والأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى : ﴿ولله خزائن السماوات والأرض﴾(١) وخزائنها غيبها الذي يظهر منه الأشياء والنظام الجاري فيها فتخرج إلى الشهادة قال تعالى : ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾(٢) .

وملك مقاليد السماوات والأرض كناية عن ملك خزائنها التي منها وجودات الأشياء وأرزاقها وأعمارها وآجالها وسائر ما يواجهها في مسيرها من حين تبتدىء منه تعالى إلى حين ترجع إليه .

وهو أعني قوله : ﴿ له مقاليد ﴾ الخ في مقام التعليل لقوله : ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ ولذا جيء به مفصولاً من غير عطف .

وقوله: ﴿ وَالذَّينَ كَفُرُ وَا بِآيَاتُ الله أُولئك هم الخاسر و فَ كَالَة دم الله وَالله خالق كل شيء إلى قوله ﴿ والأرض ﴾ ذكر خلاصة ما تفيده الحجج المذكورة في خلال الآيات السابقة ، وعليه فقوله: ﴿ والذِّينَ كَفُرُ وا بآيَاتُ ربهم ﴾ النّ معطوف على قوله: ﴿ والله خالق كل شيء ﴾ والمعنى الذي تدل عليه الآيات والحجج المتقدمة أن الله سبحانه خالق فم الله فوكيل على كل شيء أي متوحد في الربوبية والألوهية والذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحدوه ولم يعبدوه أولئك هم الخاسرون .

وقد اختلفوا فيما عطف عليه قوله : ﴿وَالذِّينَ كَفَرُوا﴾ الْخ فَـذُكرُوا فيـه وجوهـاً مختلفة كثيرة لا جدوى فيها من أرادها فليرجع إلى المطولات .

قوله تعالى: ﴿قُلُ أَفْغِيرُ الله تأمرُ وَنِي أَعِبدُ أَيْهِا الْجَاهِلُونَ ﴾ لما أورد سبحانه خلاصة ما تنطق به الحجج المذكورة في السورة من توحده تعالى بالخلق والملك والتدبير ولازم ذلك توحده تعالى في الربوبية والألوهية أمر نبيه مسلمة أن يخاطب

⁽١) المنافقون : ٧ .

المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هـذه الحجـج البـاهـرة الظاهرة محل لعبادته غير الله وإجابة اقتراحهم وهل هي إلا الجهل .

فقوله: ﴿ أفغير الله تأمروني أعبد﴾ الفاء لتفريع مضمون الجملة على قبوله: ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ إلى آخر الآيتين ، والاستفهام إنكاري ، و ﴿ غير الله ﴾ مفعول ﴿ أعبد ﴾ قدم عليه لتعلق العناية به ، و ﴿ تأمروني ﴾ معترض بين الفعل ومفعوله وأصله تأمرونني أدغمت فيه إحدى النونين في الاخرى .

وقوله: ﴿ أَيُهَا الْجَاهُلُونَ ﴾ خطابهم بصفة الْجَهُلُ للْإِشْدَارَة إِلَى أَنْ أَمْرَهُم إِيَّاهُ بعبادة غير الله واقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته في الربوبية والألوهية ليس إلا جهلًا منهم .

قوله تعالى: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ الخ فيه تأييد لمدلول الحجج العقلية المذكورة بالوحي كأنه قيل: لا تعبد غير الله فإنه جهل وكيف يسوغ لك أن تعبده وقد دل الوحي على النهي عنه كما دل العقل على ذلك.

فقوله: ﴿ وَلَقَدُ أُوحِي إِلَيْكَ ﴾ الـ الله للقسم، وقوله: ﴿ لِنَن أَشْرِكَتْ لِيحبَطَنُ عَملُكُ ﴾ بيان لما أوحي إليك لئن أشركت الكلام وأقسم لقد أوحي إليك لئن أشركت النخ ، وإلى الـ ذين من قبلك من الأنبياء والـرســل لئن أشركتم ليحبـطن عملكم ولتكونن من الخاسرين.

وخطاب النبي حسنه وسائر الأنبياء عليهم السلام بالنهي عن الشرك وإنذارهم بحبط العمل والدخول في زمرة الخاسرين خطاب وإنذار على حقيقة معناهما كيف ؟ وغرض السورة - كما تقدمت الإشارة إليه - بيان أن النبي حسنه مامور بالإيمان بما يحدعو المشركين إلى الإيمان به مكلف بما يكلفهم ولا يسعه أن يجيبهم إلى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهتهم .

وأما كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهية يمتنع معها صدور المعصية عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحة توجهه إليهم ولوكان كذلك لم تتصور في حقهم معصية كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم .

على أن العصمة _ وهي قوة يمتنع معها صدور المعصية _ من شؤون مقام

(١) النساء ١١٣٠ .

العلم ـ كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا يَضَلُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُلُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُونَكُ مِن شُؤُونَ مَقَامُ الْعُمْـلُ يُضِرُونَكُ مِن شُؤُونَ مَقَامُ الْعُمْـلُ وَصِيحَةً صَدُورَ الْفُعُلُ وَالْتُرَكُ عَنِ الْجُوارِحِ .

فمنع العلم القطعي بمفسدة شيء منعاً قطعياً عن صدوره عن العالم بـ كمنع العلم بأثر السم عن شربه لاينافي كون العالم بذلك مختاراً في الفعل لصحة صدوره ولا صدوره عن جوارحه فالعصمة لا تنافي بوجه التكليف .

ومما تقدم يظهر ضعف ما يستفاد من بعضهم أن نهيه سلمات عن الشرك ونحبوه نهي صوري والمراد به نهي أمته فهو من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» .

ووجه الضعف ظاهر مما تقدم ، وأما قولنا كما ورد في بعض الروايات أن هذه الخطابات القرآنية من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» فمعناه أن التكليف لما كان من ظاهر أموه أن يتعلق بمن يجوز عليه الطاعة والمعصية فلو تعلق بمن ليس منه إلا الطاعة مع مشاركة غيره له كان لك تكليفاً على وجه أبلغ كالكناية التي هي أبلغ من التصريح .

وقوله: ﴿ولْتَكُونُن مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ظهر معناه مما تقدم ويمكن أن يكون اللام في الخاسرين مفيداً للعهد، والمعنى ولتكونن من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله وأعرضوا عن الحجج الدالة على وحدانيته.

قوله تعالى: ﴿ بِلِ الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ إضراب عن النهي المفهوم من سابق الكلام كأنه قيل: فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد، وتقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر.

والفاء في ﴿فاعبد﴾ زائدة للتأكيد على ما قيل ، وقيـل : هي فاء الجـزاء وقد حذف شرطه والتقدير بل إن كنت عابداً أو عاقلًا فاعبد الله .

وقوله: ﴿وكن من الشاكرين﴾ أي وكن بعبادتك لـه من الذين يشكرونه على نعمه الدالة على توحده في الربوبية والألوهية ، وقد تقـدم في تفسير قـوله تعـالى : ﴿ولا تجد أكثـرهم شاكـرين﴾(٣) أن مصداق

الشاكرين بحقيقة معنى الكلمة هم المخلصون بفتح اللام فراجع .

قوله تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره ﴾ إلى آخر الآية قدر الشيء هو مقداره وكميته من حجم أو عدد أو وزن وما أشبه ذلك ثم استعير للمعنويات من المكانة والمنزلة .

فقوله: ﴿ وَما قدروا الله حق قدره ﴾ تمثيل أريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم يعرفوه من حيث المعاد ورجوع الأشياء إليه كما يدل عليه تعقيب الجملة بقوله: ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ إلى آخر السورة حيث ذكر فيه انقطاع كل سبب دونه يوم القيامة ، وقبضه الأرض وطيه السماوات وتفخ الصور لإماتة الكل ثم لإحيائهم وإشراق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت وسوق المجرمين إلى النار والمتقين إلى الجنة فمن كان شأنه في الملك والتصرف هذا الشأن وعرف بذلك أوجبت هذه المعرفة الاقبال إليه بعبادته وحده والإعراض عن غيره بالكلية .

لكن المشركين لما لم يؤمنوا بالمعاد ولم يقدروه حق قدره ولم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته إلى عبادة من سواه .

وقوله: ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ أي الأرض بما فيها من الأجزاء والأسباب الفعالة بعضها في بعض ، والقبضة مصدر بمعنى المقبوضة ، والقبض على الشيء وكونه في القبضة كناية عن التسلط التام عليه أو انحصار التسلط عليه في القابض والمراد ههنا المعنى الثاني كما يدل قوله تعالى : ﴿ والأمر يومئذ الله ﴾ (١) وغيره من الأيات .

وقد مر مراراً أن معنى انحصار الملك والأمر والحكم والسلطان وغير ذلك يوم القيامة فيه تعالى ظهور ذلك لأهل الجمع يومئذ وإلا فهي له تعالى دائماً فمعنى كون الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ظهور ذلك يومئذ للناس لا أصله .

وقوله : ﴿والسماوات مطويات بيمينه ﴾ يمين الشيء يده اليمنى وجانبه القوى ويكنى بها عن القدرة ، ويستَفاد من السياق أن محصل الجملتين أعنى قوله :

⁽١) الانقطار: ١٩.

﴿والأرض جميعاً قبضته يـوم القيامـة والسماوات مـطويات بيمينـه ﴾ تقطع الأسباب الأرضية والسماوية وسقوطها وظهور أن لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه.

وقوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ تنزيه له تعالى عما أشركوا غيره في ربوبيته وألوهيته فنسبوا تدبير العالم إلى آلهتهم وعبدوها .

قوله تعالى : ﴿ وَنفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ النخ ظاهر ما ورد في كلامه تعالى في معنى نفخ الصور أن النفخ نفختان نفخة للإماتة ونفخة للإحياء ، وهو الذي تدل عليه روايات أثمة أهل البيت عليهم السلام وبعض ما ورد من طرق أهل السنة عن النبي عليهم وإن كان بعض آخر من رواياتهم لا يخلو عن إبهام ولذا اختار بعضهم أنها ثلاث نفخات نفخة للإماتة ونفخة للإحياء والبعث ونفخة للفزع والصعق وقال بعضهم : إنها أربع نفخات ولكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد .

ولعل انحصار النفخ في نفختي الإماتة والإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصعق في النفخة الأولى بالموت مع أن المعروف من معنى الصعق الغشية ، قال في الصحاح : يُقال : صعق الرجل صعقاً وتصاعقاً أي غشي عليه وأصعقه غيره ، ثم قال : وقوله تعالى : ﴿ فصعق من في السماوات ومن في الأرض ﴾ أي مات . ائتهى .

وقوله: ﴿ إِلا من شـاء الله ﴾ استثناء من أهـل السماوات والأرض واختلف في من هم ؟

فقيل: هم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل سادة الملائكة فإنهم إنما يموتون بعد ذلك ، وقيل: هم هؤلاء الأربعة وحملة العرش ، وقيل: هم رضوان والحور ومالك والزبانية ، وقيل: هو أسخف الأقوال: إن المراد بمن شاء الله هو الله سبحانه. وأنت خبير بأن شيئاً من هذه الأقاويل لا يستند إلى دليل من لفظة الآيات يصح الاستناد إليه.

نعم لمو تصور الله سبحانه خلق وراء السماوات والأرض جماز استثناؤهم من أهلهما استثناء منقطعاً أو قيل: إن الموت إنما يلحق الأجساد بمانقطاع تعلق الأرواح بها وأما الأرواح فإنها لا تموت فالأرواح هم المستثنون استثناء متصلاً ، ويؤيد هذا

الوجه بعض(١) الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : ﴿ثم نفخ فيه اخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ضمير ﴿فيه ﴾ للصور ، و ﴿أخرى ﴾ صفة محذوف موصوفها أي نفخة أخرى ، وقيام جمع قائم و ﴿ينظرون ﴾ أي ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف .

والمعنى: ونفخ في الصور نفخة أخرى فإذا هم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون أو ينتظرون أو ينتظرون أو ينتظرون أو المبهوت المتحير.

ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعد النفخ قياماً ينظرون ما في قوله: ﴿ وَنَفْخُ فِي الْصُورِ فَإِذَا هُم مِن الأَجْدَاثُ إِلَى رَبِهُمْ يَسْلُونَ ﴾ (٢) أي يسرعون، وقوله: ﴿ ويوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ (٣) ، وقوله: ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السماوات ومن في الأرض ﴾ (٤) فإن فزعهم بالنفخ وإسراعهم في المشي إلى عرصة المحشر وإتيانهم إليها أفواجاً كقيامهم ينظرون حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضاً.

قوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ إلى آخر الآية إشراق الأرض إضاءتها ، والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسي كثيراً واطلق أيضاً على الإيمان وعلى القرآن بعناية أن كلاً منهما يظهر للمتلس به ما خفي عليه لولاه قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (٥) ، وقال: ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ (١) .

وقد اختلفوا في معنى إشراق الأرض بنور ربها فقيل: إنها تضيء بنور يخلفه الله بلا واسطة أجسام مضيئة كالشمس والقمر وإضافته إليه تعالى من قبيل ﴿روحي﴾ و﴿ناقة الله﴾ .

وفيهأنه لا يستند إلى دليل يعتمد عليه .

(٥) البقرة: ٢٥٧.

 ⁽١) وهو ما ورد في قوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ المؤمن : ١٦ أن الجواب بقوله . ﴿ نقه الواحد القهار ﴾ من أرواح الأنبياء وغير ذلك من الروايات .

⁽٢) يس : ٥١ .

⁽٦) التغاس . ٨ .

⁽٤) النمل: ٨٧ .

⁽٣) النبأ : ١٨ .

وقيل : المراد به تجلي الرب تعالى لفصل القضاء كما ورد في بعض الأخبـار من طرق أهل السنة .

وفيه أنه على تقدير صحة الرواية لا يدل على المدعي .

وقيل : المراد به إضاءة الأرض بعدل ربها يوم القيامة لأن نور الأرض بالعدل كما أن نور العلم بالعمل .

وفيه أن صحة استعارة النور للعدل في نفسه لا تستلزم كون المراد بـالنور في الآية هو العدل إلا بدليل يدل عليه ولم يأت به .

وفي الكشاف قد استعار الله عز وجل النور للحق والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك ، والمعنى وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات .

وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل ، وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يرينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه ، ويحكم بالحق بين أهلها ، ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه ، وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجور فيها غير ربها ، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور ، وترى الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الأفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله من بيم القيامة وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم .

وفيه أولاً: أن قوله إن النور مستعار في مواضع كثيرة من القرآن للحق والقرآن والبرهان فاستعارته للحق والبرهان غير ظاهر في شيء من الأيات .

وثانياً: أن الحق والعدل مفهومان متغايران وإن كانا ربما يتصادقان وكون النور في الآية مستعاراً للحق لا يستلزم كون العدل مراداً به ، ولذا لما أراد بيان إرادة العدل من النور ذكر الحق مع العدل ثم استنتج للعدل دون الحق .

ولا يبعد أن يراد_ والله أعلم ـ من إشراق الأرض بنور ربهـا ما هـو خاصـة يوم القيامة من انكشاف الغطاء وظهور الأشياء بحقائقها وبـدو الأعمال من خيـر أو شر أو

طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين ، وإشراق الشيء هو ظهوره بالنور ولا ريب أن مظهرها يومتـذ هو الله سبحـانه إذ الأسبـاب ساقـطة دونه فـالأشياء مشـرقة بنـور مكتسب منه تعالى .

وهذا الإشراق وإن كان عاماً لكل شيء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض وأهله يـومئذ من الشأن خصها بـالبيان فقال : ﴿وأشـرقت الأرض بنـور ربها﴾ وذكره تعالى بعنوان ربوبية الأرض تعويضاً للمشركين المنكرين لربوبيته تعالى للأرض وما فيها .

والمراد بالأرض مع ذلك لملأرض وما فيها وما يتعلق بها كما تقدم أن المراد بالأرض في قوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَته ﴾ ذلك .

ويستفاد ما قدمناه من مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى : ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (١) وقوله : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء ﴿ (١) ، وقوله : ﴿يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ (١) وآيات أخرى كثيرة تدل على ظهور الأعمال وتجسمها وشهادة الأعضاء وغير ذلك .

وقوله: ﴿ووضع الكتاب﴾ قيل: المراد به الحساب وهو كما ترى وقيل: المراد به اللوح المراد به اللوح المحائف الأعمال التي يحاسب عليها ويقضى بها، وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ويؤيده قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾(٤).

وقوله: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ أما النبيون فليسألوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى: ﴿فلنسألن اللذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ (٥) ، وأما الشهداء وهم شهداء الأعمال فليؤدوا ما تحملوه من الشهادة قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيعد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (٢) .

⁽١) ق ، ٢٢ ، (٣) الزلزال ٠ ٨ ، (٥) الأعراف : ٦ .

 ⁽٢) آل عمران : ۳۰ .
 (٤) النساء : ۲۱ .

وقوله: ﴿وقضي بينهم بالحقوهم لا يظلمون ﴾ ضميرا الجمع للناس المعلوم من السياق ، والقضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كراراً في كلامه تعالى قال : ﴿إِنْ رَبُّكُ يَقْضِي بِينَهُم يُوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ التوفية الإعطاء بالتمام وقد علقت بنفس ما عملت دون جزائه ويقطع ذلك الريب في كونه قسطاً وعدلاً من أصله والآية بمنزلة البيان لقوله : ﴿وهم لا يظلمون﴾ .

وقوله: ﴿وهو أعلم بما يفعلون﴾ أي ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء عن جهل منه وحاجة بـل لأن يجري حكمـه على القسط والعدل فهو أعلم بما يفعلون .

والآية السابقة تتضمن القضاء والحكم وهذه الآية إجراؤه والآيات الـلاحقة تفصيل إجرائه .

قوله تعالى : ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ إلى آخر الآية السوق بالفتح فالسكون ـ على ما في المجمع ـ الحث على السير ، والزمر جمع زمرة وهي ـ كما في الصحاح ـ الجماعة من الناس .

والمعنى: ﴿وسيق﴾ وحث على السير ﴿الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ جماعة بعد جماعة ﴿حتى إذا جازها﴾ بلغوها ﴿فتحت أبوابها﴾ لأجل دخولهم وهي سبعة قال تعالى: ﴿لها سبعة أبواب﴾ (٢) ﴿وقال لهم خزنتها ﴾ وهم الملائكة الموكلون عليها يقولون لهم تهجيناً وإنكاراً عليهم ﴿ألم يأتكم رسل منكم ﴾ من نوعكم من البشر ﴿يتلون ﴾ ويقرؤون ﴿عليكم آيات ربكم ﴾ من الحجج الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته ﴿قالوا ﴾ بلى قد جاؤوا وتلوا ﴿ولكن ﴾ كفرنا وكذبنا و ﴿حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وكلمة العذاب هي قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النارهم فيها خالدون ﴾ (٣).

القائل ـ على ما يفيده السياق ـ خزنة جهنم ، وفي قوله : ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾

⁽۱) يونس : ۹۳ .

دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق .

قوله تعالى: ﴿وسيق اللذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها للم يذكر في الآية جواب إذا إشارة إلى أنه أمر فوق ما يوصف ووراء ما يقدر بقدر ، وقوله : ﴿وفتحت أبوابها لله حال أي جاؤها وقد فتحت أبوابها ، وقوله : ﴿خزنتها هم الملائكة الموكلون عليها .

والمعنى: ﴿وسيق﴾ وحث على السير ﴿الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ جماعة بعد جماعة ﴿حتى إذا جاؤها ﴾ وقد ﴿فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ﴾ الموكلون عليها مستقبلين لهم ﴿سلام عليكم ﴾ أنتم في سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون ﴿طبتم ﴾ ولعله تعليل لإطلاق السلام ﴿فادخلوها خالدين ﴾ فيها . وهو أثر طيبهم .

قوله تعالى : ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ إلى آخر الآية . القائلون هم المتقون والمراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى وفيما أوحي إلى سائر الأنباء من وعد المتقين بالجنة قال : ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات﴾(١) وقال : ﴿إِنْ للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾(٢) ، كذا قيل ، وقيل المراد بالوعد الوعد بالمعث والثواب .

ولا يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله: ﴿ أُولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها حالمدون (٣) ويكون قبوله: ﴿ وأورثنا الأرض ﴾ عطف تفسير لقوله ﴿ صدقنا وعده ﴾ .

وقوله: ﴿وأورثنا الأرض﴾ المراد بالأرض ـ على ما قالوا ـ أرض الجنة وهي التي عليها الاستقرار فيها وقد تقدم في أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثتهم الجنة بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم .

وقوله: ﴿ نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ بيان لإيـراثهم الأرض ، وتبديـل ضميـر الأرض بالجنة للإشارة إلى أنها المراد بالأرض .

وقيل : المراد بالأرض هي أرض الدنيا وهو سخيف إلا أن يـوجه بـأن الجنة هي

(١) آل عمران ١٥

عقبي هذه الدار قال تعالى : ﴿ أُولئك لهم عقبي الدار ﴾ (١) .

والمعنى : وقبال المتقون بعد دخول الجنة : الحمد لله الذي صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء ونختار ـ فلهم ما يشاؤون فيها ـ .

وقوله : ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ أي فنعم الأجر أجر العاملين لله تعالى ، وهو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة ، واحتمل أن يكون من قوله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾ إلى آخر الآية . الحف الإحداق والإحاطة بالشيء، والعرش هو المقام الذي يصدر منه الفرامين والأوامر الإلهية التي يدبر بها العالم ، والملائكة هم المجرون لمشيئة العاملون بأمره ،ورؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك وقد طويت السماوات .

والمعنى : وترى يومئذ الملائكة والحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لإجراء الأمر الصادر منه وهم يسبحون بحمد ربهم .

وقوله: ﴿وقضي بينهم﴾ اختمل رجوع الضمير إلى الملائكة ، ورجوعه إلى الناس والملائكة ، ورجوعه إلى الناس والملائكة جميعا ، ورجوعه إلى جميع الخلائق ، ورجوعه إلى الناس فالقضاء بين أهل الجنة وأهل النار منهم أو بين الأنبياء وأممهم .

ويضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلًا في قوله : ﴿وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون﴾ فذكر القضاء بينهم ثانياً تكرار من غير موجب .

لكن ظاهر القضاء بين جماعة هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم ولا تحقق للاختلاف بين الملائكة ، وهذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم والقضاء بين الماس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم ومقدماته وتبعاته من حضور المتخاصمين وطرح الدعوى وشهادة الشهود وحكم الحاكم وإيفاء المحق حقه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أولاً نفس الحكم الإلهي وبهذا القضاء المذكور ثانياً هو مجموع ما يجري عليهم من حيى يبعثون إلى حيى دخول أهل النار النار وأهل الجنة الجنة واستقرارهم فيهما وبذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب .

⁽١) الرعد : ٢٢ .

وقوله : ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ كلمة خاتمة للبدء والعود وثناء عام لـه تعالى أنه لم يفعل ولا يفعل إلا الجميل .

قيل : قائله المتقون وكان حمدهم الأول على دخولهم الجنة والثاني للقضاء بينهم وبين غيرهم بالحق ، وقيل : قائله الملائكة ولم ينسب إليهم صريحاً لتعظيم أمرهم ، وقيل : القائل جميع الخلائق .

ويؤيد الأول قوله تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿وَآخِر دَعُواهُم أَنَّ الحَمَدُ للهُ رَبُ العَالَمِينَ﴾(١) وهو حمد عام خاتم للخلقة كما سمعت .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قول تعالى : ﴿ لَئُنَ أَسْرَكَتَ لَيَحْبَطُنَ عَمَلُكُ وَلَتَكُونَنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فهذه مخاطبة النبي سِلْمُ والمعنى لأُمته ، وهو ما قاله الصادق سَلَتُك : إن الله عز وجل بعث نبيه بإياك أعني واسمعي يا جارة .

وعن كتاب التوحيـد بإسناده إلى الفضيل بن يسـار قال : سمعت أبـا عبد الله عنوف : إن الله عز وجل لا يوصف .

قال : وقال زرارة : قال أبو جعفر سينك : إن الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه : ﴿وَمَا قَـدَرُوا الله حق قدره ؟﴾ فـلا يوصف بقـدر إلا كان أعـظم من ذلك .

وفيه بإسناده عن سليمان بن مهران قال : سألت أبا عبـد الله من عن قول الله عز وجل : ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُه يَوْمُ القَيَامَةُ ﴾ قال : ملكه لا يملكها معه أحد .

والقبض عن الله تعالى في موضع آخر المنع والبسط منه الإعطاء والتوسع كما قال عز وجل: ﴿وَالله يَقْبُضُ ويبسط وإليه ترجعون﴾ يعني يعطي ويوسع ويضيق، والقبض منه عز وجل في وجه آخر الأخذ والأخذ في وجه القبول منه كما قال: ﴿وَيَاخِذُ الصَدْقَاتِ﴾ أي يقبلها من أهلها ويثيب عليها.

قلت : فقوله عز وجل : ﴿والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ؟ قال : اليمين اليد

⁽۱) يونس : ۱۰ .

واليد القدرة والقوة يقول عز وجل : ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ أي بقدرته وقوته سبحانه وتعالى عما يشركون .

أقول: وروى في الدر المنشور عن أبي هريرة عن النبي عَلَيْ في قولسه تعالى: ﴿ وَفَصِعَقَ مَنْ فِي السّماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ أنهم الشهداء مقلدون بأسيافهم حول عرشه الخبر وظاهره أن النفخة غير نفخة الإماتة وقد تقدم أن الآية ظاهرة في خلافه.

وروى عن أنس عنه ﷺ أنهم جبرئيـل وميكائيـل وإسرافيـل وملك المـوت وحملة العرش وأنهم يموتون بعدها الخبر . والآية ظاهرة في خلافه .

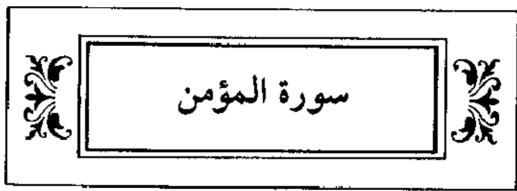
وروى عن جابر: استثنى موسى لأنه كان صعق قبل ، الخبر. وفيه أن الصعق سواء أخذ بمعنى الموت أو بمعنى الغشية لا يختص الصعق قبل ذلك بموسى سلام.

وفي المجمع في قوله تعالى : ﴿ لها سبعة أبواب فيه قولان أحدهما ما روي عن أمير المؤمنين الله أن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض ووضع إحدى يديه على الأخرى فقال : هكذا وأن الله وضع الجنان على الأرض ، ووضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم ، وفوقها لظى ، وفوقها الحطمة ، وفوقها النيران بعضها ألجحيم ، وفوقها السعير ، وفوقها الهاوية وفي رواية الكلبي أسفلها الهاوية وأعلاها جهنم .

وفي الخصال عن أبي عبد الله عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام قال : إن للجنة ثمانية أبواب : بـاب يدخـل منه النبيـون والصديقـون ، وباب يـدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا .

فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول : رب سلم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد أُجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه .

وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مثقال من بغضنا أهل البيت .



مكية ، وهي خمس وثمانون أية

بِسْم ِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيم

خَمْ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنْ وَقَابِلِ ٱلتَوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُو إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلَّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ وَهَمَّتْ كُلُ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقِّ فَأَخُذُتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلنَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ (٢) .

(بیان)

تتكلم السورة في استكبار الكافرين ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذي يدعون إليه ولذلك نراها تذكر جدالهم وتعود إليه عودة بعد عودة فرما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد، فالذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً في فألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون.

فتكسر سورة استكبارهم وجدالهم بـذكر مـا عـاقب الله بـه المـاضين من الأمم

المكذبين وما أعد الله لهم من العذاب المهين بذكر طرف مما يجري عليهم في الأخرة .

وتدحض باطل أقاويلهم بوجوه من الحجج الناطقة بتوحده في الربوبية والألوهية وتأمر النبي منتزات بالصبر وتعده والمؤمنين به بالنصر ، وتأمرهم أن يؤذنهم أنه مسلم لربه غير تارك لعبادته فلييأسوا منه .

والسورة مكية كلها لاتصال آياتها وشهادة مضامينها بذلك ، وما قيل فيه من الآيات أنه نزل بالمدينة لا يعبؤ به وسيجيء الإشارة إليها إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله : ﴿تنزيل الكتاب﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها والتقدير هذا كتاب منزل من الله .

وتخصيص الوصفين: ﴿العزيز العليم﴾ بالذكر قيل: للإشارة إلى ما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عنها نطاق الأفهام، وقيل: هو من باب التفنن.

والوجه أن يُقال: إن السورة لما كانت تتكلم حول جحد الجاحدين ومجادلتهم في آيات الله بالباطل جهلاً وهم يحسبونه علماً ويعتزون به كما حكى ذلك عنهم في خاتمة السورة بقوله: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وكما حكى عن فرعون قوله لقومه في موسى: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد وقوله لهم: ﴿ما اريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة إلى أن هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتى يخاف على ما نـزله من استعـلائهم واستكبارهم بحسب أوهامهم ، عليم على الإطلاق لا يداخل علمه جهل وضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزله من الحق وبينه بحججه الباهرة .

ويؤيد هذا الوجه ما في الآية التالية من قوله : ﴿غَافَرِ اللَّذَنِبِ وَقَابِـلِ التَّوْبِ﴾ الخ على ما سنبين .

قوله تعالى : ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي السطول لا إله إلا

هو إليه المصير الإتيان بصيغة اسم الفاعل في ﴿غافر الذنب وقابل التوب ﴾ ـ لعله ـ للدلالة على الاستمرار التجددي فإن المغفرة وقبول التوب من صفاته الفعلية ولا يزال تعالى يغفر الذنب ثم يغفر ويقبل التوب ثم يقبل.

وإنما عطف قابل التوب على ما قبله دون ﴿ شدید العقاب ذي الطول﴾ لأن غافر الذنب وقابل التوب مجموعهما كصفة واحدة متعلقة بالعباد المذنبين يغفر لهم تارة بتوبة وتارة بغيرها كالشفاعة .

والعقاب والمعاقبة المؤاخذة التي تكون في عاقبة الذنب قال الراغب: والعُقب والعقبى يختصان بالثواب نحو خير ثواباً وخير عقباً ، وقال تعالى: ﴿وأُولئك لهم عقبى الدار ﴾ والعاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو والعاقبة للمتقين ، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو ثم كان عاقبة الذين أساءوا ، وقبوله : فكان عاقبتهما أنهما في النار يصح أن يكون ذلك استعارة من ضده ، والعقوبة والمعاقبة والعقاب تختص بالعذاب . انتهى .

فشديد العقباب كذي انتقبام من أسماء الله الحسنى تحكي صفته تعبالى في جانب العداب كما يحكي الغفور والرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة .

والطول ـ على ما في المجمع ـ الإنعام الـذي تطول مـدته على صاحبه فـذو الـطول من أسمائه الحسنى في معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعـدم شمـولـه النعم القصار .

وذكر هذه الأسماء الأربعة: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول بعد اسم العليم لملإشارة إلى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقة المبني على العلم مبني على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة.

وذلك أن العالم الإنساني كما يتحد قبيلاً واحداً في نيل الطول الإلهي والتنعم بنعمه المستمرة المتوالية مدى الحياة الدنيا ينقسم من حيث حياته الأخرة قسمين وينشعب إلى شعبتين: سعيد وشقي والله سبحانه عالم بتفاصيل خلقه وكيف لا يعلم وهو خالقها وفاعلها ، ومقتضى كونه غافراً للذنب قابلاً للتوب أن يغفر لمن استعد للمغفرة وأن يقبل توبة التائب إليه ، ومقتضى كونه شديد العقاب أن يعاقب من استحق ذلك .

ومقتضى ذلك أن يهدي الناس إلى صراط السعادة كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْنَا لَلْهَ لَذِي وَإِنْ اللّهِ لَكُونَا لَلْهَ فَصِدَ السبيلِ ﴿(٢) ، وقال : ﴿وعلى الله قصد السبيل ﴾(٢) . لينقسم الناس بذلك قسمين ويتميز عنده السعيد من الشقي والمهتدي من الضال فيرحم هذا ويعذب ذلك .

فتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم مبني على علمه المحيط بخلقه أنهم في حاجة إلى دعوة يهتدي بها قوم ويضل بردها آخرون ليغفر لقوم ويعذب آخرين ، وفي حاجة إليها لينتظم بها نظام معاشهم في الدنيا فينعموا بطوله وتعمته في الدنيا ثم في دار القرار .

فهذا شأن كتابه المنزل بعلمه الذي لا يشوبه جهل والمبني على الحق الـذي لا يداخله باطل ، وأين هـو من تكـذيب الـذين لا يعلمون إلا ظـاهـراً من الحيـاة وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق .

وعلى هذا الذي ذكرنا من العناية بالعلم يشهد ما سيذكره تعالى من دعاء الملائكة للمؤمنين بالمغفوة : ﴿ رَبّنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك فتدبر فيه .

وقوله: ﴿ لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ ذكر كلمة التوحيد لـ لإشارة إلى وجموب عبادته وحده فلا تلغو الدعوة الدينية بتنزيل الكتاب ، وذكر كون مصير الكل ورجوعهم إليه وهو البعث لـ الإشارة إلى أنه هو السبب العمدة الداعي إلى الإيمان بالكتاب واتباعه فيما يدعون إليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذي يستتبع الخوف والرجاء خوف العقاب ورجاء الثواب الداعيين إلى عبادة الله سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا اللذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد له لما ذكر تنزيل الكتاب وأشار إلى الحجة الباهرة على حقيته ، المستفادة من صفاته الكريمة المعدودة في الآيتين ، الدالة على أنه منزّل بعلمه الذي لا يشوبه جهل وبالحق الذي لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقة بباطل جدالهم فلوّح إلى إن هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين ولا مغفولاً عنهم فإنهم كما حدالهم فلوّح إلى إن هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين ولا مغفولاً عنهم فإنهم كما

نزّل الكتاب ليغفر الذنب ويفبل التوب كذلك نـزّله ليعـاقب أهل العقـاب فلا يسوأن النبي منعاني جدالهم ولا يغرنه ما يشاهده من حالهم .

فقوله: ﴿ مَا يَجَادُلُ فِي آيَاتُ الله ﴾ لم يقل : ما يَجَادُلُ فِيه أي فِي القرآنُ ليدلُ على أن الجدالُ فِي الحق الذي تبدل عليه الآيات بما هي آيات . على أن طرف جدالهم هو النبي مُولِينَ وهو داع إلى الحق الذي تبدل عليه الآيات فجدالهم للدفع الحق لا للدفاع عن الحق . على أن الجدالُ في الآية التالية مقيدة بالباطلُ لإدحاض الحق .

وقوله: ﴿ إِلاَ الدين كفروا ﴾ ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى زواله ، وقد قيل : ﴿ ما يجادل ﴾ ولم يقل : لا يجادل ، وكذا ظاهر قوله : ﴿ فَلا يَعْرَرُكُ تَقْلُبُهُمْ فِي البلاد ﴾ أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي مُسَنَّ وإن لم يكونوا من أهل مكة .

وتقلبهم في البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياة إلى طور آخر ومن نعمة إلى نعمة في سلامة وصحة وعافية ، وتوجيه النهي عن الغرور إلى تقلبهم في البلاد كناية عن نهي النبي عالم عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه .

قوله تعالى ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم﴾ النح في مقام الجواب عما يسبق إلى الوهم أنهم استكبروا وجادلوا في آيات الله فلم يكن بهم بأس وسبقوا في ذلك .

ومحصل الجواب: أن الأمم الماضين كقوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد وتمود وقوم لوط وغيرهم سبقوا هؤلاء إلى مثل صنيعهم من التكذيب والجدال

⁽١) النحل: ١٢٥

بالباطل وهموا بـرسولهم ليـأخذوه فحـل بهم العقاب وكـذلك قضى في حق الكفـار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله إلى ما يريد توهم باطل.

فقوله: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ﴿ دفع للدخل السابق ولذا جيء بالفصل ، وقوله: ﴿وهمّت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ يقال : هم به أي قصده ويغلب فيه القصد بالسوء أي قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى في قصصهم .

وقوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ الإدحاض الإزالة والإبطال وقوله: ﴿فأخذتهم﴾ أي عذبتهم ، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وحده والنكتة فيه الإشارة إلى أن أمرهم في هذا الطغيان والاستكبار إلى الله وحده لا يدخل بينه وبينهم أحد بنصرة أو شفاعة كما قال: ﴿فصب عليهم ربك سوط عداب إن ربك لبالمرصاد﴾(١).

وقوله: ﴿فكيف كان عقاب﴾ توجيه لذهن المخاطب إلى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم وقبطع دامرهم ليحضر شدة ما نزل بهم وقد قصمه الله فيما قص من قصصهم .

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلْكَ حَقَتَ كُلّمة رَبّكَ عَلَى الذّينَ كَفَرُوا أَنْهُم أَصِحَابِ النّارِ فَاهُرِ السّيَاقِ أَنْ المشبّه به هـو ما في الآية السابقة من أخذهم وعقابهم والمراد بالذين كفروا مطلق الكفر من الماضين ، والمعنى كما أخذ الله المكذيب من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقت كلمته على مطبق الكافرين بعذاب الآخرة ، والذين كفروا من قومك منهم .

وقيل : المراد بالذين كفروا كفار مكة ، ولا يساعـد عليه السيــاق والتشبيه لا يخلو عليه من اختلال .

وفي قوله : ﴿كلمة ربك﴾ ولم يقل : كلمتي تطييب لنفس النبي مَرََّسُتُهُ وتأييد لـــه بالإشارة إلى أن الركن الذي يركن إليه هو الشديد القوي .

* * *

⁽١) لفجر: ١٤.

اللّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُوْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلّذِينَ تَابُوا وَاتَبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) وَعِلْمَا فَاغْفِرْ لِلّذِينَ تَابُوا وَاتَبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَأَنِهِمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَأَنِهِمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَأَنِهِمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَاتَهِمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَانِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِيّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيلُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِنَاتِ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَلْهِمْ وَمُنْ تَقِ آلسَّيْنَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذٰلِكَ هُو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ لَلْفِينَ اللّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَهَلُ إِلَىٰ خُرُوجِ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهِ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشَرِكُمْ بِأَنْ يُرْسَعِلُ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشَرِكُمْ بِأَنَّ بِمُ تَوْمِئُوا فَالْحُكُمُ لِلّهِ الْعَلِي لِللّهِ الْعَلِي لِللّهِ الْعَلِي وَالْكَبِيرِ (١٢) وَاللّهُ الْعَلِي وَالْكَبِيرِ (١٢) وَاللّهُ الْعَلِي وَالْكَبِيرِ (١٢) وَاللّهُ الْعَلِي وَالْكَبِيرِ (١٢) .

(بیان)

لما ذكر سبحانه تكذيب الذين كفروا وجدالهم في آيات الله بالباطل ولوّح إلى أنهم غير معجزين ولا مغفول عنهم بل معنيون في هذه الدعوة والعناية فيهم أن يتميزوا فيحق عليهم كلمة العداب فيعاقبوا عاد إلى بدء الكلام الذي أشار فيه إلى أن تنزيل الكتاب وإقامة الدعوة لمغفوة جمع وقبول توبتهم وعقاب آخرين فذكر أن الناس قبال هذه الدعوة قبيلان: قبيل تستغفر لهم حملة العرش والحافون به من الملائكة وهم التائبون إلى الله المتبعون سبيله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم ودرياتهم ، وقبيل ممقوتون معذبون وهم الكافرون بالتوحيد .

قوله تعالى : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمـد ربهم ويؤمنون به إلى آخر الآية . ولم يعرّف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم ؟ ولا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عـطف قولـه : ﴿وَمَن حَولُه ﴾ عليهم وقـد قـال

فيهم : ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾(١) أن حملة العوش أيضاً من الملائكة .

وقد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب .

فقوله : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله ﴾ أي الملائكة الذين يحملون العرش الـذي منه تنظهر الأوامير وتصدر الأحكـام الإلهية التي بهـا يدبــر العالم ، والـذين حول العوش من الملائكة وهم المقربون منهم .

وقوله: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي ينزهون الله سبحانه والحال أن تنزيههم لـه يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهـونه تعـالي عن كل مـا لا يليق بساحـة قدسـه ومن ذلك وجود الشريك في ملكه ويثنون عليه على فعله وتدبيره .

وقوله : ﴿ويؤمنون به﴾ إيمانهم به _ والحال هذه الحال عرش الملك والتــدبير لله وهم حماملوه أو مطيفون حولمه لتلقى الأوامر وينهزهونيه عن كل نقص ويحمدونه على أفعاله ـ معنىاه الإيمان يسوحدانيت في ربوبيته والوهيته ففي ذكر العـرش ونسبة التنـزيه والتحميد والإيمان إلى الملائكة رد للمشركين حيث يعدون الملائكة المقربين شركاء لله في ربوبيته وألوهيته ويتخذونهم أرباباً آلهة يعبدونهم .

وقوله: ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا .

وقوله: ﴿ رَبْنَاوُسِعْتَ كُلُّ شِيءُ رَحْمَةُ وَعَلَّما ﴾ النح حكاية من استغفارهم وقد بدأوا فيه بالثناء عليه تعالى بسعة الرحمة والعلم ، وإنما ذكروا الرحمة وشفعوها بالعلم لأنه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمة مبدأ إفاضة كل نعمة ، وبعلمه يعلم حاجة كل محتاج مستعد للرحمة .

وقوله : ﴿ فَاغْفُرُ لَلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبِعُوا سَبِيلُكُ وقَهُمُ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴾ تفريع على سا أثنوا به من سعمة الرحمة والعلم ، والمراد بـالسبيل التي اتبعـوها هـو ما شـرع لهم من الدين وهو الإسلام واتباعهم لنه هو تنطبيق عملهم عليه فبالمراد بتنوبتهم رجوعهم إلينه تعالى بالإيمان والمعنى فاغضر للذين رجعوا إليك بالإيمان بوحدانيتك وسلوك سبيلك الذي هو الإسلام وقهم عذاب الجحيم وهو غاية المغفرة وغرضها .

⁽١) الزمر . ٧٥ .

قوله تعالى : ﴿رَبُنَا وَأَدْخُلُهُمْ جَمَاتُ عَدَنَ الَّتِي وَعَـدَتُهُم ﴾ إلى آخر الآيـة تكرار النداء بلفظة ربنا لمزيد الاستعطاف والمراد بالـوعد وعـده تعالى لهم بلسـان رسله وفي كتبه .

وقوله : ﴿ومنصلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ عطف على موضع الضمير في قوله : ﴿وأدخلهم ﴾ والمراد بالصلوح صلاحية دخول الجنة ، والمعنى وأدخل من صلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم جنات عدن .

ثم من المعلوم من سياق الأيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين ، ومن المعلوم أيضاً أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم إلى الذين تابوا واتبعوا سبيل الله وقد وعدهم الله جنات عدن ، وإلى من صلح وقد جعلوا الطائفة الأولى متبوعين والثانية تابعيس .

ويظهر منه أن الطائفة الأولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على ما هو مقتضى حقيقة معنى قولهم: ﴿اللَّذِينَ تَابُوا وَاتَبْعُوا سَبِيلُكُ ﴿ فَذَكُرُوهُم وَسَأَلُوهُ أَنْ يَغْفُرُ لَهُم وَيَنْجُزُ لَهُم مَا وَعَدَهُم مِنْ جَنَاتُ عَدَنَ ، والطائفة الثانية دون هؤلاء في المنزلة ممن لم يستكمل الإيمان ومستضعف وسيء العمل من منسوبي يستكمل الإيمان والعمل من مناوي الطائفة الأولى الكاملين في جاتهم الطائفة الأولى الكاملين في جاتهم ويقيهم السيئات .

فالآية في معنى قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾(١) عير أن الآية التي نحن فيها أوسع وأشمل لشمولها الأباء والأزواج بخلاف آية سورة الطور، والمأخوذ فيها الصلوح وهو أعم من الإيمان المأخوذ في آية الطور.

وقوله: ﴿إِنكَ أَنت العزيز الحكيم ﴾ تعليل لقولهم: ﴿فَاغَفُر للذين تابوا ﴾ إلى آخر مسألتهم ، وكان الذي يقتضيه الظاهر أن يُقال: إنك أنت الغفور الرحيم لكنه عدل إلى ذكر الوصفين: العزيز الحكيم لأنه وقع في مفتتح مسألتهم الثناء عليه تعالى بقولهم: ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ . ولازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أن له أن يعطي ما يشاء لمن يشاء ويمنع ما يشاء ممن يشاء وهذا معنى العزة

⁽١) الطور : ٢١ .

التي هي القدرة على الإعطاء والمنع ، ولازم سعة العلم لكل شيء أن ينفذ العلم في جميع أقطار الفعل فلا يـداخل الجهـل شيئاً منهـا ولازمه إتفـان الفعل وهو الحكمة .

فقوله: ﴿إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيْزِ الْحَكَيْمِ ﴾ في معنى الاستشفاع بسعة رحمته وسعة علمه تعالى المذكورتين في مفتتح المسألة تمهيداً وتوطئة لـذكر الحاجة وهي المغفرة والجنة .

قـوله تعـالى : ﴿وقهم السيآت ومن تق السيآت يومئـذ فقد رحمتـه﴾ الخ ظـاهر السياق أن الضمير في ﴿قهم﴾ للذين تابوا ومن صلح جميعاً .

والمراد بالسيآت على ما قيل تبعات المعاصي وهي جزاؤها وسميت التبعات سيآت لأن جزاء السيء سيء قال تعالى : ﴿وجزاء سيئة مثلها﴾(١) .

وقيل: المراد بالسيآت المعاصي والذنوب نفسها والكلام على تقدير مضاف والتقدير وقهم جزاء السيآت أو عذاب السيآت .

والظاهر أن الأية من الآيات الدالة على أن الجزاء بنفس الأعمال خيرها وشرها . وقد تكرر في كلامه تعالى أمثال قوله : ﴿إِنْمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) .

وكيف كان فالمراد بالسيآت التي سألوا وقايتهم عنها هي الأهوال والشدائد التي تواجههم يوم القيامة غير عذاب الجحيم فلا تكرار في قوليهم : ﴿وقهم عذاب الجحيم ﴾ ﴿وقهم السيآت ﴾ .

وقيل: المراد بالسيآت نفس المعاصي التي في الدنيا، وقولهم: ﴿يومئذَ ﴾ إشارة إلى الدنيا، والمعنى واحفظهم من اقتراف المعاصي وارتكابها في الدنيا بتوفيقك.

وفيه أن السياق يؤيد كون المراد بيومئذ يوم القيامة كما يشهد بـ قولهم : ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ وقولهم : ﴿وأدخلهم جنات عدن﴾ النح فالحق أن المراد بالسيآت ما يظهر للناس يوم القيامة من الأهوال والشدائد .

ويظهر من هذه الأيات المشتملة على دعاء الملائكة ومسألتهم .

⁽۱) الشوري : ۴۰ ،

أولاً: أن من الأدب في الدعاء أن يبدأ بحمده والثناء عليه تعالى ثم يـذكـر الحاجة ثم يستشفع بأسمائه الحسني المناسبة له .

وثانياً: أن سؤال المغفرة قبل سؤال الجنة وقد كثر ذكر المغفرة قبل الجنة في كلامه تعالى إذا ذكرا معاً ، وهو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أي نعمة كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمة .

وذكر بعضهم أن في قوله : ﴿ فاغفر للذين تابوا ﴾ الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة .

وفيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافي صحة مسألته وطلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار: ﴿ رَبْنَا وَأَدْخُلُهُم جَنَاتُ عَدَنَ الَّتِي وَعَدَتُهُم ﴾ فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إياها ووعده تعالى واجب الإنجاز فإنه لا يخلف الميعاد، وأصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين: ﴿ رَبّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ (١).

وقبول التوبة مما أوجبه الله تعالى على نفسه وجعله حقاً للتائبين عليه قال تعالى : ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم ﴾(٢) فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوع إليه لاستنجاز ما وعده وإظهار اشتياق للفوز بكرامته .

وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكل عطية من عطاياه تفضل سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه وقهره عليه إذ هو المؤثّر في كل شيء لا يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه ويؤول معناه إلى قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال وإفاضة عطية من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه إنما يفعله بمشيّة من نفسه منزها عن إلزام الغير إياه عليه متفضلاً به فالفعل تفضل منه وإن يفعله بمشيّة من نفسه منزها عن إلزام الغير إياه عليه متفضلاً به فالفعل تفضل أوضح .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَّرُوا يَنَّادُونَ لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبُرُ مِنْ مَقْتَكُمُ أَنْفُسُكُمْ إِذ

⁽١) آل عمران : ١٩٤ .

تدعون إلى الإيمان فتكفرون المقت أشد البغض . لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع إلى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم .

وظاهر الآية والآية التالية أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به في الآخرة بعد دخول النار حين يذرقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم في الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء إلى الإيمان كان مقتاً وشدة بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم.

وينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم : أقسم لمقت الله وشدة بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم وشدة بغضكم لها إذ تدعون ـ حكاية حال ماضية ـ إلى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون .

قوله تعالى : ﴿قالموا رَبِنَا أَمَتُنَا اثْنَتِينَ وأُحِيبِتُنَا اثْنَتِينَ فَاعْتَرَفْنَا بَذُنُوبِنَا فَهُلَ إلى خروج من سبيل﴾ سياق الآية وما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق ، وإنما يقولونه وهم في النار بدليل قولهم : ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ .

وتقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبيب وتوسل إلى التخلص من العذاب ولات حين مناص ؟ وذلك أنهم كانوا ـ وهم في الدنيا ـ في ريب من البعث والرجوع إلى الله فأنكروه ونسوا يوم الحساب وكان نسيان ذلك سبب استوسالهم في الذنوب وذهابهم لوجوههم في المعاصي ونسيان يوم الحساب مفتاح كل معصية وضلال قال تعالى : فإن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (1).

ثم لما أماتهم الله إماتة بعد إماتة وأحياهم إحياءة بعد إحياءة زال ارتيابهم في أمر البعث والرجوع إلى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت والحياة بعد الحياة وقد كنانوا يرون أن الموت فناء ، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين .

وبالجملة زال عنهم الارتياب بحصول اليقين وبقيت الذنوب والمعاصي ولذلك توسلوا إلى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿ وُلُو ترى إِذَ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون (٢)، وتارة اعترفوا بذنوبهم كما في الآية المبحوث

⁽٢) المّ السجدة: ١٢ .

عنها وقد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم وأفعالهم لهم أن يشاءوا ما شاءوا وأن يفعلوا ما فعلوا ولا حساب ولا ذنب .

ومن ذلك يظهر وجه ترتب قولهم: ﴿ فَاعْتَرْفُنَا بَدْنُوبِنا﴾ على قولهم: ﴿ أَمْتَنَا النَّتِينَ وَأَحْيَتُنَا النَّتِينَ ﴾ فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات وذنوباً.

والمراد بقولهم: ﴿ أُمَتُنَا اثنتينَ وأحييتنا اثنتين ﴾ تكما قيل الإماتة عن الحياة الدنيا والإحياء للبرزخ ثم الإماتة عن البرزخ والإحياء للحساب يوم القيامة فالآية تشير إلى الإماتة بعد الحياة البرزخية وإلى الإحياء في البرزخ والإحياء ليوم القيامة ولولا الحياة البرزخية لم تتحقق الإماتة الثانية لأن كلا من الإماتة والإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه.

ولم يتعرضوا للحياة الدنيا ولم يقولوا: وأحييتنا ثبلاثاً وإن كانت إحياء لكونها واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الـذي هو سبب الإيقان بالمعاد وهو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة وأما الحياة الدنيوية فإنها وإن كانت إحياء لكنها لا توجب بنفسها يقيناً بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء في الدنيا.

وبما تقدم من البيان يظهر فساد ما اعترض عليه بأنه لوكان المراد بالإحياءتين ما كان في البرزخ وفي الآخرة لكان من الواجب أن يُقال : ﴿ أُمتنا اثنتين وأحييتنا ثلاثاً ﴾ إذ ليس المراد إلا ذكر ما مر عليهم من الإماتة والإحياءة وذلك إماتتان اثنتان وإحياءآت ثلاث .

والجواب أنه ليس المراد هو مجرد ذكر الإماتة والإحياء اللتين مرتبا عليهم كيفما كانتا بــل ذكر مــا كان منهمــا مورثــاً لليقين بالمعــاد ، وليس الإحياء الــدنيوي على هــذه الصفة .

وقيل : المراد بالإماثة الأولى حال النطفة قبل ولوج الـروح ، وبالإحياءة الأولى ما هو حال الإنسان بعد ولوجها ، وبالإماثة الثانية إماتته في الـدنيا ، وبالإحياءة الثانية إحياءته بالبعث للحساب يوم القيامة ، والآية منطبقة على ما في قول، تعالى : ﴿كيف

تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾(١) .

ولما أحسوا بعدم صدق الإماتة على حال الإنسان قبل ولوج الروح في جسده لتوقفها على سبق الحياة تمخلوا في تصحيحه تمحلات عجيبة من أراد الوقوف عليها فليراجع الكشاف وشروحه .

على أنك قد عرفت أن ذكرهم ما مر عليهم من الإماتة والإحياءة إشارة إلى أسباب حصول يقينهم بالمعاد والحياة الدنيا والموت الذي قبلها لا أثر لهما في ذلك .

وقيل: إن الحياة الأولى في الدنيا والثانية في القبر، والموتة الأولى في الدنيا والثانية في القبر ولا تعرّض في الأية لحياة يبوم البعث، ويرد عليه ما تقدم أن الحياة الدنيا لا تعلق لها بالغرض فلا موجب للتعرض لها، والحياة يبوم القيامة بالخلاف من ذلك.

وقيل: المراد بالإحياءتين إحياء البعث والإحياء الذي قبله وإحياء البعث قسمان إحياء في القبر وإحياء عند البعث ولم يتعرض لهذا التقسيم في الآية فتشمل الآية الإحياءات الثلاث والإماتتين جميعاً.

ويـرد عليه مـا يرد على الـوجهين السابقين عليـه مضافًا إلى ما وُرد عليـه أن ذكر الإماتة الثانية التي في القبـر دليل على أن التقسيم ملحـوظ والمراد التعـدد الشخصي لا النوعي .

وقيل : المراد إحياء النفوس في عالم الذر ثم الإماتة ثم الإحياء في الدنيا ثم الإماتة ثم الإحياء للبعث ، ويرد عليه ما يرد على سوابقه .

وقيل : المراد بالتثنية التكرار كما في قبوله بتعبالي : ﴿ثُم ارجع البصر كرّتين﴾(٢) ، والمعنى أمتنا إماتة وأحييتنا إحياءة بعد إحياءة .

وأورد عليه أنه إنما يتم لوكان القول: أمتنا إماتتين وأحييتنا إحياءتين أوكرتين مثلًا لكن المقول نقس العدد وهو لا يحتمل دلك كما قيس في قوله: ﴿إِلْهِينَ اثْنَينَ﴾(٣).

وقولهم : ﴿فهل إلى خروح من سبيل﴾ دعاء ومسألة في صورة الاستفهام ، وفي

(١) البقرة: ٢٨ . (٢) الملك: ٤ (٣) المحل . ٥١ .

تنكير الخروج والسبيل إشارة إلى رضاهم بأي نوع من الخروج كان من أي سبيل كانت فقد بلغ بهم الجهد واليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم من العذاب .

قوله تعالى: ﴿ ذَلَكُم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ الخ خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون موطنه الدنيا خوطبوا بداعي زجرهم عن الشرك .

والإشارة بقوله: ﴿ وَذَلَكُم ﴾ إلى ما هم فيه من الشدة ، وفي قبوله: ﴿ وَإِن يَشْرِكُ بِه ﴾ دلالة على الاستمرار ، والكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق ومعاداتهم لتوحيده تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد ويؤمنون بكل ما فيه سمة الشرك فهم لا يراعون لله حقاً ولا يحترمون له جالماً فالله سبحانه يحرم عليهم رحمته ولا يراعي في حكمه لهم جانباً .

وبهذا المعنى يتصل قوله : ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ بـأول الآية ويتفـرع عليه كأنه قيل : فإذا قطعتم عن الله بالمرة وكفرتم بكـل ما يـريده وآمنتم بكـل ما يكـرهه فهـو يقطع عنكم ويحكم فيكم بما يحكم من غير أي رعاية لحالكم .

فالآية في معنى قوله: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾(١) . والجملة أعني قوله: ﴿فالحكم لله العلي الكبير﴾ خاصة بحسب السياق وإن كانت عامة في نفسها ، وفيها تهديد ويتأكد التهديد باختتامها بالاسمين العلي الكبير .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُسوا آللَّه مُخْلِصِينَ لَهُ آلَـدِّينَ وَلَـوْ كَـرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ آلدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي آلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ الْكَافِرُونَ (١٤) رَفِيعُ آلدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي آلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ الْكَافِرُونَ وَنَ الْمَالُونَ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ آلتَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَى آللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءً لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ لِلّهِ الْـوَاحِـدِ يَخْفَىٰ عَلَى آللَهِ مِنْهُمْ شَيْءً لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ لِلّهِ الْـوَاحِـدِ

⁽١) التوبة : ٦٧ .

الْقَهَّارِ (١٦) اَلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اَللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَآئِنَةَ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصَّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠).

(بیان)

احتجاج على التوحيـد وإنذار بعـد تقسيم الناس إلى راجـع إلى الله متبـع سيله ومكذب بالآيات مجادل بالباطل .

قوله تعالى : ﴿هُو الذِّي يريكم آياتُه ﴾ إلى آخر الآية المراد بالآيات هي العلائم والحجج الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية والألوهية بدليل ما سيجيء من تضريع قوله : ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾ عليه ، والآيات مطلقة شاملة للآيات الكونية المشهودة في العالم لكل إنسان صحيح الإدراك والآيات التي تجري على أيدي الرسل والحجج القائمة من طريق الوحى .

والجملة مشتملة على حجة فإنه لو كان هناك إله تجب عبادته على الإنسان وكانت عبادته كمالاً للإنسان وسعادة له كان من الواجب في تمام التدبير وكامل العناية أن يهدي الإنسان إليه ، والذي تدل الآيات الكونية على ربوبيته وألوهيته ويؤيد دلالتها الرسل والأنبياء بالدعوة والإتيان بالأيات هو الله سبحانه ، وأما آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله فلا آية من قبلهم تدل على شيء فالله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ، وإلى هذه الحجة يشير علي علي علي مقوله فيما روي عنه : «لو كان لربك شريك لأنتك رسله» .

وقوله: ﴿وينسزّ للكم من المسماء رزقاً ﴾ حجة أخبرى على وحدانيته تعالى من جهة الرزق فإن رزق العباد من شؤون الربوبية والألوهية والرزق من الله دون شركائهم فهو الرب الإله دونهم .

وقد فسروا الرزق بالمطر ، والسماء يجهة العلو ، ولا يبعد أن يـراد بالـرزق نفس

الأشياء التي يرتزق بها وبنزولها من السماء بروزها من الغيب إلى الشهادة على ما يفيده قوله : ﴿وَإِنْ مِن شِيءَ إِلاَ عَندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾(١)

وقوله : ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾معترضة تبين أن حصول التذكر بهـذه الحجج إنماهو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل وهم المنيبون الواجعون إلى ربهم دون المجادلين الكافرين فإن الكفر والجحود يبطل استعداد التذكر بالحجة والاتباع للحق .

قوله تعالى : ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولوكره الكافرون﴾ الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عامًا للمؤمنين وغيرهم متفرعاً على الحجة السابقة غير أنه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية وهم المكذبون المجادلون بالباطل .

كأنه قيل : إذا كانت الآيات تدل على وحدانيته تعالى وهو الرازق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا وجادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين ، وأما الكافرون الكارهون للتوحيد فلا مطمع فيهم ولا آية تفيدهم ولا حجة تقنعهم فاعبدوه بالإخلاص ودعوا الكافرين يكرهون ذلك .

قوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ الخ صفات ثلاث له تعالى وكل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله : ﴿ هـو الذي يريكم آياته ﴾ والآية وما بعدها مسوقة للإنذار .

وقد أورد لقوله: ﴿ رفيع الـدرجات﴾ تفاسير شتى فقيـل: معناه رافـع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ، وقيل: رافـع السماوات السبـع التي منها تصعـد الملائكة إلى عرشه ، وقيل: رفيع مصاعد عرشه ، وقيل: كناية عن رفعة شأنه وسلطانه.

والذي يعطيه التدبر أن الآية وما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشاً تجتمع فيه أزمة أُمور الخلق ويتنزل منه الأمر متعالياً بدرجات رفيعة هي مراتب خلقه ولعلها السماوات التي وصفها في كلامه بأنها مساكن ملائكته وأن أمره يتنزل بينهن وهي التي تحجب عرشه عن الناس.

ثم إن له يوماً هو يوم التلاقي يرفع فيه الحجاب ما بينه وبين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم وطي السماوات بيمينه وإظهار عرشه لهم فينكشف لهم أنه هو المليك على كل شيء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم .

⁽١) الحجر: ٢١ .

فالمراد بالدرجات الدرجات التي يرتقى منها إلى عرشه ويعود قوله : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾ كناية استعارية عن تعالى عرش ملكه عن مستوى الخلق وغيبته واحتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة ومراحل بعيدة .

وقوله: ﴿ وَيلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ إشارة إلى أمر السرسالة التي من شأنها الإندار، وتقييد السروح بقوله: ﴿ من أمره ﴾ دليل على أن المراد بها الروح التي ذكرها في قوله: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ (١) ، وهي التي تصاحب ملائكة الوحي كما يشير إليه قوله: ﴿ وينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا ﴾ (٢) .

فالمراد بالقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه ، والمراد بقوله : ﴿من يشاء من عباده﴾ الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته ، وفي معنى الروح الملقاة على النبي أقوال أخر لا يعبؤ بها .

وقوله: ﴿ لَيْنَا فَرَا الْمُعَالَى ﴾ وهو يسوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء الخالق والمظلوم أو لالتقاء الخالق والمخلوق أو لالتقاء أهل السماء والأرض أو لالتقاء البظالم والمظلوم أو لالتقاء المرء وعمله ولكل من هذه الوجوة قائل.

ويمكن أن يتأيد القول الثاني بما تكرر في كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله: ﴿ لِلقاء ربهم ﴾ (٤) ، وقوله: ﴿ لِهَا أَيها الْإِنسان إِنْكَ كَادِح إِلَى ربك كَدْحاً فَمَالاقِيه ﴾ (٥) ومعنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغلة وظهور أن الله هو الحق المبين وبروزهم لله.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمُ هُمُ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهُ مَنْهُم شَيَّ ﴾ النح تفسير ليوم التلاق ، ومعنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم وارتفاع الأسباب الوهمية التي كانت تجذبهم إلى نفسها وتحجبهم عن ربهم وتغفلهم عن إحاطة ملكه وتفرده في الحكم وتوحده في الربوبية والالوهية .

فقوله : ﴿ يُومِ هُمُ بَارِزُونَ ﴾ إشارة إلى ارتفاع كـل سبب حاجب ، وقبوله : ﴿ لا

(١) الإسراء : ٨٥

(٢) النعل : ٢ .

(٣) الروم : ٨ .

(٤) هود : ۲۹ .

يخفى على الله منهم شيء﴾ تفسير لمعنى بروزهم لله وتوضيح فقلوبهم وأعمالهم بعين الله وظاهرهم وباطنهم وما ذكروه وما نسوه مكشوفة غير مستورة .

وقوله : ﴿ لَمِن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ سؤال وجواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقة اليوم وهي ظهور ملكه وسلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق .

وفي توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شيء ملكه وتسلط عليه بسلب الاستقلال عنه وهو واحد فله الملك وحده .

قوله تعالى: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ الباء في ﴿ بما كسبت ﴾ للصلة والمراد بيان خصيصة اليوم وهي أن كل نفس تجزي عين ما كسبت فجزاؤها عملها ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُهَا الذِّينَ كَفَرُوا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ (١) .

وقوله : ﴿إِنَّ الله سريع الحساب﴾ تعليل لنفي الظلم في قوله : ﴿لا ظلم اليوم﴾ أي إنه تعالى سريع في المحاسبة لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتى يخطىء فيجزي نفساً غير جزائها فيظلمها .

وهذا التعليل ناظر إلى نفي الظلم الناشىء عن الخطأ وأما الـظلم عن عمد وعلم فانتفاؤه مفروغ عنه لأن الجزاء لما كان بنفس العلم لم يتصور معه ظلم .

قوله تعالى : ﴿وأنذرهم يـوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ إلى آخر الآية . الأزفة من أوصاف القيامة ومعناها القريبة الدانية قال تعالى : ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾(٢) .

وقوله: ﴿إِذَ القلوب لَدَى الحناجر كاظمين﴾ الحناجر جمع حنجرة وهي رأس الغلصمة من خارج وكون القلوب لذى الحناجر كناية عن غياية الخوف كأنها تزول عن مقرها وتبلغ الحناجر من شدة الخوف ، وكاظمين من الكظم وهو شدة الاغتمام .

وقوله: ﴿مَالِلظَالَمِينَ مَنْ حَمِيمَ وَلَا شَفِيعِ بَطَاعِ﴾ الحميم القريب أي ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحمية القرابة قبال تعالى: ﴿فَلَا أَنْسَابُ بِينَهُم يَـوَمَثُلُ﴾ (٣) ، ولا شفيع يطاع في شفاعته .

قوله تعالى : ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ قيل : الخائنة مصدر كالخيانة نظيرة الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو ، وليس المراد بخائنة الأعين كل معصية من معاصيها بل المعاصي التي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع ما تخفي الصدور .

وقيل : ﴿خائنة الأعين﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولازمه كون العلم بمعنى المعرفة والمعنى يعرف الأعين الخائنة ، والوجه هو الأول .

وقوله : ﴿وَمَا تَخْفَيُ الصَّدُورِ﴾ وهو ما تسره النفس وتستره من وجوه الكفر والنفاق وهيئات المعاصي .

قوله تعالى : ﴿وَالله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ النح هذه حجة أخرى على توحده تعالى بالألوهية أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار الملك فيه يوم القيامة وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور تمهيداً وتوطئة .

ومحصلها أن من اللازم الضروري في الألوهية أن يقضي الإله في عباده وبينهم والله سبحانه هو يقضي بين الخلق وفيهم يوم القيامة والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئاً.

ومن قضائه تعالى تدبيره جزئيات أمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق القضاء والحكم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرِهُ إِذَا أَرَادُ شَيَّءُ أَنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيكُونُ﴾ (١) ، وقال: ﴿إِذَا قضى أَمْراً فَإِنْما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيكُونُ﴾ (٢)، ولا نصيب لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء.

ومن قضائه تعالى تشريع الدين وارتضاؤه سبيلًا لنفسه قال تعالى : ﴿وقضى ربك أَن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ الآية (٣) .

وقوله : ﴿إِنْ الله هـو السميـع البصير﴾ أي له حقيقـة العلم بـالمسمـوعـات والمبصرات لذاته ، وليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله وأذن فيه لا لذاته .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قـولـه تعـالى : ﴿يلقي الـروح من أمـره على من يشـاء من عباده﴾ قال : روح القدس وهو خاص برسول الله والأثمة صلوات الله وسلامه عليهم .

وفي المعاني بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله الله عن قال : يـوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض .

أقول: ورواه القمي في تفسيره مضمراً مرسلًا.

وفي التوحيد بإسناده عن ابن فضال عن الرضا عن آبائه عن على سَنْكُ في حديث قال : ويقول الله عز وجل : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ثم ينطق أرواح أنبيائه ورسله وحججه فيقولون : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ثم يقول الله جل جلاله : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ الآية .

وفي نهج البلاغة: وإنه سبحانه يعبود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه ، كما كان قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ولا زمان ولا حين ولا مكان ، عدمت عند ذلك الأجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فبلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور ، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها ، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها .

وفي تفسيـر القمي بـإسنـاده عن ثـويـر بن أبي فـاختـة عن علي بن الحسين سلطة قال : سئل عن النفختين كم بينهما ؟ قال : ما شاء .

ثم ذكر سنن كيفية النفخ وموت أهل الأرض والسماء إلى أن قال : فيمكثون في ذلك ما شاء الله ثم يأمر السماء فتمور ويأمر الجبال فتسير وهو قوله : ﴿ يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً ﴾ يعني يبسط وتبدل الأرض غير الأرض يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أول مرة ، ويعيد عرشه على الماء كما كان أول مرة مستقلاً بعظمته وقدرته .

قال: فعند ذلك ينادي الجبار جل جلاله بصوت من قبله جهوري يسمع أقطار السماوات والأرضين ﴿لمن الملك اليوم﴾ فلم يجبه مجيب فعند ذلك يقول الجبار عز وجل مجيباً لنفسه ﴿لله الواحد القهار﴾ الحديث .

أقول: التدبر في الروايات الثلاث الأخيرة يهدي إلى أن الذي يفنى من الخلق استقلال وجودها والنسب وروابط التأثير التي بينها كما تفيده الأيات القرآنية وأن الأرواح لا تموت ، وأن لا وقت بين النفختين فلا تغفل ، وفي الروايات لطائف من الإشلرات تظهر للمتدبر ، وفيها ما يخالف بظاهره ما تقدم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر مسلك في حديث قال : يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا أساءه ذلك وندم عليه وقد قال النبي سند «كفى بالندم توبة» وقال : «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» فإن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له شفاعة وكان ظالماً والله تعالى يقول : ﴿ مَا لَلْظَالَمِينَ مَنْ حَمِيمَ وَلا شَفِيعَ يَطَاعَ ﴾ .

وفي المعاني بإسناده إلى عبد الرحمان بن سلمة الحريري قال : سألت أبا عبد الله منتنف عن قول الله عنز وجل : ﴿يعلم خائنة الأعين ﴾ فقال : ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر فذلك خائنة الأعين .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله على الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان .

فلما دعا رسول الله على الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبد الله فنظر إليه ثلاثاً كل ذلك يأبي أن يبايعه ثم بايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا إلى حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك . قال : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين .

* * *

أُولَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ آلَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ آللَّهُ مِنْ قَالِمُ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ آللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ آللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ

رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ آللُّهُ إِنَّهُ قَـوِيٌّ شَدِيـدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَـدٌ أَرْسَلْنَا مُـوسَىٰ بِآيَـاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِين (٢٣) إِلَىٰ فِـرْعَوْنَ وَهَـامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِٱلْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَـالُوا اقْتُلُوآ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَـافِرينَ إِلَّا فِي ضَـلَال ِ (٢٥) وَقَالَ فِـرْعَوْنَ ذَرُونِي أَقْتُـلْ مُوسَىٰ وَلْيَـدْعُ رَبُّهُ إِنِّي أُخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُـظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَـالَ مُسوسَىٰ إِنِّي عُـٰذْتُ بِـرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُـلِّ مُتَكَبِّـرِ لَا يُؤْمِنُ بِيَـوْم ِ الْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلَ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَـهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْم لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ إِنْ جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُريكُمْ إِلَّا مَآ أَرىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ آلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَتُمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيـدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُـدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِم ِ وَمَنْ يُضْلِل ِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَـذَٰلِكَ

يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَـاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانِ آتَنْهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ آللَّهِ وَعِنْدَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ آللُّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّر جَبَّارِ (٣٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْن لِي صَرْحاً لَعَلِّى أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ آلسَّمْ وَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنَّهُ كَاذِباً وَكَذٰلِكَ زُيِّنَ لِفِـرْعَوْنَ سُــوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَن ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَـوْنَ إِلَّا فِي تَبَابِ (٣٧) وَقُـالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَـا قَوْم اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيْوةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةًفَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرِ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابِ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُـوكُمْ إِلَى ٱلنَّجوةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ (١١) تَدْعُونَنِي لَإَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَـهُ دَعْـوَةٌ فِي ٱلـدُّنْيَـاوَلَا فِي الْآخِـرَةِ وَأَنَّ مَـرَدَّنَـا إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُـولُ لَكُمْ وَأَفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَالُهُ ٱللَّهُ سَيّئاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بَآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَـذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَـا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ آلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَـدَّ الْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَاَّجُونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضَّعَفَـٰؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَـالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا

إِنَّا كُلِّ فِيهَا إِنَّ آللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي آلنَّارِ لَحَزَنَةِ جَهَنَّمَ آدْعُوا رَبَّكُمْ يُحَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلال (٥٠) إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَآلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيوٰةِ آلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ آلظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ آللَّهُنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ آلدًّارِ (٢٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأُورَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ (٣٥) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٥) .

(بیان)

في الأيات موعظتهم بالإرجاع إلى آثار الأمم الماضين وقصصهم للنظر والاعتبار فلينظروا فيها وليعتبروا بها ويعلموا أن الله سبحانه لا تعجزه قوة الأقوياء واستكبار المستكبرين ومكر الماكرين وتذكر منها من باب الانموذج طرفاً من قصص موسى وفرعون وفيها قصة مؤمن آل فرعون .

قوله تعالى : ﴿ أَو لَم يَسْيِرُوا فِي الأَرْضُ فَيْنَظُرُوا ﴾ إلى آخر الآية الاستفهام إنكاري ، والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره .

والمعنى: أولم يسيروا هؤلاء النين أرسلناك إليهم ﴿ في الأرض فينظروا ﴾ نظر تفكر واعتبار ﴿ كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ من الأمم الدارجة المكذبين لرسلهم ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ أي قدرة وتمكماً وسلطة ﴿ وآثاراً ﴾ كالمدائن الحصينة والقلاع المنيعة والقصور العالية المشيدة ﴿ في الأرض فأخذهم الله يذنوبهم ﴾ وأهلكهم بأعمالهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ يقيهم وحافظ يحفظهم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلَكَ بِأَنْهُمَ كَانْتَ تَأْتِيهُم رَسَلُهُم بِالْبِينَاتِ ﴾ النّج الإشارة بذلك إلى الأخدُ الإلهي ، والمراد بالبينات الآيات الواضحات ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ لعل المراد بالأيات

الخوارق المعجزة التي أرسل بها كالعصا واليد وغيرهما وبالسلطان المبين السلطة الإلهية القاهرة التي أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله ويطفىء نوره ، وقيل : المراد بالآيات الحجج والدلالات وبالسلطان معجزاته من العصا واليد وغيرهما ، وقيل : غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فوعون جبار القبط ومليكهم ، وهامان وزيره وقارون من طغاة بني إسرائيل ذو الخزائن المليئة ؟ وإنما اختص الثلاثة من بين الأمتين بالذكر لكونهم اصولاً ينتهي إليهم كل فساد وفتنة فيهما .

قوله تعالى: ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ﴾ النخ مقايسة بين ما جاءهم به موسى ودعاهم إليه وبين ما قابلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحق وكان من الواجب أن يقبلوه لأنه حق وكان ما جاء به من عند الله وكان من الواجب أن يقبلوه بالكيد وقالوا ما قالوا لئلا يؤمن به أحد لكن الله أضل كيدهم فلم يصب المؤمنين معه .

ويشعر السياق أن من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولا ضير فيه لأن الحكم بقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادرا في حق بني إسرائيل عامة وهذا الحكم في حق المؤمنين منهم خاصة فلعل قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى والمؤمنين من قومه .

وفي قوله : ﴿الَّذِينَ آمنُوا مَعُهُ ﴾ ولم يقل : آمنُـوا به إشـارة إلى مظاهـرتهم موسى في دعوته .

قوله تعالى : ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليبدع ربه ﴾ البخ ﴿ذروني ﴾ أي اتركوني ، خطاب يخاطب به ملأه ، وفيه دلالة على أنه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى ويكف عنه كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿قالُوا أرجه وأخاه ﴾(١) .

وقوله : ﴿وليدع ربه﴾ كلمة قالها كبراً وعتواً يقول : اتـركوني أقتله وليـدع ربه فلينجه من يدي وليخلصه من القتل إن قدر .

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافَ أَنْ يَبِدُلُ دَيْنِكُمْ أَوْ أَنْ يَظْهُرُ فِي الْأَرْضُ الفسادَ﴾ تعليل لما

⁽١) الشعراء : ٣٦ .

عزم عليه من القتل وقد ذكر أنه يخافه عليهم من جهة دينهم ومن جهة دنياهم ، أما من جهة دينهم و وهو عبادة الأصنام _ فأن يبدله ويضع موضعه عبادة الله وحده ، وأما من جهة دنياهم فكأن يعظم أمره ويتقوى جانبه ويكثر متبعوه فيتظاهروا بالتمرد والمخالفة فيؤول الأمر إلى المشاجرة والقتال وانسلاب الأمن .

قوله تعالى : ﴿وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب مقابلة منه سبنت لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذة منه بربه ، وقوله : ﴿وغذت بربي وربكم ﴾ فيه مقابلة منه أيضاً لفرعون في قوله : ﴿وليدع ربه ﴾ حيث خص ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله : ﴿عذت بربي وربكم ﴾ إلى أنه تعالى ربهم كما هو ربه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقي عائذه من شرهم وقد وقى .

ومن هنا يظهر أن الخطاب في قوله : ﴿وربكم﴾ لفرعون ومن معـه دون قومـه من بني إسرائيل .

وقوله: ﴿ مَن كُلُ مَتَكُبُرُ لَا يؤمن بيوم الحسابِ ﴾ يشير به إلى فرعون وكـل من يشـاركه في صفتي التكبر وعدم الإيمان بيوم الحسـاب ولا يؤمن ممن اجتمعت فيه الصفتان شر أصلاً .

قوله تعالى : ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾ إلى آخر الآية . ظاهر السياق أن ﴿من آل فرعون ﴾ صفة رجل و ﴿يكتم إيمانه ﴾ صفة اخرى فكان الرجل من القبط من خاصة فرعون وهم لا يعلمون بإيمانه لكتمانه إياهم ذلك تقية .

وقيل: قوله: ﴿ وَمِن آل فرعون﴾ مفعول ثنان لقوله: ﴿ يَكْتُمَ ﴾ قدم عليه ، والغالب فيه وإن كان التعدي إلى المفعول الثاني بنفسه كما في قوله: ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ (١) لكنه قد يتعدى إليه بمن كما صرح به في المصباح .

وفيه أن السياق يأباه فلا نكتة ظاهرة تقتضي تقدم المفعول الشاني على الفعل من حصر ونحوه . على أن الرجل يكرر نداء فرعون وقومه بلفظة ﴿يا قـوم ﴾ ولو لم يكن منهم لم يكن له ذلك .

⁽١) النساء: ٤٢ .

وقوله: ﴿ أَتَقَتَلُونَ رَجَلًا أَنْ يَقُولَ رَبِي اللهِ وَقَدَ جَاءَكُم بِالبَيْنَاتِ مِنْ رَبِكُم ﴾ إنكار لعزمهم على قتله ، وفي قوله : ﴿ مِن رَبَّكُم ﴾ دليـل على أن في البينات التي جاء بها دلالة على أن الله ربهم أيضاً كما اتخذه رباً فقتله قتل رجـل جاء بـالحق من ربهم .

قوله : ﴿ وَإِنْ يَكَ كَاذَبًا فَعَلَيْهِ كَذَبِهِ ﴾ قيل : إن ذكره هذا التقدير تلطف منه لا أنه كان شاكاً في صدقه .

وقوله: ﴿وإن بِكُ صادقاً يصبِكم بعض الذي يعدكم فيه تنزيل في المخاصمة بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلها كأنه يقول: وإن يك صادقاً يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب ولا أقل من إصابة بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابة جميع ما وعد.

وقوله: ﴿إِنَّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب وتعليل للتقدير الثاني فقط والمعنى إن يك كاذباً كفاه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدون طوركم كذابون في نفي ربوبية ربكم واتخاذ أرباب من دونه والله لا يهدي من هو مسرف كذاب، وأما على تقدير كذبه فلا ربوبية لمن اتخذه رباً حتى يهديه أو لا يهديه.

ومن هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجملة تعليلًا للتقديرين جميعاً متعلقة بكلتا الجملتين غير مستقيم .

قوله تعالى : ﴿ يَا قُومُ لَكُمُ الْمَلُكُ الْيُومُ ظُاهِرِينَ فِي الْأَرْضُ فَمَنَ يَنْصَرُنَا مِنَ بِأَسَّ اللهُ إِنْ جَاءِنَا ﴾ ظهورهم غلبتهم وعلوهم في الأرض ، والأرض أرض مصر ، وبأس الله أخذه وعذابه والاستفهام للإنكار .

والمعنى: يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين في أرض مصر على من دونكم من بني إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله وعذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا ؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء الباس ليكون أبلغ في النصح وأوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه.

قوله تعالى : ﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ أي طريق الصواب المطابقة للواقع يريد أنه على يقين مما يهدي إليه قومه

من الطريق وهي مع كونها معلومة له مطابقة للواقع ، وهذا كان تمويها منه وتجلداً .

قوله تعالى : ﴿وقال الذي آمن ما قوم إني أخاف عليكم مشل يوم الأحزاب﴾ إلى قوله ﴿للعباد﴾ المراد بالذي آمن هو مؤمن آل فرعون ، ولا يعبؤ بما قيل : إنه موسى لقوة كلامه ، والمراد بالأحزاب الأمم المذكورون في الأية التالية قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وقوله : ﴿مثل دأب قوم نوح﴾ بيان للمثل السابق والدأب هو العادة .

والمعنى: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأقوام الماضين مثل العادة الجارية من العذاب عليهم واحداً بعد واحد لكفرهم وتكذيبهم الرسل، أو مثل جزاء عادتهم الدائمة من الكفر والتكذيب وما الله يريد ظلماً للعباد.

قوله تعالى : ﴿وَيَا قُومَ إِنِي أَخَافَ عَلَيْكُمْ يُومُ الْتَنَادِ﴾ إلى قوله ﴿مَنْ هَادَ﴾ يُومُ التناد يوم القيامة ، ولعل تسميته بـذلك لكـون الظالمين فيـه ينادي بعضهم بعضاً وينادون بالويل والثبور على ما اعتادوا به في الدنيا .

وقيل: المراد بالتنادي المناداة التي تقع بين أصحاب الجنة وأصحاب النار على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف، وهناك وجوه أخر ذكروها لا جدوى فيها.

وقوله: ﴿يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ﴾ المراد به يوم القيامة ولعل المراد أنهم يفرون في النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال تعالى: ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (١).

وقوله: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿مَا لَكُمْ مَنُ اللهُ مَنْ عَاصِمُ ۖ أَي تَفْرُونُ مَدْبُرِينَ مَا لَكُمْ مَنْ عَاصِمْ وَلَـو كَانَ لَكَـانَ مَنْ جَانَبِ اللهُ وَلِيسَ وَذَلْكَ لَأَنْ اللهُ أَصْلُهُمْ وَمَنْ يَضْلُلُ الله فما له من هاد.

قوله تعالى : ﴿ ولقد جماءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ إلى آخر الآية . لما ذكر أن الله أضلهم ولا هادي لهم استشهد له بما عاملوا بـه يوسف ﷺ في رسالته

⁽١) الحج : ٢٢ .

إليهم حيث شكوا في نبوته ما دام حياً ثم إذا مات قالوا : لا نبي بعده .

فالمعنى : وأقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التي لا تدع ريباً في رسالته من الله فما زلتم في شك مما جاءكم به ما دام حياً حتى إذا هلك ومات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً فناقضتم أنفسكم ولم تبالوا .

ثم أكده ـ وهو في معنى التعليل ـ بقوله : ﴿كَذَلُكُ يَضُلُ اللهُ مِن هُـو مُسْرِفُ مُرتَابِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ النح وصف لكل مسرف مرتاب فإن من تعدي طوره بالإعراض عن الحق واتباع الهوى واستقر في نفسه الارتياب فكان لا يستقر على علم ولا يطمئن إلى حجة تهديه إلى الحق جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه .

وقوله: ﴿كَذَلَكَ يَسَطِيعُ اللّهُ عَلَى كَلَ قَلْبُ مَتَكُبُرُ جَبَّارٍ ﴾ يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجة ولا يركنون إلى برهان.

قوله تعالى : ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لمي صرحاً ﴾ إلى قوله ﴿في تباب﴾ أمر منه لوزيره هامان أن يبني لـه بناء يتوصل به إلى الإطلاع إلى إلـه موسى ولعله أصدر هذا الأمر أثناء محاجة الذي آمن وبعد الانصراف عن قتل موسى ولذلك وقع ذكره بين مواعظ الذي آمن واحتجاجاته.

والصرح ـ على ما في المجمع ـ البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، والأسباب جمع سبب وهو ما تتوصل به إلى ما يبتعد عنك .

وقوله: ﴿لعلي أبلغ الأسياب﴾ في معنى التعليل لأمره ببناء الصرح ، والمعنى آمرك ببنائه لأني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله: ﴿فأطلع إلى إله موسى كأنه يقوله: ﴿فأطلع إلى إله موسى كأنه يقول: إن الإله الذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري فلعله في السماء فابن لي صرحاً لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء فأطلع من جهتها إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً.

وقيل : إن مراده أن يبني له رصداً يرصد فيه الأوضاع السماوية لعله يعشر فيها على ما يستدل به على وجود إله موسى بعد اليأس عن الظفر عليه بالوسائــل الأرضية وهو حسن ، وعلى أي حال لا يستقيم ما ذكره على شيء من مـذاهب الوثنيـة فلعله كان منه تمويهاً على الناس أو جهلًا منه وما هو من الظالمين ببعيد .

وقوله: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ مفاد السياق أنه في معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذي كان يدعوه إليه موسى فقد زين الشيطان له قبيح عمله فرآه حسناً وصده عن سبيل الرشاد فرآى انصداده عنها ركوباً عليها فجادل في آيات الله بالباطل وأتى بمثل هذه الأعمال القبيحة والمكائد السفهية لإدحاض الحق .

ولـذلك ختمت الآيـة بقولـه : ﴿وما كيـد فسرعـون إلا في تبـاب﴾ أي هـلاك وانقطاع .

قوله تعالى : ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد و يدعوهم إلى اتباعه ليهديهم ، واتباعه اتباع موسى ، وسبيل السرشاد السبيل التي في سلوكها إصابة الحق والظفر بالسعادة ، والهداية بمعنى إراءة الطريق ، وفي قوله : ﴿أهدكم سبيل الرشاد و تعريض لفرعون حيث قال : ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ يَا قُومَ إِنَّمَا هَذُهُ الْحَيَاةُ الْدُنَيَا مَتَاعُ وَإِنْ الْآخَرَةُ هِي دَارُ القرار ﴾ هذا هو السناد الذي يستند إليه سلوك سبيل الرشاد والتدين بدين الحق لا غنى عنه بحال وهو الاعتقاد بأن للإنسان حياة خالدة مؤبدة هي الحياة الأخرة وأن هذه الحياة الدنيا متاع في الأخرة ومقدمة مقصودة لأجلها ، ولذلك بدأ به في بيان سبيل الرشاد ثم ذكر السيئة والعمل الصالح .

قوله تعالى: ﴿من عمل سيئة فلا يجرى إلا مثلها﴾ إلى آخر الآية . أي إن الذي يصيبه ويعيش به في الآخرة يشاكل ما أتى في هذه الحياة الدنيا التي هي متاع فيها فإنما الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء .

من عمل في الدنيا سيئة ذات صفة المساءة فلا يجزي في الأخرة إلا مثلها مما يسوؤه ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى من غير فرق بينهما في ذلك والحال أنه مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب .

وفيه إشارة إلى المساواة بين الذكر والأنثى في قبول العمل وتقييد العمل

الصالح في تأثيره بالإيمان لكون العمل حبطاً بدون الإيمان قال تعالى : ﴿وَمِنْ لِكُونُ الْإِيمَانُ فَقَدْ حَبْطُ عَمْلُهُ﴾(١) إلى غيرها من الآيات .

وقد جمع الدين الحق وهو سبيل الرشاد في أوجز بيان وهو أن لـلإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيء أو صالح فليعمل صالحاً ولا يعمل سيئاً ، وزاد بياناً إذ أفاد أنه إن عمل صالحاً يرزق بغير حساب .

قوله تعالى: ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النارك إلى قوله ﴿العزيز الغفار ﴾ كأنه لما دعاهم إلى التوحيد قابلوه بدعوته إلى عبادة آلهتهم أو قدرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل وإصرارهم على الشرك فنسب إليهم الدعوة بشهادة حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقة بدعوتهم الباطلة .

فقال: ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة أي النجاة من النار وتدعونني إلى النار وقد كان يدعوهم إلى سبب النجاة ويدعونه إلى سبب دخول النار فجعل الدعوة إلى السببين دعوة إلى المسببين أو لأن الجزاء هو العمل بوجه.

ثم فسر ما دعوه إليه وما دعاهم إليه فقال: تـدعونني لأكفر أي إلى أن أكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم أي أشرك به شيئاً لا حجة لي على كونه شريكاً فأفتري على الله بغير علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الذي يغلب ولا يُغلب ، الغفار لمن تاب إليه وآمن به أي أدعوكم إلى الإيمان به والإسلام له .

قوله تعالى : ولا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الأخرة الخرة الخرة لا أجرم بمعنى حقاً أو بمعنى لا بد ، ومفاد الآية إقامة الحجة على عدم كون ما يدعون إليه إلها من طريق عدم الدعوة إليه وفي ذلك تأييد لقوله في الآية السابقة (ما ليس لي به علم).

والمعنى: ثبت ثبوتاً أن ما تدعونني إليه مما تسمونه شريكاً له سبحانه ليس له دعوة في الدنيا إذ لم يعهد نبي أرسل إلى الناس من ناحيته ليدعوهم إلى عبادته، ولا في الاخرة إذ لا رجوع إليه فيها من أحد، وأما الذي أدعوكم إليه وهو الله سبحانه فإن له دعوة في الدنيا وهي التي تصداها أنبياؤه ورسله المبعوثون من عنده

⁽١) المائدة : ٥ ،

المؤيدون بالحجج والبينات ، وفي الأخرة وهي التي يتبعها رجوع الخلق إليه لفصل القضاء بينهم ، قال تعالى : ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾(١) .

ومن المعلوم كما قررناه في ذيل قوله تعالى : ﴿هُو الذي يريكم آياته ﴾ الآية ١٣ من السورة أن الربوبية لا تتم بدون دعوة في الدنيا ونظيرتها الدعوة في الآخرة ، وإذ كان الذي يدعوهم إليه ذا دعوة في الدنيا والآخرة دون ما يدعونه إليه فهو الإله دون ما يدعون إليه .

وقوله: ﴿وإن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ معطوف على قوله: ﴿أن ما تدعونني﴾ أي لا جرم أن مردنا إلى الله فيجب الإسلام له واتباع سبيله ورعاية حدود العبودية ، ولا جرم أن المسرفون وهم المتعدون طور العبودية ـ وهم أنتم ـ أصحاب النار فالذي أدعوكم إليه فيه النجاة دون ما تدعونني إليه .

قوله تعالى : ﴿ فَسَنْدُكُوونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَافُوضُ أَمْرِي إِلَى الله إِنْ الله بَصِيرِ بِالْعَبَادِ ﴾ صدر الآية موعظة وتخويف لهم وهو تفريع على قوله : ﴿ وَأَنْ مَرِدِنَا إِلَى الله ﴾ النخ أي إذ كان لا بند من الرجوع إلى الله وحلول العذاب بالمسرفين وأنتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب وتعلمون عند ذاك أني كنت ناصحاً لكم .

وقوله: ﴿وافوض أمري إلى الله ﴾ التفويض على ما فسره الراغب هو الرد فتفويض الأمر إلى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل والتسليم والاعتبار مختلف: فالتفويض من العبد رده ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه وحال العبد حينتذ حال من هو أعزل لا أمر راجعاً إليه ، والتوكل من العبد جعله ربه وكيلاً يتصرف فيما له من الأمر ، والتسليم من العبد مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه ومنه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه فهي مقامات ثلاث من مقامات العبودية: التوكل ثم التضويض وهو أدق من من التوكل ثم التصليم وهو أدق منهما .

وقوله: ﴿إِن الله بصير بالعباد﴾ تعليل لتفويضه أمره إلى الله ، وفي وضع اسم الجلالة موضع ضميره ـ وكان مقتضى البظاهر الإضمار إشارة إلى علة بصيرته بالعباد كأنه قيل : إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه .

قوله تعالى : ﴿ فُوقَـاهُ الله سيئات ما مكروا ﴾ تفريع على تفويضه الأمر إلى الله

⁽١) الإسراء : ٥٢ .

فكفاه الله شرهم ووقاه سيئات مكرهم ، وفيه إشارة إلى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه .

قوله تعالى : ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ إلى قوله ﴿أَشَدُ العذاب ﴾ أي نزل بهم وأصابهم العذاب السيء فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى موصوفها وفي التوصيف بالمصدر مبالغة ، وآل فرعون أشياعه وأتباعه ، وربما يُقال آل فلان ويشمل نفسه .

وقوله: ﴿ النَّارِ يَعْرَضُونَ عَلَيْهَا غَنْدُواً وَعَشَياً وَيُنُومُ السَّاعَةُ أَدْخُلُوا آلُ فرعون أشد العذاب﴾ ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب وليس من الاستئناف في شيء .

والآية صريحة أولاً في أن هناك عرضاً على النار ثم إدخالاً فيها والإدخال أشد من العرض ، وثانياً : في أن العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ _ عالم متوسط بين الموت والبعث _ وثالثاً : أن التعذيب في البرزخ ويوم تقوم الساعة بشيء واحد وهو نار الأخرة لكن البرزخيين يعذبون بها من بعيد وأهل الأخرة بدخولها .

وفي قبوله : ﴿غدواً وعشياً﴾ إشبارة إلى التوالي من غير انقطاع ، ولعبل لأهبل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلية نسبة ما إلى الغداة والعشي .

وفي قوله : ﴿ويوم تقوم الساعة ادخلوا﴾ إيجاز بالحذف والتقدير يقال : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

قوله تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا﴾ إلى قوله ﴿بين العباد﴾ يفيد السياق أن الضمير في ﴿يتحاجون﴾ لأل فرعون ومن الدليل على ذلك تغيير السياق في قوله بعد: ﴿وقال الذين في النار﴾ والمعنى وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار أو واذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا في الدنيا لكم تبعاً وكان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولا شدة أشد مما نحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار وإن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا بالبعض.

وهذا ظهور مما رسخ في نفوسهم في الدنيا من الالتجاء بكبريائهم ومتبوعيهم من

دون الله يظهر منهم ذلك يوم القيامة وهم يعلمون أنهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً والأمر يـومئذ لله ولـه نظائـر محكية عنهم في كـلامه تعـالى من كذبهم يـومئذ وخلفهم وإنكارهم أعمالهم وتكذيب بعضهم لبعض وغير ذلك .

وقوله: ﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد بحواب من مستكبريهم عن قولهم ومحصلة أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطة عن التأثير وقد طاحت منا ما كنا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة فحالنا وحالكم ونحن جميعاً في النار واحدة .

فقولهم : ﴿إِنَا كُلُّ فَيهَا إِنْ اللهُ قَمْدُ حَكُم بِينَ الْعَبَادَ﴾ مضاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب وتأثيراتها وأثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حد سواء فلسنا نختص دونكم بقوة حتى نغني عنكم شيئاً من العذاب .

ومما قيل في الآية أن الضمير في قوله : ﴿ يَتَحَاجُونَ ﴾ لمطلق الكفار من أهل النار وهو بعيد كما عرفت ، وقيل : الضمير لقريش وهو أبعد .

قوله تعالى : ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العداب مكالمة بين أهل النار ـ ومنهم آل فرعون ـ وبين خزنة جهنم أوردها سبحانه تلو قصة آل فرعون ، وهم إنما سألوا الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم .

والمراد باليـوم من العذاب مـا يناسب من معنى اليـوم لعالمهم الـذي هم فيـه ، ويؤل معناه إلى قطعة من العذاب .

قوله تعالى: ﴿قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال أجابوهم بالاستخبار عن إنيان رسلهم إياهم بالبينات فاعترفوا بذلك وهو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق وهو الكفر بالنبوة فلم يجبهم الخزنة فيما سألوهم من الدعاء إثباتاً ولا نفياً بل ردوهم إلى أنهم لا يستجاب لهم دعاء .

وقوله: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدي إلى هدف الإجابة وهو تتمة كلام الخزنة على ما يعطيه السياق، ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى ، على بعد . والجملة على أي حال تفيد معنى التعليل وللمحصل: ادعوا فلا يستجاب لكم فإنكم كافرون ، والكافرون لا يستجاب لهم دعاء .

وتعليق حكم عدم الاستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته وذلك أن الله سبحانه وإن وعد عباده وعداً قطعياً أن يجيب دعوة من دعاه منهم فقال : ﴿ أُجِيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (١) ، والدعاء إذا كان واقعاً على حقيقته لا يرد البتة لكن الذي يتضمنه متن هذا الموعد هو أن يكون هناك دعاء وطلب حقيقة وأن يتعلق ذلك بالله حقيقة أي يدعو الداعي ويطلب جداً وينقطع في ذلك إلى الله عن سائر الأسباب التي يسميها أسباباً .

والكافر بعذاب الآخرة وهو الذي ينكرها ويستر حقيقتها لا يتمشى منه طلب جدي لرفعه أما في الدنيا فظاهر ، وأما في الآخرة فلأنه وإن أيقن به بالمعاينة وانقطع إلى الله سبحانه لما هو فيه من الشدة وقد انقطعت عنه الأسباب لكن صفة الإنكار لزمته وبالاً وقد جوزي بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلباً جدياً .

على أن الكلام في انقطاعه إلى الله أيضاً كالكلام في طلبه الجدي للتخلص وأنى له الانقطاع إلى الله هناك ولم يتلبس به في الدنيا فافهمه .

وبذلك ينظهر ضعف الاستندلال بالأية على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقاً فإنك عرفت أن مدلول الآية عدم استجابة دعائه فيما يكفر به وينكره لا مطلقاً كيف؟ وهناك آيات كثيرة تذكر استجابة دعائه في موارد الاضطرار.

قوله تعالى: ﴿إِنَا لَنْتَصَرَ رَسَلُنَا وَالَّذِينَ آمِنُوا فِي الْحَيَاةُ الدُنْيَا وَيُومَ يَقُومُ الْأَشْهَادِ ﴾ الأشهاد جمع شهيبد بمعنى شاهد، والآية وعد نوعي لا وعد شخصي لكل واحد شخصي منهم في كل واقعة شخصية، وقد تقدم كلام في معنى النصر الإلهي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْهُمُ لَهُمُ الْمُنْصُورُونَ ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ تفسير ليوم يقوم الأشهاد، وظاهر إضافة المصدر إلى فاعله في قوله ﴿ معذرتهم ﴾ ولم يقل : أن يعتذروا ، تحقق معذرة ما منهم يومئذ ، وأما قوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (٣) فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة وعقباته لدلالة آيات أخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ .

وقوله : ﴿ولهم اللعنة﴾ أي البعد من رحمة الله ، وقوله : ﴿لهم سوء الدار﴾ أي الدار السيئة وهي جهنم .

قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب إلى قوله ﴿الألباب خاتمة لما تقدم من إرسال موسى بالأيات والسلطان العبين ومجادلة آل فرعون في الأيات بالباطل ومحاجة مؤمن آل فرعون ، يشير بها وقد صدرت بلام القسم إلى حقية ما أرسل به وظلمهم فيما قابلوه به .

والمراد بالهدى الدين الذي أُوتيه موسى ، و «بإيراث بني إسرائيل الكتاب» إبقاء التوراة بينهم يعملون بها ويهتدون .

وقوله : ﴿ هدى وذكرى لأولي الألباب﴾ أي حال كون الكتاب هدى يهتدي به عامتهم وذكرى يتذكر به خاصتهم من أولي الألباب .

(بحث روائي)

في العلل بـإسناده عن إسمـاعيل بن منصـور أبي زياد عن رجـل عن أبي عبد الله مالتخه في قول فرعون : ﴿ ذَرُونِي أقتل موسى ﴾ ما كان يمنعه ؟ قال : منعته رشـدته ، ولا يقتل الأنبياء إلا أولاد الزنا .

وفي المجمع قال أبـو عبد الله : التقيـة ديني ودين آبائي ، ولا دين لمن لا تقيـة له ، والتقية ترس الله في الأرض لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل .

أقول · والروايات من طرق الشيعة فيها كثيرة والآيات تؤيدها كقوله : ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُ مَنْهُمْ تَقَاةَ﴾(١) وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ أَكُرُهُ وَقَلْبُهُ مَطْمَئْنَ بِالْإِيمَانُ﴾(١) .

وفي المحاسن بإسناده عن أيوب بن الحر عن أبي عبد الله من في قـول الله : ﴿ فـوقاه الله سيئـات ما مكـروا﴾ قال : أمـا لقد سـطوا عليه وقتلوه ولكن أتـدرون ما وقاه ؟ وقاه أن يفتنوه في دينه .

أقول: وفي معناه بعض روايات أخر وفي بعض ما ورد من طرق أهـل السنة أن الله نجاه من القتل.

⁽١) آل عمران : ٢٨ -

وفي الخصال عن الصادق مالئين قال: عجبت لمن يفزع من أربع كيف لا يفزع إلى أربع ؟ ـ إلى أن قال ـ وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وافوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾ فإني سمعت الله تعالى يقول بعقها: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ .

أقول : وهو مروي في غير هذا الكتاب .

وفي تفسير القمي قال رجل لأبي عبد الله طلطة: اما تقول في قول الله عز وجل : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ فقال أبو عبد الله سلطة: ما يقول الناس ؟ فقال : يقولون : إنها في نار الخلد وهم لا يعذبون فيما بين ذلك فقال : فهم من السعداء . فقيل له : جعلت فداك فكيف هذا ؟ فقال : إنما هذا في الدنيا فأما في دار الخلد فهو قوله : ﴿ يوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

أقول: مراده سائكة بالدنيا البرزخ وهو كثير الورود في رواياتهم .

وفي المجمع عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله سنوات قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار يُقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يـوم القيامة أورده البخاري ومسلم في الصحيح .

أقول: ورواه السيوطي في الدر المنثور عنهما وعن ابن أبي شيبة وابن مردويه وهذا المعنى كثير الورود في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد مر كثير منها في البحث عن البرزخ في الجزء الأول من الكتاب وغيره من المواضع.

* * *

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ آللَّهِ حَقَّ وَآسْتَغْفِرْ لِلذَّنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ آلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ آللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَالٍ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٥٥) إِنَّ آلَذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ آللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَالٍ أَتَنْهُمْ إِنَّا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ أَتَنْهُمْ إِنَّا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ أَتَنْهُمْ إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيدُ (٥٥) لَخَلْقُ آلسَّمْ وَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ آلسَّمِيعُ الْبَصِيدُ (٥٦) لَخَلْقُ آلسَّمْ لَا يَعْلَمُ وَذَ (٧٥) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ آلنَاسِ لَا يَعْلَمُ وَذَ (٧٥) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ

وَالْبَصِيرُ وَٱلَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُوا آلصَّـالِحَـاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَـا تَتَـذَكُرُونَ (٥٨) إِنَّ آلسَّاعَةَ لَآتِيةً لَا رَيْبَ فِيهَا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ آلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ آدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ آلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ يَوْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمُ آدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ آلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٢٠).

(بیان)

لما قص قصة موسى وإرساله بالحق إلى فرعون وقومه ، ومجادلتهم في آيات الله بالباطل ومكرهم فيها ونصره تعالى لنبيه وإبطاله كيدهم وما آل إليه أمرهم من خيبة السعي وسوء المنقلب فرّع على ذلك أمر نبيه مطرته بالصبر منبها له أن وعد الله بالنصر حق وأن كيد قومه وجدالهم بالباطل واستكبارهم عن قبول دعوته سبيطل ويعود وبالا على أنفسهم فليسوا بمعجزي الله وستقوم الساعة الموعودة ويدخلون جهنم داخرين .

قوله تعالى : ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ إلى آخر الآية . تفريع على ما تقدم من الأمر بالاعتبار في قوله : ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الله ين كانوا من قبلهم﴾ وما أورد بعده من قصة موسى ومآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل ونصره تعالى للحق وأهله .

والمعنى: إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين ومجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق وسيفي لك بما وعد، والمراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا: ﴿إِنَا لَنْنُصُرُ رَسَلْنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية من وعد النصر.

وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾ أمر له بالاستغفار لما يعد بالنسبة إليه ذنباً وإن لم يكن ذنباً بمعنى المخالفة للأمر المولوي لمكان عصمته والدين ، وقد تقدم كلام في معنى الذنب والمغفرة في أواخر الجزء السادس من الكتاب .

وللذنب المنسوب إليه مسلمات معنى آخر سنشير إليه في تفسير أول سـورة الفتح إن شاء الله تعالى ، وقيل : المراد بذنبه مسلمات ذنب أمته أعطي الشفاعة فيه .

وقوله : ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ﴾ أي نزهه سبحانه مصاحباً

لحمده على جميل آلائه مستمراً متوالياً بتوالي الأيام أو في كل صباح ومساء ، وكونه بالعشى والإبكار على المعنى الأول من قبيل الكناية .

وقيل : المراد به صلاتا الصبح والعصر ، والآية مدنية .

وفيه أن المسلم من الروايات ومنها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعاً بمكة قبل الهجرة فلو كان المسراد به الفريضتين كان ذلك بمكة قبل فرض بقية الصلوات الخمس .

قوله تعالى : ﴿إِن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ النح تأكيد لما تقدم في الآية السابقة من أمره مسنوا المحبور وتبطيب نفسه بتأييد وعبد النصر ، ومحصله أن هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم ولن ينالوا فلا يحزنك جدالهم وطب نفساً من ناحيتهم .

فقوله: ﴿إِن في صدورهم إلا كبر﴾ حصر للسبب الموجب لمجادلتهم في الكبر أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحق أو الارتياب في آياتنا والشك فيها حتى يريدوا بها ظهور الحق ولا حجة ولا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذي في صدورهم وهو الداعي لهم إلى الجدال ، الكبر ، يريدون به إدحاض الحق الصريح .

وقوله: ﴿ مَا هُمُ بِبَالَغِيهِ ﴾ الضمير لكبر باعتبار مسببه فإن الكبر سبب للجدال والجدال يراد به إبطال الحق ومحق الدعوة الحقة ، والمعنى ما هم ببالغي مرادهم وبغيتهم من الجدال الذي يأتون به لكبرهم .

وقوله: ﴿ فاستعذبالله ﴾ أي فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاد موسى من كل متكبر مجادل كما قال: ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ .

وقوله : ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أي السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم والذي يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء .

 الله الذي قدر على خلق مجموع العالم ولم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزء يسير منه وهو الناس المخلوقون الذين هم أهـون عليه ولكن أكثـر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أي كيد يكيدونه .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتُويَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيْرِ ﴾ النج لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكده بأنهم ليسوا على وتيرة واحدة فإن منهم الأعمى والبصير ولا يستويان وعطف عليهما الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء فالطائفة الأولى أولو بصيرة يتذكرون بها والثانية أعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون .

وقوله: ﴿قليلًا مَا تَتَذَكُرُونَ﴾ خطاب للناس بـداعي التوبيخ وهو الـوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور.

قوله تعالى : ﴿إِن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ذكرهم تعالى في هذه الآية بإتيان الساعة وفي الآية التالية بدعوة ربهم إياهم إلى دعائه وعبادته كما نبه الذي آمن من آل فرعون في القصة السابقة بإتيان الساعة وبأن لله الدعوة وليس لآلهتهم دعوة في الدنيا ولا في الأخرة .

قوله تعالى : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ﴾ دعوة منه تعالى لعباده إلى دعائه ووعد بالاستجابة ، وقد أطلق الدعوة والدعاء والاستجابة إطلاقاً ، وقد أشبعنا الكلام في معنى الدعاء والإجابة في ذيل قوله تعالى : ﴿أُجِيبِ دعوة الداع إذا دعان ﴾ (١) في الجزء الأول من الكتاب .

وقوله: ﴿إِنْ الذِّينَ يَسْتَكُبُرُونَ عَنْ عَبَادَتِي سَيَدَخُلُونَ جَهُمْ دَاخِرِينَ﴾ الدخور الذَّلة ، وقد بدل الدعاء عبادة فدل على أن الدعاء عبادة .

(بحث روائي)

في الصحيفة السجادية : وقلت : ﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ فسميت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتـوعدت على تركه دخول جهنم داخرين .

وفي الكافي بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله سِلنَان قال : سمعته

⁽١) البقرة : ١٨٦ .

أقول: قوله مثنت: فإن الدعاء ـ إلى قوله ـ داخرين احتجاج على ما ندب إليه أولاً بقوله: أدع ، وقوله: وقال: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ احتجاج على ما قاله ثانياً: ولا تقل: قد فرغ من الأمر ولذا قدم سننت في بيانه ذيل الآية على صدرها.

وفي الخصال عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله ملك قال : يها معاوية من أعطي ثلاثة لم يحرم ثلاثة : من أعطي الدعماء أعطي الإجمابة ، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية فإن الله عنز وجل يقول في كتابه : ﴿ وَمَن يَتُوكُلُ عَلَى الله فَهُ و حسبه ﴾ وقال : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، وقال : ﴿ وادعوني أستجب لكم ﴾ .

وفي التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر منشخة قال : قال قوم للصادق سيسخ : ندعوه فلا يستجاب لنا . قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

أقول : وقد أوردنـا جملة من روايات الـدعاء في ذيـل قولـه : ﴿ أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾(١) في الجزء الأول من الكتاب .

* * *

آللَّهُ آلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَآلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ آللَّهُ لَنُو فَضْلَ عَلَى آلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (١٦) ذٰلِكُمُ لَلْهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنِّى تُؤْفَكُونَ (٢٢) كَذلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِ شَيْءٍ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُو فَأَنِّى تُؤْفَكُونَ (٢٢) كَذلِكَ يُؤْفَكُ آلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ يُؤْفَكُ آلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَآلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَآلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَآلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ

⁽١) البقرة : ١٨٦ .

الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٤) هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَّهَ إِلاَّ هُو فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٥٥) وَلَا إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ الْنَيْنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ اللَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابِ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَلْعُواۤ أَشُدُّكُمْ مِنْ يُتَوفِّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواۤ لِتَبْلُغُواۤ أَشُدُكُمْ مَنْ يُتَوفِّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواۤ لِيتَبُلُغُواۤ أَشُدُكُمْ مُنْ يُتَوفِّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواۤ لِتَبْلُغُواۤ أَشُدُكُمْ مُنْ يُتَوفِى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُواۤ أَجُلا مُسَمَّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٥) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ (٨٥) .

(بیسان)

رجع سبحانه ثانياً إلى الإشارة إلى آيات التوحيد توحيد الربوبية والألوهية بعد ما بدأ بها في السورة أولًا بقوله : ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ الآية . أي جعل لأجلكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه من التعب الذي عرض لكم وجه النهار من جهة السعي في طلب الرزق ، والنهار مبصراً لتبتغوا من فضل ربكم وتكسبوا الرزق ، وهذا من أركان تدبير الحياة الإنسانية .

وقد ظهر بمذلك أن نسبة الإبصار إلى النهار من المجاز العقلي لكن ليس من المبالغة في شيء كما ادعاه بعضهم .

وقوله: ﴿إِنْ الله لَدُو فَصَلَ عَلَى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون امتنان عليهم بالفضل وتقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم ولو شكروه لعبدوه ووضع ﴿الناس الثاني موضع الضمير للإشارة إلى أن من طبع الناس بما هم ناس كفران النعم كما قال: ﴿إِن الإنسان لظلوم كفار ﴾(١).

⁽١) إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلَكُمُ اللهُ رَبِكُمْ خَالَقَ كُلُّ شَيْءَ لَا إِلَهُ إِلَا هُـو فَأَنَى تَؤْفَكُـونَ ﴾ أي ذلكم الله يدبر أمر حياتكم ورزقكم بسكون الليـل وسعي النهار هـو الله تعالى وهـو ربكم لأن تدبير أمركم إليه .

وقوله: ﴿ خَالَقَ كُلُ شَيَّ ﴾ أي ورب كُلُ شيء لأنه خَالَقَ كُلُ شيء والخلق لا ينفك عن التدبير ولازم ذلك أن لا يكون في الوجودرب غيره لا لكم ولا لغيركم ولذلك عقبه بقوله: ﴿ لا إله إلا هُو ﴾ أي فإذن لا معبود بالحق غيره إذ لوكان هناك معبود آخر كان رب آخر فإن الألوهية من شؤون الربوبية.

وقوله : ﴿ فَأَنِّي تَوْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

قوله تعالى : ﴿كذلك يؤفك الـذين كانـوا بآيـات الله يجمعدون﴾ أي كمثـل هذا الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الأيات ظاهرة غير خفية فالانصراف عن مدلـولها لا سبب له إلا الجمعود .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء ﴾ إلى آخر الآية القرار المستقر الذي يستقر عليه ، والبناء _ على ما قيل _ القبة ومنه أبنية العرب للقباب المضروبة عليهم . يذكر تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء .

وقوله: ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ الفاء للتفسير والمعنى أحسن خلق صوركم وذلك أن الإنسان جهز من دقائق التجهيز في صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوعة العجيبة على مالا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحية ، ويلتذ من مزايا الحياة بما لا يتيسر لغيره أبداً .

وقوله: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ هي الأرزاق المتنوعة التي تلائم بطبائعها طبيعة الإنسان من الحبوب والفواكه واللحوم وغيرها، وليس في الحيوان متنوع في الرزق كالإنسان.

وقوله: ﴿ وَذَلَكُمُ الله رَبِكُم ﴾ أي المعدبر الأمركم ، وقوله: ﴿ وَفَتِبَارِكُ الله رَبِ العالمين ﴾ ثناء عليه عز وجل بربوبيته لجميع العالمين ، وقد فرعه على ربوبيته وتدبيره الإنسان إشارة إلى أن الربوبية واحدة وتدبيره الأمر الإنسان عين تدبيره الأمر العالمين جميعاً فإن النظام الجاري نظام واحد روعي في انطباقه على كل ، انطباقه على الكل فهو سبحانه متبارك منشىء للخير الكثير فتبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين﴾ النخ في جملة ﴿هو الحي﴾ إطلاق لا مقيد له لا عقلاً ولا نقلاً مضافاً إلى إفادة الحصر فمفادها أن لنه تعالى وحده حياة لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حي بذاته وغيره كائناً ماكان حي بإحياء غيره .

وإذا فرض هناك حي بذاته وحي بغيره لم يستحق العبادة بـذاته إلا من كـان حياً بذاته ، ولذلك عقب قوله : ﴿ هُو الحي ﴾ بقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ . .

وقد سيقت الجملتان توطئة للأمر بدعائه ولا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد وإخلاص الدين له وحده لأنه الحي بذاته دون غيره ولأنه المعبود بالاستحقاق الذاتي دون غيره ، ولذلك فرع على قوله : ﴿هـو الحي لا إله إلا هـو فـوله : ﴿فادعـوه مخلصين له الدين ﴾ .

وقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ثناء عليه بربوبيته للعالمين .

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِي نَهِيتَ أَنْ أُعِبِدُ الذَّينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونَ الله لَمَا جَاءَنِي البَيْنَاتُ مِنْ رَبِي وَأَمُرتُ أَنْ أَسَلَمَ لَرْبِ الْعَالَمِينَ ﴾ معنى الآية ظاهر ، وفيه إيثاس للمشركين من موافقته لهم في عبادة آلهتهم، وقد تكرر هذا المعنى في سورة النزمر ويمكن أن يستأنس منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة الزمر .

قوله تعالى : ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ المخ المواد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب هو خلقهم منه أو المواد بخلقهم من تراب تكوين النطفة من البسائط الأرضية .

وقوله: ﴿ثم من نطفة﴾ النح أي ثم خلقناكم من نطفة حقيرة معلومة الحال ﴿ثم من علقة﴾ كذلك ﴿ثم يخرجكم﴾ من بطون امهاتكم ﴿طفلا﴾ أي أطفالاً ، والطفل _ كما قيل _ يطلق على الواحد والجمع قبال تعالى : ﴿أو البطفل البذين لم يظهروا على عورات النساء﴾(١) .

وثم لتبلغوا أشدكم اللام للغاية وكأن متعلقها محذوف والتقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم وهو من العمر زمان اشتداد القوى وثم لتكوفوا شيوخاً معطوف على

⁽¹⁾ النور . ۳۱ .

﴿لتبلغوا﴾ ﴿ومنكم من يتوفى من قبل﴾ فلا يبلغ أحد هذه المراحل من العمر

﴿ولتبلغوا أجلًا مسمى ﴿ وهـو النهايـة من الأمد المضـروب الذي لا سبيـل للتغير إليه أصلًا ، وهـو غايـة عامـة لجميع النـاس كيفما عمـروا قال تعـالى : ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ (١) . ولذلك لم تعطف الجملة بثم حتى تتميز من الغايتين المذكورتين سابقاً .

وقوله: ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أي تدركون الحق بالتعقل المغروز فيكم ، وهذا غاية خلقه الإنسان بحسب حياته المعنوية كما أن بلوغ الأجل المسمى غاية حياته الدنيا الصورية .

قوله تعالى : ﴿هو الذي يحيى ويميت﴾ الخ أي هو الذي يفعل الإحياء والإماتة وفيهما نقل الأحياء من عالم إلى عالم وكل منهما مبدأ لتصرفاته بالنعم التي يتفضل بها على من يدبر أمره .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنْمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيْكُونَ ﴾ تقدم تفسيره كراراً .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي مسلام وقالوا إن الدجال يكون منا في آخر الزمان ويكون من أمره فعظموا أمره وقالوا يصنع كذا فأنزل الله: ﴿إن الله يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه قال: لا يبلغ الذي يقول. ﴿فاستعذ بالله ﴾ فأمر نبيه مسلام أن يتعوذ من فتنة الدجال ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس الدجال .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار في قوله: ﴿إِنَّ الدَّينَ يَجَادُلُونَ في آيات الله بغير سلطان﴾ قال: هم اليهبود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أسر الدجال.

وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله : ﴿لَحْلُقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ اللَّهِ مِنْ خَلَقَ النَّاسِ﴾ قال : زعموا أن اليهود قالوا : ﴿يَكُونُ مِنَا مَلُكُ فِي آخر

⁽١) الأنعام . ٢ .

الزمان البحر إلى ركبتيه، والسحاب دون رأسه ، يأخذ الطير بين السماء والأرض ، معه جبل خبز ونهر فنزلت : ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ .

أقول: قد عرفت فيما تقدم أن غرض السورة ـ كما يستفاد من سياق آياتها ـ التكلم حول استكبارهم ومجادلتهم في آيات الله بغير الحق فمنها ابتدأ الكلام وإليها يعود عودة بعد عودة كقوله: ﴿ وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ﴿ وقوله: ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ وقوله: ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا ﴾ ، وقوله: ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ﴾ ، وقوله: ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ .

فسياق آيات السورة يأبى أن يكون بعضها يختص بسبب في نزولها لا يشاركها فيه غيرها كما هو مؤدى هذه الروايات الثلاث .

على أن ما في الروايات من قصة إخبار اليهود بالدجال لا ينطبق على الآيتين الطباقاً ظاهراً بعد التأمل في مضمون الآيتين نفسهما أعني قوله : ﴿إِنَّ اللَّذِينَ يَجَادُلُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَكُنَ أَكْثُرُ النَّاسُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ومن هذا يظهـر أن القول بكـون الآيتين مدنيتين استنـاداً إلى هذه الـروايات كمـا ترى .

* * *

أَلَمْ تَرَ إِلَى آلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ آللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ (٢٠) إِذِ آلَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٢٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَآلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٢١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي الْأَعْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَآلسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٢١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّادِ يُسْجَرُونَ (٢٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٢٣) مِنْ دُونِ النَّادِ يُسْجَرُونَ (٢٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٢٣) مِنْ دُونِ النَّهُ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُ آللَّهُ اللَّهُ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُ آللَّهُ اللَّهُ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُ آللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللللَّهُ الللللَّهُ الللللَّهُ الللللَّهُ الللللَّهُ الللللَّهُ اللللللَّهُ الللللَ

الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ آللَّهِ حَقِّ فَاإِمَّا نُرِيَنَكَ بَعْضَ آلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَصْصْ عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولِ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ آللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ آللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ لِرَسُولِ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ آللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ آللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨).

(بیان)

رجوع بعد رجوع إلى حديث المجادلين في آيات الله وقد تعرض لبيان مآل أمرهم بذكر ما آل إليه أمر أشباههم من الأمم الخالية ونصره تعالى لدينه في أول السورة إجمالاً ثم بذكر الحال في دعوة موسى ستنت بالخصوص فيما قصه من قصته ونصره له بالمخصوص ثم في ضمن أمر النبي مستنه بالصبر ووعده بالنصر.

وهذا آخر كرة عليهم يذكر فيها مآل أمرهم وما يصرفون إليه وهـو العذاب المخلد ثم يأمر النبي منزي بالصبر ويعده بالنصر ويطيب نفسه بأن وعد الله حق .

قوله تعالى : ﴿ أَلَم تَر إِلَى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ ﴿ أَلَم سُولُ ﴾ وألم شرك مفيد للتعجيب و ﴿ أَنَى ﴾ بمعنى كيف ، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال .

والتعرض لحال المجادلين ههنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحق والهدى ومآل ذلك ، وفيما تقدم من قوله : ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إذ في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه من حيث إن الداعي لهم إلى ذلك الكبر وأنهم لا يبلغون ما يريدون فلا تكرار .

ومنه يظهر ما في قـول بعضهم: إن تكريـر ذكر المجـادلة محمـول على تعدد المجادل بأن يكون المجادلون المذكورون في الآية السابقة غير المذكـورين في هذه الأية أو على اختلاف ما فيه المجادلة كأن يكون المجادلة هناك في أمر البعث وههنا في أمر البعث وههنا في أمر التوحيد على أن فيه غفلة عن غرض السورة كما عرفت .

قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴾ الذي يعطيه سياق الأيات التالية أن المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبي سنية ، وعليه فالأنسب أن يكون المواد بالكتاب هو القرآن الكريم ، وبقوله : ﴿بما أرسلنا به رسلنا ﴾ ما جاءت به الرسل عليهم السلام من عند الله من كتاب ودين فالوثنية منكرون للنبوة .

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ تفريع على مجادلتهم وتكذيبهم وتهديد لهم أي سوف يعلمون حقيقة مجادلتهم في آيات الله وتكذيبهم بالكتاب وبالرسل.

قوله تعالى : ﴿إِذَ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقُهُمُ وَالسَّلَاسُلُ يَسْحَبُونَ فِي الْحَمْيُمُ ثُمّ فِي النّارِ يُسْجِرُونَ ﴾ في المجمع : الأغلال جمع غل وهبو طوق يبدخل في العنق للذل والألم وأصله الدخول ، وقال : السلاسل جمع سلسلة وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرة وقال : السحب جبر الشيء على الأرض . هذا أصله ، وقال : السحب أصله إلقاء الحطب في معظم النار كالتنور الذي يسجر بالوقود . انتهى .

وقوله: ﴿إِذَ الْأَعْـلالُ فِي أَعْنَـاقَهُمُ وَالسّلاسَـل﴾ ظرف لقوله: ﴿فَسُـوفُ يَعْلَمُونَ هُولِهُ وَإِنْ كَان يعلمُونَ فِيلُ : الْإِتْسَانُ بَإِذْ ـ وهُـو للماضي ـ للدلالَـة على تحقق الوقوع وإن كان موقعه المستقبل فلا تنافي ، في الجمع بين سوف وإذ .

و ﴿الأغلال في أعناقهم ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿السلاسل ﴾ معطوف على الأغلال ، و ﴿يسحبون في الحميم ﴾ خبر بعد خبر ، و ﴿في النار يسجرون ﴾ معطوف على معطوف على ﴿يسحبون ﴾ .

والمعنى : سوف يعلمون حقيقة عملهم حين تكون الأغملال والسلاسل في أعناقهم يجرون في النار .

وقيل: معنى قوله: ﴿ثم في النار يسجرون﴾ ثم يصيرون وقود الناو، ويؤيده قوله تعالى في صفة جهنم: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾(١). وقوله: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ ثُم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾

⁽١) البقرة ٢٤٠ ، (٢) الأنبياء : ٩٨ .

إلى آخر الآية. أي قيل لهم وهم يتقلبون بين السحب والسجر: أين ما كنتم تشركون من شركائكم من دون الله حتى ينصروكم بالإنجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم ؟ .

وقوله: ﴿قَالُوا صَلُوا عَنا﴾ أي غابوا عنا من قولهم: صَلَت الدابـة إذا غابت فلم يعـرف مكانهـا ، وهذا جـوابهم عما قيـل لهم: أين ما كنتم تشـركـون من دون الله .

وقوله: ﴿ بل لم نكن تدعو من قبل شيشاً ﴾ إضراب منهم عن الجواب الأول لما يظهر لهم أن الألهة الذين كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا إلا أسماء لا مسميات لها ومفاهيم لا يطابقها شيء ولم يكن عبادتهم لها إلا سدى ، ولذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئاً قال تعالى : ﴿ فنزيلنا بينهم ﴾ (١) وقال : ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ (٢) .

وقيل : هذا من كذبهم يـوم القيـامـة على حـد قـولـه : ﴿وَالله رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٣) .

وقوله: ﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾ أي إضلاله تعالى للكافرين وهم الساترون للحق يشبه هذا الضلال وهو أنهم يرون الباطل حقاً فيقصدونه ثم يتبين لهم بعد ضلال سعيهم أنه لم يكن إلا باطلاً في صورة حق وسراباً في سيماء الحقيقة.

والمعنى: على الوجه الثاني أعني كون قولهم: ﴿ بِل لَم نكن نـدعو من قبـل شيئاً ﴾ كذباً منهم: كمثل هذا الإضلال يضل الله الكافرين فيؤل أمرهم إلى الكـذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنه لا ينفع.

وقد فسرت الجملة بتفاسير أخرى متقاربة وقريبة مما ذكرناه .

قوله تعالى: ﴿ ذَلَكُم بِمَا كُنتُم تَفْرِحُونَ فِي الأَرْضُ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُم تُمرِحُونُ ﴾ الفرح مطلق السرور ، والمرح الإفراط فيه وهو مذموم ، وقال الـراغب : الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البـدنية ، وقـال :

المرح شدة الفرح والتوسع فيه . انتهى .

وقوله : ﴿ ذَلَكُم بِمَا كُنتُم ﴾ الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب والباء في ﴿ بِمَا كُنتُم ﴾ للسببية أو المقابلة .

والمعنى: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحق من اللذات العاجلة وبسبب كونكم تفرطون في الفرح وذلك لتعلق قلوبهم بعرض الدنيا وزينتها ومعاداتهم لكل حق يخالف باطلهم فيفرحون ويمرحون بإحياء باطلهم وإماتة الحق واضطهاده.

قال في المجمع : قيد الفرح وأطلق المرح لأن الفرح قد يكون بحق فيحمد عليه وقد يكون بالباطل فيذم عليه ، والمرح لا يكون إلا باطلاً . انتهى .

قوله تعالى: ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي ادخلوا أبوابها المقسومة لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحق جهنم ، وقد تقدم أن أبواب جهنم دركاتها .

قوله تعالى : ﴿فَاصِبُرُ إِنْ وَعَدَ اللهُ حَقَ﴾ لما بين مآل أمر المجادلين في آيات الله وهي النار وأن الله يضلهم بكفرهم فرع عليه أمر نبيه مسنية بالصبر معللاً ذلك بأن وعد الله حق .

وقوله : ﴿ وَاللَّم اللَّهِ اللَّهُ اللَّالَّ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُلَّ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللّل

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ النح بيان لكيفية النصر المذكور في الآية السابقة أن آية النصر التي جرت سنة الله على إنزالها للقضاء بين كل رسبول وأمته وإظهار الحق على الباطل كما يشير إليه قوله: ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسبولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ (١) يد لم يفوض أمرها إلى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله ، وحالك حالهم ، فمن الممكن أن تأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم ، ومن الممكن أن نتوفاك فلا تبريك غيبر أن أمر الله إذا

⁽١) يونس ، ٤٧ ،

جاء قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون . هذا ما يفيده السياق .

فقوله : ﴿ولقد أرسلنا رسالًا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك مسوق للإشارة إلى كون ما سيذكره سنة جارية منه تعالى .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لُوسُولُ أَنْ يَأْتِي بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذِنَ اللهُ ﴾ الآية وإن كانت أعم من الآية المعجزة التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته ، والآية التي تنصر الحق وتقضي بين الرسول وبين أمته والكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني وهي القاضية بين الرسول وأمته .

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمَرَ الله قَضِي بِالْحَقّ وَحُسَرَ هَنَالُكُ الْمَبْطُلُونَ ﴾ أي فإذا جاء أمر الله بالعنذاب قضي بالحق فأظهر الحق وأزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل في دنياهم بالهلاك وفي آخرتهم بالعذاب الدائم .

واستدل بالآية على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن ، وفيه أن الآية مكية لا تدل على أزيد من عدم ذكر قصة بعض الرسل إلى حين نزولها بمكة ، وقد ورد في سورة النساء : ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴿(١) ولم يذكر في السور النازلة بعد سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن .

وفي المجمع وروي عن علي مشخف أنه قبال : بعث الله نبياً أسود لم يقص علينا قصته ، وروي في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط وابن مردوي عنه ما في معناه .

* * *

آللَّهُ آلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ آللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨٠) أَفَلَمْ

⁽۱) الساء - ۱۶۶.

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ اللَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوتَةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِآلَتُهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنُوا بِهِ مَشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ إِللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنُوا بِهِ مَشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَكُنَا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَكَافِرُونَ (٨٥) لَكَافِرُونَ (٨٥) .

(بیان)

رجوع بعد رجوع إلى ذكر بعض آيات التوحيد وإرجاع لهم إلى الاعتبار بحال الأمم الدارجة الهالكة وسنّة الله الجارية فيهم بإرسال رسله إليهم ثم القضاء بين رسلهم وبينهم المؤدي إلى خسران الكافرين منهم ، وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴿ ذَكَرَ سَبِحَانُهُ مَمَا يَنْتَفَعُ بِهُ الْإِنسَانُ فِي حَيَاتُهُ وَيَدْبُرُ أَمْرُهُ الْأَنْعَامُ وَالْمَرَادُ بِهَا الْإِبْلُ وَالْبَقْرُ وَالْعَنْمُ ، وقيل : المراد بها ههنا الإبل خاصة .

فقوله: ﴿ وَجعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ الجعل هنا الخلق أو التسخير ، والملام في ﴿ لتركبوا ﴾ للغرض و ﴿ من ﴾ للتبعيض ، والمعنى لأجلكم أو سخر لكم الأنعام والغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل وبعضها كبعض الإبل والمفنم تأكلون .

قوله تعالى : ﴿ولكم فيها منافع﴾ النخ كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك ، وقوله : ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ﴾ أي ومن الغرض من جعلها أن تبلغوا، حال كونكم عليها بالركوب ، حاجة في صدوركم وهي الانتقال من مكان إلى مكان لأغراض مختلفة .

وقوله : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ كناية عن قطع البر والبحر بالأمعام والفلك .

قوله تعالى : ﴿ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون﴾ تقدم معنى إراءته تعالى آياته في تفسير أوائل السورة ، وكأن الجملة أعني قوله : ﴿ويريكم آياته ﴾ غير مقصودة لنفسها حتى يلزم التكرار وإنما هي تمهيد وتوطئة للتوبيخ الذي في قوله : ﴿فأي آيات الله تنكرون أي أي هذه الأيات التي يريكم الله إياها عياناً وبياناً ، تنكرون إنكاراً يمهد لكم الإعراض عن توحيده .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرْضُ فَيَنْظُرُوا ﴾ إلى آخر الآية توبيخ لهم وعطف لأنظارهم إلى ما جرى من سنة القضاء والحكم في الأمم السالفة ، وقد تقدمت نظيرة الآية في أوائل السورة وكان الغرض هناك أن يتبين لهم أن الله أخذ كلاً منهم بذنوبهم لمنا كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم ولذا ذيل الآية بقوله : ﴿ فَأَخَذُهُمُ الله بَذُنُوبِهُم ﴾ ، والغرض ههنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا ولم يتفعهم في دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذي عندهم ولا توبتهم وندامتهم مما عملوا .

وقد صدرت الآية بفاء التفريع فيقل: ﴿أفلم يسيروا﴾ النح مع الالتفات من النحطاب إلى الغية ، وكأن الكلام تفريع على قوله . ﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ فكأنه لما ذمهم وأنكر إنكارهم لآياته رجع وانصرف عنهم إلى النبي سنية مشيراً إلى سقوطه من منزلة الخطاب وقال: إذا كانت آياته تعالى ظاهرة بينة لا تقبل الإنكار ومن جملتها ما في آثار الماضين من الآيات الناطقة وهم قد ساروا في الأرض وشاهدوها فلم لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كماً وكيفاً لم ينفعهم ما فرحوا به من علم وقوة .

قوله تعالى: ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ الخ ضمائر الجمع في الآية _ وهي سبع _ للذين من قبلهم ، والمراد بما عندهم مس العلم ما وقع في قلوبهم وشغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا وفنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها وقد عد الله سبحانه ذلك علماً لهم وقصر علمهم فيه ، قال تعالى : ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَالمَا مِن عَمَن تولَى عَن ذكرنا ولم يبرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾ (٢) .

⁽۱) الروم ۲۰

والمراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم المظاهري وانجذابهم إليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقية التي جاءت بها رسلهم ، واستهانتهم بها وسخريتهم لها ، ولذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله : ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ .

وفي معنى قوله : ﴿فُرحُوا بِمَا عَنْدُهُمْ مِنْ الْعُلُّمُ ﴾ أقوال أُخر :

منها: أن المراد بما عندهم من العلم عقائدهم الفاسدة وآراؤهم الباطلة وتسميتها علماً للتهكم فهم كانوا يفرحون بها ويستحقرون لذلك علم الرسل، وأنت خبير بأنه تصوير من غير دليل.

ومنها: أن المراد بالعلم هو علوم الفلاسفة من يونان والدهريين فكانوا إذا سمعوا بالوحي ومعارف النبوة صغروا علم الأنبياء وتبجحوا بما عندهم، وهو كسابقه على أنه لا ينطبق على أحد من الأمم التي قص القرآن قصتهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم.

ومنها: أن أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضع موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثم بدل الجهل عدماً تهكم فقيل: فرحوا بما عندهم من العلم، وهذا الوجه على ما فيه من التكلف والبعد من الفهم عليه ما يرد على الأول.

ومنها: أن ضمير فرحوا للكفار وضمير ﴿عندهم ﴾ للرسل ، والمعنى فرح الكفار بما عند الرسل من العلم فرح ضحك واستهزاء وفيه أن لازمه احتلاف الضمائر المتسقة مضافاً إلى أن الضحك والاستهزاء لا يسمى فرحاً ولا قرينة .

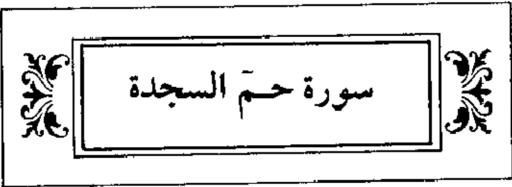
ومنها: أن ضميري ﴿فرحوا بما عندهم﴾ للرسل ، والمعنى أن الرسل لما جاؤهم وشاهدوا ما هم فيه من الجهل والتمادي على الكفر والجحود وعلموا عاقبة أمرهم فرحوا بما عندهم من العلم الحق وشكروا الله على ذلك .

وفيه أن سياق الأيات أصدق شاهد على أنها سيقت لبيان حال الكفار معد إتيان رسلهم بالبينات وكيف آلت إلى نزول العذاب ولم ينفعهم الإيمان بعد مشاهدة البأس ؟ وأي ارتباط له بفرح الرسل معلومهم الحقة ؟ على أن لازمه أيضاً اختلاف الضمائر.

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ البأس شدة العذاب ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ النح وذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ إلى الاختيار ، وقوله : ﴿ سنّة الله التي قد خلت في عباده أي سنها الله سنّة ماضية في عباده أن لا تقبل توبة بعد رؤية البأس ﴿ وحسر هنالك الكافرون ﴾ .

* * *



مكية ، وهي أربع وخُمسونَ آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرُانًا عَرِيبًا لِقَوْم يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثُرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقُرُ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرُ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرُ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِلَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَآسْتَغْفِرُوهُ وَهُمْ بِالآخِورَةِ هُمْ وَوَيْدُلُ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لاَ يُؤتُونَ ٱلرَّكُوةَ وَهُمْ بِالآخِورَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرُ غَيْرُ مَعْنُونِ (٨) قَلْ أَنْكُمْ لَتَكُفُّرُونَ بِآلَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ مَمْنُونِ (٨) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ مَمْنُونِ (٨) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ مَمْنُونِ (٨) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْواتَهَا فِي أَرْبَعَةٍ أَيَّامٍ سَوَآءً لِللَّمُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْواتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِللَّاسَائِلِينَ (١٠) ثُمَّ آسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانُ فَقَالَ لَهَالَ لَهَا لَلِيلَارُضِ انْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١٠) فَقَضِنْهُنَّ سَبْعَ وَلِلْأَرْضِ انْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ (١٠) فَقَضِنْهُنَّ سَبْعَ

سَمْوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَا ٱلسَّمَآءَ ٱلـدُّنْيَا بِمُصَابِيحَ وَحِفْظاً ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)

(بیان)

تتكلم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وهو القرآن الكريم فهو الغرض الأصلي ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله ويبتدى، به ثم يعود إليه فصلاً بعد فصل فقد افتتح بقوله: ﴿ تنزيل من الرحمان الرحيم ﴾ الخ ثم قيل: ﴿ وقال اللذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ الخ ، وقيل: ﴿ إن اللذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ الخ ، وقيل: ﴿ إن اللذين كفروا باللذكو لما جاءهم ﴾ المخ ، وقيل وهو في خاتمة الكلام _: ﴿ وقل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ﴾ المخ .

ولازم إعراضهم عن كتاب الله إنكار الأصول الثلاثة التي هي أساس دعوته الحقة وهي الوحدانية والنبوة والمعاد فبسطت الكلام فيها وضمنته التبشير والإنذار .

والسورة مكية لشهادة مضامين آياتها على ذلك وهي من السور النازلة في أوائــل البعثة على ما يستفاد من الروايات .

قوله تعالى : ﴿حَمَّ تَنزيل من الرحمان الرحيم﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والمصدر بمعنى المفعول ، والتقدير هذا منزل من الرحمان الرحيم ، والتعرض للصفتين الكريمتين : الرحمان الدال على الرحمة العامة للمؤمن والكافر ، والرحيم الدال على الرحمة العامة للمؤمن والكافر ، والرحيم الدال على الرحمة الخاصة بالمؤمنين للإشارة إلى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم .

قوله تعالى : ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ خبر بعد خبر ، والتفصيل يقابل الإحكام والإجمال ، والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإنزاله إلى مرتبة البيان بحيث يتمكن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه وتعقل مقاصده وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾(١) ، وقوله : ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾(١) .

⁽۱) هود ^۱ . ۱ . (۲) لزخوف . ٤ .

وقوله: ﴿قَوْلَهُ عَرِبِياً﴾ حال من الكتاب أو من آياته، وقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ اللام للتعليل أو للاختصاص، ومفعول ﴿يعلمون﴾ إما محذوف والتقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزّل به وهم العرب وإما متروك والمعنى لقوم لهم علم .

ولازم المعنى الأول أن يكون هناك عناية خاصة بالعرب في نزول القرآن عربياً وهو الذي يشعر به أيضاً قوله الآتي : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته على يشعر به الآية وقريب منه قوله : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به يؤمنون ﴾ (١) .

ولا ينافي ذلك عموم دعوته مسلمة البشر لأن دعوته مسلمة كانت مرتبة على مراحل فأول ما دعا دعا الناس بالموسم فقوبل بإنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سراً مدة ثم أمره بدعوة عشيرته الأقربين كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾(٢) ثم أمر بدعوة قومه كما يشير إليه قوله : ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾(٣) ثم أمر بدعوة الناس عامة كما يشير إليه قوله : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾(٤) ، وقوله : ﴿وأوحي إليّ هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ﴾(٥) .

على أن من المسلم تاريخاً أنه كان من المؤمنين به سلمان وكان فارسياً، وبلال وكان حبشياً، وكذا وكان حبشياً، وصهيب وكان رومياً، ودعوته لليهود ووقائعه مشرية معهم، وكذا كتابه إلى ملك إيران ومصر وحبشة والروم في دعوتهم إلى الإسلام كل ذلك دليل عموم الدعوة.

قوله تعالى : ﴿ يَشْيَراً وَنَذَيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ بشيراً ونذيراً، حالان من الكتاب في الآية السابقة ، والمراد بالسمع المنفي سمع القبول كما يدل عليه قرينة الإعراض .

قوله تعالى : ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ إلى آخر الأية . قال

(١) الشعراء : ١٩٩ .

(٢) الشعراء : ٢١٤ - (٤) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) الحجر : ٩٤

(٥) الأنعام : ١٩ .

الراغب: الكن ما يحفظ فيه الشيء. قال: الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء والجمع أكنة نحو غطاء وأغطية قال تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾. انتهى.

فقوله: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو مِنْ إليه من التوحيد كأنها مغطاة بأغطية لا يتطرق إليها شيء من خارج.

وقوله: ﴿وَوَى آذَانَا وَقَرِ﴾ أي ثقل من الصمم فلا تسمع شيئاً من هذه الدعوة ، وقوله: ﴿وَمِن بِينَا وَبِينَك حجاب﴾ أي حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تربد فقد أياسوه والمنته من قبول دعوته بما أخبروه أولاً بكون قلوبهم في أكنة فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها ، وثانياً بكون طرق ورودها إلى القلوب وهي الآذان مسدودة فلا تلجها دعوة ولا ينفذ منها إنذار وتبشير ، وثالثاً بأن بينهم وبينه منتها مناه الإيتاس .

وقوله : ﴿ فاعمل إننا عاملون﴾ تفريع على ما سبق ، ولا يخلو من شوب تهديد ، وعليه فالمعنى إذا كان لا سبيل إلى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك .

وقيـل : المعنى فاعمـل على دينك فـإننـا عـاملون على ديننـا ، وقيـل : المعنى فاعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك ، ولا يخلوان من بعد .

قوله تعالى: ﴿قُلُ إِنَّمَا أَنَا بِشْرِ مِثْلُكُم يُوحَى إِلَيّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَّهُ وَاحْدُ فَاستقيمُوا إِلَيهُ وَاستغفروه فَي مقام الجواب عن قولهم: ﴿قَلُوبِنا فِي أَكنة مما تدعونا إليه على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم: إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضاً وأكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالملك حتى يكون بيني وبينكم حجاب مضروب أو لا ينفذ كلامي في آذانكم أو لا يرد قولي في قلوبكم غير أن الذي أقول لكم وأدعوكم إليه وحي يوحى إلي وهو أنما إلهكم الذي يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون.

وقوله: ﴿فاستقيموا إليه واستغفروه﴾ أي فإذا لم يكن إلا إلهاً واحداً لا شريك له فاستووا إليه بتوحيده ونفي الشركاء عنه واستغفروه فيما صدر عنكم من الشرك والذنوب.

قوله تعالى : ﴿ وَوَيَالَ لَلْمُشْرِكِينَ اللَّذِينَ لَا يَؤْتُونَ الْرَكَاةُ وَهُمُ بِالْآخِرَةُ هُمُ كَافُرُونَ ﴾ تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء ولا يوحدونه ، وقد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاة وكفرهم بالأخرة .

والمراد بإيتاء الزكاة مطلق إنفاق المال للفقراء والمساكين لـوجه الله فـإن الزكـاة بمعنى الصدقة الواجبة في الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السورة وهي من أقدم السور المكية .

وقيل: المراد بإيتاء الزكاة تـزكية النفس وتـطهيرهـا من أوساخ الـذنوب وقـذارتها وإنماؤها نمـاء طيباً بعبـادة الله سبحانـه، وهو حسن لـو حسن إطلاق إيتـاء الزكـاة على ذلك.

وقوله: ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم وهو إنكار المعاد، ولذلك أنى بضمير الفصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالأخرة.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ آمنُوا وعملُوا الصالحات لهم أَجَرَ غير مَمْتُونَ﴾ أي غير مُقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم ، وفسره آخرون بغير معدود كما قبال تعالى : ﴿يَرِزَقُونَ فِيهَا بَغِيرَ حَسَابِ﴾(١) .

وجوّز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنيعة ، ويمكن أن يوجه هذا الوجه بأن في تسمية ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لإشعاره بالاستحقاق وإن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لا لهم من عند أنفسهم قال تعالى : ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿قل عَائِكُم لَتَكَفَّرُونَ بِاللَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنُ وَتَجَعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ﴾ الآية . أمره ثانياً أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانية في خلق السماوات والأرض وتدبير أمرهما بعد ما أمره أولاً بدفع قولهم : ﴿قلوبنا في أكنة ﴾ الح .

والاستفهام للتعجيب ولذا أكد المستفهم عنه بنان واللام كأن المستفهم لا يكاد يذعن تكفرهم بالله وقولهم بالأنداد مع ظهور المحجّة واستقامة الحجة .

⁽١) المؤمن : ٤٠ . (٢) الدهر : ٢٢ .

وقوله: هووتجعلون له أنداداً تفسير لقوله: هولتكفرون بالذي خلق الأرض الخرج والأنداد جمع ند وهو المثل، والمراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه في الربوبية والألوهية.

وقوله: ﴿ وَذَلَكُ رَبِ الْعَالَمِينَ ﴾ في الإشارة بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى وتنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو رب العالمين المدبر لأمر الخلق أجمعين فبلا مسوّغ لأن يتوهم ربّاً آخر سواه وإلها آخر غيره.

والمراد باليوم في قوله: ﴿ حلق الأرض في يومين ﴾ برهة من الزمان دون مصداق اليوم الذي نعهده ونحن على بسيط أرضنا هذه وهو مقدار حركة الكرة الأرضية حول نفسها مرة واحدة فإنه ظاهر الفساد، وإطلاق اليوم على قطعة من النزمان تحوي حادثة من الحوادث كثير الورود شائع الاستعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ (١) ، وقوله: ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ (١) ، وغير ذلك .

فاليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تم فيهما تكوّن الأرض أرضاً تامة ، وفي عدهما يومين لا يوماً واحداً دليل على أن الأرض لاقت زمان تكونها الأوّلي مرحلتين متغايرتين كمرحلة النيء والنضج أو الذوبان والانعقاد أو نحو ذلك .

قوله تعالى : ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها ﴾ إلى آخر الآية . معطوف على قوله : ﴿خلق الأرض في يومين ﴾ ولا ضير في تخلل الجملتين : ﴿وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ بين المعطوف والمعطوف عليه لأن الأولى تفسير لقسوله : ﴿لتكفرون ﴾ والثانية تقرير لنتعجيب الذي يفيده الاستفهام .

والرواسي صفة لموصوف محذوف والتقدير جبالًا رواسي أي ثابتات على الأرض وضمائر التأنيث الخمس في الآية للأرص .

وقوله : ﴿وَمِارَكُ فَيَهَا﴾ أي جعل فيها الخير الكثير الذي ينتفع بـه ما على الأرض من نبات وحيوان وإنسان في حياته أنواع الانتفاعات .

وقوله: ﴿ وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ قيل: الظرف أعني قوله: ﴿ فِي أَرْبِعَةَ أَيَامَ ﴾ بتقدير مضاف وهو متعلق بقدر، والتقدير قدر الأقوات في

⁽١) آل عمران : ١٤٠ . (٢) يونس : ١٠٣

تتمة أربعة أيام من حين بدء الخلق ـ فيـومان لخلق الأرض ويــومان ـ وهمــا نتمة أربعــة أيام ــ لتقدير الأقوات .

وقيل : متعلق بحصول الأقسوات وتقدير المضاف على حاله ، والتقدير قـدّر حصول أقواتها في تتمة أربعة أيام ـ فيها خلق الأرض وأقواتها جميعاً ـ .

وقيل : متعلق بحصول جميع الأمور المذكورة من جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها والتقدير وحصول ذلك كله في تتمة أربعة أيام وفيه حذف وتقدير كثير .

وجعل الزمخشري في الكشاف الظرف متعلقاً بخبر مبتدأ محذوفين من غير تقدير مضاف والتقدير كل ذلك كائن في أربعة أيام فيكون قولمه : ﴿ في أربعة أيام ﴾ من قبيل الفذلكة كأنه قيل : خلق الأرض في يومين وأقواتها وغير ذلك في يومين فكل ذلك في أربعة أيام .

قالوا: وإنما لم يجز حمل الآية على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيام لأن لازمه كون خلق الأرض وما فيها في ستة أيام وقد ذكر بعده أن السماوات خلقت في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام وقد تكرر في كلامه تعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام فهدا هو الوجه في حمل الآية على أحد الوجوه السابقة على ما فيها من ارتكاب الحذف والتقدير.

والإنصاف أن الآية أعني قوله: ﴿وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ ظاهرة في غير ما ذكروه والقرائن الحافة بها تؤيد كون المراد بها تقدير أقواتها في الفصول الأربعة التي يكونها ميل الشمس الشمالي والجنوبي بحسب ظاهر الحس فالأيام الأربعة هي الفصول الأربعة.

والمدي ذكر في هذه الآيات من أيام خلق السماوات والأرض أربعة أيام يـومان لخلق الأرض ويومان لتسوية السماوات سبعاً بعد كونها دخاناً وأما أيام الأقوات فقد ذكرت أياماً لتقديرها لا لخلقها ، وما تكرر في كلامه تعالى هو خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا مجموع خلقها وتقدير أمرها فالحق أن الظرف قيد للجملة الأخيرة فقط ولا حذف ولا تقدير في الآية والمراد بيان تقدير أقوات الأرض وأرزاقها في الفصول الأربعة من السنة .

وقوله: ﴿ سُوسُواء للسائلين ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر أي استوت الأقوات المقدرة استواء للسائلين يقتاتون بها استواء للسائلين يقتاتون بها جميعاً وتكفيهم من دون زيادة أو نقيصة .

والسائلون هم أنواع النبات والحيوان والإنسان فإنهم محتاجون في بقائهم إلى الأرزاق والأقسوات فهم سائلون ربهم (١) قسال تعالى : ﴿يساله من في السماوات والأرض ﴾ (٢) ، وقال : ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتبنا طائعين ﴾ الاستواء ـ على ما ذكره الراغب ـ إذا عمدي بعلى أفاد معمى الاستبلاء نحو الرحمان على العرش استوى ، وإذا عدي بإلى أفاد معنى الانتهاء إليه .

وأيضاً في المفردات أن الكره بفتح الكاف المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه ، والكره بضم الكاف ما تناله من ذاته وهو يعافه .

فقوله . ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي توجه إليها وقصدها بالحلق دون القصد المكاني الذي لا يتم إلا بانتقال القاصد من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة لتنزهه تعالى عن ذلك .

وظاهر العطف بثم تأخر خلق السماوات عن الأرض لكن قيل : إن ﴿ثم﴾ لإفادة التراخي بحسب الخبر لا بحسب الوجود والتحقق ويؤيده قوله تعالى : ﴿أَم السماء مناها ﴾ إلى أن قال ﴿والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجسال أرساها ﴾ (٤) فإنه يفيد تأخر الأرض عن السماء خلقاً .

والاعتراض عليه بأن مفاده تأخو دحو الأرض عن بناء السماء ودحوها غير خلقها مدفوع بأن الأرض كروية فليس دحوها وبسطها غير تسويتها كرة وهو خلقها على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض إلى إخراج مائها ومرعاها وإرساء جبالها وهذه بعينها جعل الرواسي من فوقها والمباركة فيها وتقدير أقواتها التي ذكرها في الآيات التي نحن

 ⁽١) ظاهر الأيتين وإن كان احتصاصهما بذوي العقول لكنهما وحاصة الثانية تهيدان إن المراد سالسؤال
 هو الحاجة والاستعداد وعليه فالآية تعم البات والإتيان بضمير أولي العقل للتغليب .

فيها مع خلق الأرض وعطف عليها خلق السماء بثم فلا مناص عن حمل ثم على غير التراخي الزماني فإن قوله في آية النازعات : ﴿بعد ذلك﴾ أظهر في التراخي الزماني من لفظة ﴿ثم﴾ فيه في آية حـم السجدة والله أعلم .

وقوله: ﴿وهِي دَخَانَ﴾ حَالَ مِن السَمَاء أي استوى إلى السَمَاء بالخلق حَالَ كُونَهَا شيئاً سَمَاه الله دَخَاناً وهو مإدتها التي ألبسها الصورة وقضاها سبع سماوات بعد ما لم تكن معدودة متميزاً بعضها من بعض ، ولـذا أفرد السماء فقال : ﴿استوى إلى السماء﴾ .

وقوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ تفريع على استوائه إلى السماء والمورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها وللأرض: ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ كلمة إيجاد وأمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده: كن ، قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ﴾ (١).

ومجموع قوله لهما: ﴿ائتيا﴾ النح وقولهما له: ﴿أتينا﴾ النح تمثيل لصفة الإيجاد والتكوين على الفهم الساذج العرفي وحقيقة تحليلية بناء على ما يستفاد من كلامه تعالى من سراية العلم في الموجودات وكون تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله، وقد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدم من المباحث، وسيجيء شطر من الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿قالُوا أَنْطَقْنَا الله الذي أَنْطَقَ كُلُ شيء﴾ الآية ٢١ من السورة إن شاء الله .

وقول بعضهم: إن المراد بقوله: ﴿ائتيا﴾ النح أمرهما بإظهار ما فيهما من الآثـار والمنافع دون الأمر بأن توجدا وتكوّنا مدفوع بأن تكوّن السماء مذكور فيما بعد ولا معنى لتقديم الأمر بإظهار الآثار والمنافع قبل ذكر التكون.

وفي قوله: ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ إيجاب الإتيان عليهما وتخييرهما بين أن تفعلا ذلك بطوع أو كره، ولعل المراد بالطوع والكره ـ وهما بوجه قبول الفعل ونوع ملاءمة وعدمه ـ هو الأستعداد السابق للكون وعدمه فيكون قوله: ﴿ائتيا طوعاً أو كرها ﴾ كناية عن وجوب إتيانهما بلا مناص وأنه أمر لا يتخلف البتة أرادتا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا

⁽۱) يش : ۸۳ .

فأجابتا أنهما يمتثلان الأمر عن استعداد سابق وقبول ذاتي وسؤال فطري إذ قالتا : أتينا طائعين .

وقول بعضهم: إن قوله: ﴿طوعاً أو كرها ﴾ تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما. مدفوع بقوله بعد: ﴿قَالَتَا النَّا طَائِعِينَ ﴾ إذ لو كان الترديد المذكور تمثيلًا فقط من غير إثبات كما ذكره لم يكن لإثبات الطوع في الجواب وجه.

وقوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ جواب السماء والأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع ، والتعبير باللفظ الخاص بأولي العقل - طائعين - لمكان المخاطبة والجواب وهما من خواص أولي العقل ، والتعبير بلفظ الجمع دون أن تقولا : أتينا طائعتين لعله تواضع منهما بعد أنفسهما غير متميزة من سائر مخلوقاته تعالى المطيعة لأمره فأجابتا عن لسان الجميع ، نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿إِياكُ نعبد وإياكُ نستعين ﴾(١) .

ثم إن تشريك الأرض مع السماء في خطاب ﴿ ائتيا ﴾ النح مع ذكر خلقها وتدبير أمرها قبلًا لا يخلو من إشعار بأن بينهما نوع ارتباط في الوجود واتصال في النظام الجاري فيهما وهو كذلك فإن الفعل والانفعال والتأثير والتأثر دائر بين أجزاء العالم المشهود.

وفي قـوله : ﴿فقـال لهـا ولـلأرض﴾ تلويح على أي حـال إلى كـون ﴿ثُم﴾ في قوله : ﴿ثم استوى﴾ للتراخي بحسب رتبة الكلام .

قوله تعالى: ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾ الأصل في معنى القضاء فصل الأمر، وضمير ﴿هن﴾ للسماء على المعنى، و ﴿سبع سماوات﴾ حال من الضمير و ﴿في يومين﴾ متعلق بقضاهن فتفيد الجملة أن السماء لما استوى سبحانه إليها وهي دخان كان أمرها مبهماً غير مشخص من حيث فعلية الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات في يومين.

وقيل : إن القضاء في الآية مضمّن معنى التصيير و ﴿سبع سماوات﴾ مفعوله الثاني ، وقيل فيها وجوه أخر لا يهمنا إيرادها .

⁽١) الحمد: ٥

والآية وما قبلها ناظرة إلى تفصيل ما أُجمل في قوله : ﴿ أُو لَم يَرِ الذِّينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتُ وَالأرضُ كَانَتَا رَتَقاً فَفْتَقْنَاهُما﴾ (١) .

وقوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ قيل: المراد بأمر السماء ما تستعد له أو تقتضيه الحكمة فيها من وجود ملك أو كوكب وما أشبه ذلك ، والوحي هو الخلق والإيجاد، والجملة معطوفة على قوله: ﴿قضاهن﴾ مقيدة بالوقت المذكور للمعطوف عليه ، والمعنى وخلق في كل سماء ما فيها من الملائكة والكواكب وغيرها .

وأنت خبير بأن إرادة الخلق من الوحي وأمثال الملك والكوكب من الأمر تحتاج إلى عناية زائدة لا تثبت إلا بدليل بين ، وكذا تقيد الجملة المعطوفة بالوقت المذكور في المعطوف عليها .

وقيل: المراد بالأمر التكليف الإلهي المتوجه إلى أهل كل سماء من الملائكة والوحي بمعناه المعروف والمعنى وأوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم بـه من العبادة .

وفيه أن ظاهر الآية وقد قال تعالى : ﴿ فَي كُلَّ سَمَّاءَ ﴾ ولم يقل : إلى كُلَّ سَمَّاء لا يوافقه تلك الموافقة .

وقيل: المراد بأمرها ما أراده الله منها، وهذا الوجه في الحقيقة راجع إلى أحـد الوجهين فإن أريد به الوجهين وإن أريد به معناه المعروف رجع إلى ثانيهما.

والذي وقع في كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوّح إلى معنى أدق مما ذكروه فقد قال تعالى : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعوج إليه ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزّل الأمر بينهن ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٤) .

دلت الآية الأولى: على أن السماء مبدأ لأمره تعالى النازل إلى الأرض بـوجه، والشانية: على أن الأمـر يتنـزل بين السمـاوات من سمـاء إلى سمـاء حتى ينتهي إلى

⁽١) الأنبياء: ٣٠

⁽٣) الطلاق : ١٢ .

⁽٢) آلم السحدة : ٥ .

⁽٤) المؤمنون : ١٧ .

الأرض ، والشالشة : على أن السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذي العرش أو لسلوك الملائكة الحاملين الأمر إلى الأرض كما يشير إليه قوله: ﴿تَسْزِلُ الْمُلاتُكَةُ والروح فيها بإذن ربهم من كل أمركا(١) ، وقوله : ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم ﴿ (٢) .

ولوكان المراد بالأمر أمره تعالى التكويني وهو كلمة الإيجاد كما يستفاد من قوله : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادُ شَيْئًا أَنْ يَقُولُ لَهُ كُنْ ﴾ (٣)، أفادت الآيات بانضمام بعضها إلى بعض أن الأمر الإلهي الذي مضيه في العالم الأرضى هـو خلق الأشيـاء وحـدوث الحوادث تحمله الملائكة من عند ذي العرش تعالى وتسلك في تنزيله طرق السماوات فتنزله من سماء إلى سماء حتى تنتهي به إلى الأرض .

وإنما تحمله ملائكة كل سماء إلى من دونهم كما يستفاد من قوله: ﴿حتى إذا فرّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير﴾(٤) وقد تقدم الكلام فيه والسماوات مساكن الملائكة كما يستفاد من قلوله : ﴿وكم من ملك في السماوات (٥) ، وقوله : ﴿ لا يسمّعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب﴾(١) .

فللأمر نسبة إلى كل سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها ، ونسبة إلى كل قبيل من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميله لهم وهو وحيه إليهم فإن الله سبحانه سماه قولاً كما قال : ﴿إِنْمَا قُولُنَا لَشِيءَ إِذَا أُرِدِنَاهُ أَنْ نَقُولُ لَهُ كُنَ﴾ (٧) .

فتحصّل بما مر أن معنى قوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ أوحى في كل سماء إلى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي . المنسوب إلى تلك السماء المتعلق بها ، وأما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفاً لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعاً فلا دليل عليه من لفظ الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَزِينًا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقـرب السماوات من الأرض وهي طباق

⁽١) القدر ؛ ٤ .

⁽٢) الدخان : ٤ .

رع) سبأ : ۲۳ . (٣) يش : ۸۲ .

⁽٦) الصافات: ٨.

⁽۷) النحل: ٤٠ .

⁽٥) النجم: ٢٦ .

بعضها فوق بعض كما قال : ﴿خلق سبع سماوات طباقاً﴾(١) .

والظاهر من معنى تزيينها بمصابيح وهي الكواكب كما قبال: ﴿إِنَا زَيِنَا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ (٢) أن الكواكب في السماء الدنيا أو دونها كالقناديل المعلقة ولو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضاً لكون السماوات شفافة كما قبل كانت زينة لجميعها ولم تختص الزينة ببعضها كما يفيده السياق فلا وجه لقول القائل: إنها في الجميع لكن لكونها ترى متلائثة على السماء الدنيا عدّت زينة لها .

وأما قوله: ﴿ أَلَم تَرُوا كَيْفَ خَلَقَ الله صبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ (٣) فهو بالنسبة إلينا معاشـر المستضيئين بالليـل والنهار كقـوله: ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ (٤) .

وقوله: ﴿وحفظا﴾ أي وحفظناها من الشياطين حفظاً كما قال: ﴿وحفظناهـا من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾(°).

وقوله : ﴿ذَلَكَ تَقَدَيْرُ الْعَزِيْرُ الْعَلَيْمِ﴾ إشارة إلى ما تقدم من النظم والترتيب .

(كلام فيه تتميم)

قد تحصّل مما تقدم:

أولاً: أن المستفاد من ظاهر الأيات الكريمة _ وليست بنص _ أن السماء الدنيا من هذه السبع هي عالم النجوم والكواكب فوقنا .

وثانياً: أن هذه السماوات السبع المذكبورة جميعاً من الخلق الجسماني فكأنها طبقات سبع متطابقة من عالم الأجسام أقربها منها عالم النجوم والكواكب، ولم يصف القرآن شيئاً من السماوات الست الباقية دون أن ذكر أنها طباق.

وثالثاً: أن ليس المراد بالسماوات السبع الأجرام العلوية أو حصوص بعضها كالشمس والقمر أو غيرهما .

ورابعاً: أن ما ورد من كون السماوات مساكن للملائكة وأنهم ينزلون منها بـأمر الله حاملين له ويعرجون إليهـا بكتب الأعمال، وأن للسمـاء أبوابــاً لا تفتّح للكفـار وأن

(٢) الصافات : ٦ . (٤) النبأ : ١٣ .

(٣) توح ١٦٠ . (٥) الحجر ١٨٠ .

(١) الملك : ٣.

الأشياء والأرزاق تنزل منها وغير ذلك مما تشير إليه متفرقات الأيات والروايات يكشف عن أن لهذه الأمور نوع تعلق بهذه السماوات لا كتعلق ما نراه من الأجسام بمحالها وأماكنها الجسمانية الموجبة لحكومة النظام المادي فيها وتسرب التغير والتبدل والدثور والفتور إليها.

وذلك أن من الضروري اليوم أن لهذه الأجرام العلوية كائنة ما كانت كينونة عنصرية جسمانية تجري فيها نظائر الأحكام والآثار الجارية في عالمنا الأرضي العنصري والنظام الذي يثبت للسماء وأهلها والأمور الجارية فيها مما أشرنا إليه يباين هذا النظام العنصري المشهود. أضف إلى ذلك ما ورد أن الملائكة خلقوا من نور، وأن غداءهم التسبيح، وما ورد من توصيف خلقهم، وما ورد في توصيف خلق السماوات وما خلق فيها إلى غير ذلك.

فللملائكة عوالم ملكوتية سبعة مترتبة سميت سماوات سبعاً ونسبت ما لها من الخواص والآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ ما لها من العلو والإحاطة بالنسبة إلى الأرض تسهيلًا للفهم الساذج .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: اجتمع قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا: أنت يا أبا الواليد.

فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله سنرات قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع منك.

أما والله ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف يا أيها الرجل إن كان نما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً

واحداً وإن كان نما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً .

فقال رسول الله مين في : فوغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله مين : ﴿ بسمِ الله الرحمن الرحمن الرحمن الرحمان الرحمان الرحمان الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون حتى بلغ ﴿ فَإِن أَعرضوا فقل أَنْذُرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

فقال عتبة : حسبك . ما عندك غير هذا؟ قال : لا فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته قالوا : فهل أجابك؟ قال : والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال : ﴿انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ قالوا : ويلك يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

أقول: ورواه عن عدة من الكتب قريباً منه ، وفي بعض الطرق قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، وفي بعضها غير ذلك .

وفي تلاوته مُسِمَّةِ آيات أول السورة على وليد بن المغيرة رواية أخرى ستوافيك إن شاء الله في تفسير سورة المدّثر في ذيل قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحَيْداً ﴾ الآيات .

وفيه أخرح ابن جرير عن أبي بكر قال : جاء اليهود إلى رسول الله من الفال : غلق فقال الله المالية المحمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة ؟ فقال الله الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء ، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة ، وخلق في أول ساعة الأجال وفي الثانية الأفة وفي الثالثة آدم . قالوا : صدقت إن تممت فعرف النبي مسملة ما يريدون فغضب فأنزل الله ﴿ وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون ﴾ .

أقول: وروى ما يقرب منه عن ابن عباس وعبد الله بن سلام وعن عكرمة وغيره وقد ورد في بعض أخبار الشيعة ، وقوله: قالـوا: صدقت إن تممت أي تممت كلامك في الخلق بأن تقول: إنه تعالى فرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه .

والروايات لا تخلو من شيء :

أما أولاً: فمن جهة اشتمالها على تصديق اليهود ما ذكر فيها من ترتيب الخلق وهو مخالف لما ورد في أول سفر التكوين من التوراة مخالفة صريحة ففيها أنه خلق النور والظلمة ـ النهار والليل ـ يوم الأحد ، وخلق السماء يـ وم الاثنين ، وخلق الأرض والبحار والنبات يـ وم الثلاثاء وخلق الشمس والقمر والنجـ وم يوم الأربعاء وخلق دواب البحر والطير يوم الخميس ، وخلق حيـ وان البر والإنسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه ، والقول بأن التوراة الحاضرة غير ما كان في عهد النبي مناسب كما ترى .

وأما ثانياً: فلأن اليوم من الأسبوع وهو نهار مع ليلته يتوقف في كينونته على حركة الأرض الـوضعية دورة واحدة قبال الشمس فما معنى خلق الأرض في يومين ولم يخلق السماء والسماويات بعد ولا تمت الأرض كرة متحركة ؟ ونظير الإشكال جار في خلق السماء والسماويات ومنها الشمس ولا يوم حيث لا شمس بعد .

وأما ثالثاً: فلأنه عد فيها يوم لخلق الجبال وقد جزم الفحص العلمي بأنها تخلق تدريجاً ، ونظير الإشكال جار في خلق المدائن والأنهار والأقوات .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية عن أبي جعفر سِنْكُ أنه قال : وخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه ، وخلق الريح من الماء .

ثم سلط السريح على الماء فشققت الريح متن الماء حتى ثـار من الماء زبـد على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضـاء نقية ليس فيهـا صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة ثم طواها فوضعها فوق الماء .

ثم خلق الله النمار من الماء فشققت النمار متن الماء حتى ثمار من الماء دخمان على قدر ما شماء الله أن يثور فخلق من ذلك الدخمان سماء صافية نقيمة ليس فيها صدع ولا ثقب وذلك قوله: ﴿والسماء بناها﴾ .

أقول: وفي هذه المعنى بعض روايات أخر، ويمكن تـطبيق ما في الـرواية وكذا مضامين الآيات على ما تسلمتـه الأبحاث العلميـة اليوم في خلق العـالم وهيئته

غير أنّا تركنا ذلك احترازاً من تحديد الحقائق القرآنية بالأحداس والفرضيات العلمية ما دامت فرضية غير مقطوع بها من طريق البرهان العلمي .

وفي نهج البلاغة: فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطئات، ولولا إقرارهن له بالربوبية، وإذعانهن له بالطواعية لما جعلهن موضعاً لعرشه، ولا مسكناً لملائكته ولا مصعداً للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه.

وفي كمال الدين بإسناده إلى فضيل الرسّان قال: كتب محمد بن إبراهيم إلى أبي عبد الله علنه عنه أخيرنا ما فضلكم أهل البيت؟ فكتب إليه أبو عبد الله علنه عنه الكواكب جعلت أماناً لأهل السماء فإذا ذهبت نجوم السماء جاء أهل السماء ما كانوا يوعدون ، وقال رسول الله متنفيه : جعل أهل بيتي أماناً لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي جاء أمتي ما كانوا يوعدون .

أقول : وورد هذا المعنى في غير واحد من الروايات .

وفي البحار عن كتاب الغارات بإسناده عن ابن نباتة قال : سئـل أمير المؤمنين مشخه كم بين السماء والأرض ؟ قال : مد البصر ودعوة المظلوم .

أقول: وهو من لطائف كلامه سلطنه يشير به إلى ظاهـر السماء وبـاطنها كمـا تقدم .

* * *

فإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ آلرُسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا آللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ إِنَيْسِرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَا قُوَةً أَولَمْ يَرَوْا أَنَّ آللَّهَ آلَذِي بَعْشِرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُ مِنَا قُوةً أَولَمْ يَرُوا أَنَّ آللَّهَ آلَذِي بَعْشِم هُوَ أَشَدُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّام نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْي ِ فِي الْحَيوٰةِ ٱللُّنْيَا وَلَعَـذَابُ الْآخِرَةِ أُخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَـرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَـوْمَ يُحْشَرُ أَعْـدَآءُ آللَّهِ إِلَى آلنَّـارِ فَهُمْ يُـوزَعُـونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَـا جَآءُوهَا شُهِـدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَـا كَانُـوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا آللَّهُ ٱلَّذِي أَنْطَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُـوَ خَلَقَكُمْ أَوُّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ آللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذٰلِكُمْ ظَنَّكُمُ ٱلَّـٰذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَنْكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنَّ يَصْبِرُوا فَٱلنَّارُ مَثْوِيَّ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَـزَيَّنُوا لَهُمْ مَـا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَـا خَلْفَهُمْ وَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ فِي أَمَم قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانَّوا خَاسِرِينَ (۲۵)

(بیسان)

الآيات تتضمن الإنذار بالعذاب الدنيوي الذي ابتليت به عاد وثمود بكفرهم بالرسل وجحدهم لآيات الله ، وبالعذاب الاخروي الذي سيبتلى به أعداء الله من أهل الجحود الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، وفيها إشارة إلى كيفية إضلالهم في الدنيا وإلى استنطاق أعضائهم في الأخرة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن أَعرضُوا فقل أَنْدُرتَكُم صَاعَقة مثل صَاعَفة عاد وثمود﴾ قال في المجمع : الصاعقة المهلكة من كل شيء انتهى ، وقال الراغب : قال بعض أهل اللغة : الصاعقة على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : ﴿ صعق من في السماوات ﴾ وقوله : ﴿ فَأَخَذَتُهُم الصَاعَقة ﴾ والعذاب كقوله : ﴿ أَنْذُرتَكُم صَاعَقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ والنار كقوله : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت وهي في ذاتها شيء واحد ، وهذه الأشياء تأثيرات منها ، انتهى .

وعلى ما مر تنطبق الصاعقة على عذابي عباد وثمود وهما الريح والصيحة ، والتعبير بالماضي في قوله : ﴿ أَنذَرتكم ﴾ للدلالة على التحقق والوقوع .

ونسبة المجيء إلى الرسل وهو جمع - مع أن الذي ذكر في قصتهم رسولان هما هود وصالح - باعتبار أن الرسل دعوتهم واحدة والمبعوث منهم إلى قوم مبعوث لأخرين وكذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لأخرين قال تعالى : ﴿كذبت عاد المرسلين﴾(١) وقال : ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾(١) ، وقال : ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾(٣) إلى غير ذلك .

وقول بعضهم : إن إطلاق السرسل وهنو جمع على هنود وصالح عليهما السلام وهما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثة وهو شنائع ، ومن هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع في قوله : ﴿إذ جاءتهم﴾ إلى عاد وثمود .

ممنوع بما تقدم ، وأما إرجاع ضمير الجمع إلى عاد وثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعاً مثلهما .

وقوله : ﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ أي من جميع الجهات فاستعمال هاتين الجهتين في جميع الجهات شائع ، وجوّز أن يكون المراد به الماضي والمستقبل

فقوله: ﴿ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوة وجلوة وفرادى ومجتمعين بالتبشير والإنذار وللذلك فسر مجيثهم كذلك بعد بقوله: ﴿ أَنْ لا تعبدوا إلا الله ﴾ وهو التوحيد .

وقوله : ﴿قالوا لمو شاء ربنا لأنزل مسلائكة ﴾ رد منهم لمرسالتهم بأن الله لو شاء إرسال رسول إلينا لأرسل من المسلائكة ، وقد تقدم كراراً معنى قولهم هذا وأنه مبني على إنكارهم نبوة البشر .

وقوله: ﴿ فَإِنْمَا مِمَا أُرسِلتُم بِهِ كَافِرُ وَنْ ﴾ تفريع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أي فإذا لم يشأ ولم يرسل فإنا بما أسلتم به وهو التوحيد كافرون.

قوله تعالى : ﴿فَأَمَا عَادُ فَاسْتَكْبُرُوا فِي الأَرْضُ بَغَيْرُ الْحَقِّ الْخُ رَجُوعُ إِلَى تَفْصِيلُ حَالَ كُلُ مِنَ الْفُرِيقِينَ عَلَى حَدْتُهُ ، مِن كَفْرَهُمْ وَوَبَالُ ذَلَكُ ، وقولُه : ﴿بَغَيْرُ الْحَقِّ فَاللَّهُ عَلَى الْأَرْضُ فَإِنَّهُ بَغِيرُ الْحَقِّ دَائِماً ، وَالْبَاقِي ظَاهُر . الْحَقّ فَيْدُ تُوضِيحِي لللستكبارُ فِي الأَرْضُ فَإِنَّهُ بَغِيرُ الْحَقّ دَائِماً ، وَالْبَاقِي ظَاهُر .

قوله تعالى : ﴿ قَارَسَلْنَا عَلَيْهُم رَيْحاً صَرَصَراً فِي أَيَامُ نَحَسَاتُ ﴾ النح فسر الصرصر بالربح الشديدة السموم ، وبالربح الشديدة البرد ، وبالربح الشديدة الصوت وتلازم شدة الهبوب ، والنحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحساً خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشؤمات .

وقيل: أيام نحسات أي ذوات الغبار والتراب لا يرى فيها بعضهم بعضاً ، ويؤيده قوله في سورة الأحقاف: فوفلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض مصطرنا بل هو ما ستعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (١).

وقـوله : ﴿وهم لا ينصـرون﴾ أي لا منج ينجيهم ولا شفيـع يشفـع لهم . والباقي ظاهر .

قوله تعالى: ﴿وأما تمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى البخ المراد بهدايتهم إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحق ببيان حق الاعتقاد والعمل لهم ، والمراد بالاستحباب الإيشار والاختيار ، ولعله بالتضمين ولذا عبدي إلى المفعول الشاني بعلى والمراد بالعمى الضلال استعارة ، وفي مقابلة الهدى له إيماء إلى أن الهدى بصر كما

⁽١) الاحقاف: ٢٤ .

أن الضلالة عمى ، والهون مصدر بمعنى الذل وتوصيف العذاب به للمبالغة أو بحـذف ذي والتقدير صاعقة العذاب ذي الهون .

والمعنى: وأما قوم ثمود فدللناهم على طريق الحق وعرفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاختاروا الضلال الذي هو عمى على الهدى الذي هو بصر فأخذتهم صيحة العذاب ذي المذلة _ أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانية _ بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : ﴿وَنَجِينَا الذِّينَ آمنُوا وَكَانُوا يَتَقُونَ﴾ ضم التقوى إلى الإيمان معبراً عن التقوى بقوله : ﴿وَكَانُوا يَتَقُونَ﴾ البدال على الاستمرار للدلالة على جمعهم بين الإيمان والعمل الصالح وذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله : ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصَرَ المؤمنينَ﴾ (١) .

والظاهر أن الآية متعلقة بالقصتين جميعاً متممة لهما وإن كان ظاهـر المفسرين تعلقها بالقصة الثانية .

قوله تعالى : ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون﴾ الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها . كذا قال الراغب ، و ﴿يوزعون﴾ من الوزع وهو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا .

قيل : المراد بحشرهم إلى النار إخراجهم إلى المحشر للسؤال والحساب ، وجعل النار غاية لحشرهم لان عاقبتهم إليها ، والدليل عليه ما ذكره من أمر شهادة الأعضاء فإنها في الموقف قبل الأمر بهم إلى النار .

وقيل : المراد حشرهم إلى النار نفسها ومن الممكن أن يستشهد عليهم مرتين مرة في الموقف ومرة على شفير جهنم وهو كما ترى .

والمراد بأعداء الله ـ على ما قيل ـ المكذبون بالنبي منطب من مشركي قومه لا مطلق الكفار والدليل عليه قوله الآتي : ﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأيصارهم وجلودهم

⁽١) الروم : ٤٧

بما كانوا يعملون، ﴿ما﴾ في ﴿إذا ما جاؤها﴾ زائدة للتأكيد والضمير للنار .

وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحملته ، ولولا التحمل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامة فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة ، ولا تمت بذلك على العبد المنكر حجة وهو ظاهر .

وبذلك ينظهر فساد قول بعضهم: إن الله يخلق ينوم القيامة للأعضاء علماً وقدرة على الكلام فتخبر بمعاصي صاحبيها وهو شهادتها وقول بعضهم: إنه يخلق عندها أصواتاً في صورة كلام مدلوله الشهادة ، وكذا قول بعضهم: إن معنى الشهادة دلالة الحال على صدور معصية كذائية منهم .

وظاهر الآية أن شهادة السمع والبصر أداؤهما ما تحملاه وإن لم يكن معصية مأتياً بها بواسطتهما كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر ، وشهادة البصر أنه رأى الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رأى صاحبه يستمع إلى الغيبة أو سائر ما يحرم الإصغاء إليه فتكون الآية على حد قوله تعالى : ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾(١) .

وعلى هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببهما والجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة ، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم : ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ على ما سيجيء .

والمراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآية مطلق الجلود وشهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتعات المحرمة كالزنا ونحوه ، ويمكن حينتذ أن تعمم الجلود بحيث تشمل شهادتها ما شهدت الأيدي والأرجل المذكورة في قوله : (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم) (٢) على بعد .

⁽١) الإسراء: ٣٦ .

وقيل : المراد بالجلود الفروج وقد كني بها عنها تأدباً .

قول تعالى: ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ اعتراض وعتاب منهم لجلودهم في شهادتها عليهم ، وقيل: الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب وإنما خصوها بالسؤال دون سمعهم وأبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هي بنفسها أسباباً وآلات مباشرة له بخلاف السمع والأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها.

وقيل: تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم وزيادة تشنيع وفضاحة وخاصة لـوكان المراد بالجلود الفروج وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنبطق كل شيء ﴾ النج إرجاع ضمير أولي العقل ! العقل إلى الجوارح لمكان نسبة الشهادة والنطق إليها وذلك من شؤون أولي العقل .

والمتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهار ما في الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم وكشفه لغيره ، قال الراغب : ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلا تبعاً وبنوع من التشبيه وظاهر سياق الأيات وما فيها من ألفاظ القول والتكلم والشهادة والنطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه .

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقاً وتكلماً حقيقة عن علم تحملته سابقاً بدليل قولها: ﴿ أنطقنا الله ﴾ جواباً عن قول المجرمين: ﴿ له شهدتم علينا ﴾ ؟ إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها وكشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلم والنطق ، ولا يضر ذلك نفوذ شهادتها وتمام الحجة بذلك فإنها إنما ألجئت إلى الكشف عما في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجة .

وقوله: ﴿الذِي أَنْطَقَ كُلُّ شِيءَ﴾ توصيف لله سبحانه وإشارة إلى أن النطق ليس مختصاً بالأعضاء حتى تختص هي بالسؤال بـل هـو عـام شـامـل لكـل شيء والسبب الموجب له هو الله سبحانه .

وقوله: ﴿وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ من تتمة الكلام السابق أو هـو من كلامه ، وهو احتجاج على علمه بأعمالهم وقد أنطق الجوارح بما علم .

يقول: إن وجودكم يبتدىء منه تعالى وينتهي إليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم _ وهو خلقكم أول مرة _ يعطيكم الوجود ويملككم الصفات والأفعال فتنسب إليكم ثم ترجعون وتنتهون إليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب إليه فلا يبقى ملك إلا وهو لله سبحانه.

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أولاً وآخراً فما عندكم من شيء في أول وجودكم هو الذي أعطاكموه وملكه لكم وهو أعلم بما أعطى وأودع ، وما عندكم من شيء حينما ترجعون إليه هو الذي يقبضه منكم إليه ويملكه فكيف لا يعلمه ، وانكشافه له سبحانه حينما يرجع إليه إنطاقه لكم وشهادتكم على أنفسكم عنده .

وبما مر من البيان يظهر وجه تقييد قوله : ﴿وهو الـذي خلقكم﴾ بقوله : ﴿أُولَ مرة﴾ فالمراد به أول وجودهم .

ولهم في قوله : ﴿ قالوا أنطقنا الله ﴾ في معنى الإنطاق نظائر ما تقدم في قوله : ﴿ شهدت عليهم ﴾ من الأقوال فمن قائل : إن الله يخلق لهم يومئذ العلم والقدرة على النطق بنطقهم ، ومن قائل : إنه يخلق عند الأعضاء أصواتاً شبيهة بنطق الناطقين وهو المراد بنطقهم ، ومن قائل : إن المراد بالنطق دلالة ظاهر الحال على ذلك .

وكذا في عموم قوله: ﴿أنطق كل شيء﴾ فقيل: هو مخصص بكل حي نطق إذ ليس كل شيء ولا كل حي ينطق بالنطق الحقيقي ومثل هذا التخصيص شائع ومنه قلوله تعالى في الربح المرسلة إلى عاد: ﴿تدمر كل شي﴾(١).

وقيل : النطق في ﴿أنطقنا﴾ بمعناه الحقيقي وفي قوله : ﴿أنطق كمل شيء﴾ بمعنى الدلالة فيبقى الإطلاق على حاله .

ويرد عليهما أن تخصيص الآية أو حملها على المعنى المجازي مبني على تسلم كون غير ما نعده من الأشياء حياً ناطقاً كالإنسان والحيوان والملك والجن فاقداً للعلم والنطق على ما نواه من حالها .

لكن لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعبور والإرادة سوى أنا في

حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الإطلاع على حقيقة حالها ، والآيات القرآنية وخاصة الأيات المتعرضة لشؤون يوم القيامة ظاهرة في عموم العلم .

(بحث إجمالي قرآني)

كررنا الإشارة في الأبحاث المتقدمة إلى أن الطاهر من كلامه تعالى أن العلم صار في الموجودات عامة كما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيَّءَ إِلاّ يَسْبِحُ بِعُمْدُهُ وَلَكُنْ لا تَفْقُهُونَ عُمْ الدليل على بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (١) فإن قوله : ﴿وَلَكُنْ لا تَفْقُهُونَ ﴾ نعم الدليل على كون التسبيح منهم عن علم وإرادة لا يلسان الحال .

ومن هذا القبيل قوله : ﴿ فقال لها وللأرض اثنيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ وقد تقدم تفسيره في السورة .

ومن هذا القبيل قوله: ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (٣) فالمراد بمن لا يستجيب الأصنام فقط أو هي وغيرها ، وقوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾ (٣) .

ومن هذا القبيل الأيات الدالة على شهادة الأعضاء ونطقها وتكليمها لله والسؤال منها وخاصة ما ورد في ذيل الأيات الماضية آنفاً من قوله : ﴿ أَنطَقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ الآية .

لا يقال: لو كان غير الإنسان والحيوان كالجماد والنبات ذا شعور وإرادة لبانت أثاره وظهر منها ما يظهر من الإنسان والحيوان من الأعمال العلمية والأفعال والانفعالات الشعورية.

لأنه يقال : لا دليل على كون العلم ذا سنخ واحد حتى تتشابه الأثـار المترشحـة منه فمن الممكن أن يكون ذا مراتب مختلفة تختلف باختلافها آثارها .

على أن الأثبار والأعمال العجيبة المتقنة المشهودة من النبات وسائر الأنواع الطبيعية في عالمنا هذا لا تقصر في إتقانها ونبظمها وترتيبها عن آثبار الأحياء كالإنسان والحيوان .

سورة حم السجدة _ آية ٢٢ **"**ለተ

(بحث إجمالي فلسفي)

حقق في مباحث العلم من الفلسفة أن العلم وهـو حضـور شيء لشيء يسـاوق الوجود المجرد لكونه ما له من فعلية الكمال حاضراً عنده من غير قوة فكل وجود مجرد يمكنه أن يوجد حاضر المجرد غيره أو يوجد له مجرد غيره وما أمكن لمجرد بالإمكان العام فهو له بالضرورة .

فكل عالم فهو مجرد وكذا كل معلوم وينعكسان بعكس النقيض إلى أن المادة وما تألف منها ليس بعالم ولا معلوم .

فالعلم يساوق الوجود المجرد ، والوجودات المادية لا يتعلق بها علم ولا لها علم بشيء لكن لها ، على كونها مادية متغيرة متحركة لا تستقر على حال ، ثبوتاً من غير تغير ولا تحول لا ينقلب عما وقع عليه .

فلها من هذه الجهة تجرد والعلم سار فيها كما هو سار في المجردات المحضة العقلية والمثالية فافهم ذلك .

قـوله تعـالى : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتُنُّـرُونَ أَنْ يَشْهِنْ عَلَيْكُمْ سَمَّعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جلودكم كالنخ لا شك أن الله سبحانه خالق كل شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه وبينه شيء ولا يحجب خلقه من حاجب فهو تعالى مع كل شيء إينما كـان وكيفما كـان قـال تعـالى : ﴿إِنَّ الله على كـل شيء شهيـد﴾(١) وقـال : ﴿وكـان الله على كـل شيء رقيباً **﴾**(۲) .

فالإنسان أينما كان كان الله معه ، وأي عمل عمله كان الله مع عمله ، وأي عضو من أعضائه استعمله وأي سبب أو أداة أو طريق اتخذه لعمله كـان مع ذلـك العضـو والسبب والأداة والـطريق قــال تعـــالى : ﴿وهــو معكم أينمـــا كنتم﴾(٣) ، وقــال : ﴿أَفَمَنَ هُـو قِبَالُمْ عَلَى كُبُلُ نَفْسُ بِمِنَا كُسِبَتَ﴾(٤) ، وقبال : ﴿أَنْ رَبِيكُ لبالمرصاد 🍎 (٥) .

ومن هنا يستنتج أن الإنسان ـ وهو جار في عمله ـ واقع بين مراصد كثيـرة يرصــده

(٤) الرعد : ٣٣ ، (٢) الأحزاب ٥٢٠ .

(١) الحج : ١٧ .

(٣) الحديد : ٤

(٥) الفجر: ١٤.

من كل منها ربه ويرقبه ويشهده فمرتكب المعصية وهو متوغل في سيئته غافل عنه تعالى في جهل عظيم بمقام ربه واستهانة به سبحانه وهو يرصده ويرقبه .

وهذه الحقيقة هي التي تشير إليه الآية أعني قول : ﴿وَمَا كُنْتُم تَسْتُنْرُونَ﴾ الخ على ما يعطيه السياق .

فقوله : ﴿وَمَا كُنتُم تَسْتَتُرُونَ﴾ نفي لاستتارهم وهم في المعاصي قبـلاً وهم في الدنيا وقوله : ﴿أَنْ يَشْهِدُ الْخِ مَنْصُوبِ بَنْزِعِ الْخَافِضُ وَالْتَقْدِيرُ مَنْ أَنْ يَشْهِدُ الْخِ .

ومحصل المعنى وما كنتم تستخفون في الدنيا عند المعاصي من شهادة أعضائكم التي تستعملونها في معصية الله ولم يكن ذلك لظنكم أنها لا إدراك فيها لعملكم بلل لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أي لم تستهينوا عند المعصية بشهادة أعضائكم وإنما استهنتم بشهادتنا .

فالاستدراك ومعنى الإضراب في الأية نظير ما في قول تعالى : ﴿وَمَا رَمِيتَ إِذَ رَمِيتَ إِذَ رَمِيتَ إِذَ رَمِيتَ وَلَكُنَ الله رَمِي ﴾ (١) ، وقوله : ﴿وَمَا ظُلْمُونَا وَلَكُنَ كَانُوا أَنْفُسُهُم يَظْلُمُونَ ﴾ (٢).

وقوله : ﴿كثيراً مما تعملون﴾ ولم يقل : لا يعلم ما تعملون ولعل ذلك لكونهم معتقدين بالله وبصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله .

ويستفاد من الآية أن شهادة الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ من عمل إلا كنا عليكم شهود إذ تفيضون فيه﴾ (٣).

ولهم في توجيه معنى الآية أقوال أخر لا يساعد عليها السياق ولا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها . قــولــه تعــالى : ﴿وذلكم ظنكم السذي ظننتم بــربكم أرداكم فــأصبحتم مـن الخــاســرين﴾ الإرداء من الــردى بمعنى الهــلاك ، و ﴿ذلكم ظنكم﴾ مبتــدأ وخبــر و ﴿ذلكم خبر بعد خبر ، ويمكن أن يكون ﴿ظنكم﴾ بدلاً من ذلكم .

ومعنى الآية على الأول وذلكم الظن اللذي ذكر ظن ظننتموه لا يغني من الحق شيئاً والعلم والشهادة على حالها أهلككم ذلك الظن فأصبحتم من الخاسرين .

وعلى الثاني وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم إذ هون عليكم أمر المعاصي وأدى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ في المفردات : الثواء الإقامة مسع الاستقرار . انتهى ، وفي المجمع الاستعتاب طلب العتبى وهي الرضا وهو الاسترضاء ، والإعتاب الإرضاء ، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضاً لإعادته ما كان من الإلفة . انتهى .

ومعنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم ومستقرهم وإن يطلبوا الرضى ويعتذروا لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم ويقبل إعتابهم ومعذرتهم فالآية في معنى قوله: ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ (١).

قوله تعالى : ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ إلى اخر الآية . أصل التقييض ـ كما في المجمع ـ التبديل ، والقرناء جمع قرين وهو معروف .

فقوله: هووقيضنا لهم قرناء ها إشارة إلى أنهم لو آمنوا واتقوا لأيدهم الله بمن يسددهم ويهديهم كما قال: هواولتك كتب في قلوبهم الإيمان وايدهم بروح منه (٢) لكنهم كفروا وفسقوا فبدل الله لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم ويلازمونهم، وإنما يفعل ذلك بهم مجازاة لكفرهم وفسوقهم.

وقيل: المعنى بدلناهم قرناء سوء من الجن والإنس مكان قرناء الصدق الـذين أمروا بمقارنتهم فلم يفعلوا ، ولعل ما قدمناه أحسن .

وقوله : ﴿ فَرَيْنُوا لَهُم مَا بِينَ أَيْدِيهُم ومَا خَلَفُهُم ﴾ لعل المراد التمتعات المادية

⁽١) الطور : ١٦ .

التي هم مكبون عليها في الحال وما تعلقت به آمالهم وأمانيهم في المستقبل .

وقيل : ما بين أيديهم ما قدموه من أعمالهم السيئة حتى ارتكبوها ، وما خلفهم ما سنوه لغيرهم ممن يأتي بعدهم ، ويمكن إدراج هذا الوجه في سابقه .

وقيل: ما بين أيديهم هو ما يحضرهم من أمر الدنيا فيؤثرونه ويقبلون إليه ويعملون له ، وما خلفهم هو أمر الآخرة حيث يدعوهم قرناؤهم إلى أنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جنة ولا نار ، وهو وجه بعيد إذ لا يُقال لمن ينكر الآخرة أنها زينت له .

وقوله: ﴿وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من البحن والإنس ﴾ أي ثبت ووجب عليهم كلمة العذاب حال كونهم في أمم مماثلين لهم ماضين قبلهم من البحن والإنس وكلمة العذاب قوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١) كقوله: ﴿لأملان جهنم منك وممن تبعسك منهم أجمعين ﴾ (٢) . وقوله: ﴿إنهم كانوا خاسرين ﴾ تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أو لجميع ما تقدم .

ويظهر من الآية أن حكم الموت جار في الجن مثل الإنس .

(بحث روائي)

في الفقيه عن أمير المؤمنيل عليه في وصيته لابن الحنفية : قبال الله تعالى : ﴿ومسا كنتم تستشرون أن يشهسد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ يعني بالجلود الفروج .

وفي تفسيسر القمي بإسناده عن أبي عمرو الـزبيري عن أبي عبـد الله مؤنخه في الآية : يعني بالجلود الفروج والأفخاذ .

وفي المجمع قال الصادق طلته: ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار ، ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة إن الله تعالى يقول : ﴿وَذَلَكُمْ طَنْكُمُ اللَّهِ اللَّهِ عَلَى طَنْدُمْ وَإِنْ شُراً اللهِ عَلْدُ ظَنْ عَبْدُهُ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرُ وَإِنْ شُراً فَشْر .

وفي تفسير القمي بإسناده عن عبد الرحمان بن الحجاج عن أبي عبد الله سننده في حديث قال رسول الله معزية : ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنه به وذلك قوله عز وجل : ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ﴾ الآية .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والطبراني وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود وابن ماجة وابن حبان وابن مردوية عن جابر قال: قال رسول الله سندا الله سندا الله سندا الله عن جابر قال أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله عن وجل قال الله : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴿ .

أفول: وقد روي في سبب نـزول بعض الأيات السـابقة مـا لا يلائم سيـاقها تلك الملاءمة ولذلك أغمضنا عن إيراده .

* * *

وَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهِ ذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ آلَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَّهُمْ أَسُواً آلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ آللَّهِ آلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُوا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَلِينَ أَرِنَا آلَّذِينَ أَلْدِينَ قَالُوا رَبُّنَا آللَّهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ لِيكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) إِنَّ آلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا آللَّهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ لَيكُونَا مِنَ الْأَسْفُلِينَ (٢٩) إِنَّ آلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا آللَّهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ مَن الْمُسْلِينَ (٢٠) إِنَّ آلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا آللَّهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ عَنْهُم الْمَلْكِكَةُ أَلاً تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ آلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِيها مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُـزُلًا مِنْ غَفُورِ ثَيها مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيها مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُـزُلًا مِنْ غَفُورِ رَحِيم (٣١) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَنْ دَعَآ إِلَى آللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ رَحِيمٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا آلسَيِّمَةُ اذْفَعْ بِالَّتِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا آلسَيْنَةُ أَدُفَعْ بِالَّتِي

هِي أَحْسَنُ فَإِذَا آلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٍّ حَمِيمُ (٣٥) وَإِمَّا يُلَقَّنُهَاۤ إِلَّا ذُو حَظِّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يُلَقَّنُهَاۤ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْغَنَّكَ مِنَ آلشَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) يَنْزَغَنَّكَ مِنَ آلشَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) يَنْزَغَنَّكَ مِنَ آلشَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَمِنْ آيَاتِهِ الْلَّيْلُ وَآلنَّهَارُ وَآلشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِللَّهَمَرِ وَآسُجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ للقَمَرِ وَآسُجُدُوا لِللَّهِ آلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِن لَلْقَمَرِ وَآسُجُدُوا لِللَّهِ آلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِن آلَذِي عَلَيْهَا إِنْ اللَّيْلِ وَآلنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبُرُوا فَآلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَآلنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبُرُوا فَآلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَآلنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْتَكُبُرُوا فَآلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَآلنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْتَكُبُرُوا فَآلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَتِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَآلِنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْتَكُبُرُوا فَآلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَتِعُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَآلِنَهَا عَلَيْهَا الْمُعْتَى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِ الْمَاءَ آهُتَرَّتُ وَرَبَتْ إِنَّ آلَٰذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِ الْمَاءَ آهُرَبُنُ وَلَى اللَّهُونَ عَلَى كُلِ مَعْدَيلُ (٣٩) .

(بیان)

رجوع إلى حديث كفرهم بالقرآن المذكور في أولالسورة ودكر كيدهم لإبطال حجته ، وفي الآيات ذكر الكفار وبعض ما في عقبى ضلالتهم وأهمل الاستقامة من المؤمنين وبعض ما لهم في الآحرة ومتفرقات أخر .

قوله تعالى: ﴿وقال الله ين كفروا لا تسمعوا لهاذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون اللغو من الأمر ما لا أصل له ومن الكلام ما لا معنى له يُقال . لغى يلغي ويلغو لغواً أي أتى باللغو ، والإشارة إلى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم بالقرآن لإعفاء أثره .

والآية تدل على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن بإتيان كلام يعادل ويماثله أو إقامة حجة تعارضه حتى أمر بعضهم بعضاً أن لا ينصتوا له ويأتوا بلغو الكلام عند قنراءة النبي سيست القنرآن ليختل بنه قراءته ولا تقرع أسماع الناس آياته فيلغو أشره وهو الغلبة .

قوله تعالى : ﴿ فَلَنْدُيقَنَ الَّذِينَ كَفُرُوا عَـٰذَابًا شَسْدِيداً ﴾ الـخ الـلام للقسم ،

444

والمراد بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن وإن كانت الآية مطلقة بحسب اللفظ.

وقوله : ﴿ وَلَنْجِزِينِهُم أَسُوا الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قيل : المراد العمل السيء الذي كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل ، وقيل : المراد بيان جزاء ما هو أسوأ أعمالهم وسكت عن الباقي مبالغة في الزجر .

قوله تعالى : ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار ﴾ الخ ﴿ ذلك جزاء ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿النار﴾ بدل أو عطف بيان من ﴿ذلك﴾ أو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هي النار أو مبتدأ خبره ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ .

وقوله : ﴿ لهم فيها دار الخلد ﴾ أي النار محيطة بهم جميعاً ولكل منهم فيها دار تخصه خالداً فيها .

وقوله : ﴿جزاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتُنَا يَجِحُدُونَ ﴾ مَفْعُولُ مُطَّلَقُ لَفْعُلُ مَقَّدُر ، والتقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعني قوله : ﴿ذَلَكُ جَزَاءُ﴾ نَـظير قـوله : ﴿ فَإِنْ جَهِنُمُ جِزَاؤُكُمُ جِزَاءُ مُوفُوراً ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ﴾ محكى قول يقولونه وهم في النار ، يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجن والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذلالًا لهما وتشديداً لعذابهما كما يشعر به قـولهم ذيلًا : ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُم استقامُوا تَتَنَّزَلُ عَلَيْهُم الْمُلائكة ﴾ النح قال الراغب: الاستقامة تقال في الطريق الذي يكون على خط مستو، وبه شبه طريق الحق نحو ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ . قال : واستقامة الإنسان لـزومـه المنهج المستقيم نحو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمُّ استقامُوا﴾. انتهى . وفي الصحاح: الاستقامة الاعتدال يقال: استقام له الأمر. انتهى .

فالمراد بقوله: ﴿ثم استقاموا﴾ لـزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه ، قال تعالى : ﴿ فَمَا استَقَامُوا لَكُمْ فَاستَقْيَمُوا

⁽١) الإسراء: ٦٣.

لهم ﴾ (١) وقال : ﴿واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ﴾ (٢) وما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع إلى ما ذكر .

والأية وما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سـوء حال الكافرين .

وقوله: ﴿تنزلعليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كتتم توعدون ﴾ إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطييب نفوسهم والبشرى بالكرامة .

فالملائكة يؤمنونهم من الخوف والحزن ، والخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه ، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم .

ثم يبشرونهم بالجنة الموعودة بقولهم : ﴿وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ وفي قولهم : ﴿كنتم توعدون﴾ دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ النح من تتمة البشارة ، وعلى هذا فدكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئة والتمهيد إلى ذكر الآخرة للإشارة إلى أن ولاية الآخرة مترتبة على ولاية الدنيا فكأنه قيل : نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنا ـ لما كنا ـ أولياءكم في الحياة الدنيا وسنتولى أمركم بعد هذا كما توليناه قبل .

وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمة والكرامة ليس لهم من الأمر شيء ، ولعل ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقاملة والمقايسة بين أوليائه تعالى وأعدائه إذ قال في حق أعدائه : ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ الخ وقال في حق أوليائه عن لسان ملائكته ؛ ﴿نحن أولياؤكم﴾ .

وبالمقابلة يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد والتأييد فإن الملائكة المسددين هم المخصوصون بأهل ولاية الله ، وأما الملائكة الحرس وموكلوا الأرزاق والأجال وغيرهم فمشتركون بين المؤمن والكافر .

وقيل : الآية من كلام الله دون الملائكة .

وقوله: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ضمير ﴿فيها في الموضعين للآخرة ، وأصل الشهوة نزوع النفس بقوة من قواها إلى ما تريده تلك القوة وتلتذ به كشهوة الطعام والشراب والنكاح ، وأصل الإدعاء ـ وهو افتعال من الدعاء ـ هو الطلب فالجملة الثانية أعني قوله: ﴿ولكم فيها ما تدعون ﴾ أوسع نطاقاً من الأولى أعني قوله: ﴿لكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ فإن الشهوة طلب خاص ومطنق الطلب أعم منها .

فالأية تبشرهم بأن لهم في الآخرة ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل وشرب وتكاح وغير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك وأعلى كعباً وهو أن لهم ما يشاؤون فيها كما قال تعالى : ﴿لهم ما يشاؤن فيه ﴾(١) .

قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين للآية اتصال بقوله السابق: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهدا القرآن ، والغوا فيه للآية فإنهم كانوا يخاصمون النبي مُتَّفِيهُ كما ينازعون القرآن ، وقد ذكر في أول السورة قولهم: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه الآية فأيد سبحانه في هذه الآية نبيه بأن قوله وهو دعوته أحسن القول .

فقوله: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ المراد به النبي على الله وإن كان لفظ الأية يعم كل من دعا إلى الله ولما أمكن أن يدعو الداعي إلى الله لغرض فاسد وليست الدعوة التي هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله: ﴿وعمل صالحاً ﴾ فإن العمل الصالح يكشف عن نية صالحة غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق والالتزام به ، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه ولذا قيده بقوله: ﴿وقال إننى من المسلمين ﴾ والمراد بالقول الرأي والاعتقاد على ما يعطيه السياق .

فإذا تم الإسلام لله والعمل الصالح للإنسان ثم دعا إلى الله كان قولـه أحسن

⁽۱) ق : ۲۵ .

القول لأن أحسن القول أحقه وأنفعه ولا قول أحق من كلمة التـوحيد ولا أنفـع منها وهي الهادية للإنسان إلى حاق سعادته .

قوله تعالى : ﴿لا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ الآية لما ذكر أحسن القول وأنه الدعوة إلى الله والقائم به حقاً هو النبي مسلم التفت إليه ببيان أحسن الطريق إلى الدعوة وأقربها من الغاية المطلوبة منها وهي التأثير في النفوس فخاطبه بقوله : ﴿لا تستوي﴾ الخ .

فقوله: ﴿لا تستوي الحسنة ولا السيئة﴾ أي الخصلة الحسنة والسيئة من حسن التأثير في النفوس ، و ﴿لا﴾ في ﴿ولا السيئة﴾ زائدة لتأكيد النفي .

وقوله: ﴿ الدخيل هِ أحسن ﴾ استئناف في معنى دفيع الدخيل كأن المخاطب لما سمع قوله: ﴿ لا تستوي ﴾ النخ قال: فما ذا أصنع ؟ فقيل: ﴿ ادفع ﴾ النخ والمعنى ادفع بالخصلة التي هي أحسن الخصلة السيئة التي تقابلها وتضادها فادفع بالحق الذي عندك باطلهم لا بباطل آخر وبحلمك جهلهم وبعفوك إساءتهم وهكذا.

وقوله : ﴿ قَإِذَا الذِّي بِينَكُ وبِينَه عَدَاوَةً كَأَنَّهُ وَلَي حَمِيمٍ ﴾ بيان لأثر الدفع بالأحسن ونتيجته ، والمراد أنك إن دفعت بالتي هي أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولي شفيق . قيل : ﴿ الذِّي بِينَكُ وبِينَه عَدَاوَةً ﴾ أبلغ من ﴿ عَدُوكُ ﴾ ولـذا اختاره عليه مع اختصاره .

ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هي أحسن ومدحه أحسن التعظيم وأبلغ المدح بقوله: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم أي ذو نصيب وافر من كمال الإنسانية وخصال الخير.

وفي الآية مع ذلك دلالة ظاهرة على أن الحظ العظيم إنما يـوجد لأهـل الصبر خاصة .

قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم النزغ النخس وهو غرز جنب الدابة أو مؤخرها بقضيب ونحوه ليهيج، و﴿ما فِي ﴿إِمَا ينزغنك ﴾ زائدة والأصل وإن ينزغنك فاستعذ.

والنازغ هو الشيطان أو تسويله ووسوسته ، والأول هـ والأنسب لمقام النبي

سناه المدعوين من أهل الكفر والجحود فيبالغوا في جحودهم ومشاقتهم بالوسوسة على المدعوين من أهل الكفر والجحود فيبالغوا في جحودهم ومشاقتهم وإيذائهم له فلا يؤثر فيهم الدفع بالأحسن ويؤل هذا إلى نزغ من الشيطان بتشديد العداوة في البين كما في قوله: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾(١) ، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من وسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ﴾(١) .

ولو حمل على الوجه الثاني فالمتعين حمله على مطلق الدستور تتميماً لـلأمر ، وهو بوجه من باب «إياك أعنى واسمعي يا جارة» .

وقوله: ﴿ فَاسْتَعَذَ بَالله إنه هُ وَ السميع العليم ﴾ العوذ والعياذ بكسر العين والمعاذ والاستعاذة بمعنى وهو الالتجاء والمعنى قالتجيء بالله من نزغه إنه هو السميع لمسألتك العليم بحالك أو السميع لأقوالكم العليم بأفعالكم .

قوله تعالى: ﴿وَمِن آيَاتُهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمْرُ ﴾ الْخُ لَمَا ذَكْرُ سَبَّحَانُهُ كُونُ دُعُوتُهُ مِنْدُ اللَّهِ أُحْسَنُ القولُ وَوَصِياهُ أَنْ يَدْفُعُ بِأَحْسَنُ الْخُصَالُ عَادَ إِلَى أَصل الدّعُوةُ فَاحْتَجُ عَلَى الوَحْدَانِيةُ وَالْمُعَادُ فِي هَذْهُ الْآيَاتُ الثّلاثُ .

فقوله: ﴿وَمِن آياته الليل والنهار﴾ النح احتجاج بـوحدة التـدبير واتصاله على وحدة الرب المدبر، وبوحدة الرب على وجوب عبادته وحـده، ولذلـك عقبه بقـوله ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ النح .

فالكلام في معنى دفع الدخل كأنه لما قيل: ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ الخ فأثبت وحدته في ربوبيته قيل: فماذا نصنع ؟ فقيل: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر هما مخلوقان مدبران من خلقه بل خصوه بالسجدة واعبدوه وحده ، وعامة الوثنيين كانوا يعظمون الشمس والقمر وإن لم يعبدهما غير الصابئين على ما قيل ، وضمير ﴿خلقهن﴾ لليل والنهار والشمس والقمر .

وقوله : ﴿إِنْ كُنتُم إِياه تعبدونَ ﴾ أي إن عبادته لا تجامع عبادة غيره .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ اسْتَكْبُرُوا فَالَّذِينَ عَنْدُ رَبِّكُ يُسْبِحُونَ لَـهُ بِاللَّهِ لَا النَّهَارُ لَا

⁽١) يوسف : ١٠٠ . (٢) الحج : ١٥٠ .

يسأمون السأمة الملال ، والمراد وبالذين عند ربك الملائكة والمخلصون من عباد الله وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله : ﴿إِنَّ الدَّيْنِ عَنْدُ رَبِّكُ لاَ يُسْتَكْبُرُونَ عَنْ عَبَادَتُهُ وَيُسْتِحُونُهُ وَلَهُ يُسْجَدُونَ ﴾ (١) .

وقوله: ﴿يسبحون له﴾ ولم يقل: يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أي يسبحونه خاصة ، وقوله: ﴿بالليل والنهار﴾ أي دائماً لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار .

والمعنى: فإن استكبر هؤلاء الكفار عن السجدة لله وحده فعبادتـه تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسبيحاً دائماً لا ينقطع من غير سأمة وهم الـذين عند ربك.

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ آيَاتُهُ أَنْكُ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ الْخُ الْخَشُوعُ التَّذَلُـلُ ، والاهتزاز التحرك الشديد ، والـربو النشوء والنماء والعلو ، واهتزاز الأرض وربوها تحركها بنباتها وارتفاعه .

وفي الأية استعارة تمثيلية شبهت فيها الأرض في جدبها وخلوها عن النبات ثم اخضرارها ونمو نباتها وعلوه بشخص كان وضيع الحال رث الثياب متدللاً خاشعاً ثم أصاب مالا يقيم أوده فلس أفخر الثياب وانتصب ناشطاً متىختراً يعرف في وجهه نضرة النعيم .

والأينة مسوقة للاحتجاج على المعاد ، وقند تكرر البحث عن مضمونها في السور المتقدمة .

(بحث روائی)

في المجمع في قوله تعالى : ﴿أَرْنَا اللَّذِينَ أَصْلَانَا﴾ يعنون إبليس الأبالسة وقابيل س أدم أول من أبدع المعصية . وروى ذلك عن علي سِ<u>ئنج</u> .

أقول : ولعله من نوع الحري فالآية عامة

وفيه هي قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّذِينَ قَالَـوا رَبَّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَـامُـوا﴾ روي عن أنس قال : قرأ علينا رسول الله مُسِيِّ هذه الآية ثم قـال : قد قـالها نـاس ثم كفر أكثـرهم

⁽١) الأعراف ٢٠٦٠

فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها .

وفيه في قوله تعالى : ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾ يعني عند الموت عن مجاهـد والسدي وروي ذلك عن أبي عبد الله منشخ .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ﴿نحن أُولِياؤكم في الحياة الدنيا﴾ قـال : كنا نحرسكم من الشياطين ﴿وفي الآخرة﴾ أي عند الموت .

وفي المجمع في الآية قيل : ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا﴾ أي نحرسكم في الدنيا وعند الموت في الأخرة .

وفي تفسيسر القمي في قول عالى : ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ قال : ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك حتى يكون الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفْمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِينزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْنِيلُ مِنْ عَلِيلٌ مِنْ حَلِيمٍ كَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو خَمِيدٍ (٤٢) مَا يُقالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفِرَةٍ وَذُو عِقَابِ أَلِيمٍ (٤٦) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنَا أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فَكُو فَيْ وَهُو عَلَيْهِمْ عَمَى أُولِئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ فَصِلَتْ آيَاتُهُ مَا وَقُرُ وَهُو عَلَيْهِمْ عَمَى أُولِئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ وَاللّذِينَ آمَنُوا هُدَى وَشِفَآءٌ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ مَنَا رَبِيلَ لَوْ مَنُ وَبِي آئِهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِ مِنْهُ مُورِيبٍ (٤٤) مَنْ عَمْلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلام لِلْعَبِيدِ (٤٤) عَمْلُ مَلْفِي مُنْ وَيْلُ فَيْلُوم لِلْعَلَيْمِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِها وَمَا وَمُا وَمَا وَلَمَا وَمَا وَمَا وَمَا وَا وَالْقَافِهُ وَا وَا وَسُولُوا وَالْمَاعِهُا وَمَا وَا وَلَوْلَا وَا وَا وَا وَا وَا وَا

مِنْ أَنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي قَالُوآ آذَنَّاكَ مَا مِنَا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيص (٤٨) لَا يَسْفَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَثُوسُ قَنُوطً (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هٰذَا لِي وَمَاۤ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَـآئِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلٰى رَبّى إِنَّ لِي عِنْـذَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّـذِينَ كَفَـرُوا بِمَــا عَمِلُوا وَلَنَـذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَــذَابِ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْـرَضَ وَنَتَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّـةُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَبِيضٍ (٥١) قُـلُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَـانَ مِنْ عِنْـدِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلَ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ (٥٢) سَنَريهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أُولَمْ يَكُفِ بِرَبَّكَ أَنَّـهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِـرْيَةٍ مِنْ لِقَـآءِ رَبُّهُمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطً (١٥) .

(بیان)

عودة أحرى إلى حديث القرآن وكفرهم به على ظهور آبته ورفعة درجته وما فرطوا في جنبه ورميهم النبي مسملة وجمدهم البحق وكفرهم بالآيات وما يتبع ذلك ، وتختتم السورة .

والآية الأولى أعني قوله: ﴿إِنَّ الذين يلحدون في آياتنا﴾ الآية كالبرزخ الـرابط سن هـذا الفصل والفصـل السابق من الآيـات لما وقعت بين قـوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفُرُوا بالذكر لما جاءهم﴾ الآية وبين قوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ الآية وقوله: ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ الخ.

قوله تعالى : ﴿إِن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون عليتا﴾ الخ سياق تهديـد لملحدي هذه الأمة كما يؤيده الآية التالية ، والإلحاد الميل . وإطلاق قوله: ﴿ يلحدون وقوله: ﴿ آياتنا ﴾ يشمل كل إلحاد في كل آية فيشمل الإلحاد في الآيات التكوينية كالشمس والقمر وغيرهما فيعدونها آيات الله سبحانه ثم يعودون فيعبدونها ، ويشمل آيات الوحي والنبوة فيعدون القرآن افتراء على الله وتقولا من النبي منزات أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسرونه من عند أنفسهم أو يؤولونه أبتغاء الفتنة فكل ذلك إلحاد في آيات الله بوضعها في غير موضعها والميل بها إلى غير مستقرها .

وقوله: ﴿ أَفْمَنَ يَلْقَى فَيِ النَّارِ خَيْرِ أَمْ مِنْ يَاتِي آمَناً يَوْمُ القيامة ﴾ إيذان بالجزاء وهو الإلقاء في النار يوم القيامة قسراً من غير أي مؤمن متوقع كشفيع أو ناصر أو عذر مسموع فليس لهم إلا النار يلقون فيها ، والظاهر أن قوله: ﴿ أَمْ مِنْ يَأْتِي آمَناً يَوْمُ القيامة ﴾ لإبانة أنهما قبيلان لا ثالث لهما فمستقيم في الإيمان بالآيات وملحد فيها ويظهر به أن أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة .

وقوله : ﴿ إعملوا ما شتتم إنه بما تعملون بصير ﴾ تشديد في التهديد .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِالْـذَكُرُ لَمَا جَاءَهُم ﴾ إلى قوله ﴿من حكيم حميد ﴾ المراد بالذكر القرآن لما فيه ذكر الله ، وتقييد الجملة بقوله ؛ ﴿لما جاءهم ﴾ يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قريش وغيرهم .

وقد اختلفوا في خبر ﴿إنَ ويمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل علينه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهِ لِلحَدُونَ فِي آياتنا ﴾ الخ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يلقون في الناريوم القيامة ، وإنما حذف ليذهب فيه وهم السمع أي مذهب ممكن والكلام مسوق للوعيد .

وإلى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشاف : إن قوله : ﴿إن الذين كفروا﴾ الخ بدل من قوله : ﴿إن الذين يلحدون في آياتنا﴾ .

وقيل: خبر إن قوله الآتي: ﴿ أُولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ ، وقيل: الخبر قوله: ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ بحذف ضمير عائد إلى اسم إن والتقدير لا يأتيه منهم أي لا يأتيه من قبلهم ما يبطله ولا يقدرون على ذلك أو بجعل أل في الباطل عوضاً من الضمير والمعنى لا يأتيه باطلهم .

وقيل: إذ قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكُتَابِ عَزِيزٍ﴾ النَّح قَائم مقام النَّجَسِر ، والتقدير إن الذين كفروا بالذكر كفروا به وإنه لكتاب عزيز .

وقيل: الخبر قبوله: ﴿ما يقال لك﴾ النخ بحذف الضمير وهبو ﴿فيهم﴾ والمعنى ما يُقال لك في الذين كفروا بالذكر إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن لهم عداب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الأخرة ، ووجوه التكلف في هذه الوجوه غير خفية على المتأمل البصير.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكُتَابٌ عَزِيرٌ ﴾ الضمير للذكر وهـو القرآن ، والعـزيز عـديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب ، والمعنى الثاني أنسب لما يتعقبه من قوله : ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ .

وقوله: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ إتيان الباطل إليه وروده فيه وصيرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلاً بأن يصير ما فيه من المعارف الحقة أو بعضها غير حقة أو ما فيه من الأحكام والشرائع وما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغى لا ينبغي العمل به .

وعليه فالمراد بقوله: ﴿ من بين يديه ولا من خلفه ﴾ زمانا الحال والاستقبال أي زمان النزول وما بعده إلى يوم القيامة ، وقيل: المراد بما بين يديه ومن خلفه جميع الجهات ، كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله فهو مصون من البطلان من جميع الجهات وهذا العموم على الوجه الأول مستفاد من إطلاق النفي في قوله: ﴿لا يأتيه ﴾ .

والمدلول على أي حال أنه لا تناقض في بياناته ، ولا كـذب في أخباره ، ولا بطلان يتطرق إلى معارفه وحكمه وشرائعه ، ولا يعارض ولا يغير بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجه إلى وجه .

فالأية تجري مجري قوله : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾(١) .

وقوله : ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ بمنزلة التعليل لكونه كتاباً عزيزاً لا يأتيه الباطل﴾ الخ ، أي كيف لا يكون كذلك وهو منزل من حكيم متقن في فعله لا

يسوب فعله وهن ، محمود على الإطلاق .

قوله تعالى : ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ النخ ﴿ما ﴾ في ﴿ما يقال لك ﴾ نافية ، والقائلون هم الذين كفروا حيث قالوا : إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لاغ في كلامه أو يريد أن يتأمر علينا ، والقائلون لما قد قيل للرسل أممهم .

والمعنى : ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت إليهم فدعوتهم فرموك بما رموك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي مثل ما قد قيل لهم .

وقوله : ﴿إِنْ رَبِكَ لَذُو مَعْفَرَةُ وَذُو عَقَابِ ٱلْيَمِ ﴾ في موضع التهديد والوعيد أي إن رَبِكَ ذُو هاتين الصفتين أي فانظر أو فلينظروا ماذا يصيبهم من ربهم وهم يقولون ما يقولونه لرسوله ؟ أهو مغفرة أم عقاب ؟ فالأية في معنى قوله : ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ أي ما عملتم من حسنة أو سيئة أصابكم جزاؤه بعينه .

وقيل: المعنى ما يـوحى إليك في أمـر هؤلاء الذين كفـروا بالـذكر إلا مـا قد أوحي للرسل من قبلك وهو أن ربك لذو عقاب أليم فالمراد بالقـول الوحي، و ﴿إِنْ رَبِكُ لَهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا اللَّهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا اللَّهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا اللَّهُ عَلَّا لَهُ عَلَّا اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَيْنَا عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى ا

قوله تعالى: ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي الراغب: العجمة خلاف الإبانة. قال: والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب إليهم، والأعجم من في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي اعتباراً بقلة فهمهم عن العجم. انتهى . فالأعجمي غير العربي البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربية أو كان منهم وهو غير مفصح للكنة في لسانه ، وإطلاق الأعجمي على الكلام كإطلاق العربي من المجاز .

فالمعنى: ولو جعلنا القرآن أعجمياً غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال الذين كفروا من قومك: هلا فصلت وبينت آياته وأجزاؤه فانفصلت وبانت بعضها من بعض بالعربية والبلاغة أكتاب مرسل أعجمي ومرسل إليه عربي ؟ أي يتنافيان ولا يتناسبان.

وإنما قال : ﴿عربي﴾ ولم يقل : عربيون أو عربية مع كون من أرسل إليه جمعاً وهم جماعة العرب ، إذ القصد إلى مجرد العربية من دون خصوصية للكثرة

بل المراد بيان التنافي بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحداً أوكثيراً .

قال في الكشاف: فإن قلت: كيف يصح أن يراد بالعربي المرسل إليهم وهم أمة العرب؟ قلت: هو على ما يجب أن يقع في إنكار المنكر لو رأى كتاباً عجمياً كتب إلى قوم من العرب يقول: كتاب أعجمي ومكتوب إليه عربي وذلك لأن مبنى الإنكار على تنافر حالتي الكتاب والمكتوب إليه لا على أن المكتوب إليه واحد أو جماعة فوجب أن يجرد لما سيق إليه من الغرض ولا يوصل به ما يخل غرضاً آخر ألا تراك تقول وقد رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة: اللباس طويل والملابس قصير ولو قلت: واللابس قصيرة جئت بما هو لكنة وفضول قول لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته إنما وقع في غرض وراءهما.

وقوله: ﴿قَلْ هُو لَلَّذِينَ آمنوا هَدَى وَشَفَاءَ ﴾ بيان أن أثر القرآن وخاصته لا يدور مدار لغته بل الناس تجاهه صنفان وهم الذين آمنوا والذين لا يؤمنون ، وهو هدى وشفاء للذين آمنوا يهديهم إلى الحق ويشفي ما في قلوبهم من مرض الشك والريب ، وهو عمى على الذين لا يؤمنون ـ وهم الذين في آذانهم وقر ـ يعميهم فلا يبصرون الحق وسبيل الرشاد .

وفي توصيف الذين لا يؤمنون بأن في آذانهم وقرا إيماء إلى اعترافهم بذلك المنقول عنهم في أول السورة : ﴿وفي آذاننا وقر﴾ .

وقوله: ﴿ أُولئك ينادون من مكان بعيد﴾ أي فـالا يسمعون الصـوت والا يرون الشخص وهو تمثيل لحالهم حيث الا يقبلون العظة والا يعقلون الحجة .

قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ الخ تسلية للنبي منزيه عن جحود قومه وكفرهم بكتابه .

وقوله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم﴾ الكلمة هي قوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾(١).

⁽١) الأعراف : ٢٤ .

وقوله: ﴿ وَإِنْهُمْ لَفِي شَكَ مَنْهُ مُرِيبٌ ﴾ أي في شك مبريب من كتاب مـوسى النبي مسلمة مريب من قومه .

قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ النح أي إن العمل قائم بصاحبه ناعت له فلو كان صالحاً نافعاً انتفعت به نفسه وإن كان سيئاً ضاراً تضررت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح إلى صاحبه وهو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيء إلى صاحبه وهو العقاب ظلم ووضع للشيء في غير موضعه .

ولو كان ذلك ظلماً كان تعالى في إثابته وتعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظلاماً للعبيد لكنه ليس بظلم ولا أنه تعالى ظلام لعبيد وبذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ ولم يقل: وما ربك بظالم .

قوله تعمالي : ﴿ إِلَيه يمرد علم الساعة ﴾ إلى قول ه ﴿ إِلا بعلمه ﴾ ارتداد علم الساعة إليه اختصاصه به فلا يعلمها إلا هو ، وقد تكرر ذلك في كلامه تعالى .

وقوله: ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ ﴿ثمرات﴾ فاعل ﴿تخرج﴾ و ﴿من﴾ زائدة للتأكيد كقوله: ﴿وكفى بالله شهيداً ﴾(١) ، وأكمام جمع كم وهو وعاء الثمرة و ﴿ما﴾ مبتدأ خبره ﴿إلا بعلمه ﴾ والمعنى وليس تخرج ثمرات من أوعيتها ولا تحمل أنثى ولا تضع حملها إلا مصاحباً لعلمه أي هو تعالى يعلم جزئيات حالات كل شيء .

فهو تعالى على كونه خالقاً للأشياء محولاً لأحوالها عالم بها وبجزئيات حالاتها مراقب لها، وهذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده، ففي الآية إشارة إلى توحده تعالى في الربوبية والألوهية ، ولذا ذيّل هذا الصدر بقوله : ﴿ويوم يناديهم أين شركائى﴾ الخ .

قوله تعالى : ﴿ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذنّاك ما منا من شهيد﴾ إلى قوله ﴿من محيص﴾ الظرف متعلق بقوله : ﴿قالوا﴾ وقيل : ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذاناً بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى : ﴿ويـوم يجمع الله الـرسل﴾ ،

⁽١) النساء : ٧٩

وقيل : متعلق بمحذوف نحو اذكر ، ولعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذي ذكرناه فتكون الآية مسوقة لمنفي الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى واعتراف المشركين بذلك يوم القيامة .

والإيذان الإعلام ، والمراد بالشهادة القولية أو الشهادة بمعنى الرؤية الحضورية وعلى الثاني فقوله : ﴿وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل علف عنطف تفسير يبين به سبب انتفاء الشهادة .

وقوله: ﴿ وَظُنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ الظن _ على ما قيل _ بمعنى اليقين ، والمحيص المهرب والمفر ، والمعنى : ويوم ينادي الله المشركين : أي شركائي ؟ _ على زعمكم _ قالوا : أعلمناك ما منا من يشهد عليك بالشركاء _ أو ما منا من يشاهد الشركاء وغاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في الدنيا ، وأيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ لا يَسَأُمُ الْإِنْسَانَ مِن دَعَاءُ الْخَيْرِ وَإِنْ مُسَهُ الشَّرِ فَيَتُوسَ قَنُوطُ ﴾ السأمة الملال ، واليأس والقنوط بمعنى وهو انقطاع الرجاء ، والدعاء الطلب .

شروع في ختم الكلام في السورة ببيان ما هو السبب في جحودهم ودفعهم الحق الصريح ، وهو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شهر يعجز عن دفعه يئس من الخير وتعلق بذيل الدعاء والمسألة وتوجه إلى ربه ، وإذا مسه خير اشتغل به وأعجب بنفسه وأنساه ذلك كل حق وحقيقة .

والمعنى: لا يمل الإنسان من طلب الخير وهو ما يراه نافعاً لحياته ومعيشته وإن مسه الشر فكثير اليأس والقنوط لما يسرى من سقوط الأسباب التي كان يستند إليها ، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي .

قوله تعالى : ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من يعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾ الخ الأصل بالنظر إلى مضمون الآية السابقة أن يُقال : وإن ذاق خيراً قال : هذا لي لكن بدّل ذاق من ﴿أذقناه ﴾ و ﴿خيراً ﴾ من قوله : ﴿رحمة منا ﴾ ليدل على أن الخير الذي ذاقه هو رحمة من الله أذاقه إياها وليس بمصيبة برأسه ولا هو يملكه ولو كان يملكه لم ينفك عنه ولم يمسسه الضراء ، ولذا قيد قوله : ﴿ولئن أذقناه ﴾ الخ بقوله : ﴿من بعد ضراء مسته ﴾ . وقوله: ﴿ليقولن هذا لي﴾ أي أنا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء وأتصرف فيه كيف أُريد ، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أو يحاسبني على فعل ، ولهذا المعنى عقبه بقوله : ﴿وما أظن الساعة قائمة ﴾ فإن الساعة هي يوم الحساب ،

وقوله: ﴿ وَلَنْ رَجِعَتَ إِلَى رَبِي إِنْ لَي عَندَهُ للحَسنَى ﴾ أي للمثوبة الحسنى او للعاقبة الحسنى ، وهذا مبني على ما يراه لنفسه من الكرامة واستحقاق الخير كأنه يقول: ما ملكته من الخير لو كان من الله فإنما هو لكرامة نفسي عليه وعلى هذا فإن قامت الساعة ورجعت إلى ربي كانت لي عنده العاقبة الحسنى .

فالمعنى: وأقسم لئن أذقنا الإنسان رحمة هي منا ولا يستحقها ولا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته وذلك يدله على أنه لا يملك ما أذيقه نسي ما كان من قبل وقال: هذا لي _ يشير إلى شخص النعمة ولا يسميها رحمة _ وليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه ويحاسبني عليه وما أظن الساعة _ وهي يوم الحساب _ قائمة ، وأقسم لئن رجعت إلى ربي وقامت ساعة كانت لي عنده العاقبة الحسنى لكرامتي عليه كما أنعم علي من النعمة .

والآية نظيرة قوله في قصة صاحب الجنة : ﴿مَا أَظُنَ أَنْ تَبَيْدُ هَذُهُ أَبِداً وَمَا أَظُنَ السَّاعَةُ قَائِمَةً وَلَيْنَ رَدُدَتَ إِلَى رَبِي لأَجِدُنَ خَيْسًا مِنْهَا مِنْقَلْبًا ﴾(١) . وقد تقدم بعض الكلام فيه .

وقوله: ﴿ فلننبئن اللذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ تهديد ووعيد .

قوله تعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض النبأي الابتعاد ، والمراد بالجانب الجارحة وهي الجنب أو المراد الجهة والمكان فقوله : ﴿نأى بجانبه ﴾ كناية عن الابتعاد بنفسه وهو كباية عن التكبر والخيلاء ، والمراد بالعريض الوسيع ، والدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر وأصر عليه الداعي ، والآية في مقام ذم الإنسان وتوبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وتكبر وإذا سلب النعمة ذكر الله وأقبل عليه بالدعاء مستمراً مصراً .

قوله تعالى: ﴿قُلُ أُرأَيتُم إِنْ كَانَ مَنْ عَنْدُ الله ثُمْ كَفُرتُم بِهُ مَنْ أَصْلُ مَمَنْ هُو فِي

⁽١) الكهف : ٣٦ .

شقاق بعيد ﴿ وَأَرَايِتُم ﴾ أي أخبروني ، والشقاق والمشاقة الخلاف ، والشقاق البعيد الخلاف الذي لا يقارب الوفاق وهو شديده ، وقوله : ﴿ ممن هو في شقاق بعيد ﴾ كناية عن المشركين ولم يقل : منكم بل أتى بالموصول والصلة وذلك في معنى الصفة ليدل على علة الحكم وهو الشقاق البعيد من المحق .

والمعنى: قل للمشركين أخبروني إن كان هـذا القرآن من عنـد الله ثم كفرتم به من أضل منكم ؟ أي لا أضل منكم لأنكم في خلاف بعيد من حق ما فوقه حق .

فمفاد الآية أن القرآن يدعوكم إلى الله ناطقاً بأنه من عند الله فـلا أقل من احتمال صدقه في دعواه وهذا يكفي في وجوب النظر في أمره دفعاً للضر المحتمل وأي ضرر أقوى من الهلاك الأبدي فلا معنى لإعراضكم عنه بالكلية .

قوله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق الغناف ، الآفاق جمع أفق وهو الناحية ، والشهيد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود وهو المناسب لسياق الأية .

وضمير ﴿أنه ﴾ للقرآن على ما يعطيه سياق الآية ويؤيده الآية السابقة التي تذكر كفرهم بالقرآن ، وعلى هذا فالآية تعد إراءة آيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقاً ، والآيات التي شأنها إثبات حقية القرآن هي الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه من مركي قريش إلى ويمكن لهم في الأرض ويظهر دينهم على الدين كله وينتقم من مشركي قريش إلى غير ذلك .

فأمر الله تعالى نبيه سنسلم بالهجرة إلى المدينة وقد اشتد الأمر عليه وعلى من آمن به غايتها فلا سماء تظلهم ولا أرض تقلهم ثم قتل صناديد قريش في بدر ولم يزل يرفع ذكره ويفتح على يديه حتى فتح مكة ودانت له جزيرة العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق وهي النواحي التي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم ، وفي أنفسهم وهو قتلهم الذريع في بدر .

وليست هذه آيات في أنفسها فكم من فتح وغلبة يذكره التاريخ ومقاتـل ذريعة يقصها لكنها آيات بما أن الله سبحانه وعد بها والقرآن الكريم أخبر بها قبـل وقوعهـا ثم وقعت على ما أخبر بها . ويمكن أن يكون المراد بإراءة الآيات وتبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده وتظل السعادة على النوع الإنساني وهي الغاية لخلقتهم ، وقد تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض الآية(١) وغيره وأيدناه بالدليل العقلي .

والفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول إلى مشركي مكة ومن يتبعهم خاصة وعلى الثاني إلى مشركي الأمة عامة والخطاب على أي حال اجتماعي ، ويمكن الجمع بين الوجهين .

ويمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام وتضل عنه الدعاوي وتبطل الأسباب ولا يبقى إلا الله عز اسمه ويؤيده ذيل الآية والآية التالية ، وضمير ﴿أنه الحق﴾ على هذا لله سبحانه .

ولهم في الآية أقوال أُخرى أغمضنا عن إيرادها .

وقوله : ﴿ أَو لَم يَكُفَ بِرِبِكُ أَنَّهُ عَلَى كُلُ شِيءَ شَهِيدٌ ﴾ فاعل ﴿ لَم يَكُفَ ﴾ هو ﴿ بِرِبِك ﴾ والباء زائدة ، و ﴿ أَنه على كُلُ شيء شهيد ﴾ بدل من الفاعل ، والاستفهام للإنكار ، والمعنى أو لم يكف في تبين الحق كون ربك مشهوداً على كُلُ شيء إذ ما من شيء إلا وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء .

واتصال الجملة أعني قوله: ﴿ وَاوَلَم يَكُفَ بِرِبِكُ ﴾ النح بقوله: ﴿ سنريهم ﴾ النح على الوجهين الأولين النح على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر، وأما على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوته إلى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقية القرآن للدلالة على حقية ما يدعو إليه مستقيماً من غير واسطة كانه قيل: سنريهم آباتنا ليتبين لهم أن القرآن الذي يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل: وهذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أولم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء ؟.

⁽١) النور : ٥٥ .

قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنهُم في مرية من لقاء ربهم ﴾ النح الذي يفيده السياق أن في الآية تنبيها على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيداً على كل شيء وهو أقوى براهيم التوحيد وأوضحها لمن تعقّل لأنهم في مرية وشك من لقاء ربهم وهو كونه تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه .

ثم نبه بقوله : ﴿ أَلَا إِنهُ بَكُلُ شَيْءَ مَحِيطٌ ﴾ على ما ترتفع به هذه المرية وتنبت من أصلها وهو إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحة قدسه وكبريائه فلا يخلو عنه مكان وليس في مكان ولا يفقده شيء وليس في شيء .

وللمفسرين في الآية أقوال لو راجعتها لرأيت عجباً .

(بحث روائي)

في الدر المتثور أخرج ابن عساكر عن عكرمة في قوله : ﴿أَفَمَنَ يَلْقَى فِي النَّارِ خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾ نزلت في عمار بن ياسر وفي أبي جهل .

أقول: ورواه أيضاً عن عدة من الكتب عن بشر بن تميم ، وروى أيضاً عن ابن مردويه عن ابن عباس ﴿أفمن يلقى في النار﴾ قال: أبو جهل بن هشام ، و ﴿أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ قال: أبو بكر الصديق ، والروايات من التطبيق .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه في قبوله تعالى : ﴿ إِنْ الذِّينَ كَفُرُوا بِالذَّكُرُ لَمَا جَاءَهُم ﴾ يعني القرآن ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ﴾ قال : لا يأتيه الباطل من قبل التوراة ولا من قبل الإنجيل والزبور ﴿ ولا من خلفه ﴾ قال : لا يأتيه من بعده كتاب يبطله .

وفي المجمع في الآية قيل فيه أقوال ـ إلى أن قال ـ وثالثها معناه أنه ليس في إخباره عما يكون في المستقبل باطل بل أخباره كلها موافقة لمخبراتها ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي تفسير القمي في قول تعالى: ﴿عَالَمَهُ وَعَدَيْهِ قَالَ : لَـو كَانَ هَـذَا القَرَآنَ أَعْجَمِياً لقالُوا : كيف نتعلمه ولساننا عربي وأتيتنا بقرآن أعجمي فأحب الله أن ينزله بلسانهم وقد قال الله عز وجل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مَنْ رَسُولَ إِلَّا بِلْسَانَ قَوْمُهُ ﴾ .

وفي روضة الكافي بإسناده عن الـطيار عن أبي عبــد الله عنسلان في قول الله عــز

وجل : ﴿ سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ قال : خسف ومسخ وقذف . قال : قلت : ﴿ حتى يتبين لهم ﴾ قال : دع ذا ذاك قيام القائم .

وفي إرشاد المفيد عن علي بن أبي حميزة عن أبي الحسن موسى مشخف في الآية قال : المفتن في آفاق الأرض والمسخ في أعداء الحق .

وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه في الآية قال: يريهم في أنفسهم المسخ ، ويريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجمل في أنفسهم وفي الآفاق . قلت له : حتى يتبين لهم أنه الحق ؟ قال : خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل يراه الخلق .

- تمَّ والحمد للَّه ـ

فهرس الكتاب وبعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

الصفحة	نوع البحث	موضوع البحث	رقم الأيات
٥		-	اسورة فاطر
14	فرآن ي	كلام في الملائكة	الأية ١
٣٨	عقلي	كلام في معنى عموم الإنذار	77 - 72
٦٢			سورة يس
171			سورة الصافات
121	قرآئي	كلام في معنى الشهب	الأية ١١
17.	قرآني وروائي	كلام في قصة الياس منافظ	147-118
17.	قرآني وروائي	١ ـ قصته في القرآن	
17.	قرآني وروائي	٢ _ الأحاديث فيه	
711	مختلط	كلام في قصة يونس ﷺ في فصول	181-184
177	مختلط	١ ـ قصته في القرآن	
177	مختلط	٢ ـ قصته عند أهل الكتاب	
14.	مختلط	۳ ـ ثناؤه تعالى عليه	1
141			اسورة ص
7+7 7+7	قرآني	كلام في قصة داود ﷺ في فصول	الأية ٢٩
	فرآني	١ ـ قصته في القرآن	
7.7	قرآني	٣ _ جميل الثناء عليه	
7.7	قراني	٣ ـ حول قصة المتخاصمين	
414	قراني وروائي	كلام في قصة أيوب ﷺ في فصول	£A_ £0
717	قراني ورواثي	١ ـ قصته في القرآن	•
717	قراني وروائي	۲ _ جميل ثناثه	İ
317	قراني ورواتي	٣ ـ قصته في الروايات	
111	روائي	خبر اليسع وذي الكفل عليهما السلام	۵۸ ـ ۵۹
741			سورة الزمر
137	عقلي وقرآني	كلام في معنى الرضا والسخط من الله	الأية ∨
7.7	ļ		سورة المؤمن
* 0A	-		سورةحمالسجدة
***	قرآن <i>ي</i> ت	كلام فيه تتميم في معنى السماء	الآية ١٢
<u>ፕ</u> ለፕ	قراني	بحث إجمالي في سراية العلم	الأية 27
የ ለየ	ا فلسفي	بحث إجمالي آخر في ذلك	1